الشاعر الخارجي

عزمي الصالحي

الطرماح بن حكيم الطائي

الشاعر الخارجي

الطرماح بن حكيم الطائي

عزمي الصالحي

مدرس في كلية الآداب بجامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة الاقتصاد - بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة نال بها مؤلفها درجة
الماجستير في الأدب العربي من جامعة بغداد

قدمت الرسالة للمناقشة في تشرين
الأول من عام ١٩٦٥ ونوقشت في حزيران
من عام ١٩٦٦

اشرف على اعداد البحث الاستاذ الدكتور
محمود غناوي الزهيري

مقـــدمة

انفق للطرماح من غريب الطباع والعادات ، ومن متناقض الأفكار والنزعات ، ما جعل حياته أشبه بالاسطورة ، وأجتمع في شعره من غريب الألفاظ والتراكيب ما أحال بعض شعره الى ما يشبه الألغاز .

فهو خارجي ، الا انه ـ على رغم ذلك ـ يمدح من ولاة أمية أشدهم عداء للخوارج وهو من الخوارج ، لكنه يهجو ويناقض ويبرع في الهجاء والمناقضة .

وهو ـ مع خارجيته تلك ـ يسرف في التعصب لقحطان واليمن والشام ، ثم يطلب المال ، ويسعى اليه سعي المتكسبين من شعراء أمية ، لانه يحبه حباً جماً ، ويتمنى أن ينال منه ـ قبل أن يموت ـ ما يمكنه من السيطرة والرفعة ، وبلوغ أبواب الملوك ، بل انه ليأسف أشد الأسف ، ويتألم أشد الألم ، ان يموت ، وهو لم ينل من المال بغيته .

وهو ـ الى كل ذلك ـ يحب نفسه ويعشقها باسراف ، ويكره الناس ، ويشك في العامة ، ويحس بعدائها له ، وسعيها به لدى السلطان .

وقد كانت بينه وبين الكميت ـ على تباعد ما بينهما ـ من الملازمة والمخالطة ، ما لم يكن بين أثنين ، وما ظل موضع عجب الناس ودهشتهم ، بسبب تباعد ما بينهما من النسب والمذهب والبلد ، فهو شامي قحطاني شاري ، وذاك كوفي نزاري شيعي .

وحياة الطرماح أشبه ما تكون باللغز ، بسبب نزرة أخباره ، فلا يدرى أين ولد ، ولا متى ولد ، كما لا يدري أين نشأ ـ على وجه الدقة ـ أفي الشام أم في الكوفة ؟ فالمصادر في هذا مختلفة كل الاختلاف ، ولا يعرف أيضاً متى مات ، لأن كتب الأدب والتاريخ لا تذكر عن ذلك ما يرجح ظناً ، أو يقطع شكاً ، والمراجع الأدبية الحديثة فيه أغرب اضطراباً ، فمنها ما يجعل وفاته عام مائة للهجرة ، ومنها ما يجعلها عام خمسة وعشرين ومائة ،

ولقد شغلت لغة الطرماح، معاصريه، من النقاد، وعلماء اللغة، كثيراً، وظل شعره لما فيه من الغريب، مشغلة الرواة واللغويين، الى ما بعد عصره، بفترة طويلة، لأن بعضه كان ـ فيما يبدو ـ الالغاز، يعيا بفهمه خاصة العلماء.

دفعني كل ذاك، الى دراسة الطرماح دفعاً، وحفزني لاستكناه دنياه، وارتياد مجهولها، حفزاً، فقرأت شعره، ودرست حيـــاته وشخصيته ـ وأنا طالب في الجامعة، فالصلة بيني وبينه قديمة، تعود بي الى أيام دراستي الأولى، في كليـة الآداب ـ فرأيت في شعره جمالاً الى جانب الغريب والعويص، ورأيت فيه جدة، ولمست تطوراً ووجدت في دراسة شخصيته متعة، لأني وجدت فيه من الطموح والأباء، مالم أجده في شاعر سواه، كما وجدت من فخره بنفسه، وحبـــه أياها، وهيامه بها، ما يلفت الانتباه، ويستدعي التأمل، ومن ثم رأيت أن لابد لمثل الطرماح، من دراسة كاملة، توضح أسباب غموض شعره، وتجلو ما خفي من أسرار حياته، وتعلل كل ما يبدو متناقضاً، من عقيدته، وعصبيته، وحبـــه لنفسه وهجائه، ومدحه، وفخره، ثم تأتي على أسلوبه الشعري، وخصائصه الفنية، بالنقد والتحليل. فآليت على نفسي، أن أكون ذلك الدارس، مع مافي دراسة سيرته، من مشقة، وفي قراءة شعره من عناء، لكنها المشقة التي تعقب لذة، والعناء الذي يسلم الى متعة.

والطرماح ـ كسائر شعراء الخوارج ـ لم يدرس للآن، دراسة مستفيضة، تتعمق شعره، وتبحث في سيرته بالتفصيل، وتأخذ شخصيته بالتحليل، فضلا على أن أدب الخوارج جملة كأدب أية فئة ثائرة تناهض السلطة ـ تعرض للاهمال والضياع والمصادرة. وحسبنا أن نقرأ قولة عبيد الله بن زياد حين كلم في أحد الخوارج :ـ « أقمع النفاق قبل ان ينجم، لكلام هؤلاء أسرع الى القلوب من النار الى اليراع » لنعرف مصير أدب هذه الفئة. وحسبنا أن نسمع ما قال عبد الملك بن مروان، لخارجي، بسط له مذهبه لندرك مدى خشية السلطة لهذا الأدب، قال : « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم » ثم قال له بعد ماقرر حبسه : « لولا أن تفسد بالفاظك أكثر رعيتي ما حبستك ».

ولا يفوتني أن أذكر : أن من بواعث اقبالي على دراسة شعر الطرماح، أنه متصل ببيئة اعرفها وآلفها أشد الألفة، وأنه مرتبط بها بأكثر من سبب، مصور لمظاهر حياتها أدق التصوير.

والطرماح - بعد ذلك - هو الشاعر الخارجي الوحيد، الذي يصلنا ديوانه. ولقد قيض لهذا الديوان، أن يلقى بعض العناية، فقد حققه ونشره المستشرق (ف. كرنكو) وعلى الرغم مما بذله هذا الناشر الكريم، من جهد، لاخراج الديوان، اخراجاً جيداً، فانه - كما يبدو لي - مازال في حاجة الى تحقيق أدق، ونشر أفضل. ولقد أعانني هذا الديوان أيما اعانة في بحثي هذا، على اني لم أدخر وسعاً، في تتبع شعر الطرماح، في مظانه، طلباً للمزيد، واستقصاء للجديد.

وما دامت عقيدة الطرماح، أثراً من آثار العصر ووجهاً من وجوه التأثر بالبيئة وما دام شعره كذلك، فقد كان علي أن أتبين ملامح المجتمع الكوفي، خلال القرن الاول وأتعرف الى شخصية الشاعر بدقة، قبل أن أبحث في عقيدته، وأحلل شعره. فدراسة حياة الأديب، تعين على فهم آثاره الادبية. وتفيد في تفسير اتجاهاته الفكرية، وتكشف لنا عن كثير مما تشكل معرفته، أو يصعب تعليله من تلك الآثار.

وفهم هذه الحياة بالشكل الذي يعين على الدراسة الادبية، يلزمنا ان تتطلع الى شخصية الاديب من جانبين. أما الاول فهو ما يتصل من هذه الحياة بنشأته، ويرتبط بعلاقته بأسرته، وما يحيط بكل ذلك من ظروف، تعرف فيه علاقاته، ضمن اطار هذه البيئة الصغيرة، ونحاول أن نشخص المؤثرات البيئية والعائلية في سلوكه، وفي اتجاهه الفكري والادبي بخاصة.

والجانب الآخر، يتصل بمعرفة خصائص البيئة العامة للاديب. وتبين ملامحها أو مزاياها، بأوسع مظاهرها. اقتصادية وسياسية وثقافية. ثم علينا - بعد ذلك - أن نحدد دائماً العلاقة بين الجانبين، ونربط بين مؤثرات البيئتين، ليتيسر لنا أن نلمس بدقة الملامح الأساسية في شخصية الأديب، فنفهم بعد ذلك آثاره الادبية ونستطيع أن نفسر مواقفه ونعلل الظواهر الفكرية والفنية في نتاجه. ذلك ان الاديب ابن البيئة، ونتاجه أثر من آثارها.

وقد فصلت ما وسعني التفصيل في دراسة حياة الطرماح. وطبيعة البيئة التي عاش فيها. ذلك أن شعره. وقد ضاع أكثره - لايمكن ان يدرس ويفهم الا على أساس يرتكز على دراسة كاملة لحياة صاحبه وحياة البيئة والعصر.

وسبب آخر دفع بي الى هذا التفصيل هو الاتصال الشديد بين الشاعر واهله.

فقدكان يمنح اهله واسرته وقبيلته خالص الحب . فتراه يذكر ايام طي ورجالها المشهورين ويصف ديارها . ويبالغ في كل ذلك بل لقد جره هذا الحب الجارف الى هجاء خصومها وسب اعدائها .

وهو الى كل ذلك يميل الى الخوارج .. يذكرهم في شعره ويصف حنينهم الى الاستشهاد في سبيل العقيدة كما يذكر شوقه إلى أن يلقى مصيرهم فيموت شهيداً . فنحن مضطرون الى أن نفهم حياته لنفهم فخره ومديحه وهجائه ولنفهم أموراً اخرى تتصل بعقيدته وترتبط باتجاهه السياسي .

كانت حياة الطرماح - في النصف الثاني من القرن الاول - في الكوفة في فترة مبكرة من حياته ان لم يكن ولد فيها ، أو في سوادها . أو في احدى القرى القريبة منها ، كما سنتبين ذلك فيما بعد . عاش فيها معاصراً الكميت والفرزدق وجرير ، فكانت مجال نشاطه المهني بصورة عامة ، ونشاطه الادبي بصورة خاصة ، كما كانت منطلقة الى واسط والبصرة وبلاد فارس . فيها اشتغل مؤدباً للصبيان ، وفي مسجدها شهد الحلقات الادبية التي كان يرتادها حماد والكميت وذو الرمة وسواهم .

ولا شك ان الطرماح عانى - كما عانى سواه من ابناء عصره - أحداث الكوفة الكبرى من ثورات الخوارج الى ثورات الشيعة ، الى الحركات والاضطرابات القبلية واثر في نفسه ما كان فيها من تيارات سياسية وادبية . واخيراً مات فيها .

وقد الممت بطبيعة الكوفة الملمة ، وقفت فيها على شيء من موقعها الجغرافي وتاريخها السياسي والفكري وتكوينها الاجتماعي وخصائص مجتمعها ومزاياه خلال القرن الاول الهجري ، واستعنت بكل ذلك على تفهم الطبيعة التي تنفس في أحضانها الطرماح نسمات الادب ولقن في مضطربها مبادىء العقيدة ، ونهل من ينابيعها عناصر الفكر والثقافة .

وقد جاء بحثي على قسمين : تاريخي وأدبي ، كرست الاول لدراسة طبيعة الكوفة وعناصر مجتمعها وخصائصه وأوليت الجانب السياسي منها عناية خاصة فبحثت في نشاطها السياسي المبكر ، وأسباب ظهور روح النقد السياسي والمعارضة فيها ، وتناولت الجذور التاريخية لحزب الخوارج بالدراسة والتتبع .

كما درست خلال هذا القسم حياة الطرماح وتاريخ اسرته وقبيلته بالتفصيل ، وبحثت في مقومات شخصيته وسلوكه ، وختمت القسم بفصل درست فيه عقيدته الخارجية .

أما القسم الادبي فقد تحدثت فيه عن الديوان وكل ما يتعلق به من نشر وتحقيق وأطلت الوقوف عندشعر الطرماح ومظاهر الغرابة فيه ، ومظاهر تأثير البيئة في موضوعاته وتناولت معانيه وفنونه وأغراضه وأساليبه بالدراسة ، ثم أنهيت القسم بالكلام عن خصائص أسلوبه الفنية .

وقد ألحقت بالبحث ملاحق ، ضمنتها كل ما أستدركته على الناشر من مقطوعات وكل ما وجدته مختلاً أو مكسوراً من أبيات الديوان مع (تقويمه) كما ضمنتها ملاحظاتي وتعليقاتي حول نشر الديوان وتحقيقه .

ولا يسعني في هذه المقدمة إلا أن أشكر لأستاذنا الكريم الدكتور محمود غناوي الزهيري ، ما أولاني به من عناية ، وقدمه لي من فضل بما أسدى من مشورة ، مهد لي بها سبيل البحث ، وما بذل من توجيه يسر لي فيه طريق الدراسة .

عزمي الصالحي

— ** —

القســـم التأريخي

الفصل الاول

الكوفة :

أولاً - لمحة تاريخية جغرافية

ثانياً - عناصر المجتمع الكوفي

ثالثاً - خصائص المجتمع الكوفي وميزاته

رابعاً - الكوفة والسياسة

أ - الكوفة والمعارضة

ب - الخوارج

(الكوفة)

أولاً ــ لمحة تاريخية جغرافية

في بقعة خصبة من وادي الفرات الأوسط ، وعلى الضفة الغربية من الفرات ، شرقي مدينة الحيرة عاصمة المناذرة ، بنيت الكوفة ، في السنة السابعة عشرة للهجرة(١) (٦٣٨م) ، لتكون معسكراً للجيوش الأسلامية المحاربة في وسط العراق ، على عهد الخليفة الثاني عمر « ر » . وقد أختطت لتكون معسكراً لمائة ألف مقاتل(٢) .

ولمعنى لفظة (كوفة) هذه ، التي أطلقت على المدينة ، حين تمصيرها . أكثر من تفسير ، من ذلك : أن الكوفة : الرملة المجتمعة ، أو الرملة ماكانت ، أو الرملة الحمراء(٣) وقيل سميت (الكوفة) ، بموضعها من الأرض ، ذلك : أن كل رملة تخالطها حصباء ، تسمى كوفة(٤) . ويسمي البعض الأرض التي فيها الحصباء والطين والرملة ، كوفة(٥) . وقيل : هي الرملة المستديرة(٦) ، وقيل : أخذ اسمها من (التكوف) وهو التجمع . وذكر أنها سميت الكوفة ، من قولهم تكوف الرمل ، اذا ركب بعضه بعضاً(٧) ، أو تكوف الناس ، اذا أجتمعوا ، حيث أن سعداً لما أراد أن يبني الكوفة ، ارتادها لهم وقال : « تكوفوا في هذا المكان » أي اجتمعوا فيه (٨) وقال المفضل : « انما قال كوفوا هذا الرمل أي نحوه وأنزلوا(٩) .

---

[١] الطبري ٢٤٨١ ، الكامل لأبن الأثير ٣٦٧/٢ ، معجم البلدان ٤٩٠/٤ ، فتوح البلدان ٤٨٧ .

[٢] الطبري ٢٦٧٩ ، ابن الأثير ١٦/٣ .

[٣] لسان العرب (كوف) .

[٤] معجم البلدان ٤٩١/٤ ، الطبري ٢٤٨٣ .

[٥] فتوح البلدن ٣٨٨ .

[٦] البلدان لابن الفقيه ١٦٣ .

[٧] البلدان لابن الفقيه ١٦٧ .

[٨] فتوح البلدان ٣٨٨ ، اللسان « كوف » .

[٩] اللسان « كوف » .

وأقرب هذه التفسيرات الى القبول والواقع ، أنها سميت بموضعها من الأرض(١) فهي قريبة من هذه الرمال الحمراء ، المخلوطة بالحصباء . وأيضاً تدعى الكوفة «كوفان»(٢) ويسميها قوم « خد العذراء » (٣) .

ولم تكن الكوفة معروفة بهذا الأسم قبل أن يتم تمصيرها ، وإنما كان موضعها ثغراً من ثغور البادية : « Carvan City »(٤) ، يتم عنده تبادل البضائع بين عمال الفرس ومأموريهم من جانب ، وبين البدو من جانب آخر ، وملتقى ينزل فيه بعض القبائل التي ألفت التردد الى هذا الموضع ، ويألفه رعاة الماشية ، الذين تعودوا الأختلاط بسكان قراه ، من آراميين سكنوا المنطقة منذ القديم ، ومن سريان ، شيدوا دياراتهم في هذه البقعة ، فعرفت عندهم بالعاقولا : « ياكيولا » وهو الاسم السرياني للكوفة(٥) . ولقد كان في موضع الكوفة ، قبل بنائها ، أديرة ثلاثة ، ينتشر حول منطقتها بعض الخصاص(٦) .

بنيت الكوفة معسكراً ، تتوافر فيه شروط الصحة ، فضلا عن شروط الموقع الستراتيجي المهم ، فبعد أن استوخم العرب المدائن ، وأستوبأوها ، حين نزلوها ، عقيب انتصارهم في جلولاء ، كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر ، يعلمه بذلك ، ويخبره أن العرب تغيرت ، نتيجة وخومة الجو ، وكثرة البق في المدائن(٧) . فأمر عمر بأن يرتادوا

---

[١] معجم البلدان ٤٩١/٤ ، مدرسة الكوفة ص ٢ ، ويقال أيضاً : انها سميت بجبل صغير ، في وسطها ، يقال له « كوفان » وعليه اختطت « معجم البلدان ٢٩٥/٧ ط . مصر » كما يقول يعقوب نعيم سركيس : ان اسم الكوفة آرامي ، محرف من كلمة (كوبا) التي تأتي في المعاجم الكلدانية : « عرق عاقول ترعاه الابل » ، ويذكر : أنه ورد في احد التقاويم ، لكنيسة السريانية « ان الكوفة كان يقال لها : كوبا » انظر مجلة سومر لسنة ١٩٥٤ مجلد ١٠ ص ١٥٣ .

[٢] معجم البلدان ٤٩١/٤ ، اللسان .

[٣] فتوح البلدان ٣٨٨ .

[٤] خطط الكوفة ٦ .

[٥] خطط الكوفة ٢٥ .

[٦] الطبري ٢٤٨٣ ، ابن الاثير ٣٦٧/٢ .

[٧] الطبري ٢٤٨٣ .

منزلا آخر ، يلائم ما أعتادت عليه العرب ، وما ألفته من جو ، من جانب ، وتتوافر فيه شروط الموقع الحربي المهم ، من جانب آخر(١) . فأختاروا موضع الكوفة(٢) . وكتب سعد الى عمر « أني نزلت بالكوفة ، منزلاً ما بين الحيرة والفرات ، برياً وبحرياً ، ينبت الحلي والنصي ، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن (٣) .

ولا يفصل هذا الموضع ، عن مركز الخلافة ـ كما نعرف ـ أي عارض طبيعي ، من بحر أو نهر أوجبل . راعى عمر كل ذلك حين أمر ببناء الكوفة . وليس ببعيد أن يكون عمر اراد بذلك أن يبتعد بالمسلمين ، عن هذه المدن ، التي تطغى عليها حياة مترفة ناعمة غريبة عن الحياة الاسلامية .

وقد بنى أهل الكوفة بيوتهم ، أول الامر بالقصب ، وظلت مدينتهم على حالتها ـ طوال الاعوام الخمسة الأولى من بنائها ـ مجموعة أكوام وكتل . من الخصاص ، والاكواخ القصبية والخيام (٤) . وكان المقاتلون يقلعون هذه الاكواخ والخصاص ، كلما عمدوا الى الغزو ، أو نفروا للحرب . فاذا عادوا بنوها ، اذ كانت النساء تصحب المقاتلة في الحروب ذكر ذلك ياقوت ، قال : « كانت منازل أهل الكوفة ، قبل أن تبنى ، أخصاصاً من قصب . اذا غزوا قلعوها ، وتصد قوابها ، وكانوا يغزون ونساؤهم معهم(٥) .

وأخذ الناس يبنون مساكنهم في أيام المغيرة ـ بعد فترة الاعوام الخمسة هذه ـ باللبن والآجر ، اذ وقع في الكوفة حريق ، دفعهم الى أن يطلبوا من عمر : أن يسمح لهم ، ببناء الآجر . وقد أذن لهم بذلك ، بعد أن فرض شروطاً أخرى ، يتصل أغلبها بمصلحة المعسكر الذي يجب أن يبقى جنوده على أهبة الاستعداد ، لتلقي أي أمر بالرحيل ، او اشارة بالهجوم ، اذ كتب اليهم « ان المعسكر أشد لحربكم ، وأذكر لكم ، وما أحب أن اخالفكم(٦) ، كما منعهم من أن يطاولوا في البنيان ، أو يسرفوا فيه ، فقد قال : « افعلوا ،

---

[١] وسميت (كوفة الجند) أيضاً .

[٢] الطبري ٢٤٨٣ .

[٣] الطبري ٢٤٨٤ ، وفي الكامل لابن الاثير ٣٦٨/٢ «الحلفاء والنصي » والنصي ضرب من الطريفة والحلي يبيس الغضى .

[٤] خطط الكوفة ٧ .

[٥] معجم البلدان ٤ / ٤٩١ .

[٦] الطبري ٢٤٨٨ ، الكامل لابن الاثير ٣٦٨/٢ .

ولا يزيدن احدكم على ثلاثة ابيات ، ولاتطاولوا في البنيان » ،كما عهد اليهم « الا يرفعوا بنيانا فوق القدر » وسألوا عن المقصود بذلك ، فأجاب : مالا يقربكم من السرف ولا يخرجكم من القصد »(١) .

ويشير ماسنيون ، الى ان البصرة بنيت بالآجر ، قبل الكوفة ، بزمن ، باعتبارها ميناء لتنزيل البضائع ، كما كانت دساكرها وضياعها ومزارعها ، مأهولة ، ذات منازل ثابتة (٢).

وأول ما بني من الكوفة ، المسجد الجامع ، وكان في مركز البلدة (٣) ، ثم بنيت دار سعد . بحيال ذلك ، وأختطت المناهج من الجامع ، باعتباره مركزاً ، وكانت بمثابة الطرق الرئيسة ، التي تفصل بين صفوف المخيمات ، وتحدد مواقع سكنى القبائل ، وهي خمسة عشر منهجاً ، وقد أمر عمر أن تكون هذه المناهج (٤) أربعين ذراعاً ، ومادونها ثلاثين ، ومابين ذلك عشرين ، كما أمر أن تكون الأزقة ، سبعة أذرع ، وتكون القطائع ستين ذراعاً(٥) .

ويوضح لنا ماسنيون تقسيم هذه المناهج ، بين القبائل ، محدداً مواقع سكناها ، بالنسبة للصحن ، على النحو التالي(٦).

أولاً ـ في ودعة الصحن « شماله » : المنهجان « ١ و ٢ » لقبيلتي ثقيف وسليم ، و « ٣ » لهمدان ، و « ٤ » لبجيلة و « ٥ » لتيم اللات وتغلب .

---

[١] الطبري ٢٤٨٨ ، الكامل لابن الاثير ٣٦٨/٢ .

[٢] خطط الكوفة ٧ .

[٣] الطبري ٢٤٨٨ ، الكامل لابن الاثير ٣٦٩ .

[٤] الطبري ٢٤٨٨ ، الكامل لابن الاثير ٣٦٨/٢ « وكان ابو الهياج عمرو بن مالك بن جنادة الاسدي مشرفاً على تخطيطها »

[٥] الطبري ٢٤٨٨ (والمنهج يعني : الخط الفاصل بين تصفيف الخيام . التي أقطعها سعد . للقبائل المختلفة ، فهي اذن ، حدود فاصلة بين صفوف المخيمات الواقعة في خطط القبائل ، فكل منهج كان على جانبيه صفان من الخيام . وكانت بمثابة الطرق الرئيسة ـ خطط الكوفة] .

[٦] خطط الكوفة ١٧ ، ملخصاً ذلك عن الطبري ٢٤٨٩ .

ثانياً - في قبلة الصحن « جنوبه » : المنهج « ٦ » لبني أسد ، و « ٧ » بين بني أسد والنخع ، و « ٨ » بين النخع وكندة ، و « ٩ » بين كندة والأزد .

ثالثاً - في شرقي الصحن : المنهج « ١٠ » للأنصار ومزينة ، و « ١١ » لتميم ومحارب ، و « ١٢ » لأسد وعامر .

رابعاً - في غربي الصحن : المنهج « ١٣ » لبجالة وبجلة ، و « ١٤ » لجديلة واللفيف ، و « ١٥ » لجهينة واللفيف .

وأمر عمر : أن تكون الاسواق ، على سنة المساجد ، فمن يسبق الى مقعد ، فهو له حتى يقوم منه الى بيته ، أويفرغ من بيعه(١). وكانت سقوف الكوفة ، من الحصر ، وظلت كذلك ، الى زمن خالد القسري ، حيث عقدت بالأحجار ، وصارت فيما بعد ، نموذجاً احتذته اسواق بغداد(٢) .

في هذا الموضع المهم ، من الفرات الأوسط ، بنيت الكوفة ، ولقد كان لبنائها في هذه البقعة الخصبة ، أثر بالغ في نمائها وتوسعها ، فموقعها كثير الخيرات ، وافر المياه . مشهور بزراعة النخيل والحبوب والفاكهة . وفي قول الأحنف بن قيس ، ما يدل على كثرة اشتهارها بذلك ، منذ القديم ، قال : « نزل أهل الكوفة في منازل كسرى بن هرمز ، بين الجنان الملتفة ، والمياه الغزيرة ، والأنهار المطردة ، تأتيهم ثمارهم غضة ، لم تخضد ، ولم تفسد ، ونزلنا أرضاً هشاشة ، في طرف فلاة ، وطرف ملح أجاج ، في سبخة نشاشة ، لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها . يأتينا ما يأتينا ، في مثل مريء النعامة » (٣). وفي قول الأحنف هذا ، مقارنة لطيفة ، بين طبيعة الكوفة وطبيعة البصرة .

وكان العرب ، يسمون هذا المنطقة « سوادا » ، سميت بذلك لسوادها بالزروع والنخيل والأشجار الكثيرة ، حتى ليخيل للقادم اليها من الصحراء ، انها سواد ، فما ان يأتيها حتى يجدها أشجاراً وخضرة . وقدأطلق عليها هذا الاسم ، لما يبدو للعين بينها وبين صحراء العرب ، من تفاوت . ولفظ « السواد » غير مقصور على منطقة الكوفة ، بل هو

---

[١] الطبري ٢٤٨٨ ، الكامل لابن الاثير ٣٦٩/٢ .

[٢] خطط الكوفة ٢٢ .

[٣] البلدان لابن الفقيه ١٦٦ . الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة .

أقدم الأسماء العربية ، التي تطلق على كل منطقة الأراضي الرسوبية الممتدة على ضفاف دجلة والفرات ، والمشهورة بحقولها وبساتينها (١) .

ويبدو أن العناية بهذه الحقول ، وتلك البساتين ، كانت بالغة ، وفي وصف محمد ابن عمير العطاردي ، ما يصور ذلك أبلغ تصوير ، قال : « الكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرها ، فهي برية مريئة مريعة ، اذا أتتنا الشمال ، ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور ، واذا هبت الجنوب ، جاءتنا ريح السواد ، وورده وياسمينه واترنجه . ماؤنا عذب وعيشنا خصب »(٢). ولاعجب فالكوفة تشرف على السهل المعشب المثمر الأشجار ، الموشى بالأزهار ، الوافر المياه ، والمنظم الجداول والري ، فقد عمر هذه المنطقة ، قوم اولو حضارة ومدنية . هذا الى أعتدال في الجو وغزارة في الأمطار .

وقد التفت القدماء الى التفاوت الواضح ، بين طبيعتي البصرة والكوفة ، فعقدوا بينهما المقارنات ، فهـــذا الحجاج يقول فيها : « أما الكوفة . فبكر عاطل ، لا حلي عليها ولا زينة ، وأما البصرة ، فعجوز شمطاء بخراء ذفراء ، أوتيت من كل حلي وزينة »(٣).

هذه هي الكوفة ، التي نزلها سعد بالناس . بعد أن عاد منتصراً من جلولاء ، فلم ترق له سكنى المدائن ، لوخومة مناخها ، وعدم ملاءمته لما الف العرب من جو .

---

[١] دائرة المعارف الاسلامية مادة « السواد » ١٢/٣٢٠ ، معجم البلدان « السواد » ٣/٢٧٢ .

[٢] معجم البلدان ٤/٤٩٢ ، البلدان لابن الفقيه ١٦٤ ، محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة سيد تميم الكوفة .

[٣] الكامل لابن الأثير ٢/٢٦١ ، معجم البلدان ٤/٤٩٣ .

ثانياً — عناصر المجتمع الكوفي

كانت الفتوحات الاسلامية ، التي تمت على عهد الخليفتين الأولين ، سبب الهجرة الى البلاد المفتوحة ، فجنود الحملات الاسلامية ، التي فتحت العراق ، أصبحوا سكان الكوفة الاوائل .

جهز أبو بكر (ر) حملتين ، لقتال الفرس في جنوب العراق ووسطه ، كانتا مبدأ هجرة المسلمين اليه ، وأحرز المسلمون في هاتين الحملتين نصراً كبيراً على بعض مدنه ، وأخذوا الجزية من سكانها (١) .

وجهز عمر حملة كبيرة الى العراق ، كانت باعثاً جديداً الى هجرة الكثير من المسلمين اليه . فقد دعا الناس - بعد مقتل أبي عبيد الثقفي - الى مقاتلة الفرس في العراق(٢) ، وأختار سعدبن أبي وقاص قائداً للحملة الجديدة(٣) ، التي احرزت انتصاراً مبيناً في القادسية . وأستولت بعدها على المدائن. ومن ثم وقعت معركة جلولاء ، التي اسفر غبارها عن أنتصار العرب المبين على الفرس ، وانهيار امبراطورية فارس ، وتصفية نفوذها الى الأبد في العراق .

وقد ظل العرب منتشرين في المدن التي أحتلوها ، وفي المدائن بخاصة ، حتى اختطت الكوفة ، فانتقل اليها من العرب المقاتلين من انتقل طوعاً (٤) .

ويلاحظ : أن الكوفة كانت متجه البدو الخلص ، فقد اختارت البيوتات البدوية المشهورة ، سكنى الكوفة ، دون البصرة : أمثال آل زرارة الدارميين « من تميم » ، وآل زيد الفزاريين « من قيس عيلان » وآل ذي الجدين الشيبانيين « من بكر بن وائل » وآل قيس الزبيديين « من مذحج »(٥) . وأيضاً يلاحظ : أن هؤلاء سكنوا في ضواحي الكوفة أولا ، ولم يقطنوا في داخل البلد ، الا بعد زمن . وبهذا فهم قد تأخروا نوعاً ما في الحضارة(٦)

---

[١] الكامل لابن الأثير ٢/٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ .

[٢] الكامل لابن الأثير ٢/٣٠١ ، ٣١٠ .

[٣] الكامل لابن الأثير ٢/٣١٠ .

[٤] الطبري ٢٤٨٧ ، ابن الأثير ٢/٣٦٨

[٥] البلدان لابن الفقيه ١٧٣ .

[٦] خطط الكوفة ١٥ .

وكانت أكثر عناصر الكوفة تحضرا ، القبائل الحجازية وربيعة ، ثم القبائل العربية الجنوبية التي نزحت من اليمن وحضرموت . وهؤلاء أكثر حضارة من سواهم ، فالقبائل الجنوبية تغلب عليها الحضارة ، لانها كانت تألف عيشة الاستقرار(١) ، جاء في التنزيل « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور »(٢) .

ومن القبائل المتحضرة ، التي اتخذت الكوفة سكناً لها ، مذحج وحمير وهمدان ، من سكان المدن والقرى اليمانية ، وطيء وكندة وبجيلة ، وهذه الثلاث ، من القبائل نصف المتحضرة(٣) . ولقد كان أثر هذه القبائل ، في حياة الكوفة ، وفي طبيعتها السياسة بخاصة كبيراً جداً . بخلاف البصرة ، فان أغلب سكانها ، من القبائل العدنانية الممعنة في البداوة ولهذا لم يتهيأ لهم ، أن يفهموا نظام الدولة ، كما فهمه سكان الكوفة ، الذين تشكل القبائل اليمانية المتحضرة ونصف المتحضرة الاغلبية بينهم(٤) .

ومن ملاحظة القبائل ، التي اختارت سكنى الكوفة ، يتضح أن أكثرها من عرب الجنوب ، وكانوا يقاربون العشرين الف محارب ، أثنا عشر ألفا منهم ، يمانيون ، وثمانية آلاف ، مضريون ، تشير الى هذا رواية الشعبي : « كنا نعد أهل اليمن ، أثني عشر ألفاً ، وكانت نزار ثمانية آلاف »(٥) .

فالعرب ـ اذن ـ هم عماد المجتمع الكوفي ، وأساسه ، وهم بطبيعة الحال ، المقاتلون الذين اتخذوا الكوفة ، معسكراً ينطلقون منه الى حيث يحاربون العدو . وكانت حرفتهم الرئيسة القتال ، وهي مورد عيشهم ، في حالتي السلم والحرب ، اذ كانت الاعطيات جارية على الجميع ، في كل الاحوال .

---

[١] فجر الاسلام ٥ .

[٢] سورة سبأ آية ١٥ .

[٣] خطط الكوفة ١٣ .

[٤] خطط الكوفة ١٢ ، ١٣ ، نقائض جرير والفرزدق للاستاذ الدكتور محمود غناوي الزهيري ١٧٦ .

[٥] معجم البلدان ٤/٤٩٢ ، فتوح البلدان ٣٨٩ .

ومن المفروض أن تكون في هذا المجتمع الكبير ، بعد تطوره وتعقد حياته ، عناصر ثانوية ، تقوم بالمهام الاخرى ، التي تتطلبها طبيعة الحياة ، من أوجه النشاط المختلفة ، كالزراعة ، والبيع والشراء ، والعمل بالحرف الاخرى . وكانت العناصر الاجنبية ، هي التي تؤدي هذه المهمات ، وتقوم بكل متطلبات الحياة الاقتصادية والمهنية . ففي ايدي هؤلاء كانت الحرف والصناعات والتجارة(١). اذ ترك لهم العرب المشغولون بالقتال ، وادارة أمور الحكم ، مرافق الحياة التجارية والصناعية .

ومن الطبيعي ، أن تكون هذه العناصر ، خليطاً من سكان العراق ، ممن غلبهم العرب على أمرهم ، فهاجروا الى الكوفة ، طمعاً في العمل والكسب ، أو رغبة في الاسلام ، ومن سكان السواد ، وقراه المحيطة بالكوفة ، ممن كانوا يشتغلون بالزراعة ، في الضياع المجاورة ، قبل تمصير الكوفة . يضاف اليهم عناصر وفدت من خارج العراق .

وأبرز عناصر هذه المجموعة الثانوية ، الفرس ، وهم يشكلون الأكثرية بين اجانب الكوفة ، وكان بعض هؤلاء ، يستوطن المنطقة نفسها ، قبل الفتح ، فقد حكم الفرس العراق ردحاً من الزمن . ومهنة هؤلاء الرئيسة ، الزراعة(٢) .

وبعد أن تم للعرب الظفر ، ومصرت الكوفة ، وفدت اليها جماعات أخرى من الفرس ، واستوطنتها مع العرب . وأبرز هؤلاء ، مجموعة من (الديلم) قوامها أربعة آلاف مقاتل ، يدعون بجند شاهنشاه ، كانت تعمل في الجيش الفارسي ، مع أبرويز ، وقد شهدت القادسية مع رستم .

أحب هؤلاء الدخول في الاسلام ، رهبة أو رغبة ، بعد أن شاهدوا أنهيار أمبراطوريتهم ، على يد جيش سعد ، وقد فاوضوا سعداً على ذلك ، فأمنهم أن ينزلوا حيث أحبوا ، ويحالفوا من أرادوا ، ويفرض لهم في العطاء ، وشهدوا فتح المدائن معه ، ثم تحولوا الى الكوفة ، ونزلوها مع العرب ، وحالفوا زهرة بن حوية (من تميم) . وكان لهؤلاء نقيب منهم يقال له « ديلم » فعرفوا « بحمراء ديلم »(٣) .

---

[١] فجر الاسلام ٩٣ .

[٢] أنظر مقدمة كتاب «مدرسة الكوفة» عن سكان الكوفة للاستاذ الدكتور مهدي المخزومي ٨.

[٣] فتوح البلدان ٣٩٣ ، ٣٩٥

وتزل الكوفة قسم آخر من الاساورة ، كانوا بقزوين ، فلما غشيهم العرب اسلموا على مثل ما اسلم عليه أساورة البصرة وجاءوا الكوفة(١).

ومن عناصر الكوفة : السريان ، ولقد كانت الجزيرة ودياراتها ، موطن هؤلاء ، على أن بعضهم كان يستوطن الديارات القائمة حول الحيرة ، وفي منطقة الكوفة ، فأقام بالكوفة بعد تمصيرها . ولقد أصبحت لهؤلاء علاقات بالمجتمع الجديد ، فدخل بعضهم الأسلام ، وبقي البعض الآخر على دينه ، فحفظ لهم المسلمون أموالهم وحرياتهم، فشريعتهم كانت تستبقي لسكان الأرض ، حقوقهم في البقاء بها ، سواء اعتنقوا هذا الدين أم لم يعتنقوه ، على خلاف التيسير على من أسلم ، فلقد كان في صالح الفاتحين ، أن يستبقوا أصحاب الأرض فيها ، لعمارتها واستغلالها(٢) .

ولقد كان السريان ، يشكلون الكثرة الكاثرة من سكان العراق . ومن الدارسين ، من يعدهم عرباً ، تطوروا بطول الاستقرار في البيئة ، ولكنهم كانوا شديدي الأحساس باصولهم ، لذلك سهل عليهم الاندماج في الفاتحين ، كما سهل على الفاتحين أيضاً فتح هذه الأرض ، أي انهم عرب غير صرحاء(٣) . وعلى ذلك فهم يشكلون الحلقة الأخيرة التي انتهى اليها تطور الموجات المتعاقبة من الهجرات العربية(٤) . فالبيئة العراقية كان يغلب عليها ، الى زمان قريب من الأسلام ، عناصر سامية ، بين سريانية وعربية (٥) . وعلى ذلك أيضاً تكون اللغة السريانية ، الحلقة الأخيرة التي انتهى اليها تطور لغات الموجات السامية

---

[١] فتوح البلدان ٣٩٤ .

[٢] تاريخ الشعر العربي للبهبيتي ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، فجر الاسلام ١٣٠ ـ ١٣٤ ، مدرسة الكوفة ٧ .

[٣] تاريخ الشعر العربي للبهبيتي ٣٨٠ ، اللغات السامية لنولدكه ٦١ .

[٤] تاريخ الشعر العربي ٣٧٨ .

[٥] المصدر السابق ٢٣٧ .

التي سكنت في المنطقة(١) . ولقد كان بين اللغتين السريانية والعربية ، من التقارب ، ما يجعلهما أشبه شيء باللهجتين من اللغة الواحدة(٢) .

ويرجح الدكتور البهبيتي : ان السريان كانوا قادة النهضة الفكرية في العراق ، قبل أن يكون غيرهم من الاجناس ، فلقد شاركوا في حمل مشعل الفكر في المنطقة ، وساهموا بقسط ثقافي وافر ، اذ نقلوا كثيراً من التراث اليوناني الفلسفي الى لغتهم (٣) .

ويزعم نولدكه ان السريان آراميون ، ولكن لأن اسم آرام قد اكتسب امام اليهودية والمسيحية المعنى الجاني المكروه وهو وثني تماماً فأنهم تجنبوه وسموا انفسهم ولغتهم بالتسمية الاغريقية «السريان» ولغتهم بالسريانية كذلك . والاغريق والفرس يسمون الآراميين في بابل بالسريان .(٤)

اما النبط ، وهم من عناصر المجموعة الاجنبية في الكوفة ايضاً ، فقد كان جنوب وادي الرافدين ، والمنطقة الممتدة من الكوفة الى البطائح ، والتي مصرت فيها واسط ، موطن سكناهم ، منذ القديم(٥) . ويبدو ان تأثير هؤلاء في سكان الكوفة لم يكن يسيراً ، يؤيد ذلك ، قول أبي عمرو بن العلاء ، لأهل الكوفة : «لكم حذلقة النبط ، وصلفهم ، ولنا دهاء فارس واحلامهم»(٦). ويعرف النبط ، عندالعراقيين (بالصباه) ، وهم الصابئة ، من اتباع يوحنا

---

[١] جاء في كتاب تاريخ الأدب السرياني ص ٣ : « ان اللغة السريانية إحدى اللهجات الآرامية ، والآرامية من مجموعة اللغات التي أتفق العلماء على أن يطلقوا عليها اسم اللغات السامية » .

[٢] تاريخ الشعر العربي ٢٧٨ .

[٣] المصدر السابق ٢٣٧ ، وأنظر فجر الاسلام ١٣٠ ، وفقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي ٥٦ .

[٤] اللغات السامية لنولدكه ٦٠ .

[٥] دائرة المعارف الاسلامية مادة « بطيحة »

[٦] البيان والتبيين ٣ / ٣١٨ ، أبو عمر بن العلاء المازني التميمي « ٦٥ ـ ١٥٤هـ » أعلم الناس بالعربية والقرآن ، وأيام العرب ، والشعر ، أخذ عنه الخليل والاصمعي ويونس بن حبيب وأبو محمد اليزيدي .

المعمدان(١). واصل النبط الذى انحدروا منه ، موضع خلاف بين الباحثين ، فمنهم من يعد النبط خليطاً من الآراميين ـ سكان العراق القدماء ـ والعرب ، محتجاً بأن لغتهم ـ كما تدل عليه النقوش النبطية ـ تشتمل على الفاظ عربية كثيرة(٢). ومنهم من يعتبرهم آراميين مستندين في ذلك الى انهم يتكلمون الآرامية . ولا يفرق المؤلفون المسلمون بين النبط والاراميين ، بل يعدونهم جنساً واحداً ، وقد خطأت الدراسات الحديثة ذلك(٣) . ومن الباحثين من يذهب الى أن النبط عرب ، يستخدمون اللغة الآرامية ، لغة كتابة(٤).

الى جانب كل أولئك ، عناصر من اليهود والنصارى ، وفد أكثرها من نجران اليمن (٥) ، أهم موطن للنصرانية في الجزيرة العربية(٦) ، وأقام في الكوفة ، في محلة نسبت اليهم ، وهي النجرانية(٧) .

وكان بعض هؤلاء ، يستوطن الكوفة ، قبل تمصيرها ، في أديرة منبثة في قراها . كما كان في الحيرة مبشرون يدعون للنصرانية ، وهم من الاسرى البيزنطيين للفرس ، ويظن أنهم منبع النصرانية في الحيرة(٨) .

وقد بقي نصارى الحيرة « العباد » في دينهم حتى عصر العباسيين . وكانت النصرانية منتشرة ، على عهد الرسول (ص) ، بين القبائل العربية ، كقضاعة وربيعة وتميم وطيء ، وفي كل مكان من نجد والحجاز ، فنحن نجد ذكر الراهب المسيحي ، يتردد كثيراً في شعر الجاهليين(٩) .

---

[١] دائرة المعارف الاسلامية مادة (بطيحة) .
[٢] تاريخ الأدب السرياني ٨ ، فقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي ٦١ ، مدرسة الكوفة ٨ .
[٣] تاريخ الشعر العربي ١٩٩ .
[٤] المصدر السابق ١٩٩ ، فقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي ٦٣ .
[٥] فتوح البلدان ٧٧ .
[٦] فجر الاسلام ٢٦ .
[٧] فتوح البلدان ٧٧ .
[٨] فجر الاسلام ١٨ .
[٩] تاريخ الادب العربي لبروكلمن ١٢٤ .

وظل النصارى ، أول الأمر ، منبثين في القبائل ، التي ينتمون اليها ، كعجل وبكر وتغلب ، ولكنه لم يبق منهم في القرن الثاني سوى النجرانيين البلحارثيين «من مذحج»(١).

ونصارى الكوفة ، طائفتان : نساطرة « حضر » ، ويعاقبة « بدو » ، لذا فنحن نجد في الكوفة ، اسقفين ، احدهما نسطوري والآخر يعقوبي(٢) .

وقد جاور اليهود المسيحيين في الكوفة ، فكان موقع محلتهم فيها قريباً من النجرانية « محلة النصارى »(٣). وقد يكون لقرب الكوفة من مرقد النبي « ذي الكفل » (ع) أثر في كثرة اليهود فيها . ولم تكن نظرة العرب الى هؤلاء نظرة أرتياح ، على الرغم مما كانوا يؤدونه لهم من أعمال وخدمات ، كالزراعة والحدادة ، وصنع الأسلحة ، والمصارفة ، وصياغة الذهب ، التي برعوا فيها(٤) .

والديانة اليهودية كانت منتشرة في الجزيرة العربية ، قبل الاسلام بقرون ، ومصدر يهود الجزيرة ، فلسطين ، فقد نزحوا منها الى بلاد العرب ، وبعضهم من عرب الجزيرة الذين تهودوا (٥) .

وكان بعض احبار اليهود متأثراً بفلسفة اليونان وآدابهم ،وانظمة الرومان وقوانينهم لأن اليهود خضعوا قروناً طويلة لحكم اليونان والرومان(٦) .

ولقد كان لهذا الخليط في الكوفة ، تأثيره العميق في ثقافة الكوفة ، وتطورها الحضاري ، وفي طبيعة الحياة السياسية فيها .

---

[١] خطط الكوفة ٢٥ .

[٢] خطط الكوفة ٢٥ .

[٣] بروكلمن ١٢٤ .

[٤] بروكلمن ١٢١ ، فجر الاسلام ٢٤ .

[٥] فجر الاسلام ٢٣ .

[٦] فجر الاسلام ٢٥ .

ثالثاً ــ خصائص المجتمع الكوفي ومميزاته :

على الرغم من كون الكوفة عربية اسلامية ، في طابعها ، وفي بداية تمصيرها ، بخاصة ، إلا أنه يجب أن تلحظ اعتبارات عديدة ، كان لها دورها ، في طبع الفكر والعقلية ، فيها بطابع خاص .

فالكوفة انشئت ، في منطقة عريقة الحضارة ، من الفرات الاوسط ، حيث بابل عاصمة العموريين والكلدانيين ، وحيث وضع البابليون ، اللبنات الاولى للحضارة الانسانية والتمدن ، فسنوا القوانين ، وشرعوا الشرائع . فالعراق كان منذ أقدم العصور مهداً لحضارات شعوب مختلفة ، منها السامي ، كالاكديين ، ومنها غير السامي ، كالسومريين ، وحيث الحيرة(١) ، عاصمة المناذرة ، ومحمية الفرس(٢) ، ومركز المدنية ، وموطن اللهو والترف ، والحياة الحضرية الناعمة ، في الهلال الخصيب ، على عهد المناذرة . هذا فضلا على رقي عربها . عقلا ومدنية ، وتفوقهم على عرب الجزيرة(٣) ، بسبب اتصالهم بعناصر حضارية كثيرة . فمنهم من كان يتقن أكثر من لغة . كعدي بن زيد وزير النعمان « مترجم أبرويز ملك الفرس » ، وأبيه زيد الشاعر ، الذي يجيد قراءة الفارسية ، فضلا على العربية(٤) .

ويرى الدكتور شوقي ضيف ان منهم من عرف اللسان السرياني أيضاً ، ونفذ منه الى تمثل كثير من الثقافة الاغريقية(٥) ، ومن المحتمل : ان يكون ماعرفوه من علوم اليونان وآدابهم ، تسرب اليهم عن طريق الاسرى الرومانيين(٦) .

---

[١] أسس الفرس الحيرة حوالي سنة ٢٤٠م ، في عهد سابور الاول ، وكان اول من أمروا عليها عمرو بن عدي .

[٢] خطط الكوفة ٦ ، وذلك طوال القرون الثلاثة الاولى قبل أن تنشأ الكوفة .

[٣] فجر الاسلام ١٧ .

[٤] تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦٥ .

[٥] التطور والتجديد في الشعر الأموي ٤١ .

[٦] فجر الاسلام ١٨ .

فالكوفة ، اذن ، وريثة حضارة المنطقة . وصلتها هذه الحضارة ، عن طريق هؤلاء الذين كانوا يستوطنون قراها وسوادها ، من سريان ونبط وفرس . وقد لاحظ تأثر الكوفة بهؤلاء ، كثير من القدماء ، وقد مر بنا ، قول ابي عمرو بن العلاء الكوفيين : « لكم حذلقة النبط وصلفهم ، ولنا دهاء فارس واحلامهم »(١). ولاريب ان العرب تأثروا بمعارف هؤلاء وحضارتهم كثيراً .

وقد ساهمت الاغلبية العربية ، في نقل كثير من عاداتها ومعارفها ، الى الكوفة ، مشبعة بالروح القبلي . يضاف الى ذلك ان تعدد المواطن ، التي نزح منها العرب ، الى هذه المدينة ، ساعدها على ان تشهد عناصر حضارية مختلفة ، بأختلاف الوان الحياة ، في هذا المواطن . فقد سكن الكوفة ، أقوام من اصقاع مختلفة الحضارة ، جاء بعضها من اليمن وحضرموت ، وبعضها من نجد والحجاز .

وكما نقلت هذه الاغلبية العربية معارفها وحضاراتها ومفاهيمها ، الى الكوفة ، نقلت اليها أيضاً ايمانها الجارف بالدين الجديد ، وروحها المؤمن بالعدالة والمساواة . وهما من ابرز مظاهر الدين ، الذي جاءت تقاتل من اجل نشره هذه الاغلبية .

ولقد كانت فئة من هؤلاء شديدة العصبية للدين ، تبالغ في تطبيق مبادئه ، وتتطرف في التزام تعاليمه ، تلك هي عصبة القراء ، الذين فضلوا النزول في الكوفة ، على البصرة ، باعتبار ان الكوفة : اصبحت ـ ولو لفترة محدودة ـ قاعدة الخلافة الاسلامية ، وعاصمة دولتها ، على عهد علي « ر » .

والكوفة الى ذلك ، معسكر الجيش الاسلامي ومركز قوته ، الذي يضم كثيراً من الصحابة المجاهدين الاول ، وكثيراً من وجوه القبائل العربية وأشرافها ، يصور ذلك قول عمر : « الكوفة رمح الله ، وقبة الاسلام ، وجمجمة العرب ، يكفون ثغورهم ويمدون الأمصار . . » ، وقول ابي العباس : « الكوفة بلاد الأدب .. ومنزل خيار الصحابة وأهل الشرف » (٢) .

---

[١] البيان والتبيين ٣ / ٣١٨ .

[٢] البلدان لابن الفقيه ١٧٣ الطبري حوادث سنة ١٧ هـ ، ٢٥٠٤ .

وتتابعت هجرات المسلمين إلى الكوفة ، لانها أصبحت محط الصحابة الأول ، ومنزلهم ، فقد نزلها منهم أول الأمر ، سبعون بدرياً ، كما نزلها ثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، قال فطر بن خليفة : « نازعني قتادة في الكوفة والبصرة ، فقلت : دخل الكوفة سبعون بدرياً ، ودخل البصرة عتبة بن غزوان ، فسكت » (١) . وجاء في كتاب الطبقات : « هبط في الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، وسبعون من أهل بدر . . »(٢).

ثم توافد اليها بعد ذلك المسلمون ، وكان أشهر من نزلها ، علماً ، علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، على ان ابن مسعود ، كان أكثر الصحابة أثراً علمياً فيها ، فانشغال علي بالحرب والسياسة والخلافة ، منعه من التفرغ للتعليم(٣) .

وشهرت الكوفة باقبال الصحابة والتابعين على نزولها ، حتى تجمع فيها ثلاثة أرباع قراء العراق(٤) . وصفها ابن بطوطة بانها : « احدى أمهات البلاد العراقية ، المتميزة فيها بفضل المزية ، مثوى الصحابة والتابعين ، ومنزل العلماء والصالحين »(٥) .

وبرزت أهمية هذا الاقبال ، في اصطباغ ثقافتها بالروح الاسلامي ، فقد غلب على النشاط العلمي فيها ، الاشتغال بالعلوم الاسلامية ، كالتفسير ، وجمع الحديث ، والتشريع ، والمغازي ، والسير ، بينما كان نشاط البصرة العلمي مقصوراً على الثقافة العربية ، ففيها نشأ النحو ، ونما ونضج ، وفيها جمع الشعر ، وجمعت اللغة ، وفيها ظهر النقد القائم على التحليل والتعليل(٦) .

أصبحت الكوفة مهد الفقهاء والمشرعين الاسلاميين . ويجدر بنا أن نلاحظ : أن هذه المنطقة ، كانت مهد التشريع ،منذ القديم ، ففيها ولدت شريعة حمورابي ، وهي من أقدم شرائع العالم . فليس غريباً أن تبعث فيها حركة التشريع ، وتزدهر مرة أخرى .

---

[١] البلدان لابن الفقيه ١٦٦ .

[٢] كتاب الطبقات الكبير ٦ / ٤ .

[٣] فجر الاسلام ١٨٤ .

[٤] خطط الكوفة ١٣ .

[٥] رحلة ابن بطوطة ٢١٩ .

[٦] نقائض جرير والفرزدق ٢٠٧ ،

قال سفيان بن عيينة : « خذوا المناسك عن اهل مكة ، وخذوا القراءة عن اهل المدينة ، وخذوا الحلال والحرام عن اهل الكوفة » (١) .

فقد تكونت فيها حركة علمية واسعة ، وظهرت مدرسة فقهية كبرى ، تضم كلاً من النخعي ، والشعبي ، وشريح بن الحارث ، وسعيد بن جبير(٢). وأخذ هؤلاء يشرعون للناس في أمورهم ، التي اخذت تتطور ، وتتعقد ، بتطور الحياة وتعقدها .

ولقد اتسعت آفاق هذه الحركة العلمية ، ونضجت ، حتى توجت بأبي حنيفة النعمان(٣) ، وكان أول من صنف في الفقه والرأي ، وقال بالقياس .

واذ نزل في الكوفة الكثير من البدو ، وحفاظ الشعر ، اصبحت مرجعاً في الرواية . وأشهر رواتها حماد(٤) ، والمفضل الضبي(٥) ، وغيرهما ، ممن نقلوا تراث الجاهلية .

والكوفة مدرسة كبرى للسياسة ، نشأت فيها ظاهرة النقد السياسي ، مبكرة ، وظهر فيها الخوارج ، كما ظهرت الشيعة ، وكانت مصطرعاً للآراء المذهبية ، والمنازع السياسية(٦) .

هذا بينما كان يتنازع البصرة تياران متناقضان ، أحدهما جاهلي قوي عنيف ، وثانيهما أسلامي واهن ضعيف ، لايكاد يحس ، فقد سادت البصرة الفضائل الجاهلية ، على الفضائل الاسلامية ، وكانت في طابع حياتها ألاجتماعي العام ، أدنى الى الجاهلية منها الى الاسلام(٧) .

---

[١] معجم البلدان ١١٩/٧ .

[٢] فجر الاسلام ١٨٤ ، التطور والتجديد في الشعر الاموي ٦٥ .

[٣] فجر الاسلام ١٨٤ .

[٤] حماد بن سابور « أو هرمز أو ميسرة » ، مشهور بحماد الراوية ، ولد سنة ٧٥ هـ (٦٩٤ م) ، وتوفي سنة ١٥٥ هـ (٧٧١ م) .

[٥] المفضل بن يعلى الضبي (صاحب المفضليات) ، راوية أديب نحوي لغوي عالم بالأخبار والشعر ، مات (١٧٨ هـ) أو (١٦٤ هـ / ٧٨٠ م) .

[٦] سيأتي الحديث مفصلا عن طبيعة الكوفة السياسية .

[٧] نقائض جرير والفرزدق ١٩٥ .

ولوجود العنصر الفارسي ، واستمرار هجرته اليها ، أثره في تطوير بعض جوانب الحياة ، ورقتها ونعومتها ، وكان العنصر الفارسي ، من الحضارة بمنزلة كبيرة ، فقد حارب رجاله في جيش دولة الفرس المنظم ، وشهدوا من الحياة أنعمها .

ومهما يكن من شيء ، فان العراق القديم ، وفارس ، قدما للكوفة كل ما عرفا من حضارة ، وشهدا من تطور .

وقد اصبحت الكوفة فيما بعد ، موطناً للهو والشراب ، وأصابها الترف ، وشملتها الحضارة ، فكانفيها مجالس غناء وانس ، ولعل لاتصالها بالحجاز أثراً في ذلك[1] ، يصور هذا ما رواه أبوالفرج من أنه : «كان فيالكوفة ثلاثة نفر ، يقال لهم الحمادون، حماد عجرد وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الاشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة يرمون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم فيها حماد عجرد »[2] .

---

[1] الشعر في بغداد للاستاذ الدكتور احمد عبد الستار الجواري ١٤٧ ، ١٥٥ .

[2] الاغاني (الساسي ١٣ / ٧٠) .

رابعاً ـ **الكوفة السياسية**

أ ـ الكوفة والمعارضة :

الكوفة مدينة المعارضة السياسية ، فقد شهدت الصراع العنيف ، يدور حول الخلافة ، كما شهدت ضروباً من التمرد والثورة والاضطراب ، واجتاحت حياتها الخلافات السياسية والمذهبية .

وفي احضانها ولد حزب الخوارج ، وهو أعنف الاحزاب الاسلامية ثورية ، وأكثرها تطرفاً واندفاعاً . وفيها ظهرت الشيعة ، ونمت وقويت ، ومنها انتشرت وتوسعت. كما كانت بعد ذلك من أهم مراكز المعارضة الشديدة للحكم الاموي وعاملاً من عوامل تقويضه وانهياره .

وقد رأينا :أن الكوفة ـ وريثة حضارات الفرات الاوسط . وقد تهيأ لهذه المنطقة، أن تشهد ميلاد اقدم شرائع العالم ، وتكون موئل اعرق حضاراته ، كما اتيح لسكانها ، أن ينعموا بالحياة ، في ظل الدولة ، وفي ظل القانون ، فتيسر لهم ـ بذلك ـ أن يفهموا معنى الحياة السياسية ، بشكل دقيق ، وأن يعرفوا معنى الحكم والادارة .

فوجود الكوفة في هذة المنطقة العريقة الحضارة ـ وهي وريثها ـ كان من أهم بواعث تضجها السياسي المبكر ، ونشوء ظاهرة النقد السياسي فيها ، قبل غيرها من امصار الدولة ، ومن ثم ظهور حركة المعارضة السياسية المنظمة ، المتبلورة في احزاب ثورية عنيفة .

وثمة سبب آخر ، عمل على رهافة حس الكوفة السياسي ، هو : كون الكوفة معسكراً للجيوش الاسلامية ، المحاربة من اجل مباديء الدين الجديد ومركزاً للقتال يرابط به الجنود مع أهليهم تأهباً للحرب وقد مر بنا انها كانت تسمى بكوفة الجند فهي دار هجرة ومنزل جهاد ، كما يقول عمر(١) .

ويضاف الى كل ذلك تخطيط المدينة تخطيطاً قبلياً وزع المهاجرين اليها وفق انتمائهم القبلي ، فقد هيأها ذلك لأن تكون أكثر تعرضاً للثورات والخلاف والمعارضة والاضطراب ، واذا ماعرفنا أن بين جندها كثيراً من عصبة القراء المتطرفين في تطبيق

---

[١] الطبري ٢٣٦٠ .

مبـــادىء الدين ، تيسر لنا ، أن نلمس خطر هذا العامل ، وأثره في طبيعة الكوفة السياسية(١) .

وأغلبية سكان الكوفة ـ كما رأينا ـ من القبائل المتحضرة ، كمذحج وهمدان ، ونصف المتحضرة ، كطيء وبجيلة وكندة ، وقد تهيأ لهؤلاء ، أن يفهموا نظـام الدولة ، بسهولة ويسر ، وأن يجادلوا ، ويخاصموا ، فيما فهموا . بينما كان سكان البصرة ، من القبائل العدنانية ، الممعنة في البداوة ، والتي لم يتهيأ لها ، أن تفهم نظام الدولة ، كما فهمه الكوفيون(٢) .

ولوجـــود الموالي في هذه المدينة ، أثره في تميزها بالتطرف والمعارضة ، فقد كانوا يندفعون في تأييد ماينشأ فيها من أحزاب ، وما يقوم فيها من تمرد ، طلباً للانصاف ، وحباً في الغنيمة ، وايثاراً لأنفسهم ، بسبب ماكانوا يحسونه من ظلم واذلال ، فقد اندفعوا في تعضيد الشيعة ، وساهموا في حركاتهم وثوراتهم ، فكانوا أغلبية جيش المختار ، كما شاركوا في تأييد الخوارج .

لاريب ان لكل ذلك ، آثاره الخطيرة ، في رهافة الحس السياسي الكوفي ، ومن ثم نشوء ظاهرة النقد السياسي ، وظهور حركة المعارضة ، وتطورها ، ونمائها ، في هذه المدينة ، وقد لمسنا في سكانها منذ بداية تمصيرها ، هذه الظاهرة . . . فكانوا يراقبون الولاة والحكام ، ويناقشونهم ويجادلونهم . وروح التطرف في كل تصرفاتهم ، مع هؤلاء الولاة ، وفيما بينهم أيضاً ، ظاهرة واضحة . بينما نجد أهل البصرة : « مسالمين أو متربصين ، يسمعون فيطيعون ، ويؤمرون فيفعلون » ، لأن البصرة : « خضعت في مواقفها السياسية ، للاعتبارات القبلية دون سواها » ، فلم يكن سكانها يتجاوزون افق الحياة القبلية في مواقفهم السياسية المختلفة ، بل كانوا يستوحون مصالحهم القبيلة في تلك المواقف » (٣) ، يضاف الى ذلك قلة من نزلها من الصحابة .

---

[١] لقد مر بنا أن ثلاثة ارباع قراء العراق تجمعوا في الكوفة . . خطط الكوفة ١٣ .

[٢] خطط الكوفة ١٢ ، ١٣ ، نقائض جرير والفرزدق ١٧٦ .

[٣] نقائض جرير والفرزدق ١٧٣ ، ١٧٦ .

فالكوفة لكل ذلك، تمثل مدينة المعارضة في تاريخ الاسلام السياسي، أصدق تمثيل.

وقد مر لمس عمر هذه الخصيصة، في الكوفة، كما لمسها عثمان (ر)، فكانا لذلك، يعاملان أهلها معاملة، فيها شيء من الترضية والمجاملة، حيناً، وفيها شيء كثير من البرم والسخط، حيناً آخر. كل ذلك لما يبدر منهم، من اعتراضات وخلافات، ولكثرة مايشكوهم الولاة والمسؤولون.

ثم ان بقاء العصبيات العربية في الكوفة، سبب فيما كان ينشأ فيها من احــداث ومعارضة، ومن ثم يفسر لنا الاضطراب، وعدم الاستقرار، اللذين عرفت بهما الكوفة، ويفسر لنا برم عمر بعدم اذعان أهلها لأوامره وثوراتهم بمن كان يوليه عليهم. فضلاً على أن تاريخ منطقة الكوفة القديمة وطبيعتها بعامة، يساعدان على ذلك.

ولنتبع هنا تاريخ الكوفة، منذ تمصيرها، لنشهد طرفاً من رهافة الحس السياسي، من هذه المعارضة، ولنبصر جانباً من جوانب التطرف، الذي يجر الى الشغب بالولاة والبرم بهم، ويؤدي الى الخصومة معهم أيضاً، ولنلمس أيضاً شيئاً من برم الخلفاء باهلها، لنؤيد ماذكرناه فيها: في العام الثاني والعشرين للهجرة ـ بعد تمصير الكوفة، بسنوات خمس ـ شكا الكوفيون واليها عمار بن ياسر، الى عمر، ونزوا به، وقالو عنه: «انه لايحتمل ماهو فيه، وانه ليس بأمين، ولا يدري على مااستعمله»، فعزله عمر (١).

وليس أدل على تطرفهم، وكثرة معارضاتهم، ثم برم الخلفاء بهم، من قصتهم مع أبي موسى: استشارهم عمر، فيمن يولي عليهم، فرشحوا أبا موسى. فأمره عليهم، فأقام فيهم سنة، فباع غلامه العلف، فشكاه الوليد بن عبد شمس، وجماعة معه، الى عمر، فعزله أيضاً (٢).

وقد شكا عمر، سوء اسلوبهم في معاملة ولاته فقال: «ان أهل الكوفة قد عضلوني» (٣). واستشارهم ثانية، فيمن يولي عليهم، بعد أن اعيته مطالبهم، قال: «مانقولون في تولية رجل ضعيف مسلم، أو رجل قوي مسدد؟»، فرد عليه المغيرة: «أما الضعيف المسلم،

---

[١] الكامل لابن الاثير ١٥/٣.

[٢] الكامل لابن الاثير ١٦/٣.

[٣] الكامل لابن الاثير ١٦/٣.

فاسلامه لنفسه ، وضعفه عليك ، وعلى المسلمين . وأما القوي المسدد ، فان سداده لنفسه ، وقوته لك وللمسلمين » ، فولى المغيرة الكوفة (١) . الا أنهم شكوه الى عثمان - بعد وفاة عمر كما سنرى - فعزله ، وولى مكانه سعداً (٢) .

وكانوا في البدء قد سعوا بسعد بن أبي وقاص ، الى عمر ، وقالوا : انه لايحسن الصلاة ، فقال سعد : « أما أنا فكنت اصلي بهم صلاة رسول الله (ص) لا أخرج عنها » ، وارسل عمر على أثر هذه الشكوى ، رجالاً يسألون عن سعد في الكوفة ، وأتوا أحد مساجدها ، فقيل لهم : « أما اذا سألتمونا عنه ، فانه كان لايقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية »(٣) . ويفصح هذا الجواب عن بعض الدوافع الاقتصادية لهذه المعارضة .

وروي أن سعداً : كان يقول عن الكوفيين : « اللهم لاترض عنهم أميراً ، ولا ترضهم بأمير » (٤) . كما روي أن المختار بن عبيد الله ، قال « حب اهل الكوفة شرف وبغضهم تلف » (٥) .

وحين جاء الرجال عمر ، في وفد من اهل الكوفة ، يشكون سعداً ، قال : « من يعذرني من اهل الكوفة ، ان وليت عليهم التقي ، ضعفوه . وان وليت عليهم القوي ، فجروه » (٦) .

ونزعة التمرد والمعارضة ، غير مقصورة على فئة القراء أو سواهم ، وانما تشمل الجميع على حد سواء . يصور ذلك ، مارواه ابن الاثير : من أن عمر خلا في ناحية من المسجد ، فنام ، فاتاه المغيرة،فحرسه حتى استيقظ ، فانكر مارأى ، وقال للمغيرة : «مافعلت

---

[١] الكامل لابن الاثير ١٦/٣.

[٢] العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة ٢٤٩/٦) ، الطبري ٢٨٠١ ، الكامل لابن الاثير ٣ ٤١ ،

[٣] فتوح البلدان ٣٩١ .

[٤] العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة ٢٤٩/٦) ، فتوح البلدان ٣٩٢ .

[٥] فتوح البلدان ٣٩٢ .

[٦] فتوح البلدان (ليدن ٢٧٩) ، العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة ٢٦/١) ، وفي شرح النهج ٩٧/١ : «قداعياني اهل الكوفة ..» وفي فتوح البلدان ٣٩٣ انه قال ذلك بعد أن شكا اهل الكوفة ضعف عمار بن ياسر .

ذلك الا من عظيم » ، فرد عليه المغيرة : « وأي شيء أعظم من مائة ألف ، لايرضون عن أمير ، ولايرضى عنهم أمير » (١) .

والكوفة ، في هذا ، تخالف البصرة ، لان البصرة كانت خالية من الشخصيات ، التي تشارك في الامور العامة ، فقد آثر زعماؤها الاعتزال ، وعدم التدخل في شؤون السياسة ، كما فعل الاحنف بن قيس مثلاً (٢) .

واذا تجاوزنا عهد عمر ، الى عهد عثمان ، وجدنا رهافة الحس السياسي والمعارضة، تستمران وتقويان . والشواهد ، على استمرارهما ، وقوتهما كثيرة : فقد عزل عثمان المغيرة بن شعبة في السنة الرابعة والعشرين بعد أن شكاه أهل الكوفة كما رأينا ، وفي السنة الخامسة والعشرين للهجرة ، عزل عثمان ، سعد بن أبي وقاص ، عن الكوفة ، واستعمل الوليد بن عقبة ، وسبب ذلك : « أن سعداً أقترض من عبدالله بن مسعود ، من بيت المال قرضاً ، فلما تقاضاه لم يتيسر له قضاؤه . فارتفع بينهما الكلام ، ثم استعان عبدالله باناس على استخراج المال ، واستعان سعد باناس على انظاره ، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً ، يلوم هؤلاء سعداً ، وهؤلاء عبدالله » (٣) .

وحين ولى عثمان ، الوليد بن عقبة ، الكوفة ، ضج الناس ، وثاروا ، وقالوا : « بئسما ابتدلنابه عثمان ،عزل ابا اسحق الهين اللين الحبر ، صاحب رسول الله (ص) ، وولى اخاه (٤) ، الفاسق الفاجر الاحمق الماجن » (٥) ، وقام عمر بن زرارة (٦) ،

---

[١] الطبري ٢٦٧٩ ، الكامل لابن الاثير ١٦/٧ .
[٢] أنظر رأي ماسنيون في ابتعاد البصريين عن التدخل في تصرفات القادة وانكارهم ، التدخل فيما يخص الخلاف بين الصحابة . . خطط الكوفة ١٤ .
[٣] الطبري ٢٨٠٢ ، ٢٨١١ ، الكامل لابن الاثير ٤٢/٣ .
[٤] أخوه لامه . وقد شهدوا عليه بشرب الخمرة . . الكامل لابن الاثير ٦٩/٣ .
[٥] الطبري ٢٨١٣ ، انساب الاشراف ٢٩/٥ .
[٦] عمرو بن زرارة بن قيس بن الحارث . وفي انساب الاشراف ٣٠/٥ : انه « لما شاع فعل عثمان ، وسارت به الركبان ، كان أول من دعا الى خلعه ، والبيعة لعلي ، عمرو بن زرارة » .

وخطب فقال : « أيها الناس ان عثمان قد ترك الحق ، وهو يعرفه ، وقد اغري بصلحائكم، يولي عليهم شراركم» . وحين سمع الوليد ذلك ، قاربت ان تكون فتنة ، كتب فيهاالوليد، الى عثمان ، فاجابه عثمان : « أن ابن زرارة أعرابي جلف ، فسيره الى الشام » فسيره(١).

وجاء في انساب الاشراف : أن الوليد خرج لصلاة الصبح ، وهو يميل ، فصلى ركعتين ، ثم التفت الى الناس فقال « أأزيدكم ؟ » . . فقال احد المصلين : « لازادك الله » ، ثم تناول حفنة من حصى المسجد ، فضرب بها وجه الوليد ، وحصبه الناس ، وقالوا : « ما العجب الا ممن ولاك » (٢) . ثم عزل الوليد ، فقد تناصر أهل الكوفة على الوشاية به ، الى أن تمكنوا من ذلك (٣) .

واصطدم جماعة من وجوه الكوفة ، بواليها الجديد ، سعيد بن العاص ، مما اضطر عثمان الى نفيهم الى الشام ، حيث معاوية ، وحين عادوا الى الكوفة ، اطلقوا السنتهم بسب سعيد وعثمان ، فضج منهم سعيد ، فابعدوا مرة اخرى الى حمص (٤) ، وكان منهم من اصبح ، بعد ذلك من أشهر الخوارج ، وهو حرقوص بن زهير (٥) .

ونجد في ابيات الشاعر الكوفي ، التي قالها حين دخل سعيد الكوفة، بعد ماعزل عثمان، الوليد ، روحاً من السخرية والتهكم ، لايتيسر الا لرجل بارع في السياسة ، قال :

فررت من الوليد الى سعيد   كأهل الحجر اذ جزعوا فباروا
بلينا من قريش كل عام   أمير محدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى   وليس لهم فلا يخشون نار (٦)

---

[١] انساب الاشراف ٢٩/٥ .
[٢] انساب الاشراف ٣٢/٥ .
[٣] الطبري ٢٨١٣ ، ٢٨٤٠ ، الكامل لابن الاثير ٥٢/٣ ،
[٤] الكامل لابن الاثير ٧٠/٣ .
[٥] انساب الاشراف ٤٠/٥ .
[٦] الكامل لابن الاثير ٥٣/٣ ، ٧٣ ، والحجر واد بين مكة والشام ، جاء في القرآن الكريم : «ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين ، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين». (سورة الحجر آية ٨١ ، ٨٢) .

إنها سخرية لاذعة بالحكام . يستمدون سلطاتهم من الدين، ويحكمون على أنهم حماته ثم يرتكبون الآثام ، فلا يخشون العقاب ، ويحاسب ضعاف الكوفة وفقراؤها ، اذ يرتكبون أيسر الخطأ . وفي خطبة سعيد حين دخوله الكوفة ما يكشف عن طبيعة الوضع الذي ألفاه فيها، قال : « والله لقد بعثت اليكم ، واني لكاره ، ولكني لم أجد بداً ، اذا امرت أن أأتمر ، الا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، والله لأضربن وجهها حتى أقمعها . . » (١) . وقد حصبه الناس لما صلى فيهم الصبح .

وكانت نتيجته العزل أيضاً ، إذ اصر الكوفيون على أن يحولوا بينه وبين دخول مدينتهم وأكرهوا عثمان على ماأرادوا . وكان سعيد قد خرج من الكوفة الى عثمان في بعض أعماله . وقد اختاروا بعده أبا موسى الاشعري(٢) .

وقد كثرت حوادث النفي ، على عهد سعيد ، وكان المنفى الشام دائماً ، ومما يلاحظ أن بين المنفيين كثيراً ممن أصبحوا خوارج فيما بعد ، بل أن منهم من أصبح من كبار زعماء الخوارج ، كعبدالله بن الكواء ، وحرقوص بن زهير ، كما قدمت (٣) .

وقد تلت ذلك فترة اضطراب سياسي عنيف انتهت بمقتل عثمان ، شارك فيها الكوفيون مشاركة فعالة ، بعد ما رأوا ميلاً عن المباديء والمثل التي قاتلوا من أجلها .

وتشتد المقاومة والمعارضة وتقويان في الكوفة ، بعد مقتل عثمان (٤)، بشكل أعنف، وتتخذ المقاومة طابع الصراع الاقليمي ، ويضطرم الصراع في العراق والشام من أمصار الدولة الاسلامية ، بين الكوفة من جانب ، والبصريين والشاميين والخواج من جانب آخر. فتدور رحى الحرب أولاً بين الكوفة والبصرة من جانب، يوم الجمل : بين علي ومن ينكرون عليه حق الخلافة (٥) . وبين الكوفة والشام ، من جانب ثان ، الى أن تقع حرب

---

[١] الطبري ٢٨٥٢ ، الكامل لابن الاثير ٥٣/٣ .
[٢] العقد الفريد « لجنة التأليف والترجمة ٢٤٩/٦ » ، أنساب الاشراف ٣٢/٥ ، الطبري ٢٩٣٤ ، ٢٩٣٥ .
[٣] أنساب الاشراف ٤٠/٥ ، الكامل لابن الأثير ٦٩/٣ .
[٤] الطبري ٢٨٥١ ، ٢٨٥٣ ، مروج الذهب (ط. بولاق ٣٣٣) .
[٥] الطبري ٣٢٢٨ .

صفين (١) ، وتشتد أحداثها المؤلمة ونتائجها المعروفة . وبين الكوفة والخوارج ، من جانب ثالث ، فتدور رحى الحرب في النهروان ، ويقاتل الكوفيون الخوارج في أيام الدولة الاموية وبأمر من معاوية . على الرغم من موقفهم المعادي للأمويين (٢) ، ويقع من القتلى كثير ، الى أن تسفر نتائج الصراع عن استشهاد علي ، وتنازل الحسن لمعاوية (٣) .

ومن ثم تقوى شوكة الخوارج ويشرفون على تقويض كيان الدولة (٤) ، وتتالى الأحداث الحزينة بعد وفاة معاوية . ثم تقع مأساة دامية لم تشهد الأساطير ولم يعرف الواقع مثيلها ، تلك هي مأساة الحسين في كربلاء ، إذ انقشع غبار الحرب التي شارك فيها الكوفيون عن استشهاده ، واستشهاد أكثر من معه من أهل بيته وصحبه ، في العاشر من محرم سنة احدى وستين بعد أن أغراه الكوفيون ووعدوه برسائلهم ورسلهم (٥) .

ثم يشرع التوابون بحركتهم للثأر للحسين ، محاولين غسل إثمهم والتكفير عن ذنبهم بخذلانه ويسدل الستار على هزيمتهم سنة خمس وستين (٦) ، الا انها تكون إرهاصا لثورة المختار العنيفة التي لم يكتب لها النجاح على الرغم من تحقيقها بعض أهدافها (٧) .

ويشتد أمر الخوارج ، ويستمر الكوفيون بمناضلتهم على عهد عبد الملك ، ويقومون بدور خطير في قتال الأزارقة في الأهواز مع المهلب (٨) .

من خلال هذا العرض ، نبصر المعارضة الشديدة ، عند اهل الكوفة ، فهم لا يرضون عن أمير ، يحاسبونه ويراقبونه ، ولا يرضى عنهم أمير ، يبرم بشدة مراقبتهم ومحاسبتهم .

---

[١] الطبري ٣٣٣٦ ـ ٣٣٣٨ ، يعد الدكتور شوقي ضيف الخصومة بين الكوفة والشام إرثاً يقول : « واذا كان العراق أهدى الى العرب كل ما احتفظ به من تراث ثقافي فارسي روماني اغريقي ، فانه أهدى اليهم ايضاً منافسته القديمة لعرب الشام ، الذين كانوا يحاربون دائماً في صفوف بيزنطة بينما كان يحارب هو في صفوف الدولة الساسانية . . التطور والتجديد في الشعر الاموي ٤٢ » . [٢] الطبري ١٠٥٩

[٣] قتل علي في الكوفة في أول العشر الاول من شهر رمضان من سنة أربعين . . الطبري ٦/١/٢ ، التنبيه والاشراف ٢٩٦ . [٤] فجر الاسلام ٢١٥ ، أدب الخوارج ٣٥ . [٥] الطبري ٢٣٣/١/٢ . [٦] الطبري ٥٠٢٢٤٩٧/١/٢ ، ٥٦٠ ، أنساب الاشراف ٢٠٤/٥ . [٧] مروج الذهب ٩٠/٢ ، الطبري ٧٤٥/٢/٢ .
[٨] الطبري ٨٢٥/٢/٢ .

كل ذاك لرهافة حسهم السياسي ، بحيث لا يبدو لهم شيء ، يوحي بالتقصير ، من وال إلا شكوه الى الخليفة ، أو شهروا به ، وقاوموه .

وقد قدمت : أن وجـــود الكوفة في هذه المنطقة العريقة الحضارة ، وتأثرها بالأنظمة السياسية القديمة ، عن طريق من نزلها ، من النبط والسريان والفرس ، ثم تحضر قبائلها ، يفسر لنا روح المعارضة . ونشوء ظاهرة النقد السياسي المبكر فيها ، ومن ثم يفسر كثيراً من احداثها السياسية الكبرى .

ولا شك أن لتخطيط الكوفة ، على أساس قبلي(١) ، بعض الأثر ، في كثرة حوادث الشغب والاضطراب ، وعدم الاستقرار ، في حياتها العامة ، ذكر ابن أبي الحديد : « أن اهل الكوفة في آخر عهد علي . كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته ، فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادي باسم قبيلته : يالنخع ، او يالكندة ، فيتألب عليه فتيان القبيلة ، التي يمر بها ، فينادون : يالتميم ، ويالربيعة ، ويقبلون الى ذلك الصائح ، فيمضي الى قبيلته ، فيستصرخها ، فتسل السيوف ، وتثور الفتنة » (٢) .

وعلى ذاك ، فانفصال البصرة عن الشعوب ، التي كانت تسكن العراق ، وجنوبي فارس ، وقربها ، من الصحراء ، أدى الى عدم تأثرها بالانظمة السياسية القديمة ، كما تأثرت الكوفة ، بانظمة فارس ، عن طريق الموالي ، أو كما تأثر الشام ، بانظمة الروم فبقيت بعيدة ، عن التطور السياسي ، الذي تهيأ للكوفة (٣) .

ولا ريب أن رهافة الحس السياسي ، التيكان عليها الكوفيون ، وشدة قابلياتهم للنقد السياسي وكثرة تصديهم للسلطان ، بالمعارضة ، وحبهم للعدل المطلق ، والمساواة التامة ، كانت بمثابة عوامل ، مهدت لوقوع أعظم حدث سياسي شهده تاريخ الكوفة ، وهو الثورة على علي ، في صفين ، والتي تمخضت عن حزب الخوارج (٤) .

---

[١] البلدان لليعقوبي ٧٠ .

[٢] شرح النهج ٣٧٦/٣ .

[٣] انظر نقائض جرير والفرزدق للاستاذ الزهيري ١٧٦ ـ ١٧٧ ، فجر الاسلام ١١٣ ، ١١٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

[٤] سيأتي الحديث مفصلاً عن الخوارج .

فمن الواضح أن حزباً ثورياً ـ مثل حزب الخوارج ـ يقصر الخلافة على التقى والورع ، دون اعتبار جنسي أو قبلي ، ويؤمن بالمساواة والعدل المطلقين ، لا يمكن أن يجد في غير تربة الكوفة ، منبتاً خصباً . فجذور هذا الحزب ، تمتد بعيداً خلال أحداث الكوفة ومعارضتها .

ولقد كانت الكوفة بسبب هذه الطبيعة ، أرضا خصبة لانتشار الدعوة العلوية أيضاً ، ومهداً لثوراتها ، ولقد أدرك علي هذه المزية فيها ، فأستمال أهلها ، الى صفه ، واعتمدهم في حربي الجمل وصفين (١) . وكان يصفهم بأنهم : « جمجمة الاسلام ، وكنز الايمان وسيف الله ورمحه يضعه الله حيث يشاء » (٢) . كما كان يصف الكوفة بأنها « الهجرة بعد الهجرة وأنها قبة الاسلام » (٣) .

ولا يفوتنا أن نذكر : أن المعارضة، كانت تقوم ، على دوافع ومبررات ، في مقدمتها، الدافع الاقتصادي « فيما يتعلق بالخراج والاعطيات والغنائم والجرايات » . وقد يكون هناك دافع قبلي ، يتصل باستئثار قبيلة دون أخري بالسلطان ، أو برضا السلطان ، أو بالولاية . على أن الدافع الاخير ، ليس من القوة ، في الكوفة بحيث يظهر ظهور الدافع الاقتصادي . وقد يتداخل الدافعان ، القبلي والاقتصادي ، فتكون المعارضة أشد وأقوى . يضاف الى ذلك ، حب العدل ، وايثار الاخلاص لمبادىء الدين ، وقد لمسنا نماذج كثيرة من المعارضة ، كما لمسنا اشتدادها ، سنة بعد أخرى .

وقد بلغت هذه المعارضة ذروتها ، في الأحزاب السياسية ، التي قوي أمرها واشتد ـ على عهد الامويين ـ وتجسد عنفها ، في مواقف الخوارج بخاصة .

وهذه نماذج من المعارضة . تقوم على أسباب اقتصادية أو قبلية : وخير ما يوضح ذلك ، موقف الكوفيين من الوليد بن عقبة ، فقد ضجوا ، حين ولاه عثمان عليهم ، وقالوا :

---

[١] هذا بينما كانت البصرة موطن الجماعة الذين ينكرون الخلاف بين الصحابة بكل جرأة . . خطط الكوفة ١٤ » .

[٢] كتاب الطبقات ٦/١ .

[٣] الطبري ٢٥١٤ .

« بئسما ابتدلنا به عثمان عزل اباسحق . . وولى أخاه الفاسق الفاجر الاحمق الماجن»(١). فقد أحسوا أن في توليته استئثاراً بالحكم ، بل هو الذي صرح بذلك ، سأله سعد بن أبي وقاص ، حين دخل الكوفة ، بعد عزل سعد ، : « يا أبا وهب ، أأمير أم زائر ؟ » قال الوليد : « لا بل أمير » ، فقال سعد : « ما أدري أحمقت بعدك ، أم كست بعدي » ، قال الوليد : « ماحمقت بعدي ، ولا كست بعدك ، ولكن القوم ملكوا فاستأثروا » ، فقال سعد : « ماأراك الا صادقاً » (٢) .

وذكر ابن الاثير : أنه بلغ أهل الكوفة ، أن عمر بن سراقة ، كتب الى عمر بن الخطاب ، يطلب اليه : أن يزيد أهل البصرة ـ لكثرتهم وعجز خراجهم عنهم ـ أحد الماهين ، أو ما سبذان . فقالوا لعمار بن ياسر ، وكان على الكوفة : « اكتب الى عمر أن (را مهرمز وايذج) لنا دونهم ، لم يعينونا عليهما بشيء ، ولم يلحقونا ، حتى افتتحناهما » ، فلم يكتب عمار ، فأبغضوه لذلك ، وقال له عطاء : « أيها العبد الاجدع . فعلام تدع فيئنا » (٣) . وتظهر هذه الرواية ، تعصب الكوفيين ، في سبيل الفيء والقسمة . مما يدل على أن المشكلة الاقتصادية ، كان لها أثرها ، في المعارضات والخلافات ، بين العامة والسلطة. يضاف الى ذلك ، العامل الديني ، الذي كان يدفع بعضهم الى المعارضة ، حين يرى ، أن قسمة الفيء ، لاتجري وفقاً للعدل ، وطبقاً لما يقتضيه الدين .

وذكر ابن الاثير أيضاً : أن سعيد بن العاص ، أثناء توليته الكوفه سأل عن أهلها ، فعرف حالها ، وكتب الى عثمان : « أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم ، والبيوتات والسابقة ، والغالب على تلك البلاد ، روادف قدمت وأعراب لحقت ، حتى لاينظر الى ذي شرف وبلاء من نابتتها ولا نازلتها » ، فكتب اليه عثمان : « . . . فضل أهل السابقة ، والقدمة ، ومن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها من غيرهم ، تبعاً لهم ، الا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به ، وقام به هؤلاء ،

---

[١] انساب الاشراف ٢٩/٥ .

[٢] انساب الاشراف ٢٩/٥ .

[٣] الكامل ٢٦٧٢ ، وأنظر الطبري ١٥/٣ .

واحفظ لكل منزلته ، واعطهم جميعاً بقسطهم من الحق ، فان المعرفة بالناس ، بها يصاب العدل » ، فأرسل سعيد الى أهل الابام والقادسية ، فقال : « أنتم وجوه الناس ، والوجه ينبيء عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة ، وخلة ذي الخلة » . . ثم جعل القراء في سمره . . (فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار . . وفشت القالة في أهلها . . » (١) .

وحادثة ثالثة ، أبلغ في الدلالة ، على ماذهب اليه ، من أن الجانب الاقتصادي ، له أثره في المعارضات والاضطرابات ، التي وقعت في هذه المدينة . . ذلك : أن نفراً من اهل الكوفة ، نفوا الى الشام . وسبب نفيهم ، كما يذكر ابن الاثير : أن سعيد بن العاص ، اختار وجوه الناس ، وقراء القادسية ، وقراء الكوفة ، في مجالسه وأسماره ، وادير الحديث في احد هذه المجالس ، حول بساتين ومزارع ، لطلحة بن عبيدالله ، كانت من أملاك الاكاسرة على جانب الفرات . وتحدث عبد الرحمن بن حبيش ، وهو حدث ، من بني أسد ، وتمنى لو تكون هذه المزارع والبساتين ، لسعيد . . فأغاظ ذلك الحضور ، فاعتذر أبوه لهم ، بأنه غلام ، فقالوا : « يتمنى له سوادنا ؟ » ، وثاروا به ، وضربوه ، كما ضربوا أباه ، ولم تمنعهم مناشدة سعيد اياهم ، بالكف عن ذلك ، « وكان من جملة هؤلاء عبدالله بن الكواء أحد زعماء الخوارج ، فيما بعد » ، وسمعت بنو أسد ، فجاءوا وأحطاوا بالقصر ، وركبت القبائل ، وأوشكت أن تقع فتنة ، الا أن سعيداً تمكن من تهدئة الناس ، ومنع المعتدين من ارتياد مجالسه ، وقال للرجين ، بعد ماعاتباه على ما أصابهما فى مجلسه : « لايغشوني أبداً ، فكفا ألسنتكما ، ولا تحزبا الناس ». أما المعتدون ، فقد أخذوا يقعون في سعيد ، وفي عثمان ، فابعدوا الى الشام (٢) .

ويروي ابن الاثير حادثة أخرى مشابهة ، وقعت لسعيد ، في أحد مجالسه ، مؤداها : أن سعيداً قال : « أن هذا السواد بستان قريش » ، فرد عليه الاشتر قائلاً : أتزعم أن

---

[١] الكامل ٥٢/٣ ، وتصور الروايات الكثيرة المثبتة في كتب التاريخ حرص اهل الكوفة على حقوقهم ومجادلتهم دونها ، ومن ذلك مارواه الطبري حول خلافهم مع أهل البصرة حول الخراج الذي اصابوه حين افتتحوا بعض القرى ثم تدخل عمر لتسوية الخلاف . . ، وأنظر الكامل لابن الاثير ١٥/٣ .

[٢] الكامل لابن الاثير ٦٩/٣ .

هذا السواد ، الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا ، بستان لك ولقومك . ورده الحضور أيضاً ، فقال صاحب شرطة سعيد : « أتردون على الامير مقالته » ، فوثبوا عليه فوطئوه وطئاً شديداً ، حتى غشي عليه ، وآلم ذلك سعيداً ، فمنعهم من دخول مجلسه . . « فأخذوا يجتمعون في مجالسهم ، يشتمون عثمان ، وسعيداً ، واجتمع اليهم الناس ، حتى كثروا » ، فكتب سعيد الى عثمان ، في ابعادهم ، بالحاقهم بمعاوية ، وكتب الى معاوية : « أن نفراً قد خلقوا للفتنة ، فأقم عليهم وأفهمهم ، فان آنست منهم رشداً ، فأقبل وأن أعيوك ، فارددهم علي » (١) .

ولنر الى موقفهم في الشام ـ بعد النفي ـ فانه يظهر العامل القبلي في المعارضة ، ممزوجاً بالعامل الاقتصادي .

أنزلهم معاوية كنيسة مريم ، وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق ، وكان يتغدى ويتعشى معهم ، ترضية . فقال لهم يوماً : « . . انكم قوم من العرب . . وقد أدركتم بالاسلام شرفاً ، وغلبتم الامم ، وحويتم مواريثهم ، وقد بلغني : أنكم نقمتم قريشاً » ، وتحدث معهم حديثاً طويلاً ، عن فضل قريش ، فاجابه صعصعة : « أما ماذكرت ، من فضل قريش ، فانها لم تكن اكثر العرب ، ولا أمنعها في الجاهلية ، فتخوفنا . . » ، فغاظ كلامه معاوية ، فتحدث معهم ، مؤكداً فضل قريش وأفضليته بالولاية على الشام ، فرده صعصعة ، قائلاً : « لست بأهل ذلك ، ولا كرامة لك ، أن تطاع في معصية الله » ، قال معاوية : « أول ماابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله . . » فرد صعصعة : « بل أمرت بالفرقة ، وانا آمرك أن تعتزل عملك ، فان في المسلمين من هو أحق به منك ، من كان أبوه أحسن قدماً فى الاسلام من أبيك ، وهو أحسن في الاسلام قدماً منك » ، فقال معاوية : « . . والله ان لي في الاسلام قدماً ، ولغيري كان أحسن قدماً مني في الاسلام ، ولكن ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني . . » ، وكتب الى عثمان :

« أنه قدم على أقوام ، ليست لهم عقول ، ولا أديان ، أضجرهم العدل ، لايريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة ، انما همهم الفتنة ، وأموال أهل الذمة . . . فانه سعيداً

---

[١] الكامل لابن الاثير ٣/٧٠ .

عنهم ، فانهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير . . » (١) .

وقد مر بنا : أن أهل الكوفة ، سعوا بسعد بن أبي وقاص الى عمر وقالوا : « انه لايحسن الصلاة » ، وأن عمر أراد أن يعرف الدوافع الحقيقية لشكواهم ، فبث رجالاً يسألون عن سعد في الكوفة ، فأتوا أحد مساجدها ، وسألوا عن سعد ، فقيل لهم : « أما اذا سألتمونا عنه ، فانه كان لايقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية ».

سقت هذه الشواهد ، لأدلل على أن المعارضة كانت تستند الى دوافع اقتصادية ، ودوافع قبلية على أني لا انكر ان هناك بواعث اخرى للمعارضة والنقد السياسي ، وقد ذكرتها (٢) .

ولقد كنت اريد الى أن اؤكد أن منطقة الكوفة كانت أرضاً خصبة للمعارضة ، وأنها من رهافة الحس السياسي بحيث أصبحت مهداً لحزب الخوارج ومنبتاً خصباً للشيعة وعاملاً من عوامل الاطاحة بالعرش الأموي .

لقد كان ماسقت من أحداث وذكرتمن وقائع ، بمثابة ارهاصات ، تلمح بالنتائج التي انتهى اليها وضع العراق والكوفة بخاصة في نهاية ألقرن الاول الهجري ومطالع القرن الثاني .

---

[١] الكامل لابن الاثير ٧١/٣ .

[٢] ومن الغرابة بمكان تكرر حوادث حصب الكوفيين الولاة بالحجارة ، من ذلك ماجاء في الأخبار الطوال (سلسلة تراثنا ٢٢٣) ، من : « أنه حين شخص معاوية من الكوفة، خلف عليها المغيرة بن شعبة ، فصعد المنبر يوم الجمعة ، ليخطب ، فحصبه حجر بن عدي ، وكان من شيعة علي في نفر من أصحابه ، فنزل المغيرة مسرعاً من المنبر ، ودخل قصر الامارة . . . » .

وفي أول دخول زياد الكوفة بعد ولايته عليها حصبه الناس وهو على المنبر مما دفع به الى أن يقطع أيدي ثلاثين أو ثمانين رجلاً منهم . . الطبري ٨٨/١/٢٠٠ .

كما حصبوا عمر بن الحريث عامل زياد . . الطبري ١١٧/١/٢ .

ب ـ الخوارج

الخوارج حزب اسلامي ثوري ، تبلورت أهم مبادئه ، حول الخلافة وسلطاتها ومهامها. ورأيه فيها ديمقراطي جمهوري ، لانه يقصرها على الورع والتقوى ، دون اعتبارات أخرى (١).

---

[١] تطلق لفظة الخوارج ، على كل من شق عصا الطاعة على السلطة ، ويعرف الشهرستاني الخارجي ، بذلك ، فيقول : « كل من خرج على الامام الحق ، الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً ، سواء كان الخروج في أيام الصحابة ، على الائمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين . . الملل ١٠٥ » ويستعمل ابن الاثير ، لفظة الخوارج كذلك لكل من خرج على السلطان ،قبل علي ،وفي خلافته ، لمن خرج عليه . . الكامل ١٣٥/٣ .

ويؤكد الشعراني ظهورهم قبل « صفين » ، اذ يصفهم : « بأنهم الذين خرجوا على عثمان ، وحاصروه تسعاً وأربعين ليلة ، حتى قتلوه ، ثم انهم كثروا في زمان علي ومعاوية ، حين قال : لاحكم الا لله ، بيننا وبينكم كتاب الله تعالى . . . فخرجوا على علي ، كما خرجوا على عثمان . ثم لما حكم أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، عابوا عليه ذلك وقالوا : «لاحكم الالله . . مقدمة نافعة لمن يخوض في العقائد ـ ورقة أ . ب» ويذهب الدكتور شوقي ضيف ، الى ترجيح هذا الرأي فيقول : « ومن يتعقب الحوادث ، يستطيع أن يلاحظ ظهور حزب الخوارج ، منذ مقتل عثمان ، فالذين ثاروا عليه من أهل العراق وشاركوا في قتله يمكن أن نعدهم مقدمة هذا الحزب وبذوره الاولى وهي بذور اكتنت بعد مقتل عثمان والبيعة لعلي بن أبي طالب حتى اذا رضي بالتحكيم هبوا في وجهه كما هبوا سابقاً في وجه عثمان ، وكفروه كما كفروا عثمان محتجين بمثل قوله تعالى « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » وقوله جل وعز : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون » وقالوا : « لاحكم الا لله » . وكانهم أرادوا أن يردوا الدين والدولة الى الله . واعتزلوا علياً الى حروراء بقرب الكوفة ، وكأنهم أرادوا أن يهاجروا عن الجماعة الضالة على نحو ما هاجر الرسول (ص) عن أهل مكة . . التطور والتجديد في الشعر الاموي ٩٤ » .

فهو يري أحق المسلمين بها ، وأولاهم ، أكرمهم وأتقاهم ، من غير اعتباراً لجنس أو قبيلة انطلاقاً من المبدأ الاسلامي ، الذي يوكد : « أن اكرمكم عند الله اتقاكم » (١) .

وهو بذلك حرب على الارستقراطية القرشية ، التي يمثلها علي من جانب الهاشميين ومعاوية من جانب الامويين .

وأهم مباديء الخوارج ـ بعد الخلافة ـ الاعتقاد بان العمل جزء من الايمان (٢) .

ويكاد يكون هذان المبدآن ، أهم ماتجمع عليه الفرق الخارجية المتعددة . الكثيرة الخلاف فيما بينها (٣) .

= أما خروجهم على علي ، فيبدو أنه كان قبل ظهور نتيجة التحكيم (الكامل لابن الاثير ١٦٨/٣) ، وكأنهم توقعوها مسبقاً . ومهما يكن من أمر ، فان لفظة الخوارج أصبحت علماً على الذين خرجوا على «علي » بعد « صفين » ، وفي هذا المعنى تقول الدكتورة سهير القلماوي : « الخوارج فرقوا بين الاسلام وأئمته تفريقاً تاماً ، فتحمسوا للاسلام كل التحمس ، ولم يتحمسوا للائمة ، وكما أن من آمن بقضية علي من المسلمين لايعد شيعياً قبل ظهورا لشيعة ، فكذلك لايعد خارجياً من فصل شخصية الامام عن عقيدته فأعطى نفسه حرية انتقاد الامام وآمن بالعقيدة ايماناً مطلقاً . . أدب الخوارج » .

[١] سورة الحجرات آية ١٣، انظر التطور والتجديد في الشعر الاموي (٩٥) في مبادئهم ، وتقول الدكتورة سهير القلماوي : ان فكرة الانتخاب العام التي مثلها الأنصار مثلها الخوارج في وضوح أشد فيما بعد . . أدب الخوارج ٩ .

[٢] الملل والنحل ١٠٧ ، ١١٢ ، مقالات الاسلاميين ١٨٩ .

[٣] تعتبر الدكتورة القلماوي انقسامهم خطة مدبرة للهجوم على الدولة اذ ذهب فريق منهم الى الشمال وفريق الى الجنوب ، فكونوا بذلك خطة هجوم شرقي عند الجزيرة شمالاً الى اليمامة والبحرين جنوباً وتوغلوا شرقي العراق في فارس المحصنة الوعرة واتخذوها ملجأ لهم ساعة الشدة وميداناً فسيحاً لحروبهم . ولقد فعل ذلك الازارقة منهم خاصة ، على حد تعبيرها ، بل هي تذهب الى أبعد من ذلك فتعتبر قعود الصفرية جزءاً من الخطه . يتضح ذلك من قولها : والذي يرجح هذا الظن عندي أن فرقة الصفرية وهي أكثر فرقهم بعد الاباضية اعتدالاً واجازة للتقية والقعود ، ، كانت أشد الفرق ثورات عدداً وأثراً . . أدب الخوارج (٣٥) ورأيها هذا يخالف رأي الاستاذ احمد امين الذي يؤكد أنه لو اتحدوا لكانوا قوة في منتهى الخطورة كما يؤكد كثرة اختلافهم . .أنظر مقالته عنهم في فجر الاسلام (٣١٥)

ولم يسلم حتى مبدأ الخلافة من الاختلاف فيه ، فان من الخوارج ، من لا يرى الامة في حاجة الى إمام ، يقول الشهرستاني ، عن بعض فرقهم : « وجوزوا أن لا يكون في العالم امام أصلاً » ، ويقول : « واجتمعت النجدات ، على أنه لاحاجة للناس الى إمام قـــط ، وانما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ، فان هم رأوا ، أن ذلك لايتم الا بامـام ، يحملهم عليه ، فأقاموه ، جاز » (١) . الا أن ابن أبي الحديد ، يذكر أن رأيهم هذا كان في بدء أمرهم فقـــط (٢) .

انكشف غبار صفين ، عن ميلاد حزب الخوارج (٣) ، فقد ثار على علي بعض جيشه ، بسبب قبوله التحكيم ، ورفضه الرجوع عنه ، بعد أن فرض عليه . ولم يكن الخوارج ينكرون أنهم حملوا علياً على قبوله ، لكنهم يذكرون : أنهم رجعوا عنه ، بعد ماتبينوا أنه خدعة ، وفي محاوراتهم معه ، أكثر من اعتراف بذلك : « . . . قالوا حكمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون بأنا قد كفرنا ، ونحن تائبون ، فأقرر بمثل ما أقررنا به ، وتب ننهض معك الى الشام . . » ، ثم قالوا : « إنا اتينا ذنباً عظيماً ، حين حكمنا الرجال في دين الله ، فان تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا نهضنا » (٤) .

---

[١] مقالات الاسلاميين ١٨٩ ، الملل والنحل ١٠٧ ، ١١٢ ، وجاء في الفرق بين الفرق ٦٥ : أنهم عشرون فرقة .

[٢] شرح النهج ٢١٤ ، ويبدو ان البعض كان يرى في شعارهم : (لاحكم الا لله) دعوة الى فكرة عدم اجة الأمة الى إمام ، يظهر ذلك من قول علي ، حين سمع شعارهم ذاك : (كلمة حق اريد بها باطل ، نعم إنه لاحكم الا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة الا لله ولا بد للناس من أمير برأو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر » ، ولقد كانوا يرددون هذا الشعار ، بعد رجوعهم من صفين كثيراً . . الكامل لابن الاثير ١٦٩/٣ ، شرح النهج ١٦٩ .

[٣] وقيل : سموا خوارج لأنهم خرجوا في سبيل الله ، أخذاً من الآية الكريمة : « ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » ، سورة النساء آية ١٠٠ .

[٤] الكامل للمبرد ٩١٠ ، ٩١٤ .

ويظهر ذلك من محاورة أخرى ، جرت بينهم وبينه ، قال : « . . . أنشدكم الله ، أعلمتم أحداً منكم كان أكره للحكومة مني ؟ » . قالوا ، اللهم لا ، قال : « أفعلمتم انكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟ » ، قالوا نعم ، قال : « فعلام خالفتموني ونابذتموني ؟ » (١) ، قالوا : « لاحكم الا لله ، ياعلي ، لا لك ، لانرضى بان يحكم الرجال في دين الله . ان الله قدأمضى حكمه في معاوية واصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا ، وقد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين ، وقد بان لنا زللنا وخطؤنا ، فرجعنا الى الله وتبنا فارجع أنت وتب الى الله كما تبنا وإلا برئنا منك » ، وقالوا : « إنا أتينا ذنباً عظيماً ، فتبنا الى الله ، فتب الى الله منه ، واستغفره نعد معك .. » وكان علي يجيب « ماهو ذنب ولكنه عجز في الرأي وضعف في الفعل ، وقد تقدمت اليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه »(٢) .

وتظهر اغلب الروايات علياً مقاوماً للتحكيم ، في بدء دعوة معاوية اليه ، الا أنه اجبر على قبوله اجباراً . فقد قيل له : «لايسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله (٣)،

---

[١] على أنه بعد قبولها ، ثبت على هذا القبول ، جاءه الأشعث فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً ، والاقامة عليها كفراً ، فقام علي يخطب ، فقال : « من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالاً فقد ضل .. الكامل للمبرد ٩٤٣ ، شرح النهج ٦ ٢٠٦» ، وتظهر كتبه الى معاوية موافقته على التحكيم كتب اليه : « ثم انك دعوتني الى حكم القرآن ، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولا حكمه المستعان ، فقد أجبنا القرآن الى حكمه ، وليس إياك أجبنا . . شرح النهج ١٨٩ » ، وقبوله التحكيم ، وموافقته عليه ، التزام بقبول الدعوة الى حكم القرآن ، يقول : « . . ويحكم أنا أول من دعا الى كتاب الله ، وأول من أجاب اليه وليس يحل لي ، ولا يسعني في ديني أن ادعى الى كتاب الله فلا أقبله . . شرح النهج ١٨٦ » .

[٢] الكامل للمبرد ٩٩٤ ، الطبري « الاستقامة ٥٣/٤ » ، العقد الفريد ٣٤٦/٤ ، الكامل لابن الاثير ١٦٩/٣ ، شرح نهج البلاغة ١٩٣/١ .

[٣] الكامل للمبرد ٩٩٤ ، الكامل لابن الاثير ١٦١/٣ ، شرح النهج ١٩٠/١ . ويقال إن علياً غير رأيه في الخوارج في أخريات أيامه ، فقد روي ، أنه قال فيهم « ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » .

فأجاب : « .. أنا والله مارضيب ولا أحببت أن ترضوا، فاذا أبيتم الا أن ترضوا، فقد رضيت » (١) . الا انه أصر على قبوله ولم يتراجع بعد كما ذكرنا .

وكما فرضوا التحكيم وقبلوا به اولاً ، فقد فرضوا الحكم ، جاء عبد الله بن الكواء (٢) ، علياً ، وقال : « هذا عبدالله بن قيس ، وافد أهل اليمن الى رسول الله (ص) ، وصاحب مقاسم ابي بكر ، وعامل عمر ، وقد رضي به القـــوم » (٣) .

الا انهم أحسوا أن في اصرار علي على الاستمرار في التحكيم . وعدم الرجوع عنه ، نوعاً من المهادنة قد تتم على حساب مبادئهم ، التي قاتلوا من أجلها ، وقدموا الشهداء في سبيلها .

وأغلب الخوارج من البدو البسطاء (٤) ، والقراء المتعصبين للدين ،

---

[١] الكامل للمبرد ٩٩٤ ، الكامل لابن الاثير ١٦٣/١ شرح النهج ١٩٠/١ .

[٢] عبدالله بن الكواء ، من أوائل زعماء الخوارج ، وأميرهم للصلاة في حروراء ودوره بارز في ترشيح أبي موسى للحكومة ، يبدو ذلك من قول عـــلي ، له : « أما ارسالي المنافق ، وتحكيمي الكافر ، فأنت أرسلت أبا موسى مبرنساً » ، العقد الفريد ٣٥١/٤ ، الفرق بين الفرق ٦٧ ، الملل والنحل ١٠٦ ، الكامل لابن الاثير ١٦٥/٣ ، شرح النهج ٢٠٣/١ . وقد تعدد أمراء الخوارج ، في حروراء ، فقد أمروا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي وسموه أمير المؤمنين ، وكان أميرهم للقتال فيها شبث بن ربعي . . الكامل لابن الاثير ١٦٥/٣ .

[٣] العقد الفريد ٣٥١/٤ ، الكامل لابن الاثير ١٦١/٣ ، شرح النهج ١٩٠ .

[٤] كثرة الخوارج من الأزدااليمانية وتميم المضرية ، انظر خطط الكوفة ١١ ، في طبيعة القبائل التي نزلتها .

المتطرفين في تطبيق مبادئه ، ذكر عبدالله بن العباس أنه رأى منهم حين وجه لمفاوضتهم : « جباهاً قرحة لطول السجود ، وأيدياً كثفنات الابل . وعليهم قمص مرحضة » ووصفهم لعلي قائلاً : « والله ما سيماهم بسيما المنافقين . ان بين أعينهم لأثر السجود » (١) . رفض هؤلاء ، أن يحكم في دين الله ، الرجال ، فكان شعارهم : « لاحكم الا لله » (٢) .

كان قبول علي التحكيم (٣) ـ كما رأينا ـ السبب المباشر لظهور هـذا الحزب ، الا انه لم يكن السبب الوحيد ، فلا يعقل أن يكفي قبوله التحكيم ، لتكوين هذا الحزب ، الكبير ، الذي ناضل حكم أمية ، واشرف في مرات كثيره على تقويضه (٤) .

---

[١] الكامل للمبرد ٩٤٣ ، شرح النهج ٢١٦ .

[٢] شعار الخوارج ، واول من قاله عروة بن أديه ، ومنه سموا : (المحكمة) . . الكامل للمبرد ٩٠٩ ، الفرق بين الفرق ٦٦ ، الملل والنحل للشهرستاني ١٠٦ ، الكامل لابن الاثير ١٦٩/٣ .

[٣] كتب كتاب التحكيم في صفر من سنة سبع وثلاثين . والتقى الحكمان بدومة الجندل فيها ، وفي رواية اخرى أنه كتب في آخر سنة ثمان وثلاثين مروج الذهب ٤٠٦/٢ ، الكامل لابن الاثير ١٥٠/٣ ، ١٦٢ . وكان فيما كتب بالصحيفة « ان يحيي الحكمان ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات ، ولا يتبعان الهوى ، ولا يداهنان في شيء من ذلك ، فان فعلا فلا حكم لهما ، والمسلمون منها براء . . مروج الذهب ٤٠٣/٢ » . وفي روايـة أخرى للطبري ٣٢/٦ ان الحكمين اجتمعا وكتب كاتب جزءاً مما اتفقا عليه ثم اختلفا وتسابا .

[٤] انظر فجر الأسلام ، وادب الخوارج ٣٥ .

وينبغي أن يكون الانسان على جانب كبير من السذاجة والبساطة ، ليقتنع أن حدثاً واحداً - مهما يكن عميقاً وواسعاً في أثره ونتائجه - كاف لخلق حزب مثل الحزب الخارجي .

قبول علي التحكيم ، كان الشرارة ، التي أوقدت نار الثورة الكامنة في صدور كثير من الناس ، لما آل اليه أمر الخلافة ، وصار اليه أمر الدين . فقد اصبح غرضاً تختفي وراءه الرغبات الشخصية ، والنزعات القبلية . ولم تكن خدعة التحكيم ، الا سلكاً انتظم النقمة والحقد والموجدة ، التي كانت تعتمل في نفوس كثير من الناس ، فكون منها الثورة ، فقد ساء المسلمين ، أن يروا دينهم غرضاً يتصارع جراءه الطامعون ، وتحوم حوله الشهوات الشخصية .

التعبير عن الرأي السياسي ، كان يتخذ قبل صفين إما مظهراً فردياً أو قبلياً أو يتخذ شكلاً أوسع من ذلك ، فتكون الفتنة ، كما حدث في مقتل عثمان . وقد تهيأ لكل ذلك ، أن يتبلور بشكل أكثر اتساعا وانتظاماً - بعد عملية التحكيم - فكانت الثورة ، وكان حزب الخوارج .

وأوضح دليل على أن حزب الشراة (١) ، لم يكن من نتاج صفين والتحكيم وحدهما ، وانما وترعرع ، خلال الاحداث ، التي أعقبت الفتح ، وصاحبت حكم الخلفاء الراشدين ، ثم تهيأ له ان يولد في أزمة صفين : أن

---

[١] الشراة هم الخوارج ، قيل سموا : (شراة) اي الذين باعوا انفسهم لله ، أخذاً من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله - سورة البقرة : آية ٢٠٧ » ، وقيل من (شري) بمعنى غضب . قال عمران بن حطان :

أني ادين بما دان الشراة به   يوم النخيلة عند الجوسق الخرب =

ثمة الخوارج لم تقف عند قبول علي للتحكيم ، وتمسكه به ، بل تعدتها الى العهود التي سبقت خلافة علي ، وخلافة معاوية ، فقد طعنوا في أصحاب الجمل وتبرأوا من طلحة و الزبير وعائشة وعبدالله بن العباس (٢) ، وبحثوا في صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، فصححوا خلافة الشيخين ، ونقموا على عثمان اجتراءه على توليه أقاربه المناصب والولايات ، وعدوا عليه أحداثاً أخرى .

أتي زياد بعروة بن أدية ، فسأله عن أبي بكر وعمر ، فقال خيراً فقال له ، فما تقول في أمير المؤمنين عثمان ، وفي ابي تراب ؟ ، فتولى عثمان ست سنين من خلافته ، ثم شهد عليه بالفكر ، وفعل في أمر علي مثل ذلك ، الى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفر (٣) .

ولا أستطيع أن أقنع بسهولة ، أن البحث في صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، أمر جديد على هذه الفئة ، فما جدوى تصحيح حكم هذا أو

= وقال معدان الايادي :

سلام على من بايع الله شارياً　　　وليس على الحزب المقيم سلام

انظر الكامل للمبرد ٩٧٦ ، ٨٩١ . ويسمون ايضاً (الحرورية) نسبة الى قرية حروراء القريبة من الكوفة ، ذلك : أنهم خرجوا الى هذه القرية على اثر اختلافهم مع علي ، بعد رجوعهم من صفين (الفرق بين الفرق ٦٧ ، الكامل لابن الاثير ١٦٥/٣) . ويدعون كذلك : (بالمحكمة) ، كما رأينا أخذاً من شعارهم ، الذي التزموا به : (لاحكم الا لله) ، كما يدعون (بالمحكمة الاولى) ، انظر الملل والنحل ١٠٦ .

[١] العقد الفريد ٢٦١/١ .

[٢] الكامل للمبرد ٩٠٩ ، شرح النهج ٢٠٤/١ .

ذلك أو تخطئته ، إذا كان الزمن قد عفاه . ولابد أن هؤلاء ، حملوا مثل هذه الافكار ، وناقشوا مثل هذه المناقشات ، قبل التحكيم ، واثناء خلافة عثمان أو قبل ذلك ، انما على نطاق أضيق . والدليل على ذلك ، أن في صفوف هؤلاء ، قتلة عثمان الحقيقيين . بل أن منهم من يعترف بذلك ، ويتبجح به تبجحاً ، قال مسعر بن فدكي ، في عصبة من القراء ، الذين صاروا خوارج فيما بعد ، لعلي : « أجب الى كتاب الله عز وجل ، اذا دعيت اليه ، والا دفعناك برمتك الى القوم ، أو نفعل بك مافعلنا بابن عفان » (١) .

ومن الواضح ، ان خشية هؤلاء للتحكيم ، ومقاومتهم ايا ، كانت بسبب تخوفهم من أن تمس المصالحة حرياتهم ، بشكل أو بآخر ، فمعاوية يقاتل طلباً بدم عثمان .

ويتضح لنا مدى أهمية النظر في خلافة عثمان ـ بالنسبة اليهم ـ اذا عرفنا : أنهم قتلوا عبدالله بن خباب ، وذبحوا زوجه ، بعد ان امتحنوه في موقفه من عثمان وعلي ، فلم يعجبهم جوابه (٢) .

ويبدو لي ان الخوارج لم يكونوا يتحرجون أدنى تحرج ، في إعلان سخطهم

---

[١] الملل والنحل ١٠٥ ، الكامل لابن الأثير ١٦١/٣ ، شرح النهج ١٨٦ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة (خوارج) ٤٦٩/٨ . وقد نفذوا وعيدهم اذ قتله عبد الرحمن بن ملجم وهو زوج امرأة قتل أكثر أفراد اسرتها في النهروان . . الكامل للمبرد ٩٢٦ .

[٢] الكامل للمبرد ٩٤٦ ، شرح النهج ٢٠٧/١ . وفي الدولة العربية وسقوطها ٥٤ ، يقول فلهوزن : « انهم كانوا يتباهون بأن أول عمل ثوري قاموا به هو قتل عثمان » .

على خلافة ابي بكر وعمر لو انهم وجدوا في سلوك هذين الرجلين مايبرر ذلك بالنسبة اليهم . وقد كانوا يحكمون بصحة خلافتهما لصحة انتخابهما .

ودليل آخر . على ان حزب الخوارج لم يكن من تاج أزمة صفين ، ومشكلة التحكيم وحدهما ، أن علياً دعاهم بعد ما تبين نتيجة التحكيم . الى قتال معاوية فرفضوا ، يروي ابن الاثير : أن علياً كتب الى زيد بن الحصين ، وعبدالله بن وهب الراسبي (١) . « . . أما بعد ، فان هذين الرجلين ، اللذين ارتضيناهما حكمين ، قد خالفا كتاب الله ، واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا القرآن حكماً . . فاذا بلغكم كتابي هذا ، فأقبلوا الينا ، فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ، ونحن على الامر الاول ، الذي كنا عليه والسلام » . لكنهما رفضا وكتبا اليه : « أما بعد ، فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك ، فان شهدت على نفسك ، بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك . . . » (٢) .

والشهرستاني ، يفصل بين خروجهم بسبب التحكيم ، وخروجهم بسبب رأيهم في الخلافة . ومعنى هذا : أن نظرتهم الى الخلافة ، واعتقادهم عدم وجوبها في قريش ، أسباب موجودة وقائمة ، قبل وقوع التحكيم ، بل تدعوهم الى الخروج ، وكلامه في ذلك صريح ، لايحتمل تأويلاً ، يقول : « أما خروجهم في الزمن الاول ، على أمرين . . احدهما بدعتهم في الامامة . اذ جوزوا ان تكون في غير قريش . . . والبدعة الثانية ، انهم قالوا في اخطأ علي التحكيم ، اذ حكم الرجال ، ولا حكم الا لله » (٣) .

---

[١] من زعماء الخوارج

[٢] الكامل ١٧١/٣ .

[٣] الملل والنحل ١٠٧ .

ويوحي هذا ايضاً بان عدم خروجهم على علي قبل التحكيم ، مع اعتقادهم مايوجب الخروج ، معناه رضاهم عن علي ، لا باعتباره قرشيـــاً ، وانما لانه كفء صالح للامامة . وهذا ينطبق مع مبدأ الخوارج ، في الاعتقاد بولاية علي قبل التحكيم حتى اذا حكم وخالفهم كفروه .

جذور الخوارج تمتد بعيداً ، قبل صفين ، نلمسها بسهولة ويسر . في كل هذه الاعتراضات التي نشأت في عهد الرسول (ص) ، وفي عهد خلفائه من بعده وبعد تمصير الكوفة بخاصة ، وعلى عهد عثمان بصورة ظاهرة ، حين اتخذت شكل الثورة عليه ، ثم انتهت بمقتله

وقد سبق أن ذكرت ، أننا نجد في صفوف الخوارج ، قتلة عثمان الحقيقيين ، الذين كانوا يرون في عملية التحكيم نوعاً من المصالحة ، التي تمس حريتهم ، بهذا الشكل او ذاك ، لذلك رفضوها ، وقاوموها بشدة وعنف بالغين يضاف الى ذلك احساسهم بأن في مهادنة معاوية ـ بقبول التحكيم ـ خطراً ، يهدد مبادئهم ، التي يحاربون من اجلها . وقد جاءت نتائج التحكيم مصداقاً لاحساسهم ، اذ انتهت الامور الى ماانتهت اليه .

فأفكار الخوارج او مايشبهها ، كما يبدو لي ، من مجموع الاعتراضات ، وسياق الاحداث ، كانت موجودة عند كثير من الناس ، لاسيما اولئك المتطرفون من حملة الدين الجديد ، ولا شك في ان بعض أهدافهم ، في المساواة والعدل المطلقين ، كانت أهداف فريق كبير من المسلمين .

أما المعارضة خلال عهدي عثمان وعمر ، فقد ذكرتها قبل قليل . حين تحدثت عن السياسة في الكوفة . وقد قلت انني أرى فيها عوامل مهدت لظهور هذا الحزب . وأما ماكان من حوادث واعتراضات في زمن الرسول الكريم (ص)

فاني عارض بعضها هنا ، سواء منها ماأشار المؤرخون الى علاقاته بظهور الخوارج ، وما لم يشيروا .

وأول مايروى من ذلك وأهمه : حادثة تذكرها كتب الحديث والتفسير والتاريخ والادب ، بأساليب مختلفة ، فيها زيادة ونقصان ، وفيها اختلاف في اسم الرجل ، الذي تدور حوله الحادثة .

ومؤدى الحادثة : أن رجلاً أقبل على الرسول (ص) وهو يعطي الغنائم ، يوم حنين ، فقال : « يامحمد ، قد رأيت ماصنعت في هذا اليوم » فقال رسول الله : « أجل فكيف رأيت ؟ » قال : « لم أرك عدلت » فغضب الرسول ، ثم قال : « ويحك ، اذا لم يكن العدل عندي ، فعند من يكون ؟ » فقال عمر ابن الخطاب : « يارسول الله الا نقتله » فقال : « لا ، دعوه فانه سيكون له شيعة ، يتعمقون في الدين ، حتى يخرجوا منه ، كما يخرج السهم من الرمية » وفي رواية اخرى : « انه يخرج من ضئضيء (١) هذا الرجل ، قوم يتلون كتاب الله رطباً ، لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ، وفي ثالثة : « ان له اصحاباً ، يحقر احدكم صلاته بجانب صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن ، لايجاوز تراقيهم . . » (٢) ، وفي روايات اخرى ، ان علامة هؤلاء القوم ـ الذين سيخرجون من ضئضيء هذا المعترض ـ رجل مخدج اليد (٣) ، احدى يديه كثدي المرأة ، عليها شعرات

---

[١] الضئضيء : الأصل والمعدن والجنس . . الكامل للمبرد ٩٢٠ .

[٢] السيرة ٤٩٦/٢ ، صحيح مسلم ١٥٩/٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، الكامل للمبرد ٩١٩ ، ٩٥٥ ، الطبري ١٦٨٢ ، الكامل لأبن الاثير ١٦٨/٣ ، أسد الغابة ١٣٩/٢ ، شرح النهج ٢٠١/١ ، البداية والنهاية ٣٦٢/٤ .

[٣] صحيح مسلم ١٦٦ ، ١٧٢ ، الكامل للمبرد ٩٥٦ .

كشارب السنور » (١) .

ماذا تعني الحادثة ؟ إجتماع كتب الحديث والتاريخ والتفسير ، على ذكرها يرجح صدق وقوعها ، أما اضطرابها ، والزيادة والنقصان فيها . فهو دليل على محاولة التشويه ، لينطبق مدلولها على الخوارج ، فهم : « يتلون كتاب الله رطباً . . ويحقر أحدكم صلاته بجانب صلاتهم . . » ، فالخوارج مشهورون بالتشدد في العبـــادة .

ومهما يكن من شيء ، فان الحادثة ـ وهي اعتراض على الرسول الكريم ـ تمثل ايماناً مطلقاً ، لايتقيد بحدود ، بل يتجاوز كل حد ، من نحو ، وتمثل سذاجة البدوي وبساطة روحه ، من نحو آخر . فشدة ايمان الرجل ، وسذاجته وبساطته ، هي التي أباحت له أن يعترض ويبدي رأيه فيما يراه ويعتقده ، وليس عليه بعد ذلك ، من يكون المعترض عليه . والرجل بهذا يمثل روح الخوارج ، ونزعتهم أصدق تمثيل ، فهم مشهورون بتشددهم وصراحتهم وجرأتهم ، في محاسبة رؤسائهم .

وتختلف الروايات في الرجل ـ كما ذكرت ـ فهو مرة : ذو الخويصرة ، او الخنيصرة ، وهو أخرى : عمرو التميمي ذو الخويصرة ، وثالثة : حرقوص ابن زهير (وهذا زعيم خارجي) ، ورابعة : ذو الثدية وخامسة : نافع (٢) . وقيل : ان ذا الخويصرة ، هو حرقوص المخدج اليد ، فبعض الروايات تجعل من الشخصيتين ، رجلاً واحـــداً فتسمي الرجل « حرقوص بن زهير ذا الخويصرة التميمي » (٣) ، واذا صح هذا او شيء منه ، يكون حرقوص بن زهير

[١] الكامل للمبرد ٩٥٦ ، شرح النهج ٢٠١/١ (ومخدج اليد ناقصها وأخدجت الناقة اذا ألقت ولدها قبل تمام الايام) .

[٢] السيرة ٤٩٦/٢ ، الكامل للمبرد ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٥٥ ، ١٠٠٧ ، الكامل لابن الاثير ١٦٨/٣ ، ١٧٥ ، أسد الغابة ٣٩٦/١ ، شرح النهج ٢٠٢/١ .

[٣] الكامل للمبرد ٩٥٦ ، الاصابة ٣٧٤/١ .

الخارجي، من أول المعترضين على الرســـول (ص) . وتميز بعض الروايات بين شخصية المعترض، وشخصية حرقوص وتفصل بينهما، فتجعل حرقوصاً علامة للقوم الذين سيخرجون من ضئضيء الرجل المعترض ، جاء في الملل : « أولهم ذو الخويصرة . وآخرهم ذو الثدية » (١) .

وتنسب هذه الرواية الى علي ، فقد روي : أنه كان يحدث أصحـــابه ، قبل ظهور الخوارج : أن قوماً يخرجون ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، علامتهم رجل مخدج اليد . وقد سمع ذلك منه مراراً (٢) .

وحرقوص (٣) ، رجل الحادثة ، مثال للرجل المتمرد ، حـارب الهرمزان ، في خلافة عمر ثم انتصر عليه ، وفتح سوق الاهواز، ثم تولاهـا، وكان بين الثائرين على عثمان ، والناقمين على سياسته ، وكان على رأس وفد ذهب الى المدينة ، يحتج على سياسة عثمان .

ويبدو أن له شخصية متميزة بين عشيرته ، فقد منعه من عائشة ستة آلاف حين جاءت البصرة ، تطلب قتلة عثمان ، وقد اعتزل مع الاحنف بن قيس ، هو وقومه ، فلم يشارك في حرب الجمل ، لكنه كان من البارزين في صفوف جيش علي ، في صفين ، ومن البارزين بين المنشقين عليه ، فقد ناقش علياً وخطأه في قبول التحكيم ، ودعاه الى التوبة ، وكان بعد ذلك ، إماماً من أئمة الخوارج ، وبطلاً من ابطالهم ، وقتل في النهروان والتمسه علي بين القتلى ، فوجـــده

---

[١] الملل والنحل ١٠٦ .

[٢] ويروى : أن علياً طلب من أصحابه أن يلتمسوه ، بين قتلى النهروان ، فوجده رجل، وبشر علياً بذلك .وقيل إنه إذ بشر بذلك خر ساجداً، وقال : ماكذبت ، ولاكذبت .. صحيح مسلم ١٧٣/٣ ، الكامل للمبرد ٩٥٥ ، الكامل لابن الاثير ١٧٥/٣ .

[٣] كتبت الدكتورة سهير القلماوي عن مدلول الحادثة مايغنيني عن الافاضـة في الحديث عنها .

كما ذكرنا (١) .

وليست حادثة ذي الخويصرة ، هي كل ماوقـــع من اعتراضات على الرسول (ص) ، بل ان جملة اعتراضات ، بسبب تقسيم الفيء ، قد حصلت على عهده . لان هذا الايمان المطلق بالحق والعدل والمساواة ، الذي تشربته نفوس العرب ، هو الذي كان يدفع بعضهم الى مثل هذه المواقف الشديدة ، المتسمة بالعنف والتطرف ، ولا ريب ان وراء هذا العنف ، وهذا التطرف ، قدراً كبيراً ، من البساطة والسذاجة ايضاً :

آثر الرسول (ص) بعضاً من أشراف قريش بالعطاء ، تألفاً لقوبهـــم ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير واعطى ابنه معاوية مثل ذلك ... واعطى السهمي خمسين من الابل ، وأعطى عباس بن مراد السلمي ، أباعر ، فسخطها وعاتب فيها رسول الله ، فقال :

وكانت نهابـــاً تلافيتها	بكري على المهر في الاجرع
وايقاظي القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أهجع
فاصبح نهبي ونهب العبيد	بين عيينة والأقرع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ	فلم أعط شيئاً ولم أمنع
الا أفائل اعطيتها	عديد قوائمها الاربع
ومـا كان حصن ولا حابس	يفوقان مرادس في المجمع
وما كنت دون امرىء منهما	ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رســـول الله : « اذهبوا فاقطعوا عني لسانه » ، فزادوه حتى رضي (٢) .

---

[١] صحيح مسلم ١٧٣ ، الكامل للمبرد ٩٥٦ ، الاخبار الطوال ٢١٧ ، ٢٢٣، الطبري ٢٩٩٥ ، ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٨ ، الكامل لابن الاثير ١٧٥/٣ ، اسد الغابة ٣٩٦/١ ، شرح النهج ٢٠٢ ، ٢٠٦ .

[٢] صحيح مسلم ١٥٥/٧ ، الطبري ١٦٧٩ . وفي صحيح مسلم يروي صـــدر البيت هكذا : « أتجعل نهبي ونهب العبيد . . . » .

ومثل ذلك ماروي : من أن قائلاً قال لرسول الله (ص) : « أعطيت عيينة ابن حصن والاقرع بن حابس ، مائة وتركت جعيل بن سراقة » ، فقال الرسول : « أما والذي نفس محمد بيده ، لجعيل بن سراقة ، خير من طلاع الارض كلهم ، مثل عيينة بن حصن والاقرع بن حابس ، ولكني تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة الى إسلامه (١) .

ويروي : أن رجلا قال عن الرسول الكريم ، بعد ما قسم قسمة حنين : « ماأراد بهذه القسمة وجه الله » ، فاخبر الرسول بذلك ، فتغير وجهه ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد اوذي بأكثر من هذا فصبر » (٢) .

وهذه قصة الانصار مع الرسول ، وهي أبلغ في الدلالة على ما أذهب اليه ، من ان الدوافع الاقتصادية كانت وراء كثير من الاعتراضات :

يروى : أنه لما أعطى الرسول ماأعطى ، من غنائم حنين ، في قريش ، وقبائل العرب ، ولم يكن في الانصار منها شيء ، وجد الانصار في أنفسهم ، وغضبوا حتى كثرت منهم القالة . ويروي : أن سعد بن عبادة ، دخل على الرسول وقال : يارسول الله ان هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء ، الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الانصار شيء » ، فسأله الرسول : « فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ » قال : « يارسول الله ، ما أنا الا من قومي » ، فطلب اليه الرسول أن يجمع له الأنصار ، فجمعهم له ، فأتاهم ، وخطب فيهم ، فقال : « يامعشر الأنصار ، ماقالة بلغتني عنكم ، وموجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ . . . أما والله ، لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم . أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ،

---

[١] الطبري ١٦٨٢ .

[٢] صحيح البخاري ١٣١/٥ ، صحيح مسلم ١٥٨/٧ .

اسمه ولقبه وكنيته :

المعلومات التي تتصل بحياة الطرماح ، قليلة نادرة (١) ، فضلاً عن كونها متناقضة ، بعض الأحيان . هذا ، بالاضافة الى قلة ما وصلنا من شعره . وقد أعتمدنا في فهم ظروف هذه الحياة على بعض شعره ، مما يشير الى حدث ، أو يوضح جانباً ، لا تفصح عنه كتب الأدب والتراجم .

اسمه : الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر ، وفي الديوان ومعجم الشعراء حكم بدل الحكم (٢) .

---

[١] ذكر صاحب كتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة ١ / ٣٣٨ : « أن للمرزباني ، المتوفى سنة ٣٧٨ هـ ، كتاب أخبار الطرماح ، قال ابن النديم : انه نحو مائة ورقة » ، ولم أعثر على ذكر لمثل هذا الكتاب ، على كثرة مراجعة كتب الفهارس . وليس في كتاب الفهرست لابن النديم ، الذي عدد كتب المرزباني ١٣٢ ، أية اشارة لمثل هذا الكتاب . الا أن من الكتب التي ذكرها ابن النديم للمرزباني كتاب المفيد (خمسة آلاف ورقة) ، خصص الفصل الثالث منه ، لمذاهب الشعراء في دياناتهم : كالشيعة ، والخوارج ، وأهل الكلام . وقد يكون المرزباني خصص فصلاً من هذا الكتاب للطرماح ، باعتاره خارجياً . وفي حاشية صفحة ٢ / ٣٢٤ من كتاب الابدال ، أشار المحقق ، الى هذا الكتاب ، ويبدو أنه نقل الخبر عن الذريعة ، دون أن يتحقق ، وأشار صاحب كتاب الأعلام ، الى هذا الكتاب أيضاً ، وصرح بنقل الخبر من الذريعة ، دون أن يتحقق كذلك ٣٢٥/٣ .

[٢] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٥) ، الديوان ٦٨ ، معجم الشعراء ١٤٨ . وقد ذكرت سلسلة نسبه كلها في أول الديوان ٦٨ ، وفي مقدمة ترجمة حياته في الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٥) ، وهي متشابهة في الموضعين ، =

وأول ما يطالعنا من الطرماح ، هذه المسحة من الغرابة ، تلوح في اسمه ومعنى « الطرماح » : الطويل القامة ، المشهور ، والعالي الذكر والنسب ، وهو أيضاً ، الرفيع القدر الرافع رأسه زهواً (١) . ويبدو أن للفظة « الطرماح » في لغة طيء — قبيله — معنى خاصاً : « هو الحية الطويل » (٢) .

وكان يلقب : (الطراح) لقوله(٣) :

= الا أن الأغاني انتهى به الى طيء ، بينما انتهى به الديوان الى قحطان ، ثم ابراهيم (ع) . وذكرت سلسلة نسبه أيضاً في جمهرة انساب العرب ٤٠٢ ، والمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء ٢١٩ ، وأسد الغابة ٤ / ٢١٠ .

[١] السيرة ٧٥/٣ ، الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٠) ، الديوان ٦٨ ، الاشتقاق ٣٨٠ ، ذيل الأمالي ١٦٥ ، معجم مقاييس اللغة ٤٥٧/٣ ، شرح الحماسة للتبريزي ١٢١/١ ، القاموس المحيط ٢٣٧/١ ، المزهر ٤٥٧/٢ ، تهذيب تأريخ دمشق ٥٢/٧ ، وجاء في اللسان (طرمح) : أنه لا يكاد يوجد في الكلام ، على مثال فعلال الا هذا — أي الطرماح — وقولهم السجلاط . لضرب من النبات ، وقيل هو بالرومية ، سجلاطس ، وقالوا : سنمار وهو أعجمي أيضاً .

[٢] طبقات النحويين ٢٤٩ ، سئل أمان بن الصمصامة ، حفيد الطرماح ، لم قيل لجدك : (الطرماح) ؟ وما الطرماح في كلام العرب ؟ فقال : « أما في كلامنا — معشر طيء — فانه الحية الطويل » . وأنشد أبو عمرو الشيباني في الطرماح :

فهو طرماح قليل طبعه مثل الحصان جيب عنه برقعه

يزعزع الدلو ولا تزعزعه

[٣] في كثير من المصادر : « وكان يلقب بالطرماح » ولا معنى لذلك إذ أن « الطرماح » اسمه ، لا لقبه . ومن الواضح أن لفظة « الطرماح » في مثل المواضع ، ما هي إلا تصحيف للفظة « الطراح » ، وانفردت طبعة دار الكتب من الأغاني (١٢ / ٣٥) ، بضبط ذلك وتصحيحه ، دون سائر =

ألا أيها الليل الذي طال أصبح ... بيم وما الاصباح فيك بأروح
بلى إن للعينين في الصبح راحة ... بطرحهما طرفيهما كل مطرح(١)

ويكنى الطرماح : أبا نفر . وأبا ضبية(٢) ، والأخيرة تغلب عليه ، فهي تتردد في حديث صديقيه الكميت وذي الرمة معه (٣)

أســرته ، ونفر اسم ابن له (٤) ، ولم أجده يذكره في شعره . ونفر — في الوقت عينه — اسم أحد أجداده (٥) .

= الطبعات الاخرى ، ودون سائر المراجع الأدبية ، التي ترجمت للطرماح . كما انفرد العيني بذكر : أن اسمه «الحكم» ولقبه الطرماح ٢٧٦/٢.

[١] الديوان (١ ، ٢ — ١) (البيتان الاول والثاني من القصيدة الاولى) . وقد كرر الشاعر مثل هذا التعبير مرات عدة :

فاطرح بطرفك هل ترى أظعانهم ... فالطامسية دونهن فثرمد

المعاني الكبير ٧٥ ، الخصائص ١ / ٣٢٩ .

[٢] كنى الشعراء ٢٩٠ ، البيان والتبيين ١ / ٦٢ ، الحيوان ٣ / ١١٢ ، الشعر والشعراء ٣٧١ ، الأغاني (دار الكتب ١٢/ ٣٥ ، ٣٨) ، ومعنى نفر من النفور عن الشيء أو من نفر الرجل ، الذين ينفرون بنفوره ، ومن ذلك قولهم : لا في العير ولا في النفير ، أي لا ممن يخرج في العير للتجارة ، ولا ممن ينفر في الحرب : الاشتقاق : ٣٩٢) ، وفي الكامل للمبرد ٢٩١ :

لست في العير يوم يحدون بالعير ولا في النفير يوم النفير .

[٣] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٨) .

[٤] الأمالي للقالي ٢/ ٢٩٠ وجاء فيه : «.. حدثنا أبو بكر بن دريد ، قال : حدثني عمي الحسين ، عن أبيه ، عن ابن الكلبي ، عن أبيه ، عن الذيال ابن نفر ، عن الطرماح ..» وأنظر كنى الشعراء ٢٩٠ ، أما ناشرا الديوان ، فلم يتحقق من كون نفر ابناً له ، ويظنه كنية ، فهو يقول : «لا نعرف حقاً ما إذا كان له ولد ، بهذا الاسم أم لا : مقدمة الديوان P. xx١١٠» والناشر الكريم في هذا على خطأ .

[٥] الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر .

ولم يرد كذلك في شعره أي ذكر لضبيبة (١) . وناشر ديوانه « كرنكو » يظن أن « ضبيبة » بنت (٢) .

ويتردد بكثرة في شعره ، من أسماء أبنائه ، ذكر « صمصامة » ، بل هو لايذكر ـ من ولده ـ غيره قطعاً . بينما نجد . الدكتورة القلماوي تقول : « إنه ذكر ابنيه »(٣) . ويبدو أن صمصامة أكبر أبنائه ، فهو يبثه حديث نفسه ، ويقص عليه قصة الخلاف ، الذي وقع بينه وبين زوجه « سلمى »(٤) . وله ابن آخر هو « صبيرة » (٥) ، ولا يبعد أن يكون « ضبيبة » تصحيفاً « لصبيرة » .

ولشاعرنا أحفاد ، لهم ذكر في حقل الأدب والرواية والسياسة ، منهم

---

[١] في كل المصادر « ضبيبة » ومن ضمنها الأغاني (ساسي ١٠ / ٤٨) ، وطبعة صيدا ١٠ / ٣٢٧ ، وتنفرد الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٨ بتحقيقها على : « ضبينة » . وضبينة كسفينة : أبو بطن ، انظر القاموس المحيط ٤ / ٢٤٣ .

[٢] مقدمة الديوان ١١٠ p. xx .

[٣] أدب الخوارج ١٠٦ .

[٤] احاذر يا صمصام إن مت أن يلي ... تراثي واياك امرؤ غير مصلح
إذا صك وسط القوم رأسك صكة ... يقول له الناهي ملكت فأسجح
وناصرك الأدنى عليـــة ظعينة ... تميد اذا استعبرت ميد المرنح
أصمصام ان تشفع لامك تلقها ... لها شافع في الصــــدر لم يتبرح
هل الحب الا أنها لو تعرضت ... لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي
وان كنت عندي أنت أحلى من الجنى ... جنى النحل أضحى واتناً بين أجبح

انظر الديوان « ١٦ ـــ ١ » ، « ٦ ـــ ١٤ » .

[٥] الأغاني « دار الكتب ٦ / ٩٤ » جاء فيه « . . قال أبو عبيدة : حدثني يحيى ابن صبيرة بن الطرماح بن حكيم عن أبيه عن جده الطرماح . . . » ، والحديث يتعلق باغتصاب حماد قصيدة من شعر الطرماح ، وقد روى الحديث صبيرة عن أبيه الطرماح ، كما هو ظاهر من النص .

يحيى بن صبيرة (١) ، الذي روى عنه أبو عبيدة . ومنهم الذيال(٢) بن نفر ، الذي روى عنه ابن الكلبي . ومن أحفاده أيضاً أمان ابن الصمصامة ، وكان هذا شاعراً وراوية للشعر ، ونحوياً من نحاة القيروان عالماً باللغة ، وكان حافظاً لشعر جده الطرماح ، وعاش أمان « أبو مالك » مكرماً ، طوال حكم المهالبة شمال أفريقيا ، وعلى عهد روح بن حاتم المهلبي بخاصة . فقد كانوا يقربونه ، ويكرمونه . أيام ولا يتهم . فلما تولى ابراهيم بن الأغلب أفريقيا ، عام « ١٨٤ هـ » ، وكان هذا ينتسب الى تميم ، اطرحه ، بسبب هجاء جده الطرماح ، لبني تميم (٣) .

أما زوجه « سلمى » ، فيبدو أن لها أثراً بعيداً في حياته ، وفي شعره ، فغزله فيها صادق جميل ، يتدفق شوقاً وحنيناً اليها ، وهو يذكرها فيه ، متغزلاً أو شاكياً لوعة الفراق ، وألم الغربة ، أو محدثاً إياها ، في شؤون حياته الخاصة وعمله :

اذا ذكرت سلمى له فكأنما ... تغلل طفل في الفؤاد وجيع

ولنسمع اليه وهو يخاطبها :

كأن فؤادي بين أظفار طائر ... إذا سنحت ذكراك من غير مسنح

وذكراك ما لم تسعف الدار بيننا ... تباريح من عيش الحياة المبرح

---

[١] الأغاني « دار الكتب ٦ / ٩٤ » نص الرواية السابقة ، ويحيى هو الذي روى الخبر عن أبيه صبيرة ، كما هو ظاهر في النص السابق .

[٢] الأمالي للقالي (ط . السعادة ٢/٢٩٠) : « .. عن الذيال بن نفر عن الطرماح بن حكيم .. »

[٣] طبقات النحويين ٢٤٥ ، بغية الوعاة ٢٠٠ ، ٢٠١ ، معجم الأدباء ٧/٥١ ، وعد صاحب جمهرة أنساب العرب ٤٠١ ، أماناً هذا ، من ولد الطرماح الأكبر بن عدي بن عبد الله بن خيبرى ، وهذا خارجي صفري ايضاً ، وقد أخطأ في ذلك ، لاننا رأينا الطرماح (شاعرنا) ، يذكر (صمصامة) ابنه (أبا أمان هذا) في شعره .

وهذا شعر ، يفيض جمالاً وشوقاً وإخلاصاً . وبعض شعره فيها يصور جفوة وقطيعة وقعت بينهما ، قد يكون سافر على اثرها الى كرمان ، وقد رأينا : أنه كان يحدث ابنه صمصامة في شأن هذه القطيعة ، ويبدو من خلال قصائده في ذلك ، أن ابنه « صمصامة » شفع لامه عند أبيه ، في هذا الخلاف (١) . والطرماح يدعوها ، أحيانا : سليمى وسلمة وسلم . ويسميها الزمخشري سليمة(٢).

والطرماح ، سليل بيت مشهور في طيء (٣) ، ومن أسرة ، عرف رجالها بالشجاعة والكرم والشعر ، فجده قيس بن جحدر شاعر . وكان وفد في جمع من قبيلته طيء على الرسول الكريم ، للاسلام ، في السنة التاسعة للهجرة(٤).

وقد أسر قيس(٥) في احدى الغزوات ، أسره بعض ملوك بني جفنة ، في الشام ، أو بعض ملوك الحيرة ، فشفع فيه ابن خاله ، حاتم الطائي الشاعر الجواد عند الملك ، فوهبه له ، وأطلقه ، قال :

---

[١] الديوان : (٥ الى ٢٤ ــ ١) ، (٦ ، ٧ ، ٨ ــ ١٤) .

[٢] الديوان ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٦ ، ١٦٤ ، الأساس « ملح » ، « تور » .

[٣] الشعر والشعراء ٣٧١ ، الأغاني (دار الكتب ١٢/٣٥) ، دائرة المعارف الاسلامية النص الانجليزي « الطرماح » .

[٤] الشعر والشعراء ٣٧١ ، المعارف ٤٢٢ ، جمهرة أنساب العرب ٤٠٢ ، الاستيعاب ٣ / ١٢٨٤ ، أسد الغابة ٤ / ٢١٠ ، الاصابة ٣ / ٢٣٣ ، تهذيب تاريخ دمشق ٧ / ٥٢ ، دائرة المعارف الاسلامية . النص الانجليزي ، مادة « الطرماح » .

[٥] النقائض ١٠٨١ ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ الشعر والشعراء ٣٧١ ، الأغاني (الساسي ١٩ / ١٢٧ ، ١٢ / ٩٨) والواقع أن قصة أسره غامضة ، فيها خلط كثير ، في اسم الملك الذي أسره ، فهو مرة من ملوك بني جفنة ، وأخرى من ملوك الحيرة . وهو مرة ، عمرو بن هند ، وأخرى النعمان بن المنذر بن الحارث ـ وتقول الدكتورة سهير القلماوي ،أدب الخوارج ٩٥ : « لانعرف سبب أسره » . أنظر الكامل للمبرد ١٤٧ والأغاني « الساسي ١٩/١٢٧ » لتعرف سبب الأسر .

فككت عدياً كلها من أسارها　　　فأفضل وشفعني بقيس بن جحدر
أبوه أبي والأمهات امهاتنـــا　　　فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري(١)

وفي قصة أسره هذه ، اضطراب ، وفيها خلط ، وتروى فيها ، أيضاً ، أبيات كثيرة لقيس (جد الطرماح). ويظهر أن من المحرضين على غزو طيء ، رجلاً يقال له : زرارة بن عدس ، وهو تميمي (٢). ولا أظن هـذا يجدي في تفسير التهاجي والمناقضة . بين الفرزدق والطرماح ، فيمـا بعـد . وقد ذكر الطرماح جده قيساً في شعره ، وفخر به وقال :

أنا ابن بني نفر بن قيس بن جحدر　　　بني كل عطاف اذا الخيل ولت (٣)

كما ذكره ، في قصة رواها عن بعض رجال طيء . من ذوي الرأي والحجى(٤) ، وهو يدعوه « الأغر »(٥) ومن أجداد الطرماح المعروفين ، نفر بن قيس بن جحدر ، وهو شاعر أيضاً ، تروي له بعض كتب الأدب ، أبياتاً في في الغزل ، منها :

ألا قالت بهيشـــة مالنفر　　　أراه غيرت منه الدهور (٦)
وأنت كذاك قد غيرت بعدي　　　وكنت كأنك الشعرى العبور (٧)

---

[١] النقائض ١٠٨٣ ، الشعراء والشعراء ٣٧١ ، الأغاني «الساسي ١٩ / ١٢٨ » .
وصدر البيت الثاني ، في الشعر والشعراء : « أبوه أبي والأم من أمهاتنا :
[٢] زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم الحنظلي « من تميم » .
[٣] الديوان « ٨ ــ ٨ » .
[٤] الامالي للقالي ٢ / ٢٩٠ .
[٥] الديوان « ٩ ــ ٧ » :
جدي أبو حنبل فاسأل بمنصبه　　　أزمان أسنى ، ونفر بن الأغرأبي
يعني نفر بن قيس بن جحدر .
[٦] في اللسان « بهيشة » وهناك من يرويه « بهيسة » .
[٧] شرح الحماسة للمرزوقي ١/٢٧٧ ، ويروى « صدر البيت الثاني ، هكذا :
« فقلت وأنت قد غيرت بعدي » .

وقد ذكره الطرماح مفتخراً ، غير مرة(١) . ولقيس ولد آخر هو القعقاع والقعقاع . من الخوارج الاول ، فقد جاء في كتب التاريخ : أن جماعة من من أهل الكوفة ، ساروا يريدون الخوارج ، ليكونوا معهم ، فردهم أهلوهم كرهاً منهم القعقاع بن قيس الطائي ، عم الطرماح بن حكيم(٢) ، وفي شعر الطرماح ، ما يشبه الاشارة الى خروج عمه هذا ، قال :

عمي الذي صبح الحلائب غـــدوة من نهروان بجحفل مطناب (٣)

ومن رجال طيء المشهورين ، الذين كان يذكرهم شاعرنا مفتخراً ، زيد الخيل(٤) ، وحاتم الطائي ، وإياس بن قبيصة بن حية الطائي ، وأوس بن سعدى ، الذي كان أسر بشر بن أبي خازم ، فبر عليه ، ولم يقتله وكان بشر هجاه (٥) .

---

[١] الديوان (٨ ــ ٨) ، (٩ ــ ٧) : « أنا ابن بني نفر بن قيس بن جحدر . » ، « ونفر بن الأغرابي » .

[٢] الطبري حوادث سنة ٣٧ ، الكامل لابن الاثير ٣ / ١٧٠ (حرب النهروان) .

[٣] الديوان (٣ ــ ٩) ، انظر في قصة خروجه ، الكامل لابن الاثير ١٧٠/٣ .

[٤] زيد الخيل بن مهلهل بن زيد الطائي ، صحابي ، وفد على الرسول ، في وفد من طيء ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٢٦ .

[٥] الديوان ص ١٢٨ ، يقول الطرماح :

منا الفوارس والأعلام قد علمت عليا معد ومناكل ذي حسب
كعامر بن جوين في مركبه أو مثل أوس بن سعدى سيد العرب
المنعم النعم اللاتي سمعت بها في الجاهلية والفكاك للكرب
أو كالفتى حاتم اذ قال ماملكت كفاي للناس نهبي يوم ذي خشب
أو كابن حيـــة لماطر شاربه أزمان يملك أهل الريف والقتب
كم من رئيس عظيم الشأن من مضر ومن ربيعة نائي الدار والنسب
قد بات زيد الى الهطال قارنه مواشكاً للمطايا طيع الجـــذب

قبيلتـــه ، وقبيلة طيء ـ التي ذكرنا رجالها المشهورين ، من ذوي قربى الطرماح ـ من العرب القحطانية ، وهي ذات مجد قديم وذكر حميد .

سكنت طيء منذ القديم ، اليمن ، من جنوب الجزيرة العربية ، وانتقلت، على إثر انتقال الأزد منها بعد حادثة سيل العرم ، الى نجد والحجاز ، وحطت جنوبي صحراء النفود الكبيرة الى الشمال من نجد في جوار بني أسد ، ثم مالبثت أن غلبت بني أسد على جبلي « أجأ وسلمى » ونزلتهما (١) ، حتى صار ذكرهما يقرن أبداً بذكرها ، فدعيا بجبلي طيء (٢) ، وكانت عمرو بن ربيعة بن جرول ، عشيرة الطرماح سكان أجأ (٣) .

ونزول طيء الجبلين قديم، يرجع الى ما قبل الاسلام ، بقرون عـــدة ، سأل الحجاج يوماً ، أبا العسوس الطائي : « أي أقدم ، أنزول ثقيف الطائف ، أم نزول طيء الجبلين ؟ » فقال أبو العسوس : « ان كانت ثقيف من بكر بن هوزان ، فنزول طيء الجبلين قبلها ، وان كانت ثقيف من ثمود فهي أقدم »(٤).

ولقد كان لطيء مجد غابر ، وذكر مجيد بين العرب ، حتى أن اسمها كان يطلق على العرب بعامة باللغة الآرامية ، ومنها الى اللغة الفارسية ، ثم الأرمنية فالصينية (٥) .

وأسلمت طيء ، فيمن أسلم ، بعد الهجرة ، بفترة (٦) ، وشاركت في

---

[١] نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٢٦ ، صبح الأعشى ١ / ٣٢٠ ، معجم قبائل العرب ٢ / ٦٨٨ .

[٢] الكامل للمبرد ٧١ ، ١٨٦ ، ٤٤٢ .

[٣] جمهرة أنساب العرب ٤٠٢ .

[٤] الكامل للمبرد ٤٠٩ ، « وهناك من يزعم : أن ثقيفاً من بقايا ثمود ، لذلك غاظ جواب أبي العسوس ، الحجاج فقال : يا أبا العسوس اتقني ، فاني سريع الخطفة ، للأحمق المتهوك » ، والمتهوك هو المتهور .

[٥] خطط الكوفة ١٢ ، فجر الاسلام ٧ .

[٦] المعارف ٤٢٢ ، الاستيعاب ١٢٨٤ ، أسد الغابة ٤ / ٤١٠ ، الاصابة ٣ / ٢٣٣ .

الفتوح الاسلامية ، مشاركة فعالة ، كما كان لها دورها البارز في حربي الجمل وصفين ، وانتشرت على إثر الفتوحات والمعارك ، في العراق والشام ، من أمصار الدولة الجديدة ، وبقي معظمها في مساكنها في نجد .

ونزلت طيء في بداية تمصير الكوفة ، بناحية جبانة بشر ، أذ أقطع عمر ، عدي بن حاتم الطائي ، وسائر طيء ، هذه الناحية(١) .

وكانت طيء تشكل فيلقاً سابعاً ، من جند الكوفة ، في القتال (٢) ، في بداية تمصير هذه المدينة . فالكوفة كانت مقسمة — في الثلاثين سنة الاولى التي تلت تمصيرها — الى اسباع أي كادرات سبعة ، أو محلات سبع ، يحشر فيها المقاتلون للقتال ، أو يجتمعون حين توزع الغنائم والاعطيات .

ويبدو أنه كان لطيء سهمها الخاص في الغنائم ، منذ البداية . أما شأنها في صفين ، فقد كانت تشكل فيلقاً مستقلا ، كما كانت لها رايتها الخاصة بها ، على الرغم من أن علياً ، بعد حرب الجمل ، جعل طيئاً مع مذحج وأشعر ، في فيلق واحد ، هو الفيلق الثاني(٣) . وتعد طيء من القبائل الجنوبية نصف المتحضرة . ويبدو أن قسماً غير قليل من الطائيين ، نزل — بعد الفتح — في قرى الكوفة وسوادها ، كعين التمر الواقعة غربي الكوفة ، أو غير عين التمر ، من هذه القرى المنبثقة في السواد ، واختلط بسكانها الاصليين ، فنحن نقرأ في شعر الفرزدق ، الذي هجا به الطرماح ، ما يشعر بذلك ، إذ أنه يعيب على طيء نزولها حول عين التمر ، ويعيرها به (٤) .

---

[١] البلدان لليعقوبي ١٦٩.

[٢] خطط الكوفة ١٠ لماسينيون ، مرتباً ذلك عن الطبري ٢٤٩٥. (٣) خطط الكوفة ٦ ، ١٣.

(٤) ديوان الفرزدق : ٢ / ٨٢٣ ، ٢ / ٨١٩ ، ٢ / ٨٢٣ ، ١ / ٤٤ ، يقول :

أ — وان هجائى طيئا وهى طيء — نبيط القرى إحدى الكبار العظائم

ب — أري الاسد أنباط العراق ومذحجاً — وما طيء من مذحج بصميم

ج — وماكنت أخشى طيئاً أن تسبني — وهم نبط لم تعتصب بالعمائم

نبيط القرى لم تختمر امهاتهم — ولا وجدت مس الحديد الكوالم

د — وما طيء الا قبائل انزلت — الى أهل عين التمر من كل جانب

وعلى ذلك ، فقد سكن الكثير من أتباع طيء ـ قبيلة الشاعر ـ الكوفة ، وكانت مكانتهم فيها طيبة ، ومركزهم جيداً .

وأيام قحطان . وبطونها بعامة ، وطيء بخاصة ، وكذلك تأريخها ومواقعها معين ، يغرف منه الطرماح ، في فخره وهجائه ومناقضاته . فأمواه الطائيين ، وجبالهم ، وديارهم ، وأسماء رجالهم المشهورين ، مبثوثة في ثنايا قصائده .

هو ـ اذن ـ شاعر من قبيلة قحطانية كبيرة ، لها كيانها الخاص ، ومركز اسرته فيها جيد ، مرموق ، ورجال هذه الاسرة مشهورون ، بالكرم والشجاعة والشعر . وحسبنا بحاتم الطائي وابنه عدي دليلا .

الفصل الثالث

حياته

أولا - ولادته ونشأته

ثانياً - الطرماح الرجل

ثالثاً - في بلاد فارس

رابعاً - العودة الى الكوفة

أين ولد الطرماح ؟ وأين نشأ ؟ ومتى ولد ، ومتى مات ؟

ليست هناك في الواقع ، أية إشارة في مصادر دراسته ، تعين ، بأي شكل من الأشكال ، على تعيين زمان ولادته بشكل دقيق ، كما أنه ليست هناك ، أية إشارة فيها الى زمان وفاته .

أما مكان ولادته ونشأته ، فهو موضوع خلاف يكتنفه الغموض ويلفه التناقض ، لأن المصادر فيه على اختلاف ، اختلافها في معتقده السياسي والديني وتعيين فرقته الخارجية ، واختلافها في امور كثيرة تتعلق بشعره وحياته .

ومن خلال كل الأخبار المتعلقة بحياة الطرماح ـــ وهي قليلة ومتناقضة ـــ وبالاستعانة بشعره ، نستطيع أن نقسم حياته ، الى فترات أربع .

أما الفترة الاولى ، فتتعلق بولادته ونشأته ، والاختلاف فيهما ، وأسباب هذا الاختلاف ، ومصادره .

أما الفترة الثانية ، فقد درست فيها الطرماح رجلاً ، تكاملت له أسباب الثقافة وتوافرت أدواتها . وهي تتعلق بوجوده في الكوفة ، وامتهانه التعليم ، وتبريزه في الخطابة ، واختلافه الى مسجدها ، يشهد حلقاته الأدبية والدينية ، ويلتقي بشعرائها ورواتها وفقهائها .

والفترة الثالثة ، تتصل باغترابه الى بلاد فارس ، في بم أو الري أو قزوين أو كرمان ، جندياً أو معلماً أو خارجياً مهاجراً من سخط السلطان .

ثم يعود مرة اخرى الى الكوفة ويقيم فيها الى منتهى حياته . على أنه لا يمل التنقل منها تنقلا يسيراً ، الى البصرة أو واسط أو سواهما ، مادحاً أو طالباً للعمل . فتكون ـــ عندي ـــ هذه الحقبة ، الفترة الرابعة من حياته . وهي فترة خصبة في نشاطه الأدبي والسياسي .

وأعتقد أن هذا التقسيم ، سيجعل متابعة نشأته وحياته يسيرة ، فضلا على أنه سييسر لنا دراسة شعره ، إذ يوفر نوعاً من الترتيب الزمني لقصائده ، كما سيساعدنا في متابعة التطور الفني والفكري ، في شعره ، إذ اننا سنلاحظ نتاجه الأدبي ، في كل فترة من هذه الفترات :

أولاً - ولادته ونشأته :

أما ولادته ونشأته ، فالمصادر فيها قسمان ، منها ما يشير الى أن ولادته ونشأته ، كانتا في الشام ، ثم انتقل منها الى الكوفة ، مع من وردها من جيوش أهل الشام ، ونزل في تيم اللات بن ثعلبة [1] . هذه رواية المدائني ، عن أبي بكر الهذلي ، انفرد بذكرها أبو الفرج ، ولا يتابع أبا الفرج ، الا بعض المصادر ، في هذا الرأي ، كالبغدادي ، الذي ذكر أن : « مولده ومنشأه بالشام ثم انتقل الى الكوفة ، مع من وردها من جيوش أهل الشام » [2] . وواضح من أسلوب روايته ، أنها منقولة عن رواية الأغاني ، ويرجح كرنكو . (ناشر ديوانه) هذه الرواية ويوثقها ، فيعد ولاته ونشأته ، في سوريا [3] .

ونستنتج ، من هذه الرواية — إذا صحت — أنه انتقل الى الكوفة جندياً ، باعتبار أن نشأته تمت في الشام . ومن المرجح في هذه الحالة . أن انتقاله تم بعد سنة سبعين ، مع جيوش عبد الملك التي قمع بها عصيان مصعب ابن الزبير [4] . ومعنى ذلك ، أنه جاء الكوفة ، وهو في العقد الثالث من عمره.

وليست لدينا لدينا أية صورة عن طبيعة هذه النشأة في الشام . فنحن نجهل جهلاً تاماً كل ما يتعلق بتفصيلاتها ، فلا نعرف في أي جزء من الشام نشأ ولا في أي بيت ، ذلك أن رواية المدائني أشارت الى نشأته فيها حسب ، ثم انتقلت به الى الكوفة ، بعد ذلك .

---

[1] الأغاني (دار الكتب ٢/ ٣٥ ، ٣٦) .

[2] خزانة الأدب ٣ / ٤١٨ ، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ / ٥٢ .

[3] مقالته عن « الطرماح » في دائرة المعارف الاسلامية (النص الانجليزي) ، مقدمة الديوان .

[4] الكامل لابن الأثير ٤ / ٩—١٨ ، مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٧ سنة ١٩٤٢ ص ٤٩ مقالة للاستاذ خليل مردم .

وتضيف هذه الرواية ، أنه لازم . في الكوفة ، شيخاً وقوراً ذا سمت وهيئة ، من بني تيم اللات ، ملازمة شديدة ، أخذ فيها عنه ، مذهبه الخارجي .

والرأي الثاني ، في نشأته ، يؤكد : أنها كانت في سواد الكوفة . وقراها . ومصدر هذا الرأي ، أبو عمر بن العلاء ، وشعبة بن الحجاج ، وابن قتيبة :

حكى أبو عمرو بن العلاء : « أنه رأى الطرماح بسواد الكوفة ، وهو يكتب ألفاظ النبيط ، ويتعلمها ، ليدخلها ، في شعره »(١) . ومرحلة التعلم تكون عادة في الصغر .

وروى الاصمعي(٢) : أن شعبة بن الحجاج ، أخبره : أنه سأل الطرماح : «أين نشأت ؟» فأجابه : « بالسواد »(٣) . وهذه الرواية ، اذا صحت ، أبلغ في الدلالة . على نشأته بالسواد ، فهي تحمل اعتراف الطرماح نفسه. ونص ابن قتيبة (٤) على أن الطرماح : « كان نشأ بالسواد » (٥) .

تقوي هذه الروايات ، وترجحها ، آراء العجاج ، في الطرماح ، اذ يذكر أنه قروي . يشير الى نشأته بالسواد ، تحدث عن الكميت والطرماح ، قال : « كانا يسألانني عن الغريب ، فأخبرهما به ، ثم أراه في شعرهما ، وقد وضعاه في غير مواضعه ، فقيل له ولم ذاك ؟ قال : لأنهما قرويان ، يصفان مالم يريا ،

---

[١] الموشح ٢٠٨ .

[٢] عبد الملك بن قريب ، صاحب الأصمعيات ، عربي صريح ، من باهلة ، من طبقة أبي عبيدة وأبي زيد ، كان لا يجوز الا أصح اللغات ، مات (سنة ٢١٦هـ) .

[٣] الموشح ٢٠٨ ، ويعلق الأصمعي على هـذا بقوله : « وهو قوله : طال في شط نهروان اغتماضي . وانظر مراتب النحويين ٧٤ .

[٤] أبو عبد الله ، محمد بن مسلم بن قتيبة ، عالم بالشعر واللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه كثير التأليف ، ولد سنة ٢١٣ ومات سنة ٢٧٦ هـ .

[٥] الشعر والشعراء ٣٧٢ .

فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي ، أصف ما رأيت فأضعه في مواضعه »[1].

ويجدر بنا ، أن نلاحظ ، أن أبا عمرو وشعبة والعجاج ، عاصروا الطرماح ، وأن أبا عمرو بن العلاء يذكر أنه : رآه بسواد الكوفة ، وهو يكتب ألفاظ النبيط ويتعلمها . أما ابن قتيبة ، فقد اتصل — كما رأينا — بحفيد الطرماح ، يحيى بن صبيرة ، ثم روى عنه[2] .

واذا أخذنا بنظر الاعتبار ، ما هجا به الفرزدق الطرماح ، من نزول قومه بقرية عين التمر ، في سواد الكوفة[3] ، ترجحت لنا كفة الروايات ، التي أكدت نشأته بالسواد .

ومما يلاحظ ، في جميع مصادر الروايات — سواء منها ما أشار الى نشأته في الشام . وما أكد نشأته في الكوفة — أن منها ما انفرد بذكر نشأته بالسواد ولم يشر الى نشأته في سواه ، في حين ذكر الأغاني ، الروايات التي تؤكد قرويته (٤) ، بجانب رواية المدائني المتعلقة بنشأته بالشام . ومعنى هذا أنه ليست هناك مصادر تنفرد بذكر نشأته في الشام . ويؤيد يوهان فك الروايات التي تؤكد نشأته في سواد الكوفة[5] .

وإذن نحن — في موضوع نشأته — أمام رأيين . واذ كنا نعرف ما للنشأة من آثار خطيرة ، في الأديب ، ومن ثم في نتاجه الأدبي ، واذ كنا نعرف أيضاً شدة ما بين بيئتي الكوفة والشام ، من فروق ، تبين لنا مدى خطر الرأيين .

---

[1] الأغاني (دار الكتب ٢ / ٩٧) والعجاج هو عبد الله بن رؤبة الراجز ، من بني مالك بن زيد مناة بن تميم ، مات سنة ٩٧ هـ ، لقب بالعجاج لقوله : « حتى يعج عندها من عجعجا » .

[2] الأغاني (دار الكتب ٦ / ٩٤) .

[3] ديوان الفرزدق ١ / ٤٤ :

وما طبيء الا قبـــائل انزلت الى أهل عين التمر من كل جانب

[4] الأغاني (دار الكتب ٢ / ٩٧) .

[5] العربية ٣٧ .

أما أن الطرماح شامي المولد والنشأة ، فاني أكاد أشك فيه ، وأنا أريد أن أستعجل الأمر ، فابادر الى ترجيح آراء أبي عمرو بن العلاء ، وشعبة والعجاج ، وابن قتيبة ، في ولاته ونشأته بالكوفة وسوادها . ومبررات شكي في أمر ولادته ونشأته بالشام ، وترجيحي لنشأته بالكوفة وسوادها كثيرة ، ذلك أن طيئاً ، نزلت الكوفة منذ تأسيسها ، ونزلت عين التمر ، وقرى السواد الاخرى وكان لها في الكوفة مركزها الجيد ، وقد رأينا : أنها كانت تشكل فيلقاً سابعاً ، واشتركت في صفين مع علي .

ورب قائل يقول : ان منازل طيء قريبة من الشام أيضاً (١) ، فاجيبه حينذاك : بأن أجداد الطرماح ، نزلوا الكوفة ، وشاركوا في أحداثها الكبرى ، وكتب التأريخ تحدثنا عن ذلك : فالطبري وابن الأثير يذكران ، في حديثهما عن خروج الخوارج ، وحرب النهروان ، أن جماعة من أهل الكوفة ، أرادوا اللحاق بخوارج النهروان : وأن القعقاع بن قيس الطائي ، عم الطرماح بن حكيم ، كان منهم ، لكن أهله ردوه عن ذلك (٢) . والطرماح نفسه يحدثنا عن هذه الحادثة أو ما يشبهها إذ يقول :

عمي الذي صبح الحلائب غدوة   من نهروان بجحفل مطناب (٣)

وليس ببعيد ، أن تكون فكرة نشأته بالشام ، نابعة عن هذه الروايات ، التي تتعلق بكون الشام منفى المشاغبين من أهل الكوفة ، فقد يكون أبوه أو عمه هذا ، أو أحد أجداده ، نفي الى الشام ، ضمن هؤلاء الذين كان ينفيهم الولاة والخلفاء ، الى الشام (حيث معاوية) ، إذ يرون في تصرفاتهم شغباً أو تمرداً أو خطراً ، يتهدد البلد .

---

[١] وما أصح قول الدكتورة سهير القلماوي : « فكونه طائياً ومساكن طيء قريبة من الشام لا يقدم ولا يؤخر فليس كل من انتمى الى قبيلة مولوداً في مساكنها .. أدب الخوارج ٩٥ » .

[٢] الطبري حوادث سنة ٣٧ ، الكامل لابن الأثير ٣ / ١٧٠ .

[٣] الديوان (٢ ـــ ٩) .

فكتب التأريخ ، تروي لنا حوادث ، نفي فيها من أهل الكوفة كثير : على عهد عثمان ، وفي ولاية سعيد بن العاص ، كما عرفنا .

وقد نقبت بين أسماء هؤلاء المنفيين ، فوجدت فيهم من أصبح خارجياً ، فيما بعد ، لكنني لم أعثر على أي ذكر لأحد من ذوي قربى الطرماح ، ضمن أسماء اولاء المنفيين .

وخلال هذا التنقيب عرفت أن عدي بن حاتم الطائي لجأ الى الشام هرباً بعد الغزوة الاولى ، التي غزيت فيها طيء ، عام (١٢ هـ) ، حين أرسل الرسول «ص» علياً ، للدعوة للاسلام . لكن عدياً عاد وترك الشام وأسلم (١) ، ثم سكن الكوفة ، في مبدأ تمصيرها ، حيث أقطعه عمر ، هو وسائر طيء ، ناحية جبانة بشر ، كما تقدمنا (٢) .

ودليل آخر ، نحسب أن له خطره في أمر هذه النشأة ، ذلك هو شعر الطرماح نفسه ، فهو على كثرة ما تغنى فيه بأيام طيء وقحطان وأمجادها ، وعلى كثرة ما ردد من ذكر مواقعها ، وما عدد من جبالها ووديانها وشعابها وصحاريها ومفازاتها ، وعلى كثرة ما ذكر من البلدان والقرى والفجاج لم نره يجعل للشام من كل ذلك نصيباً ، مهما يكن ضئيلاً . ونحن نعرف توق الشاعر الى أيام طفولته ونشأته ، وحنينه الى ملاعب صباه ، ومراتع لهوه ، وذكره ذلك في شعره . أليس غريباً أن تكون ولادة الشاعر ، ونشأته في الشام ، ثم لا تحظى منه الشام ، بعد ذلك بذكر ، كذكره بم وقزوين والري وفج الربح وقاقزان وعوكلان وواسطاً والنهروان ؟ ، أو ذكره بعض المواضع والجبال والوديان ، في نجد والحجاز وقرى واسط والكوفة والبصرة ، كأجأ وسلمى والأريمين وبجاوة والبحرين وبزاخة وأثلة وأوارة وبابل وتل المضيح وحيران وتوازن وسواها ؟ .

بين كل ذلك لم يرد ذكر موضع في الشام ، سوى مرة واحدة ، لا على

---

[١] الكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٤ .

[٢] البلدان لليعقوبي ٦٠ .

سبيل الذكرى أو الوصف ، وانما على سبيل كون دمشق مركز الخلافة ذلك حين ذكر نصرة الأزد للخليفة ، بعد عصيان قتيبة بن مسلم ، ومساهمتهم في قتله : قال :

فعزنا نصر النبي محمد ... وبنا تثبت في دمشق المنبر (١)

وكان هذا عام (٩٦ هـ) أي قبل وفاته بعشر سنوات تقريباً ، كما سنعرف.

ومثل ذلك مرة ثانية ، ذكر فيها نصرة القحطانيين في الشام للخليفة ، إثر ثورة يزيد بن المهلب ، عام (١٠٢ هـ) ، قال :

ونجاك من اسد العراق كتائب ... لقحطان أهل الشام يوم استهلت(٢)

وهذه الاشارة ، كانت في أواخر حياته أيضاً ، وقبل وفاته بثلاث سنوات تقريباً .

واذا عرفنا أن الطرماح ذكر حتى « نيل مصر »(٣) ، في شعره ، وهو وهو لم يره قطعاً ، تبين لنا أن أهمية البيتين السابقين قليلة .

وأحسبني أطلت ، في تفصيل ما ينفي نشأته في الشام ، وأهملت ذكر الاشارات ، التي تؤيد نشأته في سواد الكوفة ، في شعره ، وحسبي أن أذكر هنا مطلع قصيدته الثانية :

قل في شط نهروان اغتماضي ... ودعاني هوى العيون المراض(٤)

فهو يشير بوضوح ، الى أنه قضى فترة الصبا في هذا السواد ، وقد كان الأصمعي يستشهد بهذا البيت ، على نشأته بالسواد (٥) . ومن خلال ذلك ، نستطيع أن نرجح آراء أبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وابن قتيبة ، في

---

[١] الديوان (١٠ ـ ٢٥) .

[٢] الديوان (١٤ ـ ٨) .

[٣] الديوان (٤ ـ ١٧) .

[٤] الديوان (١ ـ ٢) ، وفي الموشح ٢٠٨ : طال في شط نهروان اغتماضي .

[٥] الموشح ٢٠٨ .

أمر هذه النشأة .

وإذ قد فرغت من ترجيحي لولادته ونشأته بهذا السواد ، وانتهيت من ذكر بواعث هذه الترجيح ودواعيه ، أبدأ بتتبع نشأته ، خلال هذا العصر ، في هذه الفترة من حياته .

أعد الشاعر نفسه ، في هذه الفترة ، إعداداً أدبياً . فقد تعلم اللغة ، وعني عناية خاصة بغريبها ، ذكر الأصمعي : أنه تعلم الغريب ، وكان يسأل فيه ، ويأخذه من أصحابه ، كرؤبة والعجاج (١) . وقد مر بنا : أن أبا عمرو بن العلاء رآه بسواد الكوفة ، وهو يكتب ألفاظ النبيط ، ويتعلمها (٢) . ولا يفوتنا أن هذا العصر ، كان عصر العناية باللغة جمعاً ، ووضع قواعد ، واستقصاء غريب .

ويبدو أن الطرماح برع كثيراً في ذلك ، فشعره يعج بطائفة من النادر ، وغير المسموع ، مما يعيا بفهمه علماء العربية ، سأل محمد بن حبيب(٣) ، محمد ابن الأعرابي(٤) ، عن ثماني عشرة مسألة ، كلها من غريب شعر الطرماح . فلم يعرف منها واحدة ، يقول في جميعها « لا أدري لا أدري »(٥) .

وكما تعلم الغريب ، تعلم النحو ، ودرسه ، يقول المازني : « سمعت الأصمعي ، يقول الكميت تعلم النحو وليس بحجة ، وكذلك الطرماح » (٦)

---

[١] الأغاني « دار الكتب ٢ / ٩٧ . ١٢ / ١٣٧ » ، الموشح ١٩٢ .

[٢] الموشح ٢٠٨ .

[٣] محمد بن حبيب . من موالي بني هاشم ، لا يعرف أبوه ، نسب الى أمه حبيب ، كان من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب ، مات سنة (٢٤٥ هـ)

[٤] محمد بن زياد من موالي بني هاشم ، كان أبوه عبداً سندياً ، وهو إمام في اللغة ورواية الأشعار ، أخذ عن المفضل الضبي وعن أبي زيد الأنصاري ، مات سنة « ٢٣٢ هـ » .

[٥] الأغاني « دار الكتب ١٢ / ٣٦ » ، أمالي اليزيدي ٧٤ .

[٦] الموشح ١٩٢ ، ٢٠٨ ، المزهر ٢ / ٣١٦ .

ويبدو أنه كان يعني أيضاً ، بجمع الأخبار ، فصديقه الكميت ، يشير الى أنه كان راوية خطيباً فصحياً ، انشد الكميت بيت الطرماح :

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد(١)

فعلق على ذلك قائلاً : « اي والله ، وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة »(٢) .

وعلى الرغم مما تشير اليه الأخبار ، من مقدرته في الرواية ، فاننا لم نعثر الا على القليل من ذلك ، كالرواية ، التي نقلها عنه حفيده الذيال بن نفر (٣) ، وفيها طرفة وقصة ، والرواية ، التي نقلها عنه حفيده الأخر ، يحيى بن صبيرة(٤) ، وفيها حديث عن حماد الرواية ، وذكائه في الحفظ ، وقدرته على النحل ، وبراعته في صناعة الشعر .

إذن ، فالطرماح تعلم النحو ، ودرسه ، وطلب الغريب ، وألح في طلبه ، ثم اصطنعه في شعره ، وتتبع الأخبار والروايات ، ولابد أن هذا التتبع ، وما يتصل منه بالشعراء والشعر ، كان ذا أثر بعيد في صقل مواهبه الشعرية ، فقد اطلع من خلاله على أدب الماضين ، وخبر أساليبهم ، وعرف معانيهم ، فشعره يصور ذلك أبلغ تصوير .

---

[١] الديوان (١ ــ ٢٣) .
[٢] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٦) .
[٣] الأمالي للقالي ٢ / ٢٩٠ .
[٤] الأغاني (دار الكتب ٦ / ٩٤) .

ثانياً - الطرماح الرجل :

أما الفترة الثانية من حياته ، حين تجاوز دور النشأة والتعليم ، فالمصادر مجمعة على وقوعها في الكوفة ، فروايات الأغاني ، ومن تابعه ، ذكرت - بعد أن أشارت الى نشأته في الشام - أنه انتقل الى الكوفة ، ونزل في بني تيم اللات ابن ثعلبة (١) . أما أبو عمرو بن العلاء وشعبة والعجاج وابن قتيبة ، فقد أكدوا - كما رأينا نشأته بالسواد .

انتقل الطرماح الى الكوفة ، رجلاً تهيأت له كل أسباب الثقافة ، فقد تعلم النحو ، وروى الشعر والأخبار ، وعرف الغريب ، وتعلم من النبطية ما تعلم ، وعرب منها ما عرب ، قال أبو عمرو : « رأيته بسواد الكوفة يكتب ألفاظ النبيط ، فقلت ما تصنع بهذه ، قال اعربها ، وادخلها في شعري »(٢) .

قال الشعر في الكوفة ، بعد أن توافرت له أدواته ، وخالط من شعراء الكوفة وادبائها من خالط ، فقد اتصل بالكميت وكانت بينهما مودة وملازمة ، على اختلافهما في الرأي والمذهب والعصبية ، وعرف ذا الرمة (٣) ، وخلفاً الأحمر (٤) وحماداً ، وخالد بن كلثوم (٥) ، وابن شبرمة القاضي الفقيه ،

---

[١] من قبائل ربيعة ، كان بينها وبين تميم خصومات قديمة ، ونزلت شمالي الصحن من الكوفة .

[٢] الموشح ٢٠٨ .

[٣] ذو الرمة : غيلان بن عقبة ، من بني عدي ، صاحب مية ، مات سنة ١١٧هـ

[٤] خلف الأحمر راوية عالم بالأدب شاعر من أهل البصرة كان أبواه موليين. قال أبو عبيدة : « خلف معلم الأصمعي » ، وكان يضع الشعر وينسبه الى العرب . مات نحو عام ١٨٠ هـ .

[٥] خالد بن كلثوم نحوي صالح العلم بالشعر . يقال إنه كان أوسع في العربية من المفضل . ذكره الزبيدي في الطبقة الثانية من اللغويين الكوفيين .

والعجاج . ورؤبة [1] ، وسواهم، من الرواة والشعراء والأدباء واللغويين . وكان يختلف الى مسجدها الجامع فليتقي بهؤلاء وسواهم .

وقد امتهن الطرماح في الكوفة التعليم[2] ، وهل يحتاج المعلم ، في مثل هذا العصر ، الى اكثر من النحو واللغة والغريب والخبر والشعر ؟ فضلاً على إتقان القرآن ومدارسته ؟ فمما لا ريب فيه أن الطرماح درس القرآن ، دراسة وافية ، وتفقه بمعانيه ، ونحن نلمس ذلك بوضوح ، اذا قرأنا شعره ، فان روحاً دينياً يطغى على معانيه ، هو بلا شك ، أثر من آثار القران الكريم .

وقد أعانت الطرماح في هذه المهنة ، وجعلته مبرزاً فيها ، مقدرة خطابية ممتازة ، فالطرماح خطيب ، ذكر أبو عمرو بن العلاء : أن « الكميت والبعيث[3] والطرماح ، كانوا شعراء خطباء[4] ، وكان الكميت يطري مقدرته الخطابية[5] ، وذكره الجاحظ في الشعراء الخطباء[6] ، كما روى ابن قتيبة : « أنه كان خطيباً »[7] . والخطابة شديدة الصلة بالتعليم ، فانه يقوم عليها . وعلى الرغم من كثرة ماذكر عن موهبته الخطابية ، فانه ليس لدينا صورة واحدة من خطبه ، نلمس من خلالها صفات هذه الخطابة ، فكتب الأدب ، لم تذكر لنا منها شيئاً ،

---

[1] رؤبة بن العجاج عبد الله بن رؤبة الراجز الأموي المشهور ، كان أكثر مقامه بالبصرة ، ولد سنة ٦٥ هـ ومات سنة ١٤٥ هـ ، وقد كان علق الخليل لما مات بقوله : « دفنا الشعر واللغة والفصاحة » .

[2] الأغاني (الساسي ١٥ / ١٠٩) ، شرح الحماسة للتبريزي ١ / ١٢٢ ، تهذيب تأريخ دمشق ٧ / ٥٣ .

[3] البعيث خداش بن بشر بن خالد التميمي ، توفي بالبصرة عام ١٣٤ هـ .

[4] البيان والتبين « ط . لجنة التأليف والترجمة ٨٤/٤ ، ط. الاستقامة ٣٧٣/٣) .

[5] الشعر والشعراء ٣٧١ ، الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٦) .

[6] البيان والتبيين (ط. لجنة التأليف والترجمة ٨٤/٤ ، ط. الاستقامة ١ / ٦٢) .

[7] الشعر والشعراء ٣٧١ .

ولا بد أن الطرماح كان ذا موهبة ممتازة فيها ، مكنته من أن يكون ذا مقدرة خاصة في التعليم ، يكفي أن نقرأ ما قال عنها عبد الأعلى ، لندرك مداها ، قال : « رأيت الطرماح مؤدياً بالري ، فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ، ولا أجذب لأسماعهم ، الى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان ، يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء »(١) .

والكوفة بالنسبة اليه ، كانت مصدر عقيدته الأول ، ففي تيم اللات بن ثعلبة التقى ــ كما تصور رواية المدائني والبغدادي ــ بشيخ وقور ذي سمت وهيئة ، وكان الطرماح يطيل الجلوس اليه فأوحى هــذا اليه مذهبه الخارجي ، فقبله أحسن قبول ، وأعتقده أصح اعتقاد ومات عليه (٢) .

وكانت أيضاً مركز نشاطه الأدبي المبكر ، فقد كان يرتاد مجالسها الأدبية . فيها التقى ــ كما رأينا ــ بالعجاج ورؤبة وخالد بن كلثوم ، كما التقى بحماد الراوية ، وانشده قصيدته (٣) :

بان الخليط بسحرة فتبددوا والدار تسعف بالخليط وتبعد(٤)

والتقى بالكميت وذى الرمة ، وتناشدوا الأشعار ، وقرأ له من شعرهما ، كما انشدهما قصيدته (٥) :

---

[١] البيان والتبيين « ط. الاستقامة ٢/٣٣٤ » .

[٢] سأفصل الكلام في عقيدته الخارجية ومذهبه السياسي في فصل خاص .

[٣] الأغاني (دار الكتب ٦ / ٩٤) ، مجالس العلماء ٢١٦ ،

[٤] الديوان (١ ــ ٣) .

[٥] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٨) ، أنشدهما الكميت قصيدته :

« أبت هذه النفس إلا ادكارا » وأنشد ذو الرمة قصيدته التي يقول فيها

أأن توهمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

ثم قصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

وقصيدته التي يقول فيها :

وكأن تخطت ناقتي من مفازة إليك ومن أحواض ماء مسدم

اساءك تقويض الخليط المباين نعم والنوى قطاعة للقرائن(١)

والتقى بخلف الأحمر(٢) وشعبة بن الحجاج(٣) وأبي عمرو بن العلاء(٤)، وفي الكوفة ظهرت بواكير ذكائه، وفطنته، وكتب الأدب تروي لنا طرفاً يسيراً عن ألمعيته، ودقة ملاحظاته الأدبية (٥).

ومما يلفت الانتباه، في علاقاته مع أدباء الكوفة، صلته بالكميت (٦)، فقد كانت بينهما، صداقة وملازمة، ظلت موضع دهشة الناس وعجبهم، لصداقتهما مع اختلافهما، في المعتقد السياسي، والمذهب الديني، والنسب، يروي الجاحظ:

« أنه لم ير الناس أعجب حالاً من الكميت والطرماح، وكان الكميت عدنانياً عصبياً، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً، وكان الكميت شيعياً من الغالية، وكان الطرماح خارجياً من الصفرية، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة،

---

[١] الديوان (١ ــ ٤٧).

[٢] الأغاني (الساسي ١٥ / ١٠٩)،

[٣] شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي، مولاهم، ولد ونشأ بواسط، وسكن البصرة وأصبح محدثها، وهو من أئمة رجال الحديث، حفظاً ودراية وتثبتاً، قال الشافعي فيه: « لولا شعبة ماعرف الحديث بالعراق » وكان عالماً بالأدب والشعر، قال الأصمعي: « لم أر أحداً أعلم بالشعر من شعبة ». توفي في البصرة سنة ١٦٠ هـ.

(٤) الموشح ١٩٢، ٢٠٨.

[٥] الأغاني (دار الكتب ٤١/١٢)، مجالس العلماء ١٥٨، المصون في الأدب ٣٨٢).

[٦] الكميت بن زيد الأسدي وهو الشاعر الشيعي المعروف وشاعر ثورة زيد ابن علي بخاصة، فقيه محدث، وشاعر مقدم عالم بلغات العرب خبير بأيامها، من شعراء مضر وألسنتها، المتعصبين على القحطانية، عالم بالأيام والمثالب، ولد سنة ٦٠ هـ وتوفي سنة ١٢٦ هـ.

وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك ، من الخاصة والمخالطة ، مالم يكن بين نفسين قط »(١) .

فعجب الناس ، إذن ، كان لصداقتهما ، على اختلاف المذهب والنسب والبلاد (٢) .

ونحن نتساءل ، كما كان يتساءل الناس ، ونعجب كما كانوا يعجبون . . تساءل عما كان يجمعهما ، مع اختلافهما في المعتقد والمذهب والبلد ، ونعجب من قيام هذه الصداقة ، مع ما يوجب البغضاء .

ويتبادر الى الذهن ، قبل كل شيء ، موضوع المهنة . فالكميت معلم كالطرماح ، فلا شك أن هذه المهنة ومتاعبها ، وما يتصل بها ، كان يشكل نوعاً من الرابطة الثقافية ، بين الرجلين(٣) . وكما يتبادر موضوع المهنة ، يرد الذهن موضوع آخر ، هو : أن الرجلين شاعران خطيبان ، فضلاً على كونهما شغوفين بالغريب ، يطلبانه ويستعملانه ، في قصائدهما بكثرة ، فالاتجاه الأدبي عمل عمله في الجمع بينهما . وينبغي أن لا ننسى أن كلاً منهما كان حضرياً لم يلابس حياة البادية ولم يتصل بها اتصالاً مباشراً . ويلتمس الطرماح والكميت ، لتفسير صداقتهما مبرراً آخر ، فيقولان : « اتفقنا على بغض العامة »(٤) . ويعد الاستاذ

---

[١] البيان والتبين (الاستقامة ١/٦٣) ، الشعر والشعراء ٣٦٩ ، الأغاني (دار الكتب ١٢/٣٦) ، الابدال لأبي الطيب اللغوي ٢/٣٢٤ ، خزانة الأدب ٣ / ٤١٨ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٥٣ ، وانظر ديوان الأخطل ٢٥ .

[٢] خزانة الأدب ٣/٤١٨ ، والبغدادي ينسب الرواية الى ابن قتيبة .

[٣] يقول أبو عبيدة : « الشركة في الصناعة توجب البغض وما انصرفا قط الا عن مودة » تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٥٣ . وأبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ ــ ٢١٣هـ) ، عالم بصري ذكر الجاحظ أنه لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه ووصفه المبرد بأنه عالم بالشعر والغريب والأخبار والأنساب . وهو من الموالي وقيل إنه كان خارجياً .

[٤] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٦) ، خزانة الأدب ٣ / ٤١٨ .

الرواة هـذا الجواب ، تصديقاً للمثل اللاتيني القائل : « كل الشعراء ارستقراطيون » (١) .

ما مصدر هذا الكره ، وما دواعيه ؟ أما الطرماح ، فيبدو أنه كان لا يحب الا نفسه ، كما كان يعتقد : أن العامة تحسده وتبغضه ، وكان حسدها وبغضها يزيدانه ، حباً لنفسه ، وهياماً بها ، وهو يتغنى بذلك ، في شعره بل يتبجح به تبجحاً ، فيقول :

لقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض الى كل امرىء غير طائل
وأني شقي باللئام ولا ترى ... شقياً بهم الا كريم الشمائل(٢)

وكذلك الكميت ، كان يحس أن العامة تبغضه ، ويتوهم أنها تلومه ، على حبه آل البيت فيقول :

ألم ترني من حب آل محمد ... أروح وأغدو خائفاً أترقب
على أي جرم أم بأية سيرة ... أعنف في تقريظهم وأؤنب (٣)

وترى الدكتورة سهير القلماوي : « أن الكميت صادق الطرماح ، أيام لم يكن يتعصب للعدنانية »(٤) ، وترى أن تعصب الكميت لها كان متأخراً ، وهي تحصر هذا التعصب ، بين عامي « ١٠٥ و ١١٨ ه » ، أيام ولاية خالد القسري العراق ، حين دفع الكميت واستفز الى المنافرة ، ومعنى ذلك أنها ترى عرى هذه الصداقة انفصمت بعد تعصب الكميت وأنها كانت متينة قوية ، قبل هذا التاريخ .

وهي في هذا الرأي على خطأ . فالروايات تشير الى قيام هذه الصداقة على الرغم من وجود الاختلاف ، أي بعد الاختلاف ، وهذا هو سبب عجب العامة ، والدافع الى تساؤلها .

---

[١] تاريخ الادب العربي ١٧٢ .
[٢] الديوان (١ ، ٢ ـ ٤٠) .
[٣] هاشميات الكميت ٥٤ ، ٥٥ .
[٤] أدب الخوارج ١٢٧ .

« فكيف اتفقتما ، مع تباين المذهب ، وشـدة العصبية ؟ »(١) . وليس هناك من داع للعجب من قيام هذه الصداقة ، لو أنها كانت قبل تعصب الكميت ثم إن الطرماح مات نحو سنة (١٠٥ هـ) كما سنرى ، ومعنى ذلك أن الكميت تعصب بعد وفاة الطرماح ، اذا صح تحديد الدكتورة لتأريخ تعصبه ، ولا معنى لعجب العامة حينئذ من قيام الصداقة بينهما .

ما الأثر الأدبي لهذه الصداقة ؟ وهل أجدت شيئاً ، يستحق الملاحظة في مجال الأدب ؟ يرى الاستاذ الدكتور الجواري : في معرض حديثه عن تأثر الشعر بالحياة العقلية ، وعن الاتساع في الاحتجاج والاستدلال ، وغلبته على شعر الكميت في هاشمياته ، أن الطرماح ، باعتباره خارجياً ، أثر في اسلوب الكميت ، اذ يقول : « وها هنا مسألة ، أحسب أن لها خطورتها ، في هذا المذهب ، الذي سلكه الكميت ، فقد كان صديقاً للشاعر الخارجي الطرماح بن حكيم ، وكانت صلته به محـل استغراب الناس واندهاشهم ، للاختلاف الواضح في المذهب الديني والسياسي عند كليهما ، وكانا إذا سئلا في ذلك قالا : « اتفقنا على بعض العامة » ولعل لهذه العلاقة أثرها في سلوك الكميت مسلك الخوارج ، في الاعتماد على القرآن والحديث في تأييد مذهبه والاحتجاج له (٢) .

ولعلنا اذا وجدنا ديوان الطرماح — كاملاً — نلمس ظاهرة الاستدلال والاحتجاج ثم تأثيره في شعر الكميت . على أن اعتماد الطرماح على معاني القرآن والحديث كثير في سائر شعره وفي معاني الزهد والصلاح بخاصة .

في هذه الفترة كتب الطرماح قصائده القديمة ، الحافلة بالغريب والتي يحفظ ديوانه قسماً منها . وتطغى روح الفتوة والشباب على معاني شعره في هذه الفترة ، ويبدو ذلك واضحاً في القصيدتين (الثانية والخامسة) فقد صور لنا فيها ، انتقاله من حياة اللهو والعنجهية ، الى حياة الجد والرشاد :

---

[١] الاغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٦) .

[٢] الشعر في بغداد ٧٣

قل في شط نهروان اغتماضي ودعاني هوى العيون المراض
فتطربت للهوى ثم أقصرت رضى بالتقى وذو البر راض
وأراني المليك رشدي وقد كنت أخا عنجهية واعتراض
غير ما ريبة سوى ريق الغرة ثم ارعويت عند البياض (١)

ونلمس في القصيدة الخامسة ، تحولاً عن حياة الشباب ، فنجد الحكمة والموعظة ، كما نجد روح التقوى والصلاح والانابة :

ترك الدهر أهله شعبا فاستمرت من دونهم عقده (٢)
وكذاك الزمان يطرد بالناس الى اليوم يومه وغـده
لا يلبثان باختلافهما المرء وان طال فيهما أمده (٣)
عجبا ما عجبت للجامع المال يباهي به ويرتفـده
ويضيع الذي يصيره الله اليه فليس يعتقـده
يوم لا ينفع المخـول ذا الثروة خلانه ولـده
يوم يؤتى به وخصماه وسط الجن والانس رجله ويده
خاشع الصوت ليس ينفعه ثم أمانيه ولا لـدده (٤)
قل لباكي الأموات لا تبك للناس ولا يستتع به فنده (٥)
إنما الناس مثل نابتة الزرع متى يأن يأت محتصـده

---

[١] الديوان (١ الى ٤ ــ ٢) الاعتراض : النشاط والعجب والغرة أول الشباب .

[٢] استمرت اشتد فتلها .

[٣] لا يلبثان لا يؤخران ، من الليث وهو التأخير والابطاء .

[٤] اللدد شدة الخصومة .

[٥] ولا يستتبع أي لا يتمادى والفند الحمق والباطل .

والى جانب القصيدتين : الثانية والخامسة ، نستطيع أن نضيف القصيدتين : الثالثة ، والسابعة والاربعين ، على أنهما من آثار هذه الحقبة من حياته ، كما أميل الى عد القصيدة الرابعة ، من شعر هذه الفترة على الرغم من كونها خالية ، من أية اشارة الى أنها قيلت في الكوفة أو سواها ، الا أن اسلوبها وكثرة غريبها ، يضيفانها الى هذه الفترة .

ويلاحظ على قصائده هذه ، طولها وكثرة الغريب فيها ، كما يلاحظ خلوها من المدح أو الهجاء ، فكلها في الوصف ،

ثالثاً - في بلاد فارس :

قضى الطرماح ، الفترة الثالثة من حياته ، في بلاد فارس ، فهو لم يستقر في الكوفة . ويبدو أنه كان كثير التنقل ، شديد الاضطراب في مدن فارس . نجده مرة في كرمان في الجنوب الشرقي منها على ساحل البحر ، واخرى في قزوين في الشمال ، وثالثة في الري في أواسط بلاد فارس ، ورابعة في بم أو فج الريح . قضى الطرماح هناك فترة شوق أحس فيها بلوعة فراق زوجه وولده ويصور ذلك شعره .

ونحن لا نعرف - على وجه التحديد - زمن ذهابه الى فارس . كما لانعرف أيضاً ما الذي دفع به الى هذا السفر البعيد ، إنما نستنتج ذلك استنتاجاً ، ونخمنه تخميناً . والذي يتبادر الى الذهن ، أول الأمر ، أنه قصدها جندياً ، أو متكسباً طالباً للرزق : أو هارباً من سلطان .

غير أن ما نعرف من حب الطرماح للمال ، وسعيه من أجله - كما نرى - يرجح أن ذهابه كان للكسب والعمل ، يؤيد ذلك الترجيح ويقويه ، ما حكاه عبد الأعلى ، قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالري . فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ، ولا أجذب لأسماعهم ، الى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان ، يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء »(١) . ويؤيد بروكلمن هذا (٢).

ذهب الطرماح - اذن - للكسب ، ونحن أميل الى ذلك ، على الرغم من قسوة حكم الحجاج في العراق ، وعلى الرغم من الجفوة والقطيعة ، التي وقعت بين الطرماح وزوجه سلمى والتي تصورها القصيدة الاولى ، فضلاً على ما تصوره من شوقه الى ابنه . وحنينه الى العودة . فقد يكون سافر على إثر هذه القطيعة الى كرمان :

---

[١] البيان والتبيين (الاستقامة ٢/ ٣٣٤) .

[٢] تاريخ الأدب العربي ١ / ٢٤٤ .

أصمصام إن تشفع لأمك تلقها		لها شافع في الصدر لم يتبرح
هل الحب الا أنها لو تعرضت		لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي
وان كنت عندي أنت أحلى من الجنى		جنى النحل أضحى واتناً بين أجبح(١)

فجشمه وحبه الشديد للمال ، يفسران لنا اضطرابه ، وعدم استقراره ، وتنقله الكثير ، وأسفاره الطويلة . ويبدو أنه أصاب في هذه السفرة مالا وفيراً ، وخيراً كثيراً ، فهو يذكر ذلك في حديثه الى سلمى زوجه :

فيا سلم إن أرجع اليك فربما		رجعت وأمري للعدى غير مفرح
بلا قوة مني ولا كيس حيلة		سوى فضل (أيدي) المستغاث المسبح(٢)

ومن شعره ، الذي قيل في بلاد فارس ، نلمس بوضوح : أن بقاءه فيها كان على مضض :

لئن مر في كرمان ليلي فربما		حلا بين تلي بابل فالمضيح (٣)

ففراق سلمى زوجه ، يؤلمه ويعذبه ، ويدعوه للشكوى ، كما يدعوه الى التصريح بالجفوة ، وذكر القطيعة ، ثم يدعوه الى وصف عاطفته الملتاعة ، بهذا الغزل الجميل المؤثر ، فلا شك ان طوال الفراق أرهف عاطفته ، الى أهله وبلده وبنيه .

وهنا يمكن أن نلاحظ : أن القصائد التي يذكر فيها حنينه الى سلمى ، ويصف وجده وشوقه اليها ، من المحتمل أن تكون قيلت في بلاد الغربة . . كرمان أو سواها ، فنحن نجده ، يصور فيها مرارة الفراق ، ولوعة البعد ، كما يذكر حلاوة الحياة وصفوها ، قبل أن يترك وطنه . وسياق هذه القصائد ، يصور فراقه هذا قسرياً .

ونستطيع أن نلمس خلال شعره في هذه الحقبة من حياته في فارس ،

---

[١] الديوان (٦ الى ٨ — ١٤) أجبح جمع جبح ، وهو حيث تعسل النحل ، وواتن مقيم ،

[٢] الديوان (٤ — ١٤) أظنها (أيد) بمعنى القوة والنصرة .

[٣] المضيح جبل بناحية الكوفة .

بعض تعصبه لليمن وقحطان ، فبلاد فارس كانت ـ كسواها من أمصار الدولة لهذا العهد ـ مصطرعاً للقبائل العدنانية والقحطانية :

طربت وشاقك البرق اليماني ... بفج الريح فج القاقزان
الم ترأن عرفان الثريا ... (يهيج لي) بقزوين احتزاني(١)

والأمثلة على هذا كثيرة في شعره :

تحالف يشكر واللؤم قدما ... كما جبلا قنا متحالفان
سيعلم كلهم أني مسن ... اذا رفعوا عناناً عن عنان
يماني تبوع للمساعي ... يداه وكل ذي حسب يماني

وأستطيع ، أن احدد فترة بقائه في فارس . بولاية الحجاج العراق (٧٥ ـ ٩٥ هـ) ، أو بشطر كبير من هذه الولاية .

وما أظن أنه غادر العراق هرباً من الحجاج ، بسبب ميله الخارجي ، لأن شعره في فارس . لا يصور أي أثر من آثار مذهبه ، فضلاً على أنه يصور تعصبه لقحطان وميله لليمن ، وهجاءه للقبائل ، كما رأينا .

وليس من البعيد أنه غادر العراق ـ على عهد الحجاج ـ بسبب تعصبه لليمن وقحطان .

ويعود الطرماح الى الكوفة ، على أنه لا يطمئن فيها ولا يمل التنقل منها تنقلا يسيراً ، الى البصرة أو واسط أو سواهما ، مادحاً متكسباً أو طالباً للعمل سعياً وراء المال .

---

[١] الديوان القصيدة الثامنة والاربعون ، وفي الديوان (يهيج) وهو مكسور .

رابعاً ـ العودة الى الكوفة :

وإذا صح ما رجحناه ، من تحديد بقائه في فارس ، بولاية الحجاج العراق أو بشطر من هذه الولاية ، كان معنى ذلك : أن رجوعه كان بعد وفاة الحجاج سنة (٩٥ هـ) . ويتسق هذا الترجيح وأخبار الطرماح ، وينسجم مع الأحداث العـــامة .

عاد الطرماح بعد (٩٥ هـ) سنة مات الحجاج ، وقبـــل (٩٦ هـ) سنة مات الوليد بن عبد الملك (١) ، وكانت فتنة قتيبة بن مسلم الباهلي ، بعد موته ، وأحب أن أكتب عن هذه الفتنة ، لأنها كانت ـــ على ما أعرف ـــ سبباً في إنشاء أول قصيدة ، يذكر فيها الطرماح (مضر) بسوء ، ويعرض بها .

وسبب الفتنة ، أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل الولاية لابنه عبد العزيز من بعده ، ويخلع أخاه سليمان ، فدس في ذلك الى القواد والشعراء(٢) ، فبايعه على ذلك الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد ، وقام سليمان ، فأشفق منه قتيبة ، لأنه سعى في خلعه ، وعمل على بيعة عبد العزيز ، ولم يجد حلاً لأزمته ، في غير خلع سليمان ، فخلعه ودعا الناس في خراسان الى مثل ذلك ، فلم تجد دعوته صدى ، ولم يجبه أحد الى ما أراد ، فغاظه ذلك . وخطب في النـــاس ، موبخاً شـــاتماً ، وصب كل حنده ونقمته ، على تميم والأزد ، فكان أن تشاور الناس في ضرب قتيبة ، وإحباط الفتنة ، وكانت الأزد أول من تكلم في مقاومة دعوته . ولقد حسب خصوم قتيبة ، حساب مضر في هذه الأزمة ، فقد كانت تشكل ثلاثة أرباع فرسان خراسان ، وكان أكثر فرسان مضر من تميم ، لذا لجأ خصوم قتيبة الى تميم ، بزعامة وكيع ، وكان النصر على قتيبة (٣) . كان

---

[١] الطبري ١٢٨١ .

[٢] الطبري ١٢٨٣ .

[٣] الطبري ١٢٨٧ .

لاحباط هذه الفتنة صداه في العراق ، فقد حركت روح العصبية في قلوب شعرائه ، فانبروا يفخرون ببلاء قبائلهم في ضرب قتيبة . وكان من الطبيعي ، أن يبالغ كل شاعر في وصف ما أدت قبيلته من دور في شل الفتنة . فقال الفرزدق قصيدته المشهورة :

أتاني ورحلي بالمدينة وقعـــة لآل تميم أقعدت كل قائم

وقال الطرماح(١) قصيدته الخامسة والعشرين :

لولا فوارس مذحج أبنة مذحج والأزد زعزع واستبيح العسكر

مبيناً دور مذحج والأزد ، في القضاء على الفتنة ، ومبتهجاً بقتل قتيبة (القيسي) . وتولية يزيد بن المهلب بن أبي صفرة (اليماني) ، محاولاً الحط من قيمة مضر ودورها في اخماد الفتنة :

بالمرج مرج الصين حيث تبينت مضر العراق من الأعز الأكبر

اذ حالفت جزعا ربيعة كلها وتفرقت مضر ومن يتمضر

وتقدمت أزد العراق ومذحج للموت يجمعها أبوها الأكبر

ويبدو أن هذه القصيدة ، كانت مقدمة لفترة أدبية خصبة ، تبتديء بعودته الى الكوفة ، بعد موت الحجاج (٩٥ هـ) ، وتنتهي بموته في (١٠٥ أو ١٠٦ هـ) كما سنرى ، ولقد كان ازدحام هذه الحقبة من حياة العراق ، بالاحداث السياسية ، والصراع القبلي ، سبباً في نشاط الحياة الأدبية فيه .

قال الطرماح في هذه الحقبة أجمل شعره وأعذبه ، في الفخر والحماسة والهجاء والمناقضة . ولقد رقت لغته وعذبت ، وسهل أسلوبه ولان . وهو أبداً رقيق اللغة ، سهل الاسلوب ، في الفخر والهجاء . وأشهر ما قاله في هذه الفترة قصيدته الثامنة :

---

[١] يقول الاستاذ أحمد الشايب : « انه رثى قتيبة بن مسلم الباهلي في هذه القصيدة » تاريخ الشعر السياسي ١٨٠ . والقصيدة فيها فرح ظاهر ، بمقتل قتيبة ، وانتصار الخليفة ، فهي على هذا ليست قصيدة رثاء ، انظر الطبري ١٣٠٢ ، الديوان ١٤٧ .

الا ان سلمى عن هوانا تسلت وبت قوى ما بيننـــا وأدلت

وقد ناقض فيها الفرزدق في قصيدته :

أحل هريم يوم بابل بالقنا نذور نساء من تميم فحلت

كما قال القصائد : (السادسة والثالثة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين والحادية والثلاثين والأربعين) التي هجا فيها الفرزدق ، وبني تميم وأحلافها وأنسباءها ، كبني ضبة وبني سعد والنهشليين وسواهم .

وقال في هذه الفترة أيضاً ، قصائد هجائه ومناقضته ليشكر ، كالقصيدة (السابعة) ، ومناقضته لشاعرهم حميد اليشكري ، في المقطوعة (الخمسين) ، وقصائد مدحه ليزيد بن المهلب ، ورثائه إياه في المقطوعات : (السابعة عشرة والثامنة والثلاثين والحادية والاربعين والسادسة والأربعين) وقال أيضاً قصيدتيه في مدح خالد القسري(١) : (التاسعة والعشرين والرابعة والثلاثين) .

ومن الكوفة ، مستقره الاول ، كان ينطلق الى الأمصار الاخرى ، مادحاً أو طالباً للعمل ، فقد رحل الى البصرة ، وفيها قال قصيدته في الفخر :

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض الى كل أمريء غير طائل(٢)

ورحل الى واسـط ، وقال قصيدته (التاسـعة والعشرين) :

من وحش خبة أودعته نية للناطلية من لوى البقار

هل تدنينك من أجارع واسط أوبات يعملة اليدين حضار

ويبدو أنه رحل الى مكة ، وقال فيها قصيدته (التاسعة والاربعين) :

أمن دمن بشاجنة الحجون عفت منها المنازل منذ حين (٣)

---

[١] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٣) .

[٢] أخبار أبي تمام للصولي ٢٤٩ : « حدثني أبو تمام الطائي قال : مر الطرماح في مسجد البصرة : وهو يخطر في مشيته ، فقال رجل : من هذا الخطار ، فقال أنا الذي أقول : (لقد زادني حباً . .) » .

[٣] الديوان (١ ــ ٤٩) الحجون جبل بمعلاة مكة ، والشاجنة واحدة الشواجن وهي أودية كثيرة الشجر .

وقفت بها فيض جوى أطاعت		له زفرات مغترب حزين (١)

وعدة هذه القصيدة سبعون بيتاً ، كما يذكر البغدادي ، في خزانة الأدب(٢) ، وكلها في الغزل ، وليس في الديوان منها غير اثنين وثلاثين بيتاً . ومن الطريف أن تكون هذه القصيدة ، قد قيلت في الحجاز ، موطن الشعراء الغزلين على عهد الامويين .

وفي الكوفة مات الطرماح ، ولا نعرف ، بالضبط ، متى مات ، فليس في كل المصادر ، ما يصرح بذلك ، والخبر الوحيد ، الذي يتعلق بوفاته ، لايجدينا شيئاً ، في تحديد زمن الوفاة . وراوي الخبر ، هو ابن شبرمة ، قال : « كان الطرماح لنا جليساً . فتفقدناه أياماً كثيرة ، فقمنا لننظر ما فعل ، ومادهاه ، فلما كنا قريباً من منزله ، إذا نحن بنعش ، عليه مطرف أخضر ، فقلنا لمن هذا النعش ؟ فقيل : هـذا نعش الطرماح ، فقلنا والله ما استجاب الله له حيث يقول :

واني لمقتـاد جوادي وقاذف		به وبنفسي العام احدى المقاذف

فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن		على شرجع يعلى بخضر المطارف»(٣)

والبحث في تاريخ ابن شبرمة (٧٦ ـ ١٤٤ هـ) ، لايجدي نفعاً ، في تحديد وفاة الطرماح أيضاً .

ويرجح ناشر الديوان أن وفاته كانت قبل وفاة خصمه الفرزدق ، الذي مات سنة (١١٠ هـ) ، ولم يذكر الناشر ، لم رجح هذا التاريخ ، وعلى أي اعتبار أستند في الترجيح (٤) .

---

[١] الديوان (٨ ــ ٤٩) .

[٢] خزانة الأدب ٣ / ٤١٦ .

[٣] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٤) شرح النهج ١ / ٣٢٠ .

[٤] مقدمة الديوان P. x x ١١١ . في الأغاني (الساسي ٤٥/١٩) : ثلاث روايات مختلفة في تاريخ موت الفرزدق ، الاولى تجعل وفاته سنة ١١٠ هـ والثانية ١١٢ هـ والثالثة ١١٤ هـ .

ويذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري ، في شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (١) : « أن الطرماح بقي بعد الفرزدق » ، وليس في كل أخبار الطرماح ، ما يشير الى أنه بقي الى هذا التاريخ .

ونستطيع مبدئياً ، أن نحصر وفاته بين (١٠٥ هـ) سنة تولى خالد القسري العراق ، وبين (١٢٦ هـ) سنة مات الكميت ، والذي كان يبدي أسفه وأساه ، لموت الطرماح (٢) . فقد مدح الطرماح خالداً ، أكثر من مرة . وولاية خالد ، من شوال عام « ١٠٥ هـ » الى « ١٢٠ هـ » (٣) ، وقد ضمت اليه خراسان في فترتين ، الاولى « من ١٠٦ الى ١٠٩ » ، والثانية « من ١١٨ الى ١٢٠ » (٤) .

مدح الطرماح خالداً ، في إحدى هاتين الفترتين ، فقد ذكر في الأغاني : أن الطرماح وفد على خالد ، يريد مدحه ، وطلب من حاجبه ، العريان بن الهيثم ، أن يدخله عليه ، فرفض خالد الاستماع اليه ، واتفق أن أتت الى خالد هدايا ، من قبل عبد الله بن موسى ، من سجستان ، فقال خالد للعريان : « أين طرماحك

---

[١] شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٤٣٦ ، ويبدو ان الاستاذ خليل مردم خلط بين أبي هلال العسكري صاحب كتاب « الصناعتين » وأبي أحمد العسكري صاحب كتاب ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، فعد مخطوطاً من الكتاب الأخير ، لابي هلال العسكري « مجلة المجمع العلمي دمشق شباط ١٩٤٢ ص ٥٠ » . وأبو هلال فيما يظن هو ابن أخت أبي أحمد الحسن ابن عبد الله . وهو تلميذه في الوقت عينه . انظر ترجمة أبي أحمد في مقدمة كتابه ص ج.

[٢] أنشد الكميت قول الطرماح :

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت ... عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال : « اي والله ، وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة » ، الأغاني « دار الكتب ١٢ / ٣٦ » .

[٣] الكامل لأبن الأثير ٤ / ٢٣٧ .

[٤] الكامل لابن الأثير ٤ / ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ .

هذا ... أعطه كل ما قدم به » فأخذه الطرماح ، ورجع الى الكوفة دون أن ينشده(1) . ومعنى ذلك : أن وفود الطرماح على خالد كان في إحدى الفترتين اللتين كانت سجستان تابعة فيهما الى ولاية خالد .

ومن المرجح ، أن وفوده كان في الفترة الاولى ، لأنها أطول . ولأن مركز خالد فيها كان قوياً ، وهل يعقل الا يمدح الطرماح خالداً الا بعد سنة (١١٨ ﻫ) ، ويسكت عن مدحه طوال ثلاث عشرة سنة من ولايته العراق ، وهو المعروف بتعصبه للحكام القحطانيين ، وحبه لخالد ، وتلقيبه إياه بالملك .

من خالد أهل السماحة والندى ملك العراق الى رمال وبار(2)

وإذا صح أن الطرماح ، وفد على خالد ، خلال السنين الاولى ، من ولايته ، فانه من المرجح أن وفاته كانت خلال هذه الفترة . لأن أخباره لا تفصح عن أي حدث وقع بعدها ، ولا تشير الى أي أمر يصله بما بعد هذا التاريخ .

واذا أخذنا بنظر الاعتبار ما ذكره حاجي خليفه في كتابة «كشف الظنون» من أن وفاته كانت في خلافة يزيد بن عبد الملك (3) ، استطعنا أن نطمئن الى قوة ترجيحنا ، لان يزيد مات في أواخر شعبان من سنة « ١٠٥ ﻫ »(4) . ويؤيد بروكلمن ذلك إذ يقول : « وعاد الطرماح الى الكوفة ، ومات فيها بالجدري حوالي ١٠٥ ﻫ / ٧٢٣ م » (5) .

ولم تقع الدكتورة سهير القلماوي على الصواب ، حين حاولت أن تستنتج أنه مات غير شيخ ولا هرم ، من قول ابن شبرمه ، حين رأى نعش الطرماح : « والله ما استجاب الله له حيث يقول :

---

[1] الاغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٠)

[2] الديوان (٣ ــ ٢٦) .

[3] كشف الظنون ٧٩٨ .

[4] الكامل لابن الأثير ٤ / ١٩٠ : « مات يزيد لخمس بقين من شعبان سنة ١٠٥ ﻫ » .

[5] تاريخ الادب العربي ١ / ٢٤٤ . والمحدثون يخلطون في تاريخ وفاته خلطاً =

فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومي سعيداً بعصبة يصابون في فج من الأرض جانف(١)

فقد اعتقدت(٢) الدكتورة : أن الأبيات الواردة في قول ابن شبرمة ، قيلت عام وفاته ، إذ تقول : « .. قال ابياتا عام وفاته ، تدل على قوة وحيوية .

= غريباً ، فالزركلي وعمر رضا كحالة يذكران أنه مات سنة ١٢٥ هـ ، والاستاذ أحمد الشايب وأحمد حسن الزيات وحنا فاخوري وجرجي زيدان ، يذكرون أنه مات سنة (١٠٠ هـ / ٧١٨ م) : تاريخ الادب العربي للزيات ١٧١ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري ٣١٠ ، الأعلام للزركلي ٣ / ٣٤٥ ، معجم المؤلفين لكحالة ٣ / ٣٢٥ ، تاريخ الشعر السياسي ١٧٩ . أما محقق كتاب « توجيه أبيات ملغزة الاعراب » ، سعيد الافغاني ، فقد جعل وفاته سنة ثمانين للهجرة (حاشية ص ٥٥) ، في حين عد محققا كتاب فحولة الشعراء وفاته سنة ٧٩ هـ انظر حاشية ص ٤٠ .

[١] الرواية في الاغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٤) ، وهي ستة أبيات ، وانظر عيون الأخبار ٢ / ٢٠٧ .

[٢] وقد بنت الدكتورة على هذا التصور ، افتراضات عدة اذ استشهدت بهذه الرواية (على اعتبار أنها قيلت عام وفاته) في أكثر من موضع : فقد اتخذتها دليلا ، على أنه بقي خارجياً ، حتى عام وفاته ، ١١٠ أدب الخوارج . واستشهدت بها في موضع آخر ، على أن الطرماح اتخذ المذهب الخارجي طلباً للسلطان في اليمن ، على اعتبار أن قلب نظام الحكم ، حسب مبادىء الاسلام الاولى ، لايتنافى مع قلب نظام الحكم ، لينال اليمنيون حقهم ، ولينال هو حقه ، فقد قال في هذه الأبيات :

لأكسب مالا أو أؤول الى غنى من الله يكفيني عدات الخلائف

كما استشهدت بها ، على أنه مات غير شيخ ولا هرم ، باعتبار أنه قال ـ عام وفاته ـ شعراً يدل على قوة وحيوية أدب الخوارج ٩٩ ، ١٠٥ .

لا تتيسران لشيخ ..»(١) ، وليس في رواية ابن شبرمة ـــ كما هو ظاهر ـــ ما يشير من قريب أو بعيد الى زمن قول الطرماح الأبيات ، ولا أدري كيف يمكن أن يستنتج مثل ذلك . واذا صح أن هذه الأبيات تدل على فتوة وحيوية، لا تتيسران لشيخ فانه يعوزنا الدليل ، على أن الطرماح قالها عام وفاته ، لكي يصح الحكم بها ، على أنه مات غير شيخ ولا هرم .

كما تتخذ الدكتورة ، عدم تعجب سامعيه من معاني القوة والحيوية ، التي في القصيدة ، دليلا على أنه قالها وهو غير شيخ ، ومن ثم فقد مات غير شيخ ، لانه قالها عام وفاته ، تقول : « ولم نسمع أن سامعيه تعجبوا من قوله هذا »(٢) ، واذ قد رأينا : أنه لا دليل على أن هذه الأبيات قيلت عام وفاته ، فانه من غير المتوقع ، انتظار أي تعجب ، فقد يكون الطرماح قالها قبل وفاته ، بسنين كثيرة واذا كنا لا نملك من أخبار الرجل ماهو بارز ، وماهو مهم فهل من المعقول أن يصلنا تعجب هؤلاء الناس من أبيات الطرماح هذه ، وهو خبر غير ذي أهمية . ؟

وعلى أي حال ، عاش الطرماح طوال النصف الثاني من القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني الهجري ، في فترة عصيبة ، عانت منها الامة كثيراً ، اذ استعرت نار العصبية القبلية ، واشتدت الأحداث ، وثارت الفتن ، ودارت رحى الحروب ، وقد أسهم الطرماح بنصيبه من هذه الفترة ، أدبياً وسياسياً ، ماوسعه الاسهام .

---

[١] أدب الخوارج ١٠٥ .

[٢] أدب الخوارج ١٠٥ .

الفصل الرابع

مقومات شخصيته

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت　　　عرى المجد واسترخى عنان القصائد

حب بالغ ما بعده حب ، وإعجاب شديد ليس وراءه إعجاب ، ذلك هو حب الطرماح لنفسه ، وإعجابه بها ، يصور شعره كل ذلك . كما نجد بعضه، في الروايات المتعلقة بحياته . وأثر هذا الحب والاعجاب في شعره ، من الوضوح والكثرة ، بحيث يكاد يكون طابعاً مميزاً له .

واعتزاز الطرماح بأهله وقبيلته شديد ظاهر . فهو يتخذ من مفاخرهم ، مقومات يتمدح بها ، فتراه يمجد طيئاً ، ويتعصب كل التعصب لليمن وقحطان، ويهوى كل ما يتعلق بهما .

وهو الى ذلك شديد الغرور ، ظاهر الكبرياء ، تياه بشكل غريب ، حتى ليتبختر في مشيته ، حكى أبو تمام : أن الطرماح ، مر في مسجد البصرة . وهو يخطر في مشيته ، فقال رجل : من هذا الخطار ؟ فسمعه الطرماح ، فأجابه : أنا الذي أقول (١) :

لقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض الى كل أمريء غير طائل
وأني شقي باللئام ولا ترى ... شقياً بهم الا كريم الشمائل
اذا ما رآني قطع الطرف دونه ... ودوني فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الارض حتى كأنها ... من الضيق في عينيه كفة حابل (٢)

هذا الحب البالغ ، كان يدفعه الى أن يفخر بنفسه ، فخراً ينم عن اعتداده وزهوه بها ، ويدفع به أيضاً الى أن يمجدها تمجيداً ، بل يبالغ في الفخر والتمجيد :

أنا الشمس لما أن تغيب ليلها ... وغابت فما تبدو لعين نجومها
تراها عيون الناظرين اذا ابدت ... قريباً ولا يسطيعها من برومها (٣)

---

[١] أخبار أبي تمام للصولي ٢٤٩ ، الأغاني (دار الكتب ١٢/٤٠) .

[٢] الديوان (المقطوعة الاربعون) ، حماسة البحتري ٢٥٠ ، الوساطة ٢٤٧ ، شرح الحماسة للمرزوقي ٢٧٧/١ ، المثل السائر ٢٣٤ ، ٤ / ١٠٠ ، نهاية الأرب للنويري ٣ / ٧٤ .

[٣] الوساطة ٢٦١ ، التبيان ١ / ١١١ .

فنحن نراه ، يصف نفسه بالشمس على غير المألوف . في حين كان يعد من المبالغة وصف الممدوح بالشمس :

فانك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والطرماح كان يستشعر هذا الحب ، ويشير اليه ويتغنى به في شعره ، حتى كأنه يتغزل بنفسه ، بل أنه كان يرى في هذه النفس ، من المجد والعظمة ما ليس فيها ، ويظهر انه كان مصابا بما يعرف في أمراض النفس بالشعور بالعظمة ، انسمع اليه وهو يتغنى :

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت   عرى المجد واسترخى عنان القصائد (١)

ولنسمع اليه أيضاً :

وما أنا بالراضي بما غيره الرضى   ولا المظهر الشكوى ببعض الأماكن
ولا أعرف النعمى علي ولم تكن   وأعرف فصل المنطق المتغابن (٢)

ويقول أيضاً :

ملأت عليه الارض حتى كأنها   من الضيق في عينيه كفة حابل

وترد الدكتورة سهير القلماوي هذا الشعور ، الى خارجيته فتقول : « هذه الكبرياء العظيمة الناشئة عن إكبار شأن النفس ، صفة بارزة من صفات الخوارج »(٣) .

وهذا الشعور ، أو هذا المرض ، هو الذي كان يوحي اليه : أن العامة تبغضه وتحسده وتلاحقه وتسعى به لدى المسؤولين :

---

[١] الديوان (١ ــ ٢٣) .

[٢] الديوان (٤٨ ، ٤٩ ــ ٤٧) .

[٣] أدب الخوارج ١٠٦ ، لكنها تعود ، فتجعل هذه الصفة ، سبباً في عدم فنائه في عقيدته الخارجية ، إذ تقول : « ولعل حب الطرماح نفسه ، هو الذي لم يدعه يفنى في عقيدته الخارجية ، كما فعل الخوارج الممتازون . أدب الخوارج ١٠٧ .

إذا ما رآه الكاشحون ترمزوا حذاراً وأوموا كلهم بالأنامل (١)

بل انها تجمع على بغضه إجماعاً . حتى لتبدو ، وكأن ليس لها من شاغل سوى كراهيته وبغضه :

يؤلف بين القوم بغضي ومالهم سوى فرط إجماع علي جميع
وما بي من شكوى لنفسي منهم ولا جزع إني إذاً لجزوع (٢)

ولعلها كانت فعلاً تسخر منه ، وتكرهه ، لما يبدو لها من تكبره وزهوه ، ولما كان يبدر من تصرفاته ، التي تثير سخريتها وتغريها بملاحقته ، وليس أدل على ذلك من قوله :

اذا ما رآه الكاشحون ترمزوا حـذاراً وأوموا كلهم بالأنامل

والعامة هذه ، فيما يخيل اليه ، تحسد فيه نسبه الطيب ، وذكره النابه ، لأنها تقصر أبداً ، عن أن تدرك له شأواً ، أو تشق له غباراً ، فهي لذلك تكرهه ، وتسعى به ، وتتآمر عليه ، وقد زاده هذا الكره ، وذاك السعي والتآمر حباً لنفسه وإعجاباً بها . ولعل ألعن ما كان يجد منها ، إنكارها لمواهبه وجهلها بفضلـه :

أكل امريء ألفى أباه مقصراً معاد لأهل المكرمات الأوائل
اذا ذكرت مسعاة والده اضطنى ولايضطني من شتم أهل الفضائل (٣)

واذ كنا نعرف طبيعة العامة بالكوفة ، ونعرف فيها ميلها للشغب ، وحبها للخلاف والمعارضة ، أمكن أن نتصور : أنه شقي بهذه العامة ، كما كان يشقى بها العباقرة والفنانون ، ولا أجد أدل على ذلك من قوله :

واني شقي باللئـام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل

وليس ببعيد ، أن يكون بعض هذه الكراهية المتبادلة ، أثراً من آثار تعصبه لطيىء :

---

[١] الديوان (١١ ـ ٤٠) .

[٢] الديوان (٣١ ، ٣٢ ـ ٣٤) ، حماسة البحتري ٢٥٠ .

[٣] الديوان (القصيدة الأربعون) .

تكاره أعـداء العشيرة رؤيتي   وبالكف عن مس الخشاش كموع(١)

وبما يلفت الانتباه ، أنه لم يشر الى رأيه في معتقد العامة الديني والسياسي ولا الى رأيها في مذهبه الخارجي ، وهل يمكن أن تهمل العامة فيه خارجيته ، خلال هذه العلاقة السيئة ؟

وقد تجاوز شعوره بملاحقة العامة له ، وحسدها إياه ، وسعيها به عند المسؤولين ، ومن ثم إحساسه ببغضها ، حـدود الشعور الطبيعي ، فهو لذلك يعتقد بوجود أعداء يلاحقونه ، ويتربصون به الدوائر ، فكثير من هذا العداء ، الذي يشعر به الطرماح ، ويتحدث عنه ، لا وجود له في الواقع ، إنما هو أثر من آثار حدة شعوره بالبغض :

قالت امامة والهمـوم يعدنني   ورد الحمائم (شد) عنها المورد
أنبا بحاجتك الامير ومده   في ذاك قوم كاشحون فأجهدوا (٢)

ومثل ذلك :

ويا سلم إن أرجع اليك فربما   رجعت وأمري للعدى غير مفرح(٣)

فهو يشك في الناس ، ولا يطمئن إليهم ، وكان يرد على كراهيتهم له بمثلها ، أو أشد منها ، فقد صب على الناس نقمته وغضبه ، وأظهر اشمئزازه من دناءتهم ، واحتقر لؤمهم وصغارهم :

عراقيب ضم الذل واللؤم بينهم   كما انضم شخص الخاريء المتضائل(٤)

وهو يتحدث عن بغضه الناس ، بتبجح وصراحة ، يسأل هو والكميت : « فيما اتفقتما مع اختلاف سائر الاهواء » فيجيبان : « اتفقنا على بغض العامة »(٥).

---

[١] الديوان (٣٣ ــ ٣٤) ، الخشاش الثعبان العظيم المنكر ، والكموع الجبن والضعف والخوف .

[٢] الديوان (٢٦ ، ٢٧ ــ ٣) ، أظن الصواب (سد) .

[٣] الديوان (٩ ــ ١) .

[٤] الديوان (٢ ــ ٧١) .

[٥] الأغاني (الساسي ١٠٩/١٥) ، (دار الكتب ٣٦/١٢) ، خزانة الأدب ٤١٨/٣ .

وتحاول الدكتورة سهير القلماوي أن تفسر إحساسه ببغض الناس له ، بأنه إحساس نابع من عقيدته الخارجية ، فتقول :

« ولم يكن الطرماح وحيداً في هذا الاحساس بكره من حوله له ، فتلك حال الخوارج في ذلك العصر »(١) .

ان الشعور بكره العامة ، والتبرم بها ، غير مقصور على الطرماح ، فلقد كانت عبر التاريخ ، موضع بغض الكثير من عباقرة المفكرين والأدباء والشعراء وتبرمهم ، لاسيما اولئك الذين يتمتعون بشعور كبير من العظمة والرفعة ، كالطرماح . ولعل مرد ذلك الى اضطراب مقاييسها وجهلها وقصورها عن إدراك فضل اولاء ، فكثيراً ما ظلمتهم ، فقابلوا جهلها ذاك بالاحتقار والسخط والسخرية وتبلور هـذا الشعور عند بعضهم ، فانعكس على آثارهم الفكرية والأدبية .

وشعر المتنبي – كشعر الطرماح – يصور هذا الشعور ، ازاء سلوك العامة ، أدق تصوير ، وكأني بالمتني قد اقتفى خطى الطرماح ، ومشى على آثاره ، ففخره وهجاءه امتداد لبعض جوانب فخر الطرماح وهجائه . ولعـل لتشابه ظروف الرجلين – فكلاهما ابن الكوفة – ووحدة شعورهما بالاخفاق ، واحساسهما بالملاحقة ، أثراً في اتقانهما هجاء الناس ، واجادتهما الفخر ، وتشابه اسلوبهما ، في هذين الفنين .

ومسلك الطرماح هذا غير مقصور على العامة ، فقد تعداها الى الخاصة ، من صحبة الشعراء ، يظهر كبرياءه عليهم ، ولا يقر لهم بفضل ، ينشده ذو الرمة – بحضور الكميت – قصيدته .

إن توهمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

وينشدهما قصيدته الاخرى :

---

[١] أدب الخوارج ١١٧ .

اذا الليل عن نشز تجلى رميته　　　بأمثال أبصار النساء الفوارك

فيعجب الكميت ، ويضرب بيده على صدر الطرماح قائلاً : « هذا والله الديباج لا نسجي ونسجك الكرابيس » (١) ، أما الطرماح فيقول : « لن أقول ذلك ، ولو أقررت بجودته » .

فيغضب ذو الرمة ، ويقول يا طرماح : « أأنت تحسن أن تقول » :

وكائن تخطت ناقتي من مفازة　　　اليك ومن أحواض ماء مسدم

بأعقاره القردان هزلى كأنها　　　بوادر صيصاء الهبيد المحطم

فيلتفت الطرماح الى الكميت ، ويقول : « فانظر ماذا أخذ من ثواب هذا الشعر ؟ » (٢) ، ويحاول الكميت أن ينقذ الموقف ويتدارك الأمر ، فيطلب الى الطرماح أن يعتذر ، فيعتذر حينذاك مجاملة قائلاً : « معذرة اليك . ان عنان الشعر لفي كفك ، فارجع معتباً ، وأقول فيك كما قال أبو المستهل » (٣) .

ولا شك أن حبه لنفسه ، واعتزازه بطيء ، وافتخاره بفضائلها ، ثم تعصبه لليمن وقحطان ، ثم كره العامة واحتقاره لهم ، وعدم الاحتفال بهم ، كان وراء فخره الجميل القوي ، الذي يمثل أروع شعره ، وأصدق قصائده ، فقد بلغ فيه قمة شاعريته ، وعبر فيه عن أدق ما يخالج روح الانسان الطموح ، في لفظ متين ، من غير وعورة ، ولا صعوبة ، اعتدنا أن نجدهما في وصفه ، يقول :

أنا الطرماح فاسأل بي بني ثعل　　　قومي اذا اختلط التصدير بالحقب

جدي أبو حنبل فاسأل بمنصبه　　　أزمان أسنى ونفر بن الأغر أبي

---

[١] الكرابيس واحدها الكرباس وهو الثوب الخشن .

[٢] وكان ذو الرمة قد مدح عبد الملك بهذه القصيدة ، فلم يذكره فيها الا بهذين البيتين ، فلما أنشده اياها ، قال له عبد الملك : ما مدحت بهذه القصيدة الا ناقتك ، فخذ منها الثواب ، (الأغاني دار الكتب ١٢ / ٣٩) ، والى هذا يشير الطرماح بقوله : فانظر ماذا أخذ من ثواب هذا الشعر » ويعني أن ذا الرمة لم يوفق في مدح عبد الملك بهذه القصيدة .

[٣] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٧) .

منا الفوارس والأعلام قد علمت ... عليا معد ومنا كل ذي حسب
كعامر بن جوين في مركبه ... أو مثل أوس بن سعدى سيد العرب
طابت ربيعـــة أعلاها وأسفلها ... وبشكر اللؤم لم تكثر ولم تطب
نحن الرؤوس على منهاج أولنا ... من مذحج من يسوي الرأس بالذنب (١)

ويقول :

أذبب عن أحساب قحطان إنني ... أنا ابن بني بطحائها حيث حلت
أنا ابن بني نفر بن قيس بن جحدر ... بني كل عطاف إذا الخيل ولت
لنا من حجازي طيء كل معقل ... عزيز إذا دار الأذلين حلت (٢)

ويقول أيضاً :

لنا سابقات العز والشعر والحصى ... وربعية المجد المقدم والحمد (٣)

واشتعال العصبيات القبلية ، على عهد أمية ، بسبب استغلال الأمويين لهذه العصبيات ، في تثبيت دعائم حكمهم ، كانت تزيد من تطرف الطرماح وتعصبه لليمن وقحطان وأهل الشام . وشعره في الفخر والمديح والهجاء ، يعج بالافتخار بقحطان والتمدح بالأزد اليمانية وطيء وبلاء جيش الشام .

أما ميله لأهل الشام وجيشه ، فمرده الى أن عرب العراق كانت عامتهم من عدنان ، بينما كان أكثر عرب الشام من القحطانيين . فاتخذ الصراع بين الاقليمين شكل عصبيات قبلية بين الفرعين الكبيرين ، على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف . ويضيف الدكتور - في تفسير الصراع بين عرب الشام والعراق - أن العراق أهدى للعرب فيه ، فيما أهدى ــ منافسته القديمة لعرب الشام ، الذين كانوا يحاربون دائماً في صفوف بيزنطة ، بينما كان يحارب هو في صفوف الدولة الساسانية (٤) .

---

[١] الديوان من القصيدة السابعة .

[٢] الديوان من القصيدة الثامنة .

[٣] الديوان من القصيدة التاسعة عشرة .

[٤] التطور والتجديد في الشعر الأموي ٤٢ ، ٤٤ .

على أن فخره بنفسه ــ كما رأينا ــ أصدق وأجمل من فخره بقومه . فالأخير ، أغلبه تعداد لرجال طيء ، وذكر لمساكن قحطان وأيامها . وحديثه عن نفسه ، ينبض صدقاً وعذوبة ، ويمتزج فيه الفخر بالحب ، امتزاجاً رائعاً . لأنه صادر عن ينبوع ذاك الحب الدافق ، وهو إذ يفخر ، يصور كل ما يختلج في جوانحه ، من مشاعر الغرور والطموح ، وكل ما يعج بقلبه من استعلاء وتكبر وشعور بالعظمة ، لنقرأ قوله :

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت   عرى المجد واسترخى عنان القصائد

وقوله :

إذا ما رآني قطع الطرف دونه   ودوني فعل العـــارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها   من الضيق في عينيه كفة حابل

وهذا الحب ، يرتبط ــ من ناحية اخرى ــ أشد ارتباط وأوثقه (بالعامة) فقد زادته كراهيتها له ــ كما يحس ويتصور ــ حباً على حب :

لقد زادني حبــاً لنفسي أنني   بغيض الى كل امريء غير طائل

وكما أن فخر الطرماح مظهر من مظاهر حب نفسه ، وشعوره بكراهية الناس له ، وصورة من صور العصبية القبلية ، فكذلك هجاؤه هو الآخر ، وجه من وجوه العصبية القبلية ، وكره العامة ، واحساسه بالملاحقة . بل هو متنفس ، لما يتأجج في صدره من نقمة وحقد .

والطرماح يحب المال حباً جماً ، ويسعى للحصول عليه ، سعي المتكسبين بشكل يثير الدهشة والاستغراب ــ لا سيما اذا علمنا أنه خارجي ! ــ ويسلك من أجله سبيل التنقل ، يضرب في الأمصار ، فهو في كرمان تارة ، وفي قزوين أخرى ، وفي البصرة ثالثة وفي الري رابعة سعياً وراء المال .

وفي هذا الحب ، من الغرابة ما فيه ، فنحن نرى أن المال يقوم فيه مقام الحبيب ، فهو يذكر حبه له ، وسعيه للحصول عليه ، وكلفه به ، في مواضع شتى من شعره ، كما يصرح : بأنه يتمنى أن ينال منه ، قبل أن يدركه الموت ،

ما يمكنه من الرفعة . بل انه ليأسف أن يدركه الموت ، ولم ينل منه شيئاً ، يبلغ به أبواب الملوك وبيوت القادة :

أتخترمي ريب المنون ولم أنل ... من المال ما أعصي به واطيع (١)

ولابد أن يكون حب المال ، وجهاً جديداً من وجوه حبه لنفسه ، فالمال وسيلة من وسائل الرفعة ، تمكنه من الاستعلاء على العامة ، تزيده شموخاً وكبرياء وهو سبيل من سبل مخالطة القادة والوجوه :

وان رجال المال أضحوا ومالهم ... لهم عنـــد أبواب الملوك شفيع

وكما ينصب الانسان الطموح في طلب المجد ، ويلقى دون ذلك ما يؤذيه فكذلك أمر الطرماح مع المال ، ينصبه السعي في طلبه ، ويتعبه التفكير في ادراكه :

وشيبني أن لا أزال مناهضاً ... بغير غنى أســمو به وأبوع (٢)

بل انه ليجعل المال هدفاً ، يخرج في سبيله ، خروجه في سبيل العقيدة ، فهو يقرن الخروجين في قصيدة واحدة ، ويسوي بينهما ، فلا تدري لأي هدف يريد أن يخرج : أللمال أم للمذهب والفكرة ؟.

واني لمقتـــاد جوادي وقاذف ... به وبنفس العام إحدى المقاذف
لأكسب مالاً أو أؤول الى غنى ... من الله يكفيني عدات الخلائف
اذا العرش إن حانت وفاتي فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومي سعيداً بعصبة ... يصابون في فج من الأرض جائف
فأقتـل قعصاً ثم يرمي بأعظمي ... كضغث الخلايين الرياح العواصف (٣)

[١] الديوان (٣٧ ـ ٣٤) ، البيان والتبيين (ط. لجنة التأليف والترجمة ٣/٢٠٠ ، ط . الاستقامة ٣ / ١٧٩) ، الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٣) ، ديوان المعاني ٢/٢٣٨ ، لباب الاداب ١١٤ ، وفي اللســان (بوع) : « لقد خفت أن القى المنايا ولم أنل . »

[٢] الديوان (٣٥ ـ ٣٤) ، المصادر السابقة .

[٣] الديوان المقطوعة الخامسة والثلاثون ، عيون الأخبار ٢/٣٠٧ ، الشعر =

المال ، اذن . هدف يسعى اليه . كما يسعى الى تحقيق أهدافه الكبرى في الحياة ، بل هو من أهدافه الكبرى ، إن لم يكن في طليعتها . على أن السبيل للحصول على المال معروف للشعراء آنذاك ، وقد سلكه الطرماح ، كما سلكه سواه ، فمدح ، كما مدح غيره ، وينبغي الاشارة هنا ، الى أنه كان ملتزماً في في مدحه التزاماً خاصاً ، فهو لم يمدح سوى القحطانيين : خالد بن عبد الله القسري . ويزيد بن المهلب ، ومخلد بن يزيد بن المهلب ، ولا أعرف أنه مدح غير هؤلاء . والتزامه هذا وليد التعصب القبلي قطعاً . وقد رأينا مدى التلازم بين حبه لنفسه وحبه لليمن وقحطان ، فاقتصار مدحه على القحطانين ، تأكيد لحبه لنفسه واعتزازه بها . ولعل لهذا الحب وهذا الاعتزاز ، أثرهما الشديد ، في عدم اتقانه فن المديح .

ويبدو لي أن الطرماح ، كان يعاني من صراع عنيف بين حبه للمال ، الذي يقوده للمديح والتذلل ، وحبه لنفسه وكبريائه وشموخه . وأوضح مظهر من مظاهر هذا الصراع ، ما رواه ابن الاعرابي من : « أن الطرماح والكميت ، وفدا على مخلد بن يزيد المهلبي ، فجلس لهما ودعاهما : فتقدم الطرماح لينشد ، فقال له أنشدنا قائماً ، فقال كلا والله ، ما قدر الشعر أن أقوم له ، فيحط مني بقيامي ، وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب . قيل له : فتنح ، ودعي بالكميت فأنشد قائماً ، فامر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرج الكميت شاطرها الطرماح : وقال له أنت أبا ضبية أبعد همة وأنا ألطف حيلة » (١) .

هل هو بعيد الهمة ، لا يحتال بتذلله ليكسب المال ، بل يكتفي بالمدح ؟ أم أن تلك نوبة من نوبات الصراع النفسي ، انتصرت فيها كبرياؤه وعزة نفسه ؟

= والشعراء ٣٧٣ ، الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٤) مقاتل الطالبيين ٦٣٣ ، شرح النهج ١ / ٣٢٠ ،

(١) الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٧) .

وإني لأ تمثل موقفه الغريب هذا ، فأعجب منه غاية العجب ، فهو يذهب لينشد وليحصل على المال ، لأنه يحبه كحبه لنفسه ، وهو بعد ذلك ، يعاني وعثاء السفر ، ومشقة الانتظار في سبيل ذلك ، ولكنه يرفض بإباء شديد ، أن ينشد قائماً ، إكراماً لنفسه وإكراماً للشعر ، كما يدعي ! ولاشك أن ذلك ، تصرف غير طبيعي ، والا فهل يصح : أن نعتقد أن الطرماح أنشد مدائحه الاخرى جالساً ؟ ويكفي أن نقرأ خبر وفوده على خالد القسري ، وتوسله بالعريان بن الهيثم ، ليدخله عليه ، ورفض خالد الاستماع اليه (١) ، لنعرف مدى سلطان المال على نفسه ، ومهما يكن من شيء فان الطرماح لم يستطع أن يصون كرامته أمام إغراء المال .

وقد يكون هذا الحب الشديد للمال ، وليد أزمة مالية ، ألمت به في أدوار نشأته الأولى وطفولته ، فتركت أثرها القوي ، على أننا لا نستطيع أن نحقق من صحة هذا الرأي ، فالمعلومات عن نشأته الأولى غير متيسرة . ولا يفوتنا هنا ، أن نتذكر سفره الى كرمان والري وقزوين ، وقد رجحنا أنه سافر بسبب الحاجة المالية ، وقد أشار هو في قصيدته الاولى الى التحسن المالي ، الذي أصابه هناك ، إذ كتب الى زوجه سلمى :

فيا سلم ان أرجع اليك فربما	رجعت وأمري للعدى غير مفرح
بلا قوة مني ولا كيس حيلة	سوى فضل أيد المستغثات المسبح(٢)

وهذا الحب ــ على الأرجح ــ وليد حرمان أو إحساس بالحرمان ، فالطرماح طموح غاية الطموح ، لكن الظروف حالت بينه وبين ما يريد ، من مجد وما يتمنى من أمان :

---

[١] الاغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٠) .

[٢] الديوان (٩ ، ١٠ ــ ١) وفيه سوى فضل أيدي .

وشيبني أن لا أزال مناهضا   بغير غنى أسمو بـه وأبوع
أخترمي ريب المنون ولم أنـل   من المال ما أعصي به وأطيع (١)

ويروى : أن خالداً ، قال له بعد أن أعطاه عشرين ألف دينار : « امض الآن فاعص وأطع »(٢) .

ومما يؤيد لنا أنه كان غريب الطباع نوعاً ، أننا نجد حماداً يحاول العبث به ، ينشده الطرماح قصيدته ، فيذهب حماد ساعة ، ثم يعود ، وقد زاد فيها ، ثم يدعي القصيدة كلها لنفسه ، ويقرؤها مع الزيادة ، فيثور الطرماح ويغضب ، قائلا : « لله علي حجة حافياً راجلاً ، إن جالستك بعد هذا أبداً » ، فيأخذ حماد قبضة من حصى المسجد ، ويقول : « لله علي بكل حصاة من هذا الحصى مائة حجة إن كنت أبالي » . والظاهر من تصرف حماد المداعبة ليس غير ، أما الطرماح ، فينفذ صبره ، ويغلب على أمره فينصرف قائلا لحماد : « أنت رجل ماجن ، الكلام معك ضائع » (٣) .

وهو بعد ذلك متشائم ، يجره تشاؤمه هذا ، الى تصور الموت دائماً ، بل هو كثيراً ما يصور نفسه قتيلاً ، أو صريع قنا ، أو ممزق الأوصال ، تطرد عليه الريح التراب من كل جانب . أو تتخطف النسور لحمه . . ولا تمر مثل هذه الصور لمحاً ، وإنما نراه يؤكدها ، ويذهب به التصور بعيداً ، ويبني على هذا التصور افتراضات وحوادث :

(١) الديوان (٣٥ ، ٣٧ ـ ٣٤) .
(٢) البيان والتبيين (ط. لجنة التأليف والترجمة ٣/ ٢٠٠ ، ط. الاستقامة ٣/ ١٧٩ ، الأغاني ١٢/ ٤٣ ، ديوان المعاني ٢/ ٢٣٨ وفيه : « أعص بها الآن وأطع اذا شئت » . لباب الآداب ١١٤ ، اللسان (بوع) .
(٣) الأغاني (دار الكتب ٦/ ٩٤) .

أحاذر يا صمصام إن مت أن يلي تراثي وإياك امرؤ غير مصلح
اذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهي ملكت فأسجح
وناصرك الأدنى عليه ظعينة تميد إذا استعبرت ميد المرنح
مفجعة لأدفع للضيم عندها سوي سفحان الدمع من كل مسفح
اذا جئتها تبكي بكت وتذكرت مع الحزن صولات امريء غير زمح
وقد أضمرته الأرض عنك وأسلمت أباك الموالي للحمام المجلح
صريع قنا أو ميتاً تطرد الصبا عليه السفا من جانبي كل أبطح
أتيحت له أم اللهيم وما تني على فاجع تغدو إذا لم تروح(١)

فنحن نقرأ في هذه القطعة ، شيئاً أشبه بالرثاء لنفسه ، وما هو بالرثاء ، الا أنه ضرب من التشاؤم والاشفاق ، يجره الى كل هذه التصورات :

واني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام إحدى المقاذف
فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومي سعيداً بعصبة يصابون في فج من الارض جائف
ويصبح لحمي بطن نسر مقيله دوين السماء في نسور عواكف(٢)

ولاشك أن الشعور بالقلق ، والأحساس بعدم الاستقرار ، هو الذي يدفعه الى هذا التنقل السريع ، غير الهادف ، فهو يخـرج على غير هدى ولغير ما غاية :

---

(١) الديوان القصيدة الاولى ، وأسجح أرفق والزمح اللئيم الضعيف والقصير وأم اللهيم المنية .

(٢) الديوان المقطوعة الخامسة والثلاثون ، الشعر والشعراء ٣٧٣ ، عيون الأخبار ٣٠٧/٢ ، الأغاني ٤٤/١٢ ، مقاتل الطالبين ٦٣٣ ، شرح النهج ٣٢٠/١ .

فاقذف بنفسك في البلاد فانما يقضي ويقصر همه المتبلد (١)

ومثل ذلك :

واني لمقتـــاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام احدى المقاذف(٢)

وهذه الألفاظ : « فاقذف ، وقاذف ، وإحدى المقاذف » ، تصور المجهول الذي يسعى اليه ، هرباً من الواقع ، وتخلصاً من القلق القاتل .

والطرماح بعد ذلك محافظ ، طيب السيرة ، ليس في كل سيرته ، ما يطعن في خلقه ، أو يثلم شرفه .

ويبدو ، أنه كان على حظ غير قليل من الظرف والذكاء والفطنة . فكتب الأدب تتحدث عن جانب من ذكائه وفطنته وظرفه : ينشده ذو الرمة — وكان الكميت حاضرا — قصيدته ، والتي يقول فيها :

وكأن تخطت ناقتي من مفازة اليك ومن أحواض ماء مسدم

فيعجب الكميت ، أما الطرماح فيرفض الاقرار بجودتها ، فيختلفان ، فينبري الطرماح لتبرير موقفه قائلا :

« فانظر ما أخذ من ثواب هذا الشعر » ، وكان ذو الرمة مدح عبدالملك بهذه القصيدة ، فلم يمدحه فيها ، ولا ذكره الا بيتين ، وسائرها في ناقته ، فلما قدم على عبدالملك ، وأنشده إياها ، قال له :

« ما مدحت بهذه القصيدة الا ناقتك ، فخذ منها الثواب »(٣) وقد ذكرنا ذلك .

---

(١) الديوان (٢٨ ــ ٣) والمتبلد المتنقل من بلد الى بلد .

(٢) الديوان (١ ٣٥) .

(٣) الأغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) .

ومن ذلك ما ذكره النقاد والرواة ، متعجبين من تنبه الطرماح ، لمعنى قول كثير ، في عبد الملك :

فكنت المعلى إذ اجيلت قداحهم وجال المنيح وسـطها يتقلقل

وقد فات على عبد الملك ، فظنه مدحاً : سئل الطرماح عن معنى هذا القول فقال «أما انه أراد أنه أعلاهم كعباً، ولكنه موه عليه في الظاهر ، وعنى به في الباطن : أنه السابع من الخلفاء ، الذين كان كثير لا يقول بامامتهم ، لأنه أخرج عليا منهم ، فاذا أخرجه ، كان عبدالملك السابع ، وكذلك المعلى السابع من القداح » (١) :

هذه نظرة الطرماح الى نفسه ، أو هذا هو الطرماح كما يصوره شعره . ولنر الى نظرة صديقه الكميت اليه :

الطرماح كما يصوره الكميت ، رجل شـجاع ماجد بعيد الهمة ، وهو ـ الى ذلك ـ شاعر مجيد ورواية خطيب فصيح ، فهو حين ينشد بيت الطرماح :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

يعلق قائلاً : اي والله ، وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة(٢) .

ولقد رأينا : أنه كان يصفه بأن أبعد همة ويصف نفسه بأنه ألطف حيلة(٣) ، ولا ندري مدى أثر الصداقة في أحكام الكميت هذه .

أما رؤبة ، فيصف لنا الطرماح بأنه دؤوب في متابعة الغريب وطلبه ، ويصوره لنا رجلاً ظريفاً(٤) .

---

[١] الأغاني ١٢ / ٤١ ، مجالس العلماء ١٥١ ، المصون في الأدب ٨٩ ، والمنيح سهم من سهام الميسر لا نصيب له ، وكان العرب يسمون القداح الى سبعة : الفذ والتوأم والرقيب والمسبل والحلس والنافس والمعلى . . المصون في الأدب ٨٩ . أما كثير فهو ابن عبد الرحمن المشهور بكثير عزة كان عفيفاً في حبه علوياً في معتقده مات بالمدينة عام ١٠٧ هـ .

[٢] الشعر والشعراء ٢٧١ الأغاني (دار الكتب ١٢/٣٦) . الديوان (١ ـ ٢٣) .

[٣] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٧) .

[٤] الموشح ١٩٢ .

الفصل الخامس

الطرماح خارجياً

مَذهبُهُ وعَقيدَتُهُ

وهنا تقف أمامنا العقبة الكبيرة في دراسة حياة الطرماح . وكنت اصادفها تعترضني - فيما مر من فصول - وأنا احلل فخره ، وأتحدث عن خصائص هذا الفخر ، وأذكر تعصبه لطيء ، وميله لليمن ، وحبه لقحطان ، ومدحه لولاة أمية ودفاعه عن جيش الشام . ثم كانت تعترضني ، بشدة وعنف بالغين ، حين كنت أقرأ هجاءه للفرزدق ولتميم وأدرس نقائضهما ، وأتحرى أسبابها ، وأتتبع معانيها فأرى كيف سلك الطرماح ، في هجائه طريقة المبالغة ، وأسلوب التصوير الفني الساخر ، في تلك النقائض .

وكنت أصد عن ذاك ، وأعرض عنه اعراضاً ، موقناً أني سالاقي هذه العقبة ، بعد هذه الفصول ، وهي أكثر عنفاً وأبلغ شدة ، حين أكتب عن عقيدة الشاعر الخارجية ، ومذهبه السياسي .

تلك العقبة ، هي عقيدة الطرماح الخارجي ، وعلاقتها بمظاهر سلوكه الشخصي . وفنونه الشعرية . ثم محاولة التوفيق بين مظاهر سلوكه المعروفة وفنونه الشعرية وبين هذه العقيدة .

الطرماح من الخوارج . تتفق مصادر دراسته في ذلك ، ولو أنها تختلف بعض الاختلاف في تعيين فرقته الخارجية ، فقد ذكر الجاحظ : « أنه كان خارجياً من الصفرية »(١) . وذكر ابن قتيبة : « أنه كان خارجياً صفرياً »(٢) وذكر في موضع آخر : « أنه كان يرى رأي الخوارج »(٣) . وذكر أبو الفرج عن ابن قتيبة : « أنه شامي قحطاني شاري »(٤) ، وفي موضع آخر ، عن محمد ابن سهل ، راوية الكميت : « أنه خارجي صفري قحطاني ، عصبي لقحطان من

---

[١] البيان والتبيين ١ / ٦٢ ، في معرض الحديث عن علاقته بالكميت .

[٢] الشعر والشعراء ٣٦٩ ، في معرض المقارنة بين الطرماح والكميت .

[٣] الشعر والشعراء ٣٧٣ ، وقال صاحب جمهرة أنساب العرب ٤٠٢ مثل ذلك .

[٤] الأغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) في معرض الحديث عن صداقته للكميت ، مقاتل الطالبيين ٦٣٣ .

شعراء اليمن متعصب لأهل الشام »(١) ، وفي موضع ثالث : « أنه اعتنق مذهب الشراة الأزارقة »(٢) ، وفي رابع عن ابن قتيبة : « أنه شاري »(٣) ، وفي خامس عن الأصمعي عن خلف : « أنه كان يرى رأي الشراة »(٤) ، كما ذكر : « أنه اعتقد هذا المذهب أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه »(٥) .

هو - اذن - خارجي ، باتفاق الروايات والمصادر ، ويلاحظ هنا أن هذه المصادر ، لاترى حرجاً في وصف الطرماح بهذا الخليط غير المتجانس من الصفات : « فهو خارجي ، شامي ، قحطاني ، متعصب لليمن » . كما يلاحظ : أنها لم تذكر له رأياً دينياً أو سياسياً ، غير مذهب الخوارج .

لندع هذا الاجماع ، ولنتساءل : كيف تم للطرماح أن يكون خارجياً ؟ ليست هناك في الواقع غير رواية المدائني ، التي تنص على أن الطرماح : « .. قدم الكوفة ، ونزل في تيم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الشراة ، له سمت وهيئة ، وكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ الى مذهبه فقبله ، واعتقده أشد اعتقاد وأصحه ، حتى مات عليه »(٦) .

ومثل بقية الألغاز التي تحيط بحياة الطرماح - نتيجة قلة أخباره وضياع شعره - لاندري من هو هذا الشيخ : ولانعرف عن اسمه ولا عن فرقته الخارجية شيئاً : وليس في أخبار الطرماح الاخرى ما يفصح عن طبيعة هذا اللقاء ويوضحها ! وليس فيها ما يشير ولو عن بعد الى لقاء آخر مع أي رجل

---

[١] الاغاني (الساسي ١٥ / ١٠٩) .

[٢] الاغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٥) ، وذكر البغدادي ، في خزانة الادب ذلك ٣ / ٤١٨ .

[٣] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٦) .

[٤] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٣) .

[٥] الاغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) . ووصفه ابو الطيب اللغوي بأنه من « الشراة » الابدال ٢ / ٣٢٤ .

[٦] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٦) .

خارجي .

ويحق لنا أن نتساءل لم ينزل الطرماح في تيم اللات ، وهي من ربيعة ، ولا ينزل في طيء ، وهم قومه وعشيرته ، ومنازلهم في الكوفة كثيرة ، فضلاً على كثرة اليمانيين فيها ، كالأزد ومذحج وسواهم ؟ ويحق لنا أن نتساءل أيضاً : لم يأخذ الطرماح هذا المذهب عن شيخ غريب ، ولا يأخذه عن عمه القمقاع ، وهو من الخوارج الاول ، الذين أرادوا اللحاق بأصحاب النهروان (١) ؟ ، والطرماح معروف بميله الى أفراد أسرته . وتعلقه بهم ؟. ومهما يكن من شيء ، فان الطرماح يشير في احدى قصائده الى عمه هذا والى النهروان :

عمي الذي صبح الحلائب غدوة   من نهروان بجحفل مطناب(٢)

ورواية المدائني هذه ، التي أشارت الى نزوله في تيم اللات . واتصاله بالشيخ ذى السمت والهيئة ، الذي أوحى اليه مذهبه الخارجي ، هي نفسها ، التي ذكرت نشأته في الشام ، وقد سبق أن رأينا ضعفها أمام روايات أبي عمرو وشعبة والعجاج وابن قتيبة ،

أما شعره (الخارجي) ، فهو قسمان : قسم صريح في معانيه ، يدور حول العقيدة الخارجية ، ويذكر الشراة ، ويصف حياتهم ، وهو لا يكاد يتجاوز مقطوعتين ، عدد أبياتهما ثمانية . على أننا نستطيع أن نضيف لهما مقطوعة ثالثة على الرغم من كونها لا تذكر الخوارج .

أما القسم الثاني . فنكاد نستشف المعاني الخارجية منه استشفافاً ، ونتأولها تأولاً ، فليس فيه ما يصرح بذكر الخوارج أو إحدى فرقهم ، وإنما تحمل معانيه على محمل الرمز والاشارة حملاً . وهي ، بجملتها ، أقرب الى الشعر الزهدي منها الى الشعر الخارجي .

---

[١] الكامل لابن الأثير ٣/١٧٠ .

[٢] الديوان (٣ ـ ٩) ، استغنيت في الحواشي عن ذكر (أصل الديوان وذيل الديوان وملحق الديوان أو ضميمته) بذكر كلمة (الديوان) فقط . وأصل الديوان ثماني قصائد وما بعدها قصائد الذيل والملحق (الضميمة) .

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هاتين المقطوعتين ليستا من قصائد الديوان ، وإنما هما من جملة ما ذكرته كتب الأدب والتاريخ فأثبته الناشر في الذيل . أما نماذج القسم الثاني فهي أبيات مبثوثة خلال قصائد الديوان والذيل .

ولنر الآن الى مقطوعتيه هاتين اللتين تذكران الخوارج ، وتصفان حياتهم ، وتصرحان بهم تصريحاً ، يقول :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد ... الا المنيب بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري (١)

يصور الشاعر حنينه الى الخوارج ، واللحاق بالشراة ، ويعد النكوص عن اللحاق بهم ، والتخلف عن الاندفاع في طريقهم ، شقاء متواصلاً ، لا يجد له انقطاعاً وهذا الانتماء الى صفوف عصبة الشراة ، فوز أي فوز . فوز ينجي من النار ، ويحقق أكبر السعادة ، ويورث نعيم الجنة . ثم انه ليبالغ في ذلك ، إذ يقصر الايمان والتقى عليهم ، يقصر النعيم الدائم في الجنة على الشراة المخصة قلوبهم ، المنيبين الى الله ، لا يشاركهم فيها — من غير الخوارج — الا هؤلاء الذين أراد الله أن يكتب لهم السعادة ، ولا مرد لأرادته حينذاك . ويقول في مقطوعة ثانية :

لله در الشـــراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحنين آونـــة ... وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة ... تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف ارجي الحياة بعدهم ... وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما يخاف قد وثقوا (٢)

---

[١] الديوان المقطوعة (الثلاثون) ، رواها ابن قتيبة فقط في الشعر والشعراء ٣٧٣ .

[٢] الديوان (المقطوعة السابعة والثلاثون) ، انفرد بذكرها أبو الفرج ، رواها الأصمعي عن خلف (الاغاني دار الكتب ٤٣/١٢) .

صورة رائعة من حياة الخوارج ، وعجب بالغ من حال الشراة ، يبدو وراءه الحب والتضحية . وتصوير دقيق لتشددهم في واجبات الدين ، فهم اذا ما مال النعاس برقاب الناس ، مسهدون · لا يستسلمون لنوم . ولا يكلون لتعب وانما يأرقون ، يذكرون الله ، ويسبحون باسمه ، ويصلون ، ويتلون كتابه ، فاذا ما مر ذكر النار والعذاب ، في آية كريمة منه ، شهقوا خوفاً وفرقاً ، وباتت قلوبهم واجفة ، تكاد تنفلق عنها الصدور ، من خشية الله ثم يصور الشاعر مشقة الحياة واستحالتها بعد أن فارق رفاقه من الشراة ، هؤلاء الرفاق الحريصين كل الحرص على عقيدتهم ، والذين وثقوا بفوزهم ، واطمأنوا الى انتصارهم على اعدائهم ، والذين وثقوا - فوق كل ذلك - بأن طريق الجنة تحت أقدامهم ، وآمنوا برضوان الله ونعيمه .

يذكر الشراة في القطعتين ، مصوراً حالهم في السلم والحرب ، تصويراً فيه سمات اسلوب الخوارج ، وعليه طابعهم ، وفيه روحهم هذه التي تتوق أبداً الى الفداء والتضحية ، وتتشوف الى الخروج في سبيل العقيدة ، وفيه هذا التطرف في معاملة مخالفيهم من المسلمين . فالجنة مقصورة عليهم ، معدة لهم ، فوزهم فيها موثوق ، يخرجون طلباً للموت ، فهو عندهم طريق الخلاص ، وسبيل الجنة ، يقطعونه عملاً مخلصاً ، وعبادة وصوماً ، في حال السلم ، وما يلبثون أن يفارقوها الى حال الحرب ، ليقطعوا هذا السبيل ، ويقربوا من نهايته ، طمعاً في رضاء الله ، وحباً في الوصول الى الجنة .

ويلاحظ أنه لم يذكر في المقطوعتين سوى لفظي (الشاري والشراة) . ولست أدري هل استعمل الطرماح اللفظين بمعناهما اللغوي (الديني) كما جاء في الكتاب الكريم ؟ أم استعمل كل واحد منهما (اصطلاحاً حزبياً) ؟ ، واذا صح الافتراض الأول ، تكون الأبيات قد تناولت وصف المسلمين الاتقياء .

ثم نحن بعد ذلك أمام نموذج آخر من هذا الشعر المذهبي ، هو أدنى للرمز والاشارة وأبعد عن التصريح في ذكر الخوارج أو الشراة ، لا يذكرهم فيه صراحة ، وانما نحن نلمح ما يشبه الروح الخارجية خلاله ، لمحاً ، يدفعنا

الى ذلك ويعينا فيه معرفتنا بعقيدة الطرماح[1] . يقول :

وإني لمقتاد جوادي وقاذف | به وبقـي العام إحدى المقاذف
لأكسب مالاً او أؤول الى غنى | من الله يكفيني عدات الخلائف
اذا العرش إن حانت وفاتي فلا تكن | على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومي سعيداً بعصبة | يصابون في فج من الارض خائف
عصائب من شتى يؤلف بينهم | هدى الله نزالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم | تقى الله نزالون عند التزاحف
هم منعوا النعمان يوم رؤبة | من الماء في نجم من القيظ خائف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى | وصاروا الى موعود ما في المصاحف
فاقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمي | كضغث الخلا بين الرياح العواصف[2]
ويصبح لحمي بطن طير مقيله | بجو السماء في نسور عوائف [3]

هذه الأبيات ، تمثل روح الخوارج واسلوبهم ، بما تدل عليه من فتوة وحيوية ، وان لم تصرح بذكرهم ، فالشاعر فيها يتمنى الا يموت حتف أنفه ، ميتة الجبناء ، فيحمل الرجال نعشه ، بل يتوق الى أن يموت ميتة الشراة ، قعصاً في سوح الحرب ، ثم يرمى بأعظمه ، وهي كقبضة من الكلأ اليابس ، لتذروها الرياح ، فلا تبقي منها شيئاً ، بعد أن تتخطف النسور لحمه ، وهو

---

[1] هناك مقطوعة (ثلاثة أبيات) ، عثرت عليها في كتاب الأزمنة والأمكنة . تلمح فيها الروح الخارجية لمحاً ، وسأذكرها في الملحق .

[2] عجز البيت في العقد الفريد (ط . الاستقامة ٣/١٣٧) يروي هكذا : (مفرقة أوصالها في التنائف) .

[3] الديوان (المقطوعة الخامسة والثلاثون) ، رواها ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٣٧٣ وفي عيون الأخبار (دار الكتب ٢ / ٣٠٧) ، ورواها أبو الفرج عن ابن شبرمة في الأغاني ١٢ / ٤٤ ، وفي مقاتل الطالبين ٦٣٣ ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣ / ١٧٧ ، ورواها صاحب شرح النهج ١ / ٣٢٠ . وهي مختلفة ، في هذه المظان ، عدد أبيات ورواية تعابير وألفاظ .

يتشوق الى أن يلقى مصير عصبة الخوارج الأتقياء . الذين يجمع بينهم هدى الله ، ويؤلف بين قلوبهم — اذا ماتنافرت قلوب الناس — تقاه ، والذين هم دائماً في أذى من هذه الحياة ، فاذا فارقوها مستشهدين ، فسيفارقون أذاها ، ويتركون عذابها الى حيث السعادة الأبدية . ونجد أنه ذكر شيبان في البيت السادس من المقطوعة ، والشيبانيون يؤلفون الغالبية بين فرقة الصفرية الخارجية . وهذا البيت (السادس) انفرد بذكره أبو الفرج(١) ، وأهملته المصادر القديمة الأخرى ، فابن قتيبة لم يذكره ولم يذكر البيت السابع أيضاً (٢) ، هذا فضلاً على تشابه عجزه مع عجز سابقه ، تشابها يكاد يكون تاماً . ويبدو لي أن هذا البيت تصحيف لسابقه ، تؤيد ذلك رواية ابن أبي الحديد البيت على هذا النحو .

فوارس أشتات يؤلف بينهم هدى الله نزالون عند المواقف (٣)

وتنسب أبيات هذه المقطوعة الى الطرماح « الكبير » (٤) ، وهو كما - يذكر البلاذري - القعقاع ، عم الطرماح بن حكيم ، ويذكر البلاذري أيضاً أن نسبتها الى الطرماح خطأ(٥) . وقد مر بنا : أن القعقاع خارجي قديم ، أراد أن يلتحق بخوارج النهروان فمنع(٦) . ولكني أعتقد أن الطرماح (الكبير أو الأكبر) هو غير القعقاع بن قيس هذا ، وإنما هو الطرماح بن عبد الله بن خيبرى ،

---

[١] الأغاني ٤٤/١٢ .

[٢] الشعر والشعراء ٣٧٣ ، وعيون الأخبار ٢ / ٢٠٧ ، وهي في المصدرين ستة أبيات .

[٣] شرح النهج ١ / ٣٢٠ .

[٤] أنساب الأشرف للبلاذري ٣٩٤/٤ (فوتوغرافية) وقد نقلت هذا الخبر من حاشية ص ١١٠/أدب الخوارج . جاء فيها : « في أنساب الاشراف - فوتوغرافية - تنسب هذه الأبيات للطرماح الكبير ، وهو القعقاع عم الطرماح بن حكيم ، ويقول البلاذري إن نسبتها الى الطرماح خطأ » .

[٥] المصدر السابق .

[٦] الكامل لابن الأثير ١٧٠/٣ .

وكان خارجياً صفرياً أيضاً ، ذكره صاحب جمهرة أنساب العرب[1] .

وعلى هذا ، يكون الطرماح (الكبير أو الأكبر) هو الطرماح بن عدي لا القعقاع بن قيس ، وواضح ذلك من الاسم .

واذا صحت نسبة هذه الأبيات للطرماح الكبير ، فانها تكون للشاعر الخارجي الصفري الطرماح بن عدي الطائي ، لا القعقاع بن قيس الطائي عم طرماحنا « الأصغر » كما يدعوه صاحب جمهرة أنساب العرب[2] .

أما الدكتورة سهير القلماوي ، فتقول : « وقد بحثنا عن القعقاع هذا فلم نعثر على ما يفيدنا شيئاً في هذا الصدد ، ولم نعثر على شيء يدلنا أن هناك من كان يعرف باسم الطرماح الكبير »[3] . وقد رأينا أن هناك طرماحين « كبيراً وصغيراً » .

ويبدو أن الطرماح الأكبر كان مشهوراً ، ويبدو أيضاً أن اللبس حاصل للقدامى بين الاثنين ، جاء في تهذيب تاريخ دمشق ، حول مناقضة جرت بين الطرماح والفرزدق ، التعليق التالي : « وأحسب أن يكون هذا الطرماح الأكبر وهو ابن عدي بن عبد الله بن خيبرى »[4] . ويشير صاحب المزهر الى أن هناك طرماحين : الطرماح بن حكيم الطائي ، والطرماح الأجئي[5] ، كما يشير الآمدي الى طرماحين : الطرماح بن حكيم ، والطرماح بن الجهم السنبسي[6] .

[1] جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠١ .

[2] جمهرة أنساب العرب ٤٠٣ .

[3] أدب الخوارج ١١٠ .

[4] تهذيب تأريخ دمشق ٥٢/٧ . وهناك لبس آخر حصل للمرزباني في طرماحين آخرين ، إذ ذكر في حديثه عن الطرماح السنبسي : « فلست أدري أهو الطرماح بن الجهم العقدي أو غيره ، بل اظنه إياه . . » معجم الشعراء ١٤٨ .

[5] المزهر ٤٢٥/٢ .

[6] المؤتلف والمختلف ٢١٩ ، وفي سمط اللآلي ٢ / ٤١٩ اشارة للطرماح الأجئي أيضاً .

وتنسب هذه الأبيات أيضاً الى عبد الله بن موسى (١) ويروى فيها بدل البيت الثاني بيت آخر هو :

مخافــة دنيا رثة أن تميلني　　　كما مال فيها الهالك المتجانف (٢)

أما نماذج القسم الثاني مما يلمح فيه الروح الخارجي لمحاً ، فهو كما ذكرت، مقطوعات مبثوثة خلال قصائده الاخرى ، وفي قصائد الوصف بخاصة ، وخير ما يمكن التمثيل به منها ، مقاطع من القصيدتين الثانية والخامسة :

يقول :

فتطربت للهوى ثم أقصرت رضى بالتقى وذو البر راض
وأراني المليك رشــدي وقد كنت أخا عنجهية واعتراض
غير ما ريبة سوى ريق الغرة ، ثم ارعويت عنــد البياض
وذهلت الصبا وأرشدني الله بدهر ذي مرة وانتقاض

ويقول :

ترك الدهر أهله شعباً　　　فاستمرت من دونهم عقده
وكذاك الزمان يطرد بالناس الى اليوم يومه وغــده
لا يلبثان باختلافهما المرء وان طال فيهما أمــده
كل حي مستكمل عدة العمر ومود إذا انقضى عدده
عجباً ما عجبت للجامع المال يباهي به ويرتفده
ويضيع الذي يصــيره الله اليه فليس يعتقده
يوم لا ينفع المخول ذا الثروة خلانه ولا ولده
يوم يؤتى به وخصماه وسط الجن والانس رجله ويده

---

[١] مقاتل الطالبين ٦٢٣ ، وهو عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن أبي طالب ، وأبو الفرج يؤكد أنها للطرماح فيقول : « لعل عبد الله بن موسى كان ينشده متمثلاً » .

[٢] في البيت إقواء .

خاشـــع الصوت ليس ينفعه ثم أمانيه ولا ا ـــدده
إنمـا الناس مثل نابتة الزرع متى يأن يأت محتصده

تنم هذه الأبيات ، بمجموعها ، عن مفارقة عهد ، فيه غرور وفيه كبرياء وفيه كل ما يدفع اليه طيش الشباب ، ثم تصور التحول الى عهد الايمان ، كما تتناول معاني زهدية مستمدة من آيات القرآن الكريم ، فيها تقى ، وفيها صلاح يؤكدان أن الحياة فانية ، وأن المال لا يجدي الانسان شيئاً ، وأن عمر الانسان قصير ، فهو كنابتة الزرع لا يلبث بعد حين أن يأتي حصاده .

وهذه الأبيات ، من قصائد ترجع الى ما بعد شبابه ، كما تدل على ذلك معانيها . فاذا صح أنها تشير الى اعتناقه مذهب الخوارج ، يكون معنى ذلك : أنه اعتنقه بعد فورة شبابه بقليل ، وصح بعد ذلك لنا ، أن نضيف هذه المقطوعات الصغيرة ، التي ذكر فيها الشراة الى اخريات الطور الأول من حياته ، أو اوائل الطور الثاني ، الذي ذكرنا أنه كان في الكوفة .

لم يذكر الطرماح فرقته الخارجية ، وانما ذكر الشراة مرتين . وهل من الضروري أن يكون الشاعر الخارجي من فرقة معينة ؟ فالخوارج قلما يتعرضون لتفاصيل خلافاتهم الفقهية في آثارهم الادبية ، فهذا نتاجهم الادبي لايصور لنا أي أثر للخلاف ، على كثرة فرق الخوارج وشعبهم ، فالمبادىء العامة لشعرائهم وخطبائهم ، تكاد تكون واحدة ، أو هكذا تبدو ، على أن هذه الفرق تختلف في امور ، وتتفق في آخرى ، ومنها ماهو جوهري . وقد يكون لذلك أثره ، أو قد يقودنا الى حقيقة . اذا ما استطعنا أن نتبينه في نتاج الطرماح ، لان هذا الشاعر كثرت نسبته الى فرق متعددة ، ينسب في المصدر الواحد الى أكثر من فرقة ، ويجدر بنا ألا نيأس من البحث عن لمحة ، أو خطرة ، تهدينا الى ذلك والذي يعنينا من أمر هذا التعيين ، بطبيعة الحال . مدى تأثيره في اسلوبه الادبي ومعانيه .

أكثر مانص عليه في تعيين فرقة الطرماح . أنه صفري . ذكر ذلك

الجاحظ(١) ، وذكره ابن قتيبة(٢) ، وذكره أبو الفرج(٣) ، والى جانب الرواية التي تذكر صفريته ، ذكر أبو الفرج أنه اعتقد مذهب الشراة الأزارقة (٤) ، كما ذكر روايتي الأصمعي وابن قتيبة . اللتين تذكران : « أنه شاري »(٥) . وواضح أن لفظة شاري مرادفة للفظة خارجي ، لاتعين فرقة أو شعبة ، ومن دراسة طبيعة فرق الخوارج ، ومن ملاحظة سيرة الطرماح ، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار كثرة الروايات ، التي تعين فرقته ، فتشير الى أنه كان صفرياً ، نستطيع أن نميل الى أنه أقرب للصفرية (٦) . من سواهم هذا إذا صحت خارجيته . فالصفرية هؤلاء مسالمون وعامتهم قعد لايعترضون أحداً ، وكانوا يرون التقية جائزة (٧) ، كما لم يحكموا بقتل الأطفال والنساء من مخاليفهم « من المسلمين » ، ولم يقولوا بتكفيرهم وتخليدهم في النار ، وعلى كل حال ، فهم ليسوا غلاظاً شداداً ، كالازارقة المتطرفين ، الذين كفروا القعدة ، وحرموا التقية (٨) ،

---

[١] البيان والتبيين ١ / ٦٢ .

[٢] الشعر والشعراء ٣٦٩ .

[٣] الأغاني (الساسي ١٥ / ١٠٩) .

[٤] الأغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) .

[٥] الأغاني (دار الكتب ٣٥/١٢ ، ٤٣) .

[٦] سموا صفرية لصفرة وجوههم ، أو نسبة الى زعيمهم زياد بن الأصفر أو نسبة لابن صفار ، انظر في آرائهم وتعاليمهم وتسميتهم ، الكامل للمبرد ٨٩١ ، ١٠٢٠ ، ١٠٤١ ، العقد الفريد ٢٦١/١ ، الفرق بين الفرق ٧٩ ، الملل والنحل ١٢٣ .

[٧] انظر المصادر السابقة ، وقد جوزوا ذلك اعتماداً على قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ـ سورة غافر آية ٢٨ ـ » .

[٨] اعتماداً على قوله : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ـ سورة النساء آية ٧٧ » .

وكفروا مخالفيهم من المسلمين ، وحرموا مناكحتهم ، وموارثتهم ، وأكل ذبائحهم واستحلوا قتل نسائهم ، وأطفالهم ، وعدوا مرتكب الذنب « من الخوارج » مشركاً وأوجبوا الهجرة من دار السلطان « العدو » ، فمن لم يهاجر منهم فهو مشرك(١) .

ومن طريف أخبار هؤلاء الأزارقة ، ما رواه المبرد من : « أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم ، وأوصوا بالنصراني خيراً ، فقالوا احفظوا ذمة نبيكم (٢) .

الطرماح — كما رأينا من سيرته الخالية من الخروج والحوادث — أقرب الى هؤلاء الصفرية ، اذا صح أنه من الخوارج . ونحن نلمح في شعره إشارة أو شبه إشارة الى رأي الصفرية هؤلاء ، اذ يقول :

ولا أدع السؤال اذا تعيت علي من الأمور المشكلات
وينفعني إذا استيقنت علمي وأقوى الشك عندي البينات (٣)

وعجز البيت الثاني يلفت الانتباه ، ويستدعي التفكير ، فغريب جداً أن تكون البينات موضع شك عند انسان مؤمن ، فضلاً على كونه زاهداً أو خارجياً « فهم من الشدة في الدين ومن قوة الايمان في الذروة » . لكن الشهرستاني يحدثنا أن الصفرية كانت تعتقد بالشك ، فكانوا يقولون — رغم تضحياتهم — من يدري أن الله راض عنا . ويحكى عن الضحاك « أحد قادة الصفرية » أنه

---

[١] كانوا يستحلون قتل الاطفال ، اعتماداً على قوله : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . سورة نوح آية ٢٦ ، ٢٧ » . انظر في آرائهم وتعاليمهم الكامل للمبرد ٣٩ ، ٩٤٦ ، ١٠٤٠ ، العقد الفريد ٢٦١/١ ، الفرق بين الفرق ٧٢ ، الملل والنحل ١٠٩ ، ١٢٣ .

[٢] الكامل للمبرد ٩٤٦ .

[٣] الموشى ١١ ، الديوان ، (المقطوعة الثالثة عشرة) .

قال : « نحن مؤمنون عند أنفسنا ، ولا ندري لعلنا خرجنا من الايمان عند الله » (١) .

ويجدر بنا أن نلمح العلاقة بين شكهم هذا واختلافهم في نتيجة جهادهم، وبين قول الطرماح : « وأقوى الشك عندي البينات » لعلها تكون ذات أثر في ترجيح صفريته ·

وما لنا تنقب عن فرقه وشعبته؟ وهل صح لنا بعد هذا العرض لمقطوعاته أنه خارجي ؟ وهل اطمأنت قلوبنا الى الاجماع ، الذي اتفقت فيه المصادر على تعيين مذهبه ؟ وهل استطعنا أن نجيب عن السؤال الكبير ، لنمحو علامة الاستفهام التي تربض خلفه : « كيف يتم لنا التوفيق بين عقيدته ومظاهر سلوكه مما يتعارض مع هذه العقيدة ، من تعصبه لليمن وقحطان ، وبغضه للناس ، وكيف يتم لنا أن نوفق بين عقيدته وفنونه الشعرية · مما يتعارض مع هذه العقيدة من مدح وهجاء وفخر بالنسب ؟ ».

الطرماح خارجي · تتفق المصادر على ذلك ، وتروي له شعراً ، وهـذا الشعر · منه مايذكر الشراة ، ومنه ماهو خال من ذكر الشراة , وغير الشراة.

وهو بعد ذلك ، إما صفري ، أو من الأزارقة ، ثم رجحنا كونه صفرياً . لكن الطرماح رغم كل ذلك ، أو مع ذلك ، يمدح ، ويكون أكثر مدحه في يزيد بن المهلب ، ويزيد مشهور في عدائه للخوارج ، فقد أبلى في قتالهم بلاء كبيراً ، ثم يمدح مخلد بن يزيد ، ويمدح أيضاً خالد القسري · والي الامويين على العراق . يمدح كل اولئك بل يصفهم بالملوك(٢) .

---

[١] الملل والنحل ١٢٣ ، ويمكن ان ندعو مثل هذه الحال بوسواس التقوى .

[٢] الديوان : قال في مدح يزيد (١٠ و ١١ ــ ٤١) :

ملك تدين له الملوك ولا يجائيه المناضل

ملك تدين له الملوك أشم عصاء العواذل

وقال في خالد (٣ ــ ٢٩) .

من خالد أهل السماحة والندى ملك العراق الى رمال وبار

وهو خارجي ! على أنه ــ رغم ذلك ــ دس نفسه في الخصومات القبلية فتعصب لطيء واليمن وقحطان وجيش الشام ، ودافع عن الأزد ، وادعى أنه اشترك في ثورة يزيد[١] وحاول أن يبرر موقفه بعد فشلها[٢] .

وهو من الشراة ! الا أنه يبيح لنفسه أن يهاجي ، وأن يناقض ، وأن يبرع في الهجاء والمناقضة . يهجو تميماً ويلح في هجائها ، ويهجو الفرزدق ، شاعر تميم ، ويؤذيه ، ويسب ضبة ، وبني أسد ، وبني سعد ، ويناقض حميد اليشكري ويعرض بيشكر .

وهو شاري ! لكنه يحب نفسه بل يعشقها ، ويحب الحياة من أجل هذه النفس ، ويطلب المال . ويسعى اليه سعي المتكسبين ، من أتباع بني أمية فيمدح .

لقد كان من أيسر المفروض في الطرماح ـ وهو الخارجي ـ ألا يمدح ، وألا يسعى في طلب المال ، وما قيمة المال بجانب الحياة ، وهل كان يضن الخارجي بحيانه ـ وهي أثمن ما يملك ـ حتى يحرص على جمع المال ، فضلاً على أن يطلبه من أعدائه ، بهذا الاسلوب المزري ؟.

لا بل ان الخارجي ليسعى الى الموت [٣] سعيا ، قال البهلول :

---

[١] الديوان (٥ ــ ٨) :

عـــداني عنها أنني شـــارق أهز لحرب ذات نيرين ألتي

[٢] الديوان (١٩ ، ٢٠ ــ ٨) .

فان يك منــا موقـــد وها فاتنا بنا اخمدت نيرانهـا فاضمحلت

ويفتق جانينـا ونرتق فتقـــه اذا ما عظيمات الامور استجلت

[٣] في سعي الخوارج للموت ، يقول الدكتور إحسان عباس (شعر الخوارج ٧) : « . . وتتجلى الروح الدينية في الشـــعر الخارجي ، في السعي لتقصير المسافة بين الله والانسان ، وهذا مايظهر في تلك الأشـــعار ، التي تدور حول استطالة الحياة ، ومحاولة التخلص منها ، لأن ذلك يحقق شيئين : اللحاق بالله ، واللحاق بالاخوان والأصحاب ، وفي وحدة الثورة على الوضع السيء

من كان يكره أن يلقى منيته ... فالموت أشهى الى قلبي من العسل
فلا التقــدم في الهيجاء يعجلني ... ولا الحذار ينجيني من الأجل (١)

ولقد كان الخوارج مضرب المثل في التضحية في سبيل العقيدة ، يقول ابن عبد ربه : « وليس في الفرق كلها .. أشد بصائر من الخوارج ، ولا أكثر اجتهاد ، ولا أوطن أنفساً على الموت ، فمنهم الذي طعن فانفذه الرمح فجعل يسعى الى قاتله ، ويقــول : « وعجلت اليك رب لترضى »(٢) . والأمثله على شجاعتهم كثيرة ، فهذا معاوية يطلب الى حوثرة أن يكفيه شر ابنه الخارجي فيسير اليه ، ويدعوه للرجوع فيأبى ، فيأخذ اليه وليده الصغير ، لعله يراه فيحن فيأبى أيضاً ، فيقول له أبوه : « أي بني أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه » . فيجيبه : « يا أبت أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني الى ابني »(٣) .

وليست هذه القصة بأغرب ولا أكثر دلالة على شجاعتهم من قصة ذلك

= يكمن الأمل في التخلص من هذه الحياة عند الخوارج ، أي أن الموت عندهم هو الدين الحقيقي ، ولذلك كان الشاعر الخارجي في صراع كبير مع الزمن وسبيله للانتصار عليه هو الموت . والخوارج يرون أن تقصير المسافة انتصار متوج بالموت ، ومن أجل هذا التهافت على نار الموت ـ طواعية واختياراً ـ نجد لديهم تلك النغمة القوية ، التي تصور استطالة الحياة أي التبرم بانتصار الزمن » ، ويقول الحويرث الراسبي :

أقول لنفسي في الخلاء ألومها ... هبلت دعيني قد مللت من العمر
ومن عيشة لاخير فيها دنيئـــة ... مذمة عند الكرام ذوي الصبر
سأركب حوباء الامـــور لعلني ... الاقي الذي لاقى المحرق في القصر

[١] شعر الخوارج ٧٣ ، البهلول بن بشر الشيباني .
[٢] الكامل للمبرد ٩٥٥ ، العقد الفريد (مطبعة لجنة التأليف ١ / ٢٥٦) ، شرح نهج البلاغة ١ / ٢٠٧ . سورة طه آية ٨٤ ،
[٣] الكامل للمبرد ٩٧٩ ، العقد الفريد ١ / ٢٥٢ .

الخارجي الذي ضربه علي بسيفه فقتله . فما خالطه سيفه صاح : « ياحبذا الروحة الى الجنة »(١) .

وفي محاورة بين علي وزرعة بن البرج ، نجد هذه النزعة ، يقول زرعة : « أما والله يا علي لئن لم تدع التحكيم ، قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه » فقال له علي : بؤساً لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الريح . قال زرعة : « وددت أن قد كان ذلك »(٢) .

وليس هناك ما هو أحب الى الخارجي من القتال ، فكان يقاتل على السوط والرمح يؤخذان منه ، يروى : أنه سقط لرجل خارجي رمح فقاتلت عليه الخوارج حتى كثر الجراح والقتلى(٣) وخطبة أبي حمزة تصور شجاعتهم خير تصوير .

ومع هذه الشجاعة النادرة ، والجرأة الفذة ، صراحة بالغة ، وصبر على الصعاب ، وتقى مشهود ، أتي زياد بعروة بن أدية فسأله عن الخلفاء الراشدين فتولى عثمان ست سنوات من خلافته ، ثم شهد عليه بالكفر بعد ذلك ، وفعل مثل ذلك مع علي ، الى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفر بعد ذلك ، وسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً ، وسأله عن نفسه فأجابه :

« أولك لزنية(٤) ، وآخرك لدعوة(٥) ، وأنت بعد عاص لربك » ، فقتله

---

[١] شرح النهج ١ / ٢٠٤ .

[٢] الطبري (الاستقامة ٤ / ٥٣) ، الكامل لابن الأثير ١٦٩/٣ .

[٣] الكامل للمبرد ١١٥٧ ، العقد الفريد٢٦٠/١ ، وتمضي الرواية فتذكر ان ذلك كان مع المغرب وكان الخارجي يرتجز :

الليل ليل فيه ويل ويل ... وسال بالقوم الشراة سيل

إن جاز للاعداء فينا قول

[٤] يشير الى انه غير معروف النسب .

[٥] يشير الى أن معاوية ادعى أنه أخوه وأن أباه (أبا سيفان) ادعى أنه ابنه من سمية .

ثم دعا مولاه ، وطلب اليه أن يصف له حاله ، فقال : « ما أتيته بطعام بنهار قط ولا فرشت له فراشاً بليل قط »(١) . واستنطقهم علي بقتل عبد الله بن خباب فأقروا به ، فقال انفردوا كتائب ، لأسمع قولكم كتيبة كتيبة ، فتكتبوا كتائب وأقرت كل كتيبة بمثل ما أقرت به الأخرى من قتل ابن خباب وقالوا لنقتلنك كما قتلناه (٢) ، واذا كانت هذه شجاعة الخوارج وتضحيتهم ، وهـــذا صبرهم واقبالهم على الموت ، فأين يكون الطرماح منهم ؟

الطرماح ، كما يبدو لي مطعون الشجاعة ، ولنر الى ماجاء في الأغاني : « أنشد الكميت قول الطرماح : اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت . . . فقال : اي والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة . . وقال عمر بن شبة والسماحة مكان الشجاعة »(٣) ، فأنا أجد في هذا الاستدراك ما يوحي بأن الطرماح لم يكن شجاعاً ... بل انه فيما يبدو لي جبان ، لم يكن في وسعه أن يخرج كما يخرج سواه من أبطال الشراة أو حتى عامتهم ، يخاف الموت ويتهيب الخروج ، فيلجأ الى هذه الصور الشعرية ، يستعيض بها عن الخروج الحربي :

فاقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمي   كضغث الخلا بين الرياح العواصف
ويصبح لحمي بطعن طير مقيله   دوين السماء في نسور عواكف

هذه الأجواء ، يستعيض بها عما كان يشعر به من وجوب التضحية ، فيجد خلال لمحاتها متنفساً ، يعوض له عن الشجاعة والخروج الحقيقي .

ويبدو أن هناك دوافع قوية ، بل أشد قوة من عقيدته الخارجية ـ اذا صحت ـ كانت وراء هذا المدح . تلك عصبيته لقحطان ، وحبه الجارف للمال ، الذي فسرناه بأنه أثر من آثار حب الحياة وحب النفس ، يحب نفسه ، ويريد لها العزة ، وليس من وسيلة في مفاهيم ذلك العمر ـ مثل المال ـ تبلغ بالرجل العزة ، وتوصله الى المركز المرموق .

---

[١] الكامل للمبرد ٩١٠ ، شرح النهج ٢٠٤/١ .

[٢] شرح النهج ٢٠٧/١ .

[٣] الاغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) .

وان رجال المال أضحوا ومالهم لهم عند أبواب الملوك شفيع(١)

ويظهر أن هذا المال ، بعد أن كان وسيلة لاعزاز نفسه وإكرامها ، أصبح غاية تعزز وتكرم وتصان ، فهو يخشى عليه ـ اذا مات ـ أن يقع في أيد غير أمينة ، كما يخشى على ولده تماماً أن تساء معاملته اذا ما فارق هو الحياة :

احاذر ياصمصام إن مت أن يلي تراثي وإياك امرؤ غير مصلح(٢)

إذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهي ملكت فأسجح(٣)

والعجيب ، أن الدكتورة سهير القلماوي ، لاترى ضيراً في مدحه هذا ، ولا تعتبره أمراً يمس خارجيته ، تقول : « وهل معنى مدحه ليزيد مثلاً ـ وهو لم ينل منصبه الا ببلائه وبلاء أبيه ضد الخوارج ـ أن الطرماح لم يكن خارجياً ، أو أنه خرج على مذهبه ؟.. كلا »(٤) . وتعلل جوابها هذا . بأنها لا تجد في مدحه أي ذكر للبلاء الذي كان السبب في رفع مكانة يزيد ، وانما كل مدحه له يدور حول كرمه ويمانيته(٥) . وكأني بالدكتورة تريد من الطرماح أن يمدح يزيد بقتله الخوارج ، حتى يصح لها بعد ذلك أن تجعل خارجيته موضع نظر .

كان عمران بن حطان(٦) يستخف باولئك الذين يمدحون ويتملقون (وهم من غير الخوارج) ، مر على الفرزدق يوماً ، وهو يمدح فقال .

أيها المادح العبـاد ليعطى إن لله ما بأيدي العبـاد

فاسأل الله ما طلبت اليهـم وارج فضل المقسم العـواد

لا تقل في الجواد ماليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد(٧)

---

[١] الديوان (٣٦ ـ ٣٤) ، الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٣) .

[٢] الديوان (١٦ ، ١٧ ـ ١) .

[٣] أسجح أرفق .

[٤] أدب الخوارج ١٠٢ .

[٥] أدب الخوارج ١٠٢ .

[٦] عمران أشهر شعراء الخوارج قاطبة ، وزعيم من زعماء الصفرية ، مات(٨٤ هـ) .

[٧] الأغاني (الساسي ١٥١/١٦) ، الكامل للمبرد ٥٦١ ، خزانة الأدب ٤٤٠/٢ .

ولنتصور مدى سخريته بالطرماح ، لو أنه أتيح له أن يسمع مدحه . ثم ان الخوارج من الزهد والتقشف بمكان معروف ، وقد مر بنا كيف أن عروة بن ادية : ما أتي بطعام بنهار قط ، ولافرش له فراش بليل قط (١) .

هل قدم الطرماح للعقيدة الخارجية أكثر مما قدم لنفسه ولقحطان ؟ والخوارج حزب ثوري ، وما هي التزامات الشاعر تجاه هذا الحزب المتطرف في تطبيق مبادئه حتى على أبرز قادته ؟ ورجال هذا الحزب كانوا في الغاية من الصراحة في مواجهة المخطئين من قواده ، فكيف بسائر أفراده ؟ .

لا أدعي أن الاجابة عن كل هذه التساؤلات ، تقرر مصير الشاعر الى الخوارج أو الى سواهم . فما أهون الاجابة عن كل هذه الأسئلة ! بل أن فيما تقدم من دراسة لحياة الطرماح أكثر من إجابة ، فالطرماح لم يقدم للخوارج شيئاً غير هاتين المقطوعتين أو الثلاث — ان صحت نسبتها اليه — وليس في شعره أي التزام فكري تجاه عقيدة أو مبدأ ، والشعر الخارجي ، في مختلف فنونه ، كان يدور حول عقيدة الخوارج ، وحياتهم في الحرب والسلم .

وليس هناك ، في كل حياة الطرماح ، أي موقف ينم عن احترام لعقيدة سياسية ، أو يرمز الى كفاح في سبيل فكرة ، فهو لم يخرج ، ولم يطلبه سلطان ، فضلاً على أنه مدح وهجا وتعصب وطمع في المال ، وطلبه كما يطلبه سائر الشعراء المتكسبين ، ومدح من أجله أشهر أعداء الخوارج .

الا أن الذي يحول بيني وبين أن أقطع في ترجيح كونه غير خارجي ، هذا الاجماع على خارجيته ، فضلاً على القطعتين اللتين ترويان على انهما له ، واللتين يذكر فيهما الشراة .

وأجدني ، رغم ذلك ، لا أستطيع أن أعتقد أن الطرماح خارجي ، بله التصديق بأنه اعتقد هذا المذهب أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه ، كما يروي أبو الفرج ، بعد ما فصلت في دراسة حياته ، ورأيت من حبه لنفسه وهيامه بها ، ومدحه الولاة طلباً للمال ، وتعصبه لليمن وقحطان وجيش الشام ،

---

[١] الكامل للمبرد ٩١٠ ، شرح النهج ٢٠٤/١ .

وهجائه الناس ، بل ان في تساؤل العامة وعجبها من علاقته بالكميت شاعر العلويين لأبلغ الدلالة على الطعن في خارجيته ، فأنا أحس أن وراء تساؤلها شكاً ، فكأني بالعامة تقول : « أي خارجي هـذا ، الذي يبيح لنفسه ملازمة الكميت هذه الملازمة ؟ » .

ليس من سبيل — كما هو ظاهر — للتوفيق بين خارجيته هـذه ، ومظاهر سلوكه الأخرى ، وبين خارجيته ، وبعض فنونه الشعرية ، لذلك أراني أميل الى إنكار خارجيته هذه بتحفظ ، أو إنكار هـذه الخارجية ، في العقدين الأخيرين من عمره على الأقل ، حتى أجد لذلك التناقض مخرجاً يحل الأزمة .

وأنا اذ أرجح نفي هذه العقيدة عنه — أو نفيها في الشطر الأخير من حياته — أقدر ما لهذا الرأي من خطورة ، سيما وقد رأيت إجماع المصادر على خارجيته ، وقرأت ما روت من شعره الذي يذكر فيه الشراة . لكن إجماع المصادر هذا ، لا يستطيع أن يقف بيني وبين أن أقرأ سائر شعره ، وأفهمه ، وأجد فيه شخصيته ، التي لا تصلها بالخوارج أية وشائج ، مهما تكن ضعيفة .

فما أحسست يوماً وأنا اقرأ فخره ، وأقرأ هجاءه ، فأجد تعصبه ، أني أقرأ لشاعر خارجي . وما وجدت يوماً وأنا أدرس قصائده وأحللها ، شخصية الشاعر الخارجي ، الا في هذه المقطوعات الصغيرة الثلاث .

أيستطيع هذا الاجماع ، أن يحول بيني وبين أن أهدم خارجية هذا الرجل ، أو أن أهدمها في الشطر الأخير من حياته ، على الأقل ، بعد ما رأيت من شعره .

وهل تستطيع الأبيات ، التي تذكر الشراة ، وهي قليلة أن ترسم لي شخصية الشاعر ، وتحدد خصائصها . فتضعها بعد ذلك ، بين شخصيات شعراء الخوارج . ثم لا يستطيع كل هجاء الطرماح ، وكل مناقضاته ، وكل فخره ، وكل مدحه ، في طلب المال ، وكل حبه لنفسه ، وبرم العامة به ، وبرمه بها ، وسخطه عليها ، ثم تعصبه لطيىء وقحطان واليمن وجيش الشام ، أن يرسم لي شخصية أخرى ، تتميز عن شخصية الخوارج .

لا أستطيع أن أجد في هـذه المقطوعات الثلاث شخصية الطرماح ، التي وجدتها في سائر شعره ، أفلا يمكن أن تكون هـذه المقطوعات لغيره ، ثم نسبت اليه ، واذا كان هـذا الأمر بالنسبة للمقطوعتين ، اللتين ذكر فيهما الشراة(١) صعباً ، وغير ميسور ، باعتبار أن أحداً لم يشك في نسبتها اليه(٢) ، أفلا يصح ذلك بالنسبة للمقطوعة الثالثة ، فقد نسبت الى الطرماح ، كما نسبت الى عبدالله بن موسى(٣) ، ونسبت أيضاً الى الطرماح الكبير (القعقاع بن قيس الطائي عم الطرماح بن حكيم) ، وقد رأينا أن القعقاع خارجي قديم ، كما رأينا أن الطرماح الكبير غير القعقاع ، وانما هو الطرماح بن عدي بن عبدالله بن خيبرى ، وهـذا خارجي صفري(٤) ، وطرماحنا خارجي صفري أيضاً ؟ فالمقطوعة على هذا مقطوعة الطرماح الأكبر نسبت لشاعرنا .

أ:لا يتبادر للذهن أن مقطوعات أخر للطرماح (الأكبر) الشاعر الخارجي الصفري ، نسبت خطأ الى الطرماح (الأصغر) شاعرنا ؟ أنا أرجح ذلك ، فقد رأينا أن هناك خلطاً بين الشاعرين ، وقد رأينا أن في تهذيب تاريخ دمشق تعليقاً ، حول مناقضة جرت بين الطرماح والفرزدق ، ونص التعليق هو : « وأحسب أن يكون هـذا الطرماح الأكبر وهو ابن عدي بن عبدالله بن خيبرى »(٥) .

---

[١] المقطوعتان (الثلاثون ، والسابعة والثلاثون في الديوان) .

[٢] هـذا على الرغم من أن المقطوعة السابعة والثلاثين ، جاءت عن طريق خلف ، رواه عنه الأصمعي ، (الأغاني دار الكتب ٤٣/١٢) .

[٣] مقاتل الطالبيين ٦٣٣ .

[٤] جمهرة أنساب العرب ٤٠١ .

[٥] كما مر بنا أيضاً خلط المرزباني في معجم الشعراء ١٤٨ ، بين طرماحين آخرين ، ويوحي كلام الآمـدي في المؤتلف والمختلف ٤٧ : بوجود خلط بين الطرماح السنبسي أو الأعور السنبسي والطرماح بن الجهم العقدي. ويشير الى أن =

وصفرية طرماحنا تدفعني الى ترجيح الخلط ، فالطرماح الأكبر صفري ، فلعل صفريته نسبت لطرماحنا كما نسب شعره . وإذا كان الأمر كذلك ، أصبحت المقطوعتان الأوليان في موضع يسلط عليها الشك أيضاً . فقد تكونان للطرماح (الأكبر) الخارجي الصفري . ونسبتا لشاعرنا (الأصغر) .

ولفظتا الأكبر والأصغر ، أو الكبير والصغير ، تستلفتان انتباهي ، فهما — كما يبدو — تدلان على أن خلطاً كثيراً قد وقع بين الشاعرين ، فوضعتا لأمن اللبس ومنع الخلط ، الا أنهما — فيما يظهر — لم تحسن الاستفادة منهما ، فوقع ما وقع ، من الوهم .

وعلى هذا فما يمنع أن تكون المقطوعات الثلاث كلها للطرماح بن عدي الشاعر الخارجي الصفري ، ثم نسبت الى شاعرنا خطأً .

أو ما يمنع أن يكون بعضها لعمه القعقاع وهو خارجي أيضاً[1] ؟ أو

= (كتاب طيء) يجعل منهما طرماحاً واحداً هو الطرماح بن الجهم السنبسي الطائي .

وفي حديثه (ص ٢١٩) عن شعر الطرماح بن الجهم السنبسي ، تبدو عليه الحيرة اذ يقول : « فلست أدري أهو الطرماح العقدي أو غيره ؟ بل أظنه إياه ، لأن بني عمر بن سنبس بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء ، أمهما عقدة بنت معتر ... » .

وقد يقع الخلط بين مؤلفين إذ ينسب مؤلف مقطوعة لطرماح وينسبها آخر لطرماح آخر ، كما حدث بالنسبة لمقطوعته (وكنت كعظم الريم) اذ نسبت في سمط اللآلىء ٤١٩ الى الطرماح بن حكيم وفي تهذيب الاصلاح ٤٤/١ الى الطرماح الأجئي .

[1] وكما حدث خلط بين الطرماحين الاكبر والأصغر ، والطرماحين السنبسي والعقدي ، حدث بين طرماحنا وطرماح آخر ، وهو الطرماح بن الجهم السنبسي الطائي ، فقد وهم كرنكو ناشر الديوان ، ونقل مقطوعة من =

ما يمنع أن تكون لشاعر خارجي آخر(١) . ؟

وإذا كنا لانملك أي دليل مادي ، يشكك في نسبة القطعتين الأولين الى شاعرنا ، فيؤكد رأينا في ترجيح كونهما للطرماح بن عدي ، ونسبتا خطأ لغيره ، نكتفي بأن نشير الى رأينا هذا منتظرين أن نجد الدليل المادي .

وعلى فرض صحة نسبة هاتين القطعتين للطرماح ، لعدم وجود دليل يطعن في نسبتهما اليه ، فانه من العسير الايمان بأن الطرماح خارجي ، أو على الأقل أنه اعتقد مذهب الخوارج أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه .

وليس من البعيد ، بل من المتوقع ـ اذا صحت نسبة المقطوعتين اليه ـ أن يكون الطرماح ، اعتنق هذا المذهب في أول شبابه ، ثم تركه . ذلك أن الطرماح رجل ظاهر التدين ، لم نجد ما يطعن في سلامة إيمانه ، وسلوكه القويم ، وشعره خال مما يطعن في إيمانه ، أو يمس إسلامه ، بل هو يذكر في شعره هذا : أنه ترك عهد الصبا وأوضاره وأرشده الله الى طريق

= شعره في الهجاء ، وأثبتها في الديوان على أنها لشاعرنا . والطرماح بن الجهم هذا يدعى (الأعور السنبسي) ، وهو الذي ظن المرزباني أنه (العقدي) وأظنه (القعدي) من القعود ، وهو اصطلاح خارجي يطلق على الذين لايوجبون القتال منهم ، وقد يكون نسب الى أمه (عقدة) على رأي المرزباني في معجم الشعراء ١٤٨ . وأشار التبريزي في اصلاح تهذيب المنطق الى خلط وقع بين طرماحنا والطرماح السنبسي الأجئي وخلط أبو أحمد العسكري بين طرماحنا والطرماح السنبسي في شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٤٣٦ . ويلاحظ : أن طرماحنا الأصغر ، والطرماح الاكبر ، والطرماح الأجئي ، والطرماح السنبسي ، كلهم طائيون .

[١] يذكر الأستاذ احمد الشايب (أن الشخصيات الفنية للخوارج متشابهة ، لانجد بينها فرقاً كبيراً في الصياغة ، فاذا نسب شعر أحدهم الى الآخر جاز على كثير من القراء ، وقد وقع الأقدمون في ذلك ... تاريخ الشعر السياسي ١٧٣) .

الهداية(١) ، فليس ببعيد أن يكون قد أولى — في هذه الفترة — عصبة الخوارج حبه وتقديره ، أو شعر بالميل اليهم ، والى ما يثون من آراء في الخلافة والدين . وظروف الكوفة كانت — في هذه الفترة — تساعد على ذاك وتدفع اليه الناس دفعاً ، فالسياسة كانت بدعة العصر ، ذكر البغدادي ، عن عكرمة الضبي : أنه قال : « أدركت الناس بالكوفة من لم يرو (طربت وما شوقاً الى البيض أطرب) فليس بشيعي ، ومن لم يرو (ذكر القلب إلفه المهجورا) فليس بأموي ، ومن لم يرو (هلا عرفت منازلا بالأبرق) فليس بمهلبي »(٢) .

والخوارج ، حزب إسلامي ، يغالي في تطبيق تعاليم الدين ، ويتمسك أي تمسك بمبادئه ، فلم لا يجلب العطف عليه ، والطرماح شاعر رقيق ، حسن الاسلام ، فربما مال قلبه الى اسلوب هذا الحزب في المحافظة على الدين . ورعاية تعاليمه ، فحاول أن يؤازره أو يؤازر احدى فرقه ، في فترة من فترات التوبة ، التي أعقبت فورة الشباب ، والطرماح — كما ذكرت — حدثنا بما يشبه التوبة .

لكن المؤازرة تتشكل ، وتتعدد واجهاتها وألوانها . وقد يكون منها ما يقود الى الموت ، أو يجر الى السجن ، وهذا ما لا يطيق الطرماح ، كما يطيق الخوارج ، فهو يخشى الموت خشية بالغة ، وهذه طبيعة ملازمة لأولئك الذين يحبون أنفسهم فوق القدر الطبيعي(٣) .

ولعل هيام الطرماح بنفسه ، وإكباره إياها ، هو الذي حال بينه وبين أن يستمر في المؤازرة والتأييد ، أو أن يندفع في الطريق الى نهايته ، كما يفعل الخوارج الممتازون ، ولعله كان هناك في بداية الأمر ، صراع بين هذا الحب

---

[١] القصيدتان الثانية والخامسة في الديوان .
[٢] خزانة الأدب ٢/٢٠٨ .
[٣] تعرف هذه الحالة (بالنرجسية) والتسمية مستفادة من احدى الاساطير اليونانية .

الجارف وعقيدته ، الا أن شعره خال من أية اشارة الى مثل هذا الصراع .

ليس للطرماح — اذن — قبل بمواجهة مثل هذه التضحية ، وليعوض عنها بالشعر آناً ، يرسم به صور الخروج ، يعوض بها عما فقد من شجاعة ، وبالتأييد آناً آخر ، في ظروف الرخاء السياسي — ان صح هذا التعبير — وفي غفلة من السلطان ، وحين يستيقظ في صدره هذا الحب الكامن للخوارج ، والذي لايبلغ من نفسه مبلغ التضحية والفداء ، فنفسه أغلى من كل شيء .

لم تكن عند الطرماح الشجاعة الكافية للخروج ، فهو يتمنى أن تكون وفاته في عصبة أو لقاء حربي ، مع الخوارج . ويقعد به عن إدراك ما يتمناه ، أنه لا يملك أسباب الخروج ، فدونه ودون ذلك هوى شديد لنفسه ، وإعجاب مابعده إعجاب بها ، وتعلق شديد بزوجه وبنيه ، ودونه ودون ذلك أيضاً ، هذا الحرص على الحياة ، وذاك الجشع الذي لا يفارقه ، حتى في حالة تذكره للخوارج ، وتمنيه أن يموت وإياهم :

لأكسب مالاً أو أؤول الى غنى   من الله يكفيني عدات الخلائف

على أنه عوض عن الخروج الحربي بهذه الصور التي تمثله ميتاً ، وأرضى نزعته للخروج بها ، ونفس عن إحساسه بوجوب المشاركة في الصراع السياسي ، الذي عاته الكوفة ، والذي كان يدفع الشباب الى أن ينقسموا كما ينقسمون اليوم في كل مكان الى تأييد هذه العصبة أو تلك ، أو الانتماء الى هـذا الحزب أو ذاك .

وطبيعة حزب الخوارج ، كانت تورث أعضاءه المشقة والتغرب . فأبطاله الممتازون أبداً في حالة حرب ، وسلمهم يكون في دار الهجرة أو أرض السلام ، فأرض الكفار (الحاكمين) أرض حرام[1] .

أليس أهون من ذلك حب قحطان ، الذي يورث المال ، عن طريق مدح الولاة منهم ، بل أن ذلك أيسر وأجدى ، ولا يكلف المرء حياته ، ولا يقوده الى مشقة أو تضحية .

---

[1] الكامل للمبرد ١٠٣١ .

وليس مذهب الطرماح وسيلة للمال والكسب ، كما يرى البعض ، فلو كان كذلك لرأيناه في الطليعة من المدافعين عن مبادىء هذا الحزب ، فالمال وسيلة يخدم بها نفسه ، فهو يحب المال ، لأنه يحب نفسه ، أما أن يضحي بنفسه من أجل المال ، فهذا نقيض الواقع .

هو اذن — إذا صحت خارجيته — مؤبد . يحمل لحزب الخوارج الحب والاحترام ، بالقدر الذي لايعرض الى بطش سلطان ، ولايكلف خروجاً ، ولا يورث سجناً ولا عقاباً . والطرماح لم يطلبه سلطان ، ولم تلاحقه سلطة ، ولم تضعه هذه العقيدة ، موضع الريبة أو الشك من الولاة ، ولم تجعله موضع الخشية ، في أي وقت من أوقات حياته .

وأرجح أن فترة تأييده لحزب الخوارج ، ومناصرته له ، كانت في أول شبابه ، في هذه الفترة التي يشير دائماً الى أن الله أرشده بعدها ، فترك الصبا وأوزاره . كما أرجح أن هذه العلاقة انتهت في حينها ، وقد يكون بقي بعض الشيء من ظلالها في نفسه . ولم تكن هذه الظلال من القوة والتمكن ، بحيث تقضي على نزعاته الأخرى .

ومهما يكن من شيء ، فان التسليم بصحة رواية المدائني ، من أنه اعتقد مذهب الخوارج أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه ، أمر صعب ، فلا أعتقد أبداً ان الطرماح مات خارجياً(١) . وهناك جملة أدلة قوية(٢) تؤيد ما أذهب

---

[١] لو صح أنه خارجي ، لحدث له ما حدث لعكرمة الضبي ، مولى ابن عباس فقد كان يميل الى الخوارج (الكامل للمبرد ٩٤٩ ، الملل والنحل ١٢٣) ، قال ابن سلام : « مات كثير وعكرمة في يوم واحد ، فاحتفلت قريش في جنازة كثير ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله » طبقات الشعراء ١٢٤ ، بينما نجد أن ابن شبرمة في روايته ، يشير الى نوع من الاحتفال بجنازة الطرماح .

[٢] لم يذكر الأشعري ولا الشهرستاني الطرماح في الخوارج حينما عددا رجالهم وشعراءهم ، مقالات الاسلاميين ١٨٦ ، الملل والنحل ١٢٣ ، ١٢٤ .

اليه في عقيدة شاعرنا ، أهمها شعر الفرزدق(١) ، الذي هجا به الطرماح ، فنحن إذ نلجأ الى هذا الشعر ، نستطيع أن نجد فيه أوضح دليل على الشك في خارجية صاحبنا .

أليس الفرزدق أكثر الناس التماساً لعيوب الطرماح ؟ أو ليس مذهب الخوارج عيباً في نظر الفرزدق ، ومن زاوية تشيعه لآل علي على الأقل ؟. لم يترك الفرزدق عيباً شخصياً أو قبلياً إلا ألصقه بالطرماح وبقومه ، على أنه سكت عن هذه الخارجية سكوتاً ! .

فقد اتهمه واتهم قومه بالمجوسية والنبطية ، كما عيره بنزول طيئ في عين التمر ، وغير عين التمر من قرى السواد ، وسبه في محارمه سباً قبيحاً كما سب طيئاً بمثل ذلك ، ولم يتعرض لعلاقته بالخوارج من قريب ولا بعيد ، أليس ذلك دليلاً قوياً على الشك في هذه (الخارجية !) ؟ .

ومثل ذلك موقف الطرماح ، فانه لم تمنعه (خارجيته !) من أن يهجو تميماً أمر هجاء ، مع أن كثرة الخوارج من تميم ، بل ان أشهر قوادهم تميميون .

ولم تجد الدكتورة سهير في مظاهر سلوكه كلها ، ما يتعارض وعقيدته ، فهي تقول : « وقد درسنا حياة الطرماح وشعره . فلم نجد ما يتعارض وكونه خارجياً ، بل على العكس وجدنا أنه يمثل فئة عديدة من الخوارج أصدق تمثيل(٢) .

وقد حاولت الدكتورة ، أن توفق بين خارجيته هذه ، ومظاهر سلوكه الشخصي وفنونه ، فما وفقت في هذه المحاولة ، ذلك أنها جعلت مظاهر سلوكه لحقاً لخارجيته ، ودرستها من خلال هذه الخارجية ، وحاولت أن تفسرها

---

[١] أبو فراس ، همام بن غالب بن صعصعة ، والفرزدق لقبه ، ولد بالبصرة نحو سنة (٢٠هـ / ٦٤١م) من أب ذي كرم ووجاهة ، ينتمي الى مجاشع بن دارم بن تميم ، ومات في البصرة سنة (١١٢هـ / ٧٣٠م) .

[٢] أدب الخوارج ٩٤ .

بخارجيته أيضاً . كما حاولت أن تدرس شعره ضمن إطار هذه العقيدة ، وتفسر أغلب معانيه بها . فهو يحس بكره العامة له ويبادلها هذا الكره بمثله أو أشد ، لأنه خارجي ، ويحب نفسه ويعجب بها ، ويحب المال ، لأنه خارجي ، وهو يتعصب لطيء وقحطان واليمن وأهل الشام وهو خارجي ، ثم لاضير من كل ذلك على خارجيته ! . وهو يهجو تميماً وحلفاءها ، ويناقض الفرزدق وسواه لأنه خارجي ! . فهي قد افترضت صحة خارجيته ، وحاولت أن تبحث في مظاهر سلوكه الشخصي وفنونه الشعرية في ظل هذه الخارجية وضمن إطارها ، كما دافعت عن صحة العقيدة أن تنال منها أو تهدمها مظاهر سلوكه ، لذلك وقعت في التناقض أكثر من مرة ، تقول : « أما الطرماح ، فانه رغم خارجيته ، كان متعصباً ، قوي التعصب . وشعره فى ذلك لا يحتمل تأويلاً ولاتجد فيه تناقضاً فهو يكره تميماً ويمدح الأزد ولايشذ بيت واحد من شعره القبلي على هذه القاعدة العامة ، ثم هو في هذا لايناقص مذهبه الخارجي »(١).

وهي في هذا تخالف ما أكدته من : « أن أول ما يبدو مخالفاً لروح الخوارج عند الطرماح تعصبه وهجاؤه تميماً »(٢) . ولا أدري كيف تستطيع أن توفق بين ذلك وبين قولها: « . . لم يكن اعتداد الطرماح بطائيته وقحطانيته يتنافى ومبادىء الخوارج»(٣) ،

وكما حاولت أن تبرر صفاته وبعض مظاهر سلوكه بخارجيته ، كذلك حاولت أن تبرر خارجيته بوجود هذه الصفات فيه ، فهو خارجي لأنه يتعصب لليمن ، ويحب زعماءهم ويمدحهم — رغم كونهم أعداء للخوارج — ذلك لأنه وجد في مذهب الخوارج فرصة لسلطان اليمن ! ، تقول : « هذا الحزب رغم ما كان يقول به من تسوية المسلمين ، ضم منذ نشأته عنصرين هامين من العرب : عنصر القراء من البدو الخالصي العربية ، الذين فنوا في العقيدة

[١] أدب الخوارج ١٣٢ .
[٢] أدب الخوارج ٩٩ .
[٣] أدب الخوارج ١٠٠ .

فنسوا العصبية وكل شيء إلا الايمان . وعنصر الأعراب الذين قوي إيمانهم ولكنهم لم ينسوا أنهم ينتمون الى قبيلة يتعصبون لها . بل ان هذا الفريق الأخير وجد في المذهب الخارجي ما لم يجده في أي مذهب آخر إشباعاً لنزعتين خطيرتين في حياته نزعة الدين ، ونزعة التطلع الى فرصه السلطان . أما الفريق الأول فهو مصور في شعر عمران . وأما الفريق الثاني فيمثله الطرماح أصدق تمثيل . . . »(١).

فالطرماح — اذن — وجد في المذهب الخارجي إشباعاً لنزعة التطلع الى فرصة السلطان ، وأي خارجي هذا . الذي ينخرط في صفوف هذه العصبة المتطرفة ، طلباً لاشباع شهوة الحكم والسلطان لقبيلته ؟ وأرى أن الدكتورة لم تزد على أن جعلته مندساً حاذقاً ، في الوقت الذي أرادت فيه الدفاع عن عقيدته . ولا أدري كيف تستطيع التوفيق بين قوة الايمان ، وقوة التعصب للقبيلة ؟ فما أبعد ما بين النزعتين ! ، وان بينهما لتناقضاً ظاهراً . والخارجي لا يقبل الفخر بغير الاسلام . لأنه لايتعصب إلا للاسلام ، يقول عيسى بن فاتك :

أبي الاسلام لا أب لي سواه إذا فخروا يبكر أو تميم
كلا الحيين ينصر مدعيه ليلحقه بذي الحسب الصميم
وما حسب ولو كرمت عروق ولكن التقي هو الكريم(٢)

وليس من المعقول ، أن يجد المتطرفون الممعنون في التعصب لقبائلهم ، في انتصار هذا الحزب ، حقاً ، ويحصلوا على غاية ، كما تعتقد الدكتورة ، اذ تقول : « وأهم غاية للخوارج قلب نظام الحكم ، ليوافق مبادىء الاسلام الاولى ، وهذه الغاية كانت غاية الطرماح أيضاً ، وليس يمنع ، بل انه لمما يؤيد

---

[١] أدب الخوارج ١٠٠ .

[٢] شعر الخوارج ١٣ ، وفي البيت إقواء ، وقال عمران بن حطان (الكامل ٩٠١ ، ٩٠٨) :

فنحن بنو الاسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر

ذلك عصبيته ، فقلب نظام الحكم حسب مبادىء الاسلام الأولى لا يتنافى وقلب نظام الحكم لينال اليمنيون ولينال هو حقه في الحكم ، بل أن ذلك ليتفق وإياه . . . »[1] .

وإذا كان الأمر كذلك ، فأي خارجي هذا الذي لا يطمح من وراء انضمامه الى عصبة الخوارج ، الى أكثر من الوصول الى حق قبيلته في الحكم ؟ والخارجي مؤمن متطرف في إيمانه ، فهل كان الطرماح كذلك ؟ تقول الدكتورة : « إن الخوارج أغلبهم من الأعراب ، انجرفوا في الخصومات القبلية ، التي كانت قوية في عصرهم فهم أعراب متعصبون وأول ما يتعصب له العربي قبيلته ولا يمكن أن ينهي هذا التعصب أو يخفف منه إلا شعور ديني قوي لا يتسنى لعامتهم ويتجلى هذا التأثر بالشعور الديني عند الطرماح » . ولا ندري أأنهى تأثر الطرماح بالشعور الديني تعصبه أم خففه ؟ .

ولها في تفسير حبه لليمن ، وتعصبه لها ، وهجائه تميماً — رغم خارجيته — رأي ، فيه من الغرابة ما فيه ، تقول : « إن قوادهم وأمراء المؤمنين منهم إما من مضر — بل من تميم غالباً — وإما من ربيعة ، ولعل في هــذا تفسيراً جديداً لشدة تعصب الطرماح لليمن ، فقد كان الأمل — والخوارج شعارهم الدين — أن تكون نصفة اليمنيين على أيديهم فالاسلام لا يعرف فرقاً بين يمني وعدناني »[2] . يتعصب الطرماح لليمن ، لأن الخوارج لم يولوهم ! ! لقد سبق أن ذكرت الدكتورة — كما رأينا — أن الطرماح لجأ الى حزب الخوارج لأنه وجد فيه متنفساً لاشباع نزعة حب السلطان (سلطان القحطانيين) ، ونجد هنا أن القحطانيين واليمنيين لم ينصفوا خلال هذا الحزب ، والمفروض اذا صح ذاك أن يترك الطرماح الخوارج ، ويعادي حزبهم ، لأنه متعصب لليمن وقحطان .

---

[1] أدب الخوارج ٩٩ .

[2] أدب الخوارج ١٠١ .

وفي تعليلها لهجائه تميماً ، دون سائر مضر ، تستند الى خارجيته أيضاً ، لأن بغضه لتميم مستمد منها ، تذكر أنه ، « . . . كان من الحوادث القليلة الشأن في التاريخ العام ، ما كان هاماً خطيراً بالنسبة الى القوم في حينه ، عما كان يقع بين الأزد وتميم في البصرة ، فيغذي هـذا البغض ، بغض الطرماح لتميم . ولعل في هذا ما يمت لمذهب الخوارج بصلات ، بل هو مستمد منه ومن اعتناق الطرماح له ، فالمتتبع لتاريخ الخوارج ، قلما يجد قائداً أو أميراً لهم من غير مضر أو ربيعة ، فهل كان هذا مقصوداً أم أن الظروف هي التي حكمت به ، مهما يكن السبب فالواقع أن مذهب الخوارج لم يحقق أمل اليمنيين في السلطان »(١) .

وتقول لتبرير هذا العداء : « وكان التميميون بنوع خاص عنصراً خطيراً في حياة الخوارج منذ نشأته ، وقواد الخوارج أكثر ما ينتسبون الى تميم ، وكانت أشـد القوى الموجهة ضد الخوارج قوى أزدية ويمنية (جيوش شامية وقواد يمنية) وكان بعض الخوارج يهجو الأزد أو اليمن اذا أراد هجاء العدو الدبني ، فهل كان هذا حافزاً آخر للطرماح أن يهجو تميماً وإن كانت خارجية مثله ؟ »(٢) .

ومثل ذلك محاولتها لتفسير ظاهرة حبه لنفسه ، فقـد لجأت الى هذا الأسلوب ، فاعتبرت هذه الكبرياء العظيمة الناشئة عن اكبار شأن النفس ، صفة بارزة من صفات الخوارج ، (٣) ، وعلى ذاك فكبرياء الطرماح خارجية أيضاً . وكذلك حاولت أن تجعل احساسه بكره العامة له إحساساً طبيعياً تعرض له له الخوارج مثله .

هذا فيما يخص صفاته العامة وقد لجأت الى الوسيلة نفسها . حين درست

---

[١] أدب الخوارج ١٠٤ .

[٢] أدب الخوارج ١٠٥ .

[٣] أدب الخوارج ١٠٦ .

فنونه الشعرية ، فبررت ضعف مدحه بكونه خارجياً ، وكادت في هـذا التبرير تعصف بخارجيته كلها ، اذ ذكرت : « أن الطرماح لم يكن في شعره أضعف مما هو في مدحه - وتفسير ذلك يسير فصاحب المبدأ المؤمن به لايرضى عن وسائل للوصول كوسيلة المدح »(١) .

وليس معنى ذلك كما هو ظاهر من التبرير الا أن يكون الطرماح ضعيف الايمان ، أو غير مؤمن بمبدئه أصلاً .

ومرد أكثر هذا التناقض ، الذي وقعت فيه الدكتورة ، الى أنها حاولت أن تدرس صفاته وخصائص شخصيته في ظلال عقيدته ، وتدرس شعره في اطار هذه الخارجية ، التي آمنت بصحتها مسبقاً . ويبدو أن الذي جر الدكتورة الفاضلة الى هـذا الأسلوب ، هو تصورها أن الطرماح مات وهو على مذهب الخوارج ، باعتبار أنه قال أبياتاً تدل على قوة وحيوية لا تتيسران لشيخ ، عام وفاته ، مستنتجة ذلك من رواية ابن شبرمة ، ولقد ذكرنا روايته ، فما رأينا فيها مايدل — بأي شكل من الأشكال — على أن الأبيات التي فيها ، قيلت عام وفاة الطرماح .

وأمر آخر أحسب أن له خطره في هذا التناقض ، ذلك أنها اعتبرت الخوارج حزباً يضم بين دفتيه عناصر مختلفة غير متجانسة الهدف والغاية ، ففيه البدو الذين فنوا في العقيدة ، وفيه الأعراب المتعصبون لقبائلهم ، المتطلعون الى فرصة السلطان ، واعتبرت الطرماح نموذجاً للخارجي المتعصب لقبيلته ، المتطلع الى فرصة سلطانها . ولقد اتضح لنا من تتبعنا لنشوء هذا الحزب ، أنه لم يكن خليطاً غير متجانس ، يفقد الترابط ، ويفتقر الى عامل التشابه ، بل على العكس من ذلك ، وجدناه — وفي بدء نشأته بخاصة — وحدة متماسكة متشابهة النماذج ، مترابطة كأقوى ما يكون الترابط . وفي ضوء ذلك وجدنا في الطرماح وفي شعره مايتناقض صراحة ومذهب الخوارج وعقيدتهم .

---

[١] أدب الخوارج ٤٥ .

القسم الأدبي

الفصل الأول

الديوان

جهود الناشر :

نشر ديوان الطرماح بن حكيم الطائي ، سنة ١٩٢٧ ، في (سلسلة تذكار جب (Gibb Memorial Series) في مدينة لندن ، نشره المستشرق الأستاذ « الدكتور فربتس كرنكو » « F. KRFNKOW » ، مع ديوان طفيل بن عوف الغنوي ، رواية أبي حاتم السجستاني ، في مجلد واحد .

وقد اعتمد « كرنكو » في نشره على نسخه خطية وحيدة ، محفوظة في القسم الشرقي من مكتبة المتحفة البريطانية تحت رقم « Or. 6771 » كتبها في اسبانيا ، سنة (٤٣٠ هـ) ، ناسخ جيد الخط ، اعتمد في كتابتها نسخة أصلية جيدة ، كما يتصورها الناشر .

ويصف « كرنكو » النص ، الذي اعتمده في النشر ، بأنه في حالة رديئة جداً ، بسبب عوامل الزمن ، يضاف الى ذلك ، أن الناسخ لم يذكر اسمه فيها . فضلاً على ما وقع منه من أخطاء فى النسخ أتعبت الناشر ، كما ذكر في المقدمة .

مهد « كرنكو » للديوان بمقدمة ، ومقالتين باللغة الانكليزية احداهما عن طفيل ، والثانية عن الطرماح .

وكان اخراج الديوان جيداً ، فقد ضبطت أبياته ، بالشكل الكامل ، وضبطت كلمات الشرح كذلك .

وألحق الناشر بالديوان فهارس مهمة عديدة ، إذ جعل فهرساً للقوافي ، وآخر لأعلام الناس والقبائل ، وفهرساً للبلدان ، ومعجماً للكلمات المهمة ، التي وردت في النص مع تفسيرها بالانجليزية ، وفهرساً لتخريجات الأبيات ، ذكر فيه المؤلفات ، التي وردت فيها مع تعيين الأجزاء والصفحات والطبعات ، مما يسهل الوقوف عليها ، في كتب اللغة والأدب والتاريخ ، فضلاً على أنه

ترجم قصائد الديوان الى الانجليزية نثراً .

واستعان الناشر في عمله هذا ، بأكثر من ثلاثة وعشرين ومائة مرجع عربي ، بعضها مخطوط ، وأكثرها مطبوع ، أثبت أسماءها في مقدمة الديوان ، وأشار الى بعضها في حواشيه .

وبالاضافة الى أصل الديوان ، وهو ناقص ــ كما سنعرف من وصفه ــ جمع كمية ، لا بأس بها ، من الشعر ، مما لا وجود له في النص ، وجعلها ذيلاً للديوان ، وجعل ماوجده من أبيات ، بعد المباشرة بطبع الأصل والذيل ، ملحقاً (ضميمة) .

---

[1] نشر مؤخراً ، وبعد كتابة البحث بأربع سنوات ، ديوان الطرماح كاملا ، بتحقيق الدكتور عزت حسن . وقد اعتمد في نشره نسخة مخطوطة فريدة ، موجودة ضمن دواوين عربية ، محفوظة في دار الكتب ، في مدينة جوروم في تركية .

على أني لم احاول الاستفادة من « الديوان الجديد » شيئاً ، ونشرت بحثي كما قدمته للجنة المناقشة معتمداً على « الديوان القديم » وفاء لعهد ، بذلت فيه من الجهد والمشقة والوقت كثيراً . وابقاء على صورة أدبية فكرية ، آمنت بها وأحببتها وقتاً ما .

وصف عام للديوان :

تبرز أهمية ديوان الطرماح ، من كونه الديوان الوحيد ، الذي وصلنا لشاعر خارجي[1] ، على الرغم من كون أصل الديوان ، خالياً من شعره الخارجي ، اذ ان كل ماورد في الأصل ، مما يتعلق بذلك ، لا يعدو ان يكون إشارات رمزية ، إن جاز التعبير .

نص الديوان ثماني قصائد ، الخمس الأولى منها كاملة ، الى حد ما ، عدا واحدة يمكن أن توصف بأنها سالمة كاملة ، وأولى الثلاث الأخيرات مبتورة ، فضلاً على أن اجزاءها الباقية تعرضت للتلف والخروم الكثيرة ،

يبتديء الديوان بهذه العبارة : « كتاب فيه جميع ديوان الطرماح بن حكيم بن نفر الطائي » ، وينتهي بهذه العبارة : « تم جميع شعر الطرماح ، بحمد الله ، وعونه ، وتأييده ، لثلاث بقين من شهر رمضان ، من سنة ثلاثين وأربعمائة » مما يدل على أن الديوان كامل في الأصل ، لولا ما أصابه من التلف وذهب من قصائد أواسطه ، كما يدل على أن بدايته سالمة الى حد ما ، فالتلف والتمزيق أصابا أواسطه ، وكادا يأتيان على أواخره .

وتبتديء الصفحة الاولى ، من الديوان ، بالبسملة ، تليها مقدمة قصيرة ، فيها سلسلة نسب الشاعر ، حتى ابراهيم (ع) . يلي ذلك القصيدة الاولى ، مما يؤكد سلامة أول الديوان .

وظاهر الأمر — وكما يشير الناشر — أن اكثر الديوان ضاع أو تلف ، فالناشر يذكر : أن المخطوطة ، التي اعتمدها في النشر ، من التفكك والتمزق ، بشكل لا يساعد على معرفة حجم الديوان ، ولا كمية الشعر ، التي كانت فيه ، ولا معرفة جامعة ، كما لا يسمح بالحكم على كيفية ترتيب القصائد فيه ، فضلاً

---

[1] اثنان من شعراء الخوارج لهما ديوان ، عمران والطرماح ، ولم يصلنا سوى ديوان الطرماح ، انظر ضحى الاسلام ٣٤٥/٣ شعر الخوارج ١ . أدب الخوارج ١٠٩ ، والوصف هنا يتعلق بالنسخة التي نشرها كرنكو .

على أن بقايا ديوانه هذه لا يمكن أن تعطينا فكرة كاملة عن شخصيته.(١)

وبعض هذه القصائد، التي في أصل الديوان، طويل، منها ما يبلغ تسعة وسبعين بيتاً، ومنها ما يبلغ خمسة وسبعين، وبعضها قد ضاع أكثر أبياته.

أما الذيل فقد جمع الناشر فيه ثماني وأربعين قصيدة ومقطوعة، تتراوح بين البيت الواحد، والستة والخمسين بيتاً، ومن مقطوعاته ما يعود الى هذه القصائد، التي في نص الديوان. وجمع في الملحق كل ماوجده من أبيات لم يتيسر له الاطلاع عليها إلا بعد المباشرة بالطبع.

وعدد مقطوعات، الملحق سبع عشرة. مقطوعة. تتراوح بين البيت الواحد والسبعة عشر بيتاً.

ليس من المعقول أن يكون ديوان الطرماح بهذه الضؤولة والقلة، بحيث لا يحوي نصه الأصلي أكثر من ثلاثمائة وثمانية وخمسين بيتاً، فليس أدل على ضخامته — في الاصل — من ان الناشر استطاع أن يجمع من قصيدة واحدة في الذيل، ستاً وخمسين بيتاً، ومن اخرى اثنين وثلاثين بيتاً، ومن ثالثة، واحداً وأربعين بيتاً، كما استطعت أن أجمع أكثر من ثلاثين مقطوعة، تتراوح بين البيت الواحد وأربعة الأبيات، مما فات الناشر.

ويصف صاحب كشف الظنون — وهو متأخر (٢) — ديوان الطرماح، بأنه مشهور (٣) وفي هذا دلالة على ضخامته. وذكر ابن النديم: «أن الطوسي عمل ديوان الطرماح فجود» (٤).

---

[١] مقدمة الديوان . ١١١ . P ، دائرة المعارف الاسلامية (النص الانجليزي . الطرماح).

[٢] حاجي خليفة توفي سنة ١٠٦٧ .

[٣] كشف الظنون ٧٩٨ .

[٤] الفهرست (٢٣٠ الاستقامة ١٥٨ ليبزك).

ولقد كان هناك من يروي شعر الطرماح ، حتى بعد وفاته بفترة طويلة ، يذكر أبو حاتم أنه : « ما مثل ابن كناسة ومحمد بن سهل ، فانهما كانا يعرفان شعر الكميت والطرماح ... » (١)

كما كان شعره ، الى فترة بعيدة بعد عصره ، يدرس في الحلقات الأدبية ، جاء في الفهرست : « أن أبا جعفر الطبري شوهد بمصر يقرأ عليه شعر الطرماح »(٢) .

ولكي ندرك حال الديوان ونعرف مدى مافقد منه ، نذكر هنا ، أن قصائد مهمة طويلة ، لا يحوي نص الديوان منها شيئاً ، يتحدث البغدادي في أحد شواهده :

حسان مواضع النقب الأعالي   غراث الوشح صامتة البرين

بعد أن يذكر البيت ، الذي قبله والبيت الذي يليه ، عن القصيدة ، التي ورد فيها الشاهد ، فيقول : « إنها سبعون بيتاً كلها في الغزل » (٣)، وهي غير موجودة في نص الديوان . وقد استطاع الناشر أن يجمع منها اثنين وثلاثين بيتاً ، أثبتها في الذيل ، وجدها في كتب اللغة والأدب . وهذا يصور نسبة ما لدينا الآن من شعر الطرماح الى ما كان في الأصل(٤).

---

[١] مراتب النحويين ٧٣ ، المزهر ٤٠٧/٢ ، ابن كناسة (وهي كنية ابيه) ، وكنيته ابو يحي ، هو محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى من بني أسد صريح توفي سنة ٢٠٧ ه بالكوفة وكان نشأ بها صالحاً فلم يمدح في شعره ولم يهج بل قصر شعره على الزهد . أما محمد بن سهل فهو راوية الكميت وقد روى عنه علي ابن حمزة الكسائي .

[٢] الفهرست (٢٣٤ط ليزك) وانظر معجم الأدباء ٤٣٢/٦ .

[٣] خزانة الأدب ٤١٨/٣.

[٤] استشهد صاحب اللسان باكثر من مائة بيت (من شعر الطرماح) مما لاوجود له في سواه من كتب اللغة والأدب أو الديوان ، واستشهد له الزمخشري في أساس البلاغة بأكثر من ستة وخمسين شاهداً نادراً ، (مقالة كرنكو عن الطرماح في دائرة المعارف الاسلامية ، النص الانجليزي) .

وهناك إشارات اخرى ، تلقي ضوءاً على ضخامة ديوان الطرماح في الأصل، فالطرماح نفسه يذكر — ويروي ذلك عنه حفيده يحي بن صبيرة عن أبيه(صبيرة) عن جده (الطرماح) — أنه قال : « أنشدت حماداً الراويه :

بان الخليط بسحرة فتبددوا والدار تسعف بالخليط وتسعد

وهي ستون بيتاً »(١)، وليس في نص الديوان منها سوى أربعة وثلاثين بيتاً ، كما جمع الناشر تسعة عشر بيتاً اخرى من كتب اللغة والأدب من هذه القصيدة ، وأثبتها في الذيل .

وجاء في الأغاني :« أن الطرماح فضل بني سمح في شعره على بني يشكر (٢) » ، وليس في الديوان ولا في الأغاني ولا في المصادر الأخرى مثل هذا الشعر ، الذي فضل فيه الطرماح بني سمح على بني يشكر .

وجاء في خصائص ابن جني : « جواد وأجواد وصواب وأصواب جاءت في شعر الطرماح»(٣) ، وليس في كل ما بين أيدينا من شعر ، مثل هذا ، الذي ذكره ابن جني.

وتروي كتب الأدب : أن الطرماح أنشد خالدا القسري مادحاً :

وشيبني أن لاأزال مناهضاً بغير غنى أسمو به وأبوع

فأمر له بعشرين ألفا وقال له : « امض الآن فاعص وأطع »(٤) وليست هذه القصيدة في نص الديوان ، وانما جمع الناشر ، بعض ابياتها ، من المصادر اللغوية والأدبية ، وليس بين هذه الابيات ما فيه مدح لخالد ، وهل يعقل أن تخلو قصيدة من شعر الطرماح ، ينشدها لخالد ، من مدح له ، وهو الذي يدعوه

---

[١] الأغاني (دار الكتب ٩٤/٦) روى الخبر أبو عبيدة ، عن يحيى بن صبيرة ابن الطرماح .

[٢] الاغاني (دار الكتب ٤٢/١٢) .

[٣] الخصائص ٥٣/٣ .

[٤] الاغاني ٤٣/١٢ ، ديوان المعاني ٢٣٨/٢ ، لباب الآداب ١١٤ ، البيان والتبيين (الاستقامة) ١٧٩/٣ .

بالملك في سائر شعره فيه (١) .

والبيت والبيتان والثلاثة ، من المقطوعات الموجودة في ذيل الديوان وملحقه ، ومما استدركته على الناشر ، من شعر الطرماح تشير بوضوح ، الى انها مقتطفة من قصائد طويلة . وكتب الأدب تصرح بذلك أيضاً ، كما في المقطوعة السادسة عشرة في ذيل الديوان ، فهي ثلاثة أبيات ، وبجانبها التعليق التالي : « ومن هذه القصيدة يهجو رجلا » .

كل ذلك يؤكد أن أكثر شعر الطرماح مفقود ، وأن نص ديوانه وما جمعه الناشر في الذيل والملحق ، وما عثرت عليه من شعره ، مما فات الناشر . لا يمثل الا بعض شعره .

---

[١] الديوان (٣ــ٢٩) : يقول فيه :

من خالد أهل السماحة والندى   ملك العراق الى رمال وبار.

جامع الديوان :

من هو جامع الديوان؟ ليست في المخطوطة الأصلية أية اشارة الى ذلك ، ويذكر الناشر أن هذه المخطوطة من التفكك والتمزق ، بحال لا تسمح بمعرفة جامع الديوان ، أو الصورة التي تم عليها الجمع (١) .

أما ابن النديم ، فقد ذكر أن الذي عمل ديوان الطرماح هو الطوسي(٢) كما ذكر أنه قد جود في عمله (٣) . وليس من البعيد أن يكون الديوان من عمل ثعلب (٤) ، فانه قد عمل شعر طفيل والطرماح(٥) .

والمخطوطة تضم الديوانين ، ويرجح الناشر أن هذين الديوانين كانا يتداولان في مجلد واحد , منذ القديم ، إلا أنه يميل الى عزو عمل الديوان الى الطوسي (٦) .

ولسنا ندري نصيب شعر الطرماح من جهود السكري ، فقد عمل هذا أشعار كثير من القبائل ، ومن ضمنها أشعار قبيلة طيئ ، التي ينتسب اليها الطرماح (٧) .

---

[١] مقدمة الديوان ١١١٠ p. × .

[٢] الطوسي : أبو الحسن علي بن عبدالله بن سنان التيمي ، عالم راوية القبائل ، وأشعار الفحول ، أخذ عن مشايخ الكوفيين والبصريين . وأكثر ما أخذه عن ابن الأعرابي ــ الفهرست (١١٢ ط الاستقامة) .

[٣] الفهرست (٢٣٠ ط الاستقامة ١٥٨ ليبزك) .

[٤] ابو العباس أحمد بن يحيى ، ولد سنة مائتين ومات سنة إحدى وتسعين ومائتين .

[٥] الفهرست (١١٧ط الاستقامة ، ٧٤ ليبزك) .

[٦] مقدمة الديوان ١١٠ × P. ،

[٧] الفهرست ٢٣٢ ، والسكري ، هو أبو سعيد الحسن بن الحسين ، نحوي لغوي راوية مكثر عارف بأنساب العرب ، مات سنة ٢٧٥ هـ .

وشروح أبيات الديوان ، تعود الى علماء كثيرين أمثال أبي عمرو اسحق بن مرار الشيباني (١) ، وأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ، والاصمعي ، وابن الانباري وابن السكيت ، وسواهم .

الا أن أبا عمرو الشيباني كان على رأس من يشير اليهم ويستشهد بارائهم جامع الديوان ، وأكثر شروح الديوان يرجع الى العلماء الكوفيين ، لاسيما أبو عمرو الشيباني ، وكثيراً ما نجد الشروح منسوبة الى عالم أديب ، يشير اليه الجامع بالحرف (ص) ، ويفسر الناشر ذلك بأنه رمز أو إشارة الى اسم الاصمعي ، ويذكر أنه يعتقد ذلك على الرغم من كونه لايجد تفسيراً ولاحجة يدعم بهما رأيه هذا(٢) . الا أننا نرى جامع الديوان يصرح بذكر الأصمعي حينما يريد أن ينسب اليه رأياًما ، أوتفسيراً للفظة ، أو تعليقاً على تعبير . وهذا يجعل تفسير الناشر موضع نظر .

---

[١] ابو عمرو الشيباني ، مولى شيبان ، كان يؤدب في أحيائها ، فنسب اليها بالولاء ، واسع العلم باللغة ، قال عنه ابن النديم : إنه جمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة ، وكان أحفظ الكوفيين وأعلمهم باللغة ، مات سنة ست ومائتين وله من العمر عشر سنين ومائة .

[٢] مقدمة الديوان ١١١٠ × P. .

أسباب ضياع شعر الطرماح :

لا شك في أن عوامل كثيرة لعبت دورها في ضياع كثير من شعر الطرماح، منها: أنه كثير التنقل، لا يستقربه مقام في بلد، وقد مر بنا اضطرابه، بين كرمان وقزوين ومدن فارس الاخرى، وبين الكوفة وواسط والبصرة. وعدم الاستقرار هذا كان له أثره في ضياع قسم كبير من شعره.

ويبدو أن لغرابة ألفاظه وصوره وطبيعة تشبيهاته أثراً مهماً في فقدان جزء ليس بالقليل من شعره. فأين هذه النبطية، التي حدثنا أبو عمرو بن العلاء، أنه رأى الطرماح يجمعها ويعربها، ليدخلها في شعره؟ (١). لا شك في أنها ضاعت، فليس في كل شعره الموجود، ما يتصل بالنبطية.

وكما لا نجد أثراً يذكر لهذه النبطية، كذلك لا نجد أثراً لهذا الذي حدث عنه محمد بن حبيب من أنه: (سأل ابن الاعرابي عن ثماني عشرة مسألة، كلها من غريب شعر الطرماح، فلم يعرف منها واحدة، يقول في جميعها لا أدري لا أدري» (٢)، فأين الثماني عشرة مسألة هذه، التي لا يستطيع أمثال ابن الاعرابي حل طلاسمها؟. لاشك في أنها مفقودة، فليس في شعر الطرماح مثل هذا.

ومما يصور لنا كثرة ماضاع من شعره، كون هذه المسائل في مجلس واحد، وعلى نسق واحد، كما يروي صاحب الأمالي، قال: «سمعت أبا جعفر يقول: سألت ابن الاعرابي عن سبع عشرة مسألة، من شعر الطرماح، في مجلس واحد، وعلى نسق واحد، فوالله ما أجابني في شيء منها، كل ذلك يقول: لا أدري

---

[١] الموشح ٢٠٨.
[٢] الاغاني (دار الكتب ٢٦/١٢).

لا يحدس لي فيها،، » (١)، ان وجود مثل هذه الالفاظ والالغاز أمر لا يسيغه جمهور الناس، فكيف يفهم الناس ما يعسر فهمه على ابن الاعرابي؟.

وطبيعي أيضاً أن كل ما أخذه الطرماح عن رؤبة – اذا صحت دعوى الأخير – من ألفاظ غريبة قد ضاع، فرؤبة كان يدعي أن الطرماح كان يسأله عن الغريب، فيخبره به، فيراه بعد ذلك في شعره (٢)، وليس في شعر الطرماح – في وضعه الحالي – ظلال تدل على المشابهة، بينه وبين شعر رؤبة.

ومما لا ريب فيه، أن اهتمام الناس والرواة بشعر الشاعر، يحفظه ويصونه من الضياع، ولقد كان الرواة ينكرون كثيراً من شعر الطرماح فلا يروونه، يقول ابن سنان الخفاجي: «وأبطل الرواة الاحتجاج بشعر الكميت والطرماح لأنهما كانا حضريين» (٣).

ويذكر أبو حاتم السجستاني: «أن الكميت والطرماح كانا مولدين لايحتج الاصمعي بشعرهما» (٤) وكذلك ذكر الجرجاني: «أن الاصمعي كان ينكر بعض شعر الطرماح» (٥).

والعامل الثالث، الذي يتبادر الى الذهن، والذي قد يكون له أثره في ضياع كثير من شعره، هو مذهبه الخارجي، وما أدري ما أثرت هذه العقيدة في هذا المجال؟، لكنني أعرف ان أكثر أدب الخوارج ضاع، كأدب أية فئة خارجة على السلطة.

وللتدليل على خشية السلطة لأدبهم، ومن ثم ضياعه، يكفينا أن نذكر رأي عبيدالله بن زياد فيهم: كلم في خارجي، وكان شديد القسوة عليهم، فأبى،

---

[١] أمالي محمد بن العباس اليزيدي ٧٤.

[٢] الأغاني ٣٦/١٢، الموشح ١٩٢.

[٣] سر الفصاحة ٣٢٥.

[٤] المزهر ٤٠٧/٢.

[٥] الوساطة ١٠.

وقال: « أقمع النفاق قبل أن ينجم، لكلام هؤلاء أسرع الى القلوب من النار الى اليراع » (١).

ويظهر مدى خشية السلطة لهذا الأدب، قول عبدالملك، حين بسط له أحد الخوارج مذهبه، بلسان طلق، وألفاظ بينة، فقال عبدالملك: « لقد كان يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم »، وقال له: بعد ماقرر حبسه يعتذر اليه: « لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ماحبستك » (٢).

ونتساءل الآن ما كمية ماوصلنا من شعر فحول الخوارج كعمران وقطري ابن الفجاءة؟، ويكفي أن نذكر أن ديوان الطرماح هو الديوان الوحيد الذي وصلنا لشاعر خارجي، على كثرة شعراء الخوارج.

وكما ساعدت غرابة شعر الطرماح، على ضياع الكثير منه ـ كما رأينا ـ فانها ساعدت نوعاً، على بقاء قسم غير قليل منه، فكتب الغريب، والأضداد، والمعاجم، وكتب اللغة والنحو، تحفل بطائفة كثيرة من شعره، كشواهد على قاعدة نحوية، أو معنى لغوي، أو على وجود اللفظ في اللغة، على الرغم من حملة الاصمعي عليه، وعدم احتجاجه بشعره،

والقصائد الخمس الاولى الكاملة. وهي أصل الديوان تحفل بالغريب، مما يمثل الطابع التقليدي في شعره، وربما كان غريبها هو الذي ساعد على حفظها، وعدم ضياعها، على اعتبار انه يجري فيها مجرى شعراء الجاهلية في اسلوبه. وعامل آخر ساعد على ضياع شعرهم، ذلك هو اضطرابهم وتنقلهم، بحسب ما تقتضي خططهم الحربية وبفعل ملاحقة السلطة لهم ومحاربتها إياهم.

---

[١] الكامل للمبرد ٩٩٠، وينجم: يطلع ويظهر،

[٢] الكامل للمبرد ٩٦٩، ٩٧٠.

مآخذ على الناشر :

وعلى الرغم مما بذله الناشر الكريم ، من جهود وعناية وتدقيق ، في إخراج الديوان ، فقد فاتته أشياء كثيرة ، في التحقيق والنشر ، ساذكر نماذج منها هنا ، مع ملاحظاتي حولها . وسأجعل مجموعاتها في ملاحق خاصة ، أثبتها في آخر بحثي :

أ ـ استدركت عليه أكثر من خمس وثلاثين مقطوعة ، تتراوح بين البيت الواحد وأربعة الأبيات ، ويكفي للتدليل على أهمية ما استدركت ، أن بينه نقيضة لاحدى قصائد الفرزدق ، وبينه مقطوعة تنم عن روح خارجي . وقد عثرت على بعض ذلك في مصادر رآها ورجع اليها ، بل في صفحات نقل منها . وقد أثبت المقطوعات المستدركة في ملحق خاص في آخر البحث .

ب ـ أثبت الناشر في ذيل الديوان المقطوعة الثالثة والأربعين ، على أنها من شعر الطرماح ، وهي ليست له في الواقع ، إنما هي للطرماح بن الجهم السنبسي ، يهجو فيها نافذ بن سعد المعني ، هجاء مقذعا ، يتعفف عنه شاعرنا ، ويخلو من أمثاله ديوانه . والمقطوعة :

إن بمعن إن فخرت لمفخرا ... وفي غيرها تبنى بيوت الأكارم

متى قدت ياابن العنبرية عصبة ... من الناس يهديها فجاج المخارم

اذا ما ابن جد كان ناهز طيء ... فان الذرى قد صرن تحت المناسم

فقد بزمام بظرأمك واحتفر ... بأير أبيك الغسل كراث عاسم[١]

والأبيات مذكورة للطرماح بن الجهم السنبسي ، وهو طائي أيضاً[٢] ، في شرح

---

[١] الديوان ٩٦٠ (المقطوعة الثالثة والاربعون) .

[٢] المؤتلف والمختلف ٢١٩ ، « الطرماح بين الجهم السنبسي ، أحد بني سفيان ابن معاوية بن جرول بن ثعل بن الغوث بن طيء » وانظر ايضاً سمط اللآلي للبكري ٤١٩/٢ .

المرزوقي على حماسة أبي تمام (١)، وفي شرح التبريزي. وفي ديوان الحماسة. ذكر مطلع المقطوعة فحسب (٢).

وقد وهم (كرنكو)، حين عثر على المقطوعة، في معجم البلدان، ومسالك الأبصار (٣)، منسوبة للطرماح، فاعتقد أنها اطرماحنا، وخاصة بعد ما رأى من ذكره طيئاً.

ج ـ أخطأ الناشر في قراءة كلمات كثيرة جداً، وردت في النص، وفي المراجع، التي نقل منها نصوص الذيل والملحق (الضميمة)، كما أخطأ في تحقيق كثير مما بدا محرفاً أو مصحفاً، وهذه نماذج من ذلك:

١ ـ (٤/٥١): بينما ذلك هاجت به أكلب مثل (خطاء) الغلام

والصواب حظاء، وورد في شرح البيت (الخطوة و الخطوة بضم الاول وكسره واحد الخطاء)، والصواب الحظوة (بفتح الحاء) وجمعها حظاء (٤)، والحظاء سهام صغار.

٢ ـ (٧/٦): لايعلم الناس من ليلى وخبرتها ما قد (تجزعت) من شوق ومن طرب

والصواب تجرعت.

٣ ـ (١٤/٧):

هل الحب الا أنها لو تعرضت لذبحك ياصمصام (قلت) لها اذبحي

وان كنت عندي أنت أحلى من الجنى جنى النحل أضحى واتناً بين أجبح

والصواب قلت بضم التاء لا فتحها.

٤ ـ (٢٨/١): وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض (المعار)

والصواب المعار (بكسر الميم لا ضمها).

جاء في القاموس المحيط: «المعار بالكسر الذي يحيد عن الطريق براكبه،

---

[١] شرح المرزوقي ١٤٨٧/٣.

[٢] شرح التبريزي ٣٠/٤، حماسة أبي تمام (السعادة ٢٠٩/٢).

[٣] معجم البلدان (طهران ٥٨٧/٣) (عاسم).

[٤] البيان والتبيين ٦٤/٣، اللسان (حظو).

والناس يروونه المعار (بضم الميم) من العارية وهو خطأ » . (١) .

٥ـ (٣٤/٣٤) .

أنا ابن (الحماة المجد) من آل مالك   اذا جعلت خور الرجال تهيع

والصواب : أنا ابن حماة المجد (٢) .

٦ـ (٥٤/١) :

« اذا » الشمس لما أن تغيب ليلها   وغابت فما تبدو لعين نجـــومها

والصواب أنا ،

٧ـ (٥٩/٥٦) : أتهجو من روى جزعاً ولؤماً (كسافي) الليل من كدر وصاف

الصواب كساقي ،

٨ـ (٤/٧٩) : أخلقت « حده » الحزوم كما أخلق (الفهر) قذف الغلام

والصواب (حد أو منه . والقهقر) والقهقر ماملس من الحجارة أو الحجر الصلب (٣) .

٩ ـ (٥/٦٥) : يضخم « النائي » الململع بين الروق والعين ثم يقتصده

والصواب النابيء ، جاء في اللسان والقاموس المحيط (٤) أن : « النابيء الثور الذي ينبأ من أرض الى أرض أي يخرج » ، وقد ورد في شرح البيت « نيأ » هكذا ، إلا ان الناشر أبدل « نيأ » التي هي تحريف « نبأ » في الاصل بـ « نأى » لتستقيم مع « النائي » التي هي تحريف « نابيء » .

١٠ـ (٨/١٦) ،

بهم نصر الله « النبيء » و أثبتت   عرى عقد الاســـلام حتى استمرت

---

[١] القاموس المحيط ٤٩٨/٢ .

[٢] انظر اصـــلاح المنطق ٣٨١ ، وتهيع تجزع ورجـــل هاع لاع أي جزوع ضجر .

[٣] القاموس المحيط « قهقر » والحزوم واحدها الحزم ، وهو ماغلظ من الارض.

[٤] اللسان والقاموس المحيط « نبأ » .

والصواب النبي، جاء في اللسان (١) : قال سيبويه: «والهمز في النبيء لغة رديئة ..» وقد قيل يا نبيء الله فقال لا تنبر باسمي فانما أنا نبي الله (٢)

١١ــ (٢/١٠) : سوف تدنيك من لميس سبنداة أمارت في البول ماء الكراض

في شرح أمارت أثبت «ترد» مكان «ترج» كما أشار هو في الحاشية، وفي الملاحظات العامة ص (84) أمر الناشر باستبدال «ترد» بـ«ترج»، وكما هو ظاهر أن «ترج» الموجودة في الأصل أنسب من ترد و ترج لمعنى الفعل أمار.

١٢ــ (٥٦/١) :

(تجنبه) الكماة بكل يوم مريض الشمس محمر «الحوامي»

والصواب (تجنبها) و (الحواني).

١٣ــ (٥/٥) : ورد في شرح معنى (خصيف)، ما يأتي: (وربما قيل للرماد خصيف، لأنه فيه سواداً وبياضاً)، والظاهر ان هناك تصحيفاً في (لأنه) إذ يقتضي السياق أن يكون (لأن فيه سواداً وبياضاً)، لكن الناشر بدل أن يصحح (لأنه) تركها على حالها وغير في حركة إعراب سواد وبياض، وجعل الجملة هكذا: لأنه فيه سواد وبياض.

دــ وردت في نصوص الأبيات وفي الشروح أخطاء، أعتقد أنها مطبعية لأنها مما لا يمكن أن يفوت الناشر الكريم، وأمثلة ذلك:

١ــ ص ٩٣ س ٢٠ روقة [بتنوين الكسر] والصواب روقه،

٢ــ ١٦/١٣٦ قلبا والصواب [بفتح القاف لا ضمها وسكون اللام لا تشديدها].

٣ــ ٥/١٥٠ الجامض والصواب الحامض.

٤ــ ١٤/١٦٣ تسقيطاً والصواب تقسيطاً.

٥ــ ٧/١٦٦ ضمرت والصواب ضمرت [بفتح الضاد لا ضمها وضم الميم

---

[١] اللسان «نبأ».

[٢] القاموس المحيط «نبأ».

لا كسرها مشددة] .

٦ ــ (١٦/١٦٧) مقلصة والصواب مقلصة [بكسر اللام المشددة لا فتحها] .

٧ ــ (٧/١٧٢) « قمطر » الرجل والصواب قمطر الرجل [بلا تنوين لقمطر] .

٨ ــ (٩/١٧٤) [وأرطاة] حقف والصواب وأرطاة حقف [بلا تنوين لأرطاة]

هـ ــ وردت في أصل الديوان أبيات كثيرة مختلة الوزن أو مكسورة ، بسبب التحريف أو التصحيف أو خطأ النساخ ، فلم يتنبه لها الناشر ، وأثبتها على اختلالها ، وأثبت في الذيل ، والملحق ، مجموعة أخرى مختلة الوزن ، نقلها من المصـــادر المطبوعة والمخطوطة ، وهذه نماذج مما ذكرت ، أوردها وأثبت ازاءها تصحيحها :

١ ــ (٣/٢٥) من الكامل :

(فبذلك) أطلع الهموم اذا بدت ظلم خوالفها تخل و توصد

الصواب فبذالك .

٢ ــ (٧/٨) من البسيط :

أنا الطرماح (فاسألي) بني ثعل قومي اذا اختلط التصدير بالحقب

الصواب فاسأل بي .

٣ ــ (٤٨/٢) من الوافر :

خليلي مد طرفك (هل ترى) ظعائن باللوى من عوكلان

الصواب هل ترى لي .

٤ ــ (٤٨/٣) من الوافر :

ألم تر أن عرفان الثريا (يهيج) بقزوين احتزاني

الصواب يهيج لي .

٥ ــ (٤/٩) من المديد :

مثل ما عاينت قبل الشفا (واضحة) العصمة أحوى الخــدام

الصواب واضح .

٦ ــ (٤/٧٩) من المديد :

أخلقت (حده) الحزوم كما أخلق (الفهر) قذف الغـلام

الصواب حد أو منه ، والقهقر .

٧ ــ (٧١/٤) من الطويل :

وتوعدني الأقيـان من آل دارم بكـل لئيم من معد (خامل)

الصواب وخامل .

٨ (٢٢/١) من الطويل :

(من) كان لايأتيك إلا لحاجة يـروح بها فيما يروح ويغتدي

الصواب فمن .

وسأثبت كل ما وجدته من ذلك في ملحق خاص .

و :

١ ــ عد الناشر القصيدة السابعة (لمن ديار بهذا الجزع من ربب) من بحر الكامل ، وهي من البسيط .

٢ ــ عد المقطوعة الحادية والخمسين لا يكثر الربو إلا حيث يخرجه) من بحر الكامل ، وهي من البسيط .

٣ ــ عد مطلع القصيدة الخامسة من وزنين ، فاعتبر صدره من المنسرح وعجزه من الخفيف ، متابعاً بذلك رأي صاحب اللسان . وصدر البيت في اللسان (سوا) : (طال على رسم مهدد أبده) ، والبيت كما هو في الديوان لا اختلاف في وزنه .

٤ ــ عد القصيدة السابعة عشرة (قفا نسل الدمن الماصحة) من بحر السريع ، وهي من المتقارب .

٥ ــ ذكر في مقدمة الديوان : أن القصيدة الخامسة ـ ذات الوزنين ـ ابتدأت بالخفيف ، وسقطت في البيت الثاني عشر في المنسرح ، وعادت في البيت الحادي والثلاثين الى الخفيف ، وهذا خطأ ، وانما كان تعاقب الوزنين فيها على هذا النحو ، من البيت : ١ـ١٦ خفيف ومن ١٧ ـ ٣٠ منسرح و ٣١ خفيف ، ومن ٣٢ ـ ٣٦ منسرح ، ومن ٣٧ ـ ٤٢ خفيف ، و ٤٣ مكسور ، وهو من الخفيف

وعده الناشر من المنسرح، ومن ٤٤ ـ ٥٥ منسرح، ومن ٥٦ ـ ٧٥ خفيف.

ز ـ ذكر الناشر في الملحق ماوجده من مقطوعات وأبيات تعود الى قصائد موجودة في أصل الديوان، وكان من الأفضل إضافته في أمكنته من القصائد، مع الاشارة الى ذلك مما يعطي القصيدة صورة أقرب للصحة والكمال، فقد نجد أبيات قصيدة واحدة موزعة بين أصل الديوان والذيل والملحق (الضميمة)، ويكفي دليلاً على ما نقول، أنه جمع من القصيدة الاولى واحداً وعشرين بيتاً، أثبت تسعة منها في الذيل، وأثبت الباقي في الملحق، ولو أنه اجتهد في وضع هذه الأبيات في مواضعها من القصيدة لبدت أقرب للكمال.

ح ـ لم يثبت الناشر أغلب الروايات المخالفة للنص، مع أن بعضها أصح مما في النص، أو يوحي بمعنى جديد.

ط ـ اضطر الناشر الى ذكر بعض الأبيات في أكثر من موضع، كأن يكون البيت في الأصل، ويضطر الى ذكره في الملحق أو في الذيل، أو كأن يكون في الذيل، ويضطر الى ذكره في الملحق، مع مجموعات جديدة من الأبيات عثر عليها، ومما يلاحظ هنا، أن هذه الأبيات المكررة، وردت بصور مختلفة، بعضها صحيح والآخر خطأ، ولم يكلف الناشر نفسه إصلاح الخطأ.

فقد ورد في الذيل هذا البيت:

فلا حملت أزدية بعد فقده جنيناً ولا أملن (سيب الغوادق) (١)

وورد في الملحق على هذه الصورة:

فلا حملت بصرية بعد فقده جنيناً ولا أملن (شيب الغرانق) (٢)

وواضح أن [سيب الغوادق] هو الصحيح، لكن الناشر أثبته على خطئه، ومثل ذلك هذا البيت من الذيل:

يبربر بربرة الهبرقي بأخرى خواذلها الأنحه (٣)

[١] الديوان (٣٨/٢).

[٢] الديوان (٦٩/٤).

[٣] الديوان (١٧/٨) الهبرقي الذي يصفي الحديد،، والأنحة الزاهرة.

فقد ورد في الملحق على هذه الصورة :

و بربر بريرة الهـــبرقي بأخرى خواذلها الأنحـــه (١)

وقد صنع مثل ذلك مرات كثيرة ، ولا مجال لايرادها كلها .

ي ـ نقل القصيدة السابعة عشرة في الذيل ، وهي في رثاء يزيد بن المهلب ، ونقل في مقدمتها التعليق التالي : « وقال الطرماح ويمدح في هذه القصيدة يزيد بن المهلب » ، ومن أبيات هذه القصيدة في (رثاء) يزيد :

فلا حملت أزدية بعد فقده جنيناً ولا أملن سيب الغوادق

ك ـ ذكر في الذيل بيتاً واحداً مرتين ، وبصورتين مختلفتين ، ولم يكن هناك داع لاعادته ، فقد جاء في المقطوعة السادسة والثلاثين البيت التالي :

تجنبها الكماة بكل يوم مريض الشـــمس محمر الحوافي

لكنه عاد فذكر البيت في الذيل مرة ثانية وبمفرده ، على هذه الصورة :

تجنبه الكماة بكل يوم مريض الشـمس محمر الحوامي (٢)

وظاهر أيضاً ، ان البيت في المقطوعة السادسة والثلاثين ، هو الصحيح ، فضلاً على عدم الحاجة الى تكراره .

---

[١] الديوان (٥٩/٥) .

[٢] الديوان (٥٦/١) .

مقترحات لنشر جديد :

إن ملاحظاتي التي ذكرتها ، تؤكد أن الديوان لم ينشر بأفضل أشكاله ، وتحفز الى الاعتقاد بأنه في حاجة الى نشر أفضل ، هذا من نحو ، كما تؤيد لنا بصورة واضحة ، أن ما ضاع من شعر الشاعر ، وما تعرض منه للتلف كثير ، وأن نص الديوان ، الذي اعتمده (كرنكو) أصلا للنشر ليس الاجزءاً يسيراً من شعره من نحو آخر ،

واورد هنا ملاحظاتي للنشر الجديد الذي أقترحه :

١ ـ مادام شعر الديوان ، بنصه الأصلي ، وذيله ، وملحقه ، وما استطعت أن أجمع من شعر الشاعر ، لا يمثل جزءاً من الديوان ، وأن ما ضاع يمثل الكثرة الغالبة ، فانه علينا أن ننقب عن الديوان بشكله الكامل ، وقد مر بنا : أن ابن النديم وصف عمل الطوسي له بأنه جيد ، كما مر بنا : أن صاحب كشف الظنون يصفه بأنه مشهور ، وقد عرفنا أن ثعلب عمل قطعة من شعره .

٢ ـ في حالة عدم إمكان العثور على الديوان كاملاً يمكن نشره بشكل أفضل معتمدين مخطوطة مكتبة المتحفة البريطانية ، مستفيدين ، مما بذل الناشر من جهود مشكورة ، في التنقيب والتحقيق ، ومن الملاحظات ، التي أبديتها حول نشره وتحقيقه ، منتفعين بما استدركت عليه من مقطوعات .

٣ ـ إن بعد الزمن ، وضياع الكثير من شعره ، ساعدا على أن ينسب له ما هو لغيره ، كما حدث في خطأ الناشر ، ونسبته شعر الطرماح بن الجهم له ، ثم ان وجود أكثر من خمسة شعراء طائيين ، باسم الطرماح ، يلزمنا أن نكون أكثر حذراً ودقة في التنقيب عن شعره . ولقد أصبح من الميسور ـ الى حد ما ـ بعد دراسة اسلوب الطرماح ، التنبه الى الدخيل في شعره .

٤ ـ إن إثبات الروايات الجديدة (المخالفة) لما في النص الى جانب روايات

النص ، ييسر دائما للدارسين فهما أتم . لذا أقترح أن تثبت الروايات المختلفة في الهوامش .

٥ــ جعل الناشر ما وجده من مقطوعات وأبيات تعود الى قصائد النص ، في الذيل والملحق (الضميمة) ، وكان من الأفضل جعلها في أمكنتها من القصائد مع الاشارة الى ذلك ، لذا أقترح أن يجتهد في إدراج هذه الأبيات والمقطوعات في مواضعها من قصائد النص .

٦ــ إن معجم الألفاظ المهمة ، الذي ألحقه الناشر بالديوان ، غير ذي جدوى ، لأنه يفسر الألفاظ باللغة الانجليزية . وأرى أن تشرح الكلمات الغريبة في الحواشي ، وان كان لابد من معجم ، فباللغة العربية .

٧ــ أغلب شروح النص غامضة أو ناقصة أو منصبة على لفظة معينة في البيت ، أو متشابهة مكررة ، أو متقاربة ، وأرى أنه من الضروري أن تشرح الأبيات الغامضة شرحا يتناول معناها ، ويوضح المقصود منها ، لتتم الاستفادة منها .

٨ــ إن النشر الجديد للديوان يحتم فصله عن ديوان طفيل الغنوي .

٩ــ أقترح أن تترجم مقدمات الناشر للديوان ، كما يمكن الاستفادة من مجموعة فهارسه .

١٠ــ ترجم الناشر نص الديوان الى اللغة الانجليزية ، ويمكن الاستعانة بهذه الترجمة في شرح نصوص الديوان بعض الشرح .

الفصل الثاني

القَصِيْدَة

بناؤها
أعراضها
اسلوبها
معانيها

ليس من اليسير، وقد ضاع أغلب شعر الطرماح، دراسة قصيدته، والحكم عليها حكماً دقيقاً، فليس فى أصل الديوان — كما تبينا — غير خمس قصائد كاملة.

ونستطيع — من خلال دراستنا للديوان والذيل والملحق وما وجدناه من شعره — أن نحكم بأن الطرماح في بنائه قصيدته قد حاول أن يحاكي الشعراء الجاهليين وينهج نهجهم في هذا البناء، ويبدو ذلك في قصائد الوصف القديمة أظهر وأبين، فموضوعاتها جاهلية، وأسلوبها قديم، وألفاظها من الضخامة والغرابة بمكان، وأغلبها من الوعر المتكلف. فهو يفتتحها بالغزل والوقوف على الأطلال والتحسر على الرحيل، ويصف ديار الحبيبة والصحراء ومظاهر البيئة البدوية بعامة، ويصف الناقة وحيوان الوحش والصيد، ويولي الحيوانات الصغيرة اهتماماً خاصاً. ووصفه هذا — في جملته — دقيق، فيه حياة وحركة، يتناول الصغير والكبير من مظاهر البادية على الرغم من وعورة لغته وغرابتها.

غير أن الطرماح — فيما ظهر من دراسة حياته — لم يعش في البادية، ولم يلابس سكانها، ولم ير حياتها، غير رؤية السفر، أثناء تنقله بين أقطار الدولة، مادحاً أو طالباً للعمل، فهو ابن الكوفة وابن قراها وسوادها. وقد طبعته الكوفة وقراها بطابعها الخاص، لذلك فهو يصف البادية على التقليد، أو يصف من حياتها مالم ير، كما يزعم العجاج، فقال عنه وعن الكميت: «كانا يسألاني عن الغريب، فاخبرهما به ثم أراه في شعرهما، وقد وضعاه في غير مواضعه، فقيل له ولم ذاك، قال لأنهما قرويان، يصفان مالم يريا، فيضعانه فى غير موضعه، وأنا بدوي أصف ما رأيت، وأضعه في مواضعه» (١).

ونحن نلمس صور بيئة الكوفة، ومظاهر الحياة القروية في شعره، أوضح وأجلى من مظاهر الحياة البدوية، وهو وإن اتخذ النهج الجاهلي مثلا — لا سيما في قصائد الوصف — فانه يمكن أن نلمس مظاهر التطور في قصائده، من حيث

---

(١) الأغاني (دار الكتب ٩٧/٢).

البناء والغرض والاسلوب والمعنى ، كما تلمس طابعا خاصا يسم شعره بالجدة والتأقلم والتكيف للبيئة ، في كثير من موضوعاتة ومعانيه .

وكان لابد لشعر الطرماح أن يتأثر ــ كسائر شعراء عصره ــ بالبيئة ، فيعكس صور الحياة الجديدة ، فالقصيدة الاسلامية في كل من الكوفة والحجاز والشام ، أصاب بناءها واسلوبها ومعانيها التطور والتجديد ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتأثر سكان هذه الأقاليم بظواهر الحياة الاسلامية ، كالدين والقرآن الكريم والأحزاب السياسية ، من جانب ، واللهو والمجون والغناء والشراب ، من جانب آخر ، فقد أخذت صور الحضارة تتضح في شعر هذا العصر ، ولم يعد تقليداً محضاً للشعر الجاهلي ، في اسلوبه ومعانيه ، ولا بعيداً عن هذا التحول الذي أصاب الحياة الاسلامية .

وكما تطورت القصيدة الأموية اسلوباً وبناء ومعاني ، فقد أصاب التطور أوزانها وقوافيها .

أما من حيث البناء . فان الوحدة الموضوعية بدأت تسيطر على قسم غير قليل من قصائد هذا العصر ، فترى أن غرض القصيدة . التي تتألف منه ، في الغالب ، واحد ، هو السياسة أوا لغزل أو الزهد أو وصف الخمرة أو سوى ذلك . لذلك فان عدد أبياتها قل بالنسبة الى عدد أبيات القصيدة الجاهلية ، حتى أصبحت في كثير من الأحيان ، مقطوعة ، كالذي نراه في شعر الخوارج ، وشعرالخمرة مثلاً .

أما من حيث الاسلوب ، فقد ترك بعض الشعراء مقدمات الغزل ، التي كان الشعراء الجاهليون يفتتحون بها قصائدهم (١) .

أما مظاهر هذه الجدة وهذا التطور في شعر الطرماح ، فنجده في وحدة الموضوع ، الذي تتألف منه القصيدة ، فالى جانب مقطوعاته الصغيرة ، التي يتحدث بها عن الخوارج ، ويصف حنينهم الى الاستشهاد ، والتي تتجلى فيها الوحدة الموضوعية ، نجد قصائد كاملة ينتظمها موضوع واحد ، كما يبدو ذلك واضحاً في القصيدة التاسعة والاربعين :

---

[١] نقائض جرير والفرزدق ٢٩٧ .

أمن دمن بشاجنة الحجون عفت منها المنازل منذ حين

والتي قالها — كما يبدو من مطلعها — في بلاد الحجاز، وهي — على ما ذكر البغدادي — سبعون بيتاً كلها في الغزل (١). وليس في ذيل الديوان منها غير اثنين وثلاثين بيتاً مجموعة من كتب اللغة والأدب كما ذكرنا.

وغزل الطرماح جميل صادق، يصور حنيناً ولوعة، وخاصة ما يتعلق منه بزوجه (سلمى)، ومعنى ذلك، أننا نجد الى جانب الصدق الأدبي في غزله وحدة موضوعية.

وتتجلى وحدة الموضوع كذلك في قصائد الهجاء والمناقضة، وهي في ذلك على نوعين:

أ — المقطوعات الصغيرة في المناقضة، وهي ذات موضوع واحد، هو الرد على مقطوعات مشابهة لشعراء آخرين، كالفرزدق وحميد اليشكري. ومثال ذلك المقطوعة، التي عثرت عليها — مما فات الناشر — والتي يرد فيها على الفرزدق:

ومر بك المختار مختار طيىء فلم تقره حتى ترحل غاديا
سوى شربة أبكتك حين قريته فلا رقأت عيناك إن كنت باكيا
فلو كنتم قوماً كراماً كتمتم قراكم ولكن لم تبالوا المخازيا (٢)

ومثال آخر لهذا النوع نقيضته لحميد اليشكري:

لقد علم المذل يوم يدعو برمثة يوم رمثة إذ دعانا

---

[١] خزانة الأدب ٤١٨/٣.

[٢] الوحشيات (الحماسة الصغرى) ٣٦٨ رقم (٢٢٣)، أما مقطوعة الفرزدق، فهي (ديوان الفرزدق ٨٩٤):

ومر بنا المختار مختار طيىء فروى مشاشاً كان ظمآن صاديا
أقمنا له صهباء كالمسك ريحها إقامته حتى ترحل غاديا
فمر وقد كانت عليه غباوة بخال حزون الأرض سهلاً وواديا

فوارس طيئ منعوه لما بكى جزعاً ولولا هم لحانا (١)

ب ــ قصائد المناقضة والهجاء الطويلة ، ويبدأ الشاعر هذه القصائد بالنسيب، ثم ينتقل الى موضوع الهجاء والمناقضة مباشرة ، ويستمر في ذلك الى نهـــاية القصيدة . ومثال ذلك القصيدة الثامنة :

الا ان سلمى عن هوانا تسلت وبتت قوى ما بيننا وأدلت

نقيضة قصيدة الفرزدق :

أحل هريم يوم بابل بالقنـا نذور نساء من تميم فحلت (٢)

التي قالها عقيب فشل ثورة يزيد بن المهلب . فقد تخلص الطرماح من ديباجتها الغزلية ، الى موضوع الثورة ، ثم سب تميماً وفخر عليها ، وسب الفرزدق .

ومثل ذلك في الانتقال من موضوع الغزل الى موضوع الهجاء ، القصيـدة التاسعة عشرة :

أصاح ألا هل من سبيل الى نجد وريح الخزامى غضة من ثرى جعد

فقد انتقل فيها بعد مقدمة النسيب ، الى سب الفرزدق ، والفخر بقحطان .

ومثلها القصيدة العشرون:

ان الفؤاد هفا للبائن الغرد لما تذيل خلف العنس الخرد(٣)

فبعد أن افتتحها بالغزل ، انتقل الى سب تميم والفرزدق وأبيه غالب .

وقد يكون هذا الانتقال الى الفخر كما في القصيدة السابعة . فقد تخلص من مقدمات النسيب فيها الى الفخر بنفسه وبأسرته وبطيئ ومذحج .

ونجد أيضاً مقطوعات واحدة الموضوع ، في السياسة والفخر والحمـاسة ،

---

[١] الاغاني (دار الكتب ٤٢/١٢) ومقطوعة حميد اليشكري هي في (الاغاني ٤٢/١٢) :

أتجعلنا الى سمح بن حزم و نبهان فاف لنا زمانا

ويوم الطالقان حمـــاك قومي ولم تخضب به طيئ ســـانا

[٢] ديوان الفرزدق ١٣٥ .

[٣] تذيل : تبختر فجر ذيله

وهي غير مفتتحة بالوقوف على الأطلال، وإنما تبتديء بالموضوع، الذي أنشئت بسببه، مباشرة، ومثال ذلك القصيدة الخامسة والعشرون:

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج　　　والأزد زعزع واستبيح العسكر

التي قالها عقيب فتنة قتيبة، فموضوعها واحد، هو الاحتفال بدور مذحج والأزد في إحباط الفتنة. ولا تقتصر مظاهر التجديد عنده، على ترك المقدمات التقليدية في قصائده. بل انه قد يبقي المقدمات، التي تصف الطلول، وتذكر الرحيل، إلا أنه يستغل موضوعها في الحكمة والزهد.

وتلك ظاهرة غريبة في شعره، ولعل لخارجيته ـ إن صحت ـ أثراً في هذا الاسلوب، فهو بعد أن يذكر في مستهل قصيدته، هذه الديار الدارسة، التي عفا عليها الزمن، ينتقل فجأة الى معاني الزهد والصلاح، فكأن عفاء الديار ودروسها، أوحيا اليه هذه المعاني التقية، التي تذكر بقصر الحياة وعبثها. وتردد أن عمر الانسان فيها قصير، فيها المرء إلا كنابتة الزرع، مايلبث أن يحصد بعد حين، وتسخر من جامعي المال ومكتنزيه، الذين يضيعون مايصيره الله اليهم، من حكمة فلا يعتقدونها، كما تصف حال الانسان يوم الحساب. وأكثر هذه المعاني مستمد من آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول (ص):

طال في رسم مهدد أبده　　　وعفا واستوى به بلده (١)
و محاه تهطال أسمية　　　كل يوم وليلة ترده (٢)
غير حشو من عرفج غرض　　　لرياح المصيف تطرده
و بقايا من نؤى محتجز　　　و مصام مشعث وتده (٣)
و خصيف لدى مناتج ظئرين من المرخ أتأمت زنده (٤)

---

[١] مهدد اسم امرأة، وأبده دهره، وبلده أثره.

[٢] أسمية: أمطار.

[٣] المصام: مقام الخيل.

[٤] يريد بالظئرين: الزندين، وهما العودان اللذان تقدح منهما النار، والمرخ: شجر.

ترك الدهر أهلـــه شعبا فاستمرت من دونهـــم عقده
وكذاك الزمان يطرد بالناس الى اليوم يومه وغـــده
لايلبثان باختــلافهما المـــرء وإن طال فيهما أمده
عجبا ما عجبت للجـــامع المـــال يباهي بـــه ويرتفـــده
ويضيـــع الذي يصيره الله اليـــه فليـــس يعتقـــده
يوم يؤتى بـــه وخمصاه وسط الجن والانس رجله ويده
خاشع الصوت ليس ينفعه ثـــم أمانيـــه ولا لـــدده
قل لباكي الأموات لاتبك للناس ولا يستنع به فنـــده
انما الناس مثل نابتة الزرع متى يأن يأت محتصـــده

ومثل القصيدة الخامسة في ذلك ، القصيدة الثانية(١) ، التي أراد أن يبدأها بذكر الصبا ، إلا انه تذكر التوبة ، ثم جر هذاه التذكر الى الزهد أو ما يشبه الزهد :

قل في شط نهروان اغتماضي ودعاني هوى العيون المراض
فتطربت للصبا ثم أقصرت رضى بالتقـــى وذو البـــرراض
وأراني المليك رشدي وقد كنت أخا عنجهية واعـــتراض
غير ما ريبة سوى ريق الغرة ثم ارعويت عند البيـــاض
لات هنا ذكرى بلهنية الدهر وأنى ذكرى السنين المواضي
فاذهبوا ما البكم خفض الحلم عناني وعربت أنقـــاضي
وذهلت الصبا وأرشدني الله بدهـــر ذي مـــرة وانتقاض

وظاهرة الانتقال من النسيب أو مما يشبه أن يكون نسيبا ، ومن وصف الطلول والتحسر على الرحيل والفراق ، الى معاني التقوى والانابة ، غريبة . وقد ذكرت أنها قد تكون أثرا من آثار خارجيته إن صحت . ومما يزيد الأمر غرابة ، أنه تخلص من هذه المعاني التقية ، الى وصف الناقة ، التي يتمـــنى أن تبلغه الحبيبة ، كما فعل في القصيدة الثانية . ومهما يكن من شيء ، فان روح العصر

[١] ذكرت هذه القصيدة في جمهرة أشعار العرب ، على أنها من الملحمات .

وأثر الدين ظاهران في هذا الشعر الى جانب محاولات ترسم خطى الشعراء الجاهليين .

ومن الملاحظ في موضوع قصائده جملة ، أن قصائد الوصف القديمة ، والتي يتضمنها أصل الديوان خالية من المدح والهجاء ، ويبدو أيضاً أنه يؤجل ذكر الغرض الرئيس من إنشاء القصيدة الى نهايتها ، كما يفعل شعراء الجاهلية .

وكما يبدو لي ، من دراسة شعر الطرماح المتيسر ، أن الغرض الرئيس غالبا ما يكون الهجاء أو الفخر . وقد يمتزجان . ولاسيما في قصائد المناقضة ، هذا اذا استثنينا القصائد الخمس الاولى ، فانها خالية من الهجاء والمدح ، وليس فيها من الفخر الا القليل النادر . الا أن فيها غرضا آخر ، يمثل محورا جديدا ، تدور حوله القصيدة ، ويصور ملامح روحه الديني أو ميله الزهدي ، أو (خارجيته القديمة !) : ذلك هو فن الطرد ، ويلازم هذا الغرض قصائده القديمة ، التي يظهر فيها أثر اسلوب للجاهليين ،
وكما تتجلى في مقطوعاته الخارجية ، وبعض مقطوعاته في الهجاء والمناقضة ، وحدة الموضوع ، تتجلى محاولة التخلص من الديباجة التقليدية ، التي تفرض الوقوف على الأطلال ، ووصفها والتحسر على رحيل الحبيبة . وهنا تتبين أن الفكرة ، التي تعتبر أبا نواس زعيم الثورة على هذا الاسلوب ، وتعده المجدد الأول ، فكرة يصح أن تكون محل نظر ومناقشة ، فالشعر الأموي ، وشعر السياسة والهجاء ، والدين منه بخاصة ، تكثر فيه هذه النماذج ، التي نفضت عنها غبار التقليد ، فتخلصت من هذا النهج . وشعر الطرماح مثل لهذا الذي نقوله ، فمقطوعاته الخارجية ، وبعض مقطوعاته في المناقضة والهجاء والسياسة ، خالية من هذه الديباجة .

ومهما يكن من شيء ، فان الطرماح مجدد في الموضوعات الجديدة ، التي فرضتها طبيعة الحياة الاسلامية ، مجاراة لروح العصر ، في الوقت الذي يترك نوع من التقليد طابعه على أكثر موضوعاته القديمة ، ولا سيما موضوعات الوصف .

أما أسلوبه ، فقد كان يتراوح خلال القصيدة الواحدة ، بين الرقة والوعورة ،

والضعف والقوة، والوضوح والغرابة، والعذوبة والفجاجة، تبعاً لما يتناوله من موضوعات، فبينا نراه يغرب أشـــد الاغراب، حتى يعسرفهم ما يريد، في بعض شعره، وهو يصف الصحراء والناقة والحمار الوحشي والصيد والحيوانات الصغيرة، التي تدب في البادية، إذا هو في نهاية قصائده، يلين ويعذب، حين يتحدث عن نفسه وآمالها، ويجزل حين يعمد الى الفخر والهجاء، فقد كان يحاول في مثل هذه الموضوعات أن يجد لها ما يلائمها من الألفاظ.

وتتراوح معانيه ــ كذلك ــ بين التقليد والجدة والابتــكار، لجدة الموضوعات التي تناولها في ظل المجتمع الاسلامي، واستمدها من مقومات حياته الجديدة، على أنه بشكل عام، حاول أن ينوع ويبتكر في المعاني التي طرقها.

ونجد مثل ذلك في ألفاظه، فبينما تكون وحشية غريبة بعيدة في موضوعات الوصف والصيد، نراها ترق وتلين وتسهل في سائر شعره.

ولما كان فن الهجاء يمثل، هو والفخر، أروع ما في شعره، ولما يتضمنانه من جديد، في الاسلوب والمعنى، ولأنهما يمثلان ــ بعد ذلك ــ الجانب المألوف من أسلوبه الشعري، فينعدم أو يقل فيهما الغريب والشاذ والوحشي، فقد فصلت فيهما الحديث وتوسعت، فقد سبق أن تحدثت عن الفخر، حين درست شخصيته وسأفرد فصلاً خاصاً أتحدث فيه عن هجائه، بصورة خاصة، وأعرض لفخره خلال ذلك أيضاً. فهجاء الطرماح وفخره متلازمان غالباً.

وتبدو أهمية هجائه وفخره، اذا عرفنا أنه هاجى الفرزدق ونافضه وأوجعه، والفرزدق من أبرز شعراء عصره في ذلك.

وكما فصلت في دراسة هجاء الطرماح وفخره، كذلك سأتوسع في دراسة فن الطرد، لكونه ــ فيما يبدو لي ــ يمثل مظهراً من مظاهر زهد الطرماح، ويعكس ملامح شخصيته الدينية من نحو، ولأني أجد فيه أصولاً لطرد أبي نواس، مما يتيح لي نوعاً من المقارنة، أتبين فيها أثر شخصية الشاعرين، من نحو آخر. وسأعرض بايجاز للحديث عن شعره المذهبي، وفنونه الاخرى.

وستتناول دراستي لأسلوب الطرماح، في الفصول القادمة جانبين، الجانب

اللفظي، أدرس فيه الغريب، باعتباره ظاهرة، ميزت شعر الطرماح، وأدرس مظاهر الغرابة وأنواعها وأسبابها، وأتناول كذلك، أثر البيئة الكوفية في ذلك، كما سأبحث خلاله في موضوعات الحيوان والتشبيه ومشاهد البيئة الريفية، على اعتبار أنها أثر من آثار قرويته، ولاتصال الموسيقى بهذا الجانب فقد بحثتها ضمنه.

أما الجانب الثاني، فهو ما يتعلق بالأغراض والموضوعات والمعاني، وسأدرس فيه فنونه الشعرية وأغراضه (الهجاء والطارد والمديح ...) ثم ماطرقه من معان، وما جدد وقلد فيه، خلال ذلك. ثم أختم البحث بدراسة الخصائص الفنية لاسلوبه الشعري.

الفصل الثالث

الغريب في شعر الطرماح

شعر الطرماح يمكن أن يقسم — بصورة عامة — الى قسمين :

الأول : المألوف ، الذي يجاري به روح عصره ، فلا تختلف ألفاظه عن ألفاظ شعر معاصريه ، كجرير والفرزدق ، ويشمل موضوعي الفخر والهجاء بشكل عام ، وهو واضح ، سهل ، يندر فيه الغريب ويقل الوحشي ، استعمل فيه الطرماح أرق اسلوبه الشعري وأعذبه ، الى جزالة في اللفظ ومتانة في الأداء .

والثاني : الغريب ، الذي يحفل بطائفة كبيرة من الألفاظ النادرة الاستعمال ، أو المهجورة ، أو الشاذة في قياسها ، أو الوحشية ، ويحمل طابع التقليد للجاهليين ، بصورة مغالى فيها . سواء من حيث المفردات وغرابتها وصعوبتها ووحشيتها ، أو من حيث الأغراض والموضوعات ، ووصف مظاهر البادية ، من حيوان الى طبيعة الى غير ذلك .

الطرماح ، من أكثر شعراء عصره تتبعا لغريب اللغة . وطلبا لعويصها ، واستعمالا لشاذها . وغرابة شعره ، تأتيه من قبل عوامل شتى ، منها : قرويته ومحاولة محاكاته شعراء الجاهلية ، ثم تأثير بيئة الكوفة وسوادها ، ومخالطة النبط . وقد لحظ معاصروه هذه الغرابة ، وأشاروا اليها ، وكانت مشغلة علمائهم ونقادهم ، وظلت — الى فترة طويلة بعد عصره — موضع عناية اللغويين والنحاة والأدباء ومحل مدارستهم .

ويجدر بنا ، أن نعرض لآراء النقاد واللغويين والعلماء ، من معاصريه أو ممن جاءوا بعده ، فنمحصها — قبل أن نفصل الحديث في مظاهر الغرابة ، ونتحرى أسبابها في شعره — لعلها تساعدنا في كشف طبيعة هذه الغرابة ، التي شهر بها الطرماح وكانت الطابع المميز لشعره (١) .

والطرماح نفسه ، يدعي مفتخراً أنه أحكم الغريب كله (٢) .

---

[١] يعتبر يوهان فك التقليد ظاهرة تميز بها عصر الطرماح ، إذ يقول : «انتشرت الصنعة والتقليد عند المولدين أيما انتشار ، وهاهو ديوان الشاعر الطرماح حافل بالعبارات المنتقاة والألفاظ المبهمة .. كتاب العربية ٣٧» .

[٢] جاء في شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ١٢٢/١ : « ومن عجيب ماروي =

أما الراجز رؤبة بن العجاج (معاصر الطرماح) ، فيعد الغريب مصـــدر فخر ومباهاة ، لذلك يحاول أن يذ.به الى نفسه ، فيدعي أن هذا الغريب ، الذي يحفل به شعر شاعرنا ، إنما هو غريبه ، أخذه عنه الطرماح : ذكر الاصمعي عن خلف أنه قال : « سمعت رؤبة بن العجاج يقول : لقيني الكميت والطرماح ، فسألاني عن الغريب ، ثم سمعته في شعرهما بعد » (١) .

وذكر أيضاً أن رؤبة قال : « كان الطرماح والكميت يصيران إلي فيسألاني عن الغريب فأخبرهما به فأراه بعد في أشعارهما » (٢) .

ويؤكد ذلك أكثر من مرة ، فيروي مثله عن شعبة (٣) .

ويؤكد ابن قتيبة ذلك أيضاً ، فيروي : « أن رؤبة قال : كان الكميت والطرماح يسألاني عن الغريب .. ثم أجده بعد ذلك في أشعارهما » (٤) . وذكر المبرد (٥) مايؤيد رأي الأصمعي وابن قتيبة (٦) . وينســـب هذا الادعاء الى

= من حديثه : أنه قعد للناس وقال : اسألوني عن الغريب ، وقد أحكمته كله ، فقال له رجل : مامعنى الطرماح ؟ فلم يعرفه ! » .

[١] الموشح ١٩٢ .

[٢] الأغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) .

[٣] الموشح ١٩٢ ، ٢٠٩ .

[٤] الشعر والشعراء ٣٧٢ ، الخصائص ٢٩٧/٣ .

[٥] الأغاني (دار الكتب ٣٦/١٢) ، الموشح ١٠٩ ، ١٩٢ ، الخصائص٢٩٧/٣ ، والمبرد هو أبو العباس ، محمد بن يزيد ، ولد بالبصرة سنة عشر ومائتين ، وكان مع شهرته باللغة والنحو والصرف ، شاعراً أديباً كثير الحفظ ، ميالاً للطرف والنوادر ، مات سنة (٢٨٥ هـ) .

[٦] يقول كرنكو ، معلقاً على ادعاء رؤبة هذا : « أنا أشك كثيراً في صحة هذا الحكم ، ولا أريد أن أعين من هو الذي ابتدع هذه الرواية ، الأصمعي أم رؤبة . فرؤبة الذي مات (١٤٥ هـ) لم يكن سوى شـــاب صغير في الوقت الذي كتب فيه كل من الكميت والطرماح أكثرأشعارهما ـــ المقدمة P.XXV٠ =

العجاج أبي رؤبة أيضاً قال: «كانا يسألانني (يقصد الطرماح والكميت) عن الغريب فأخبرهما به، ثم أراه في شعرهما، وقد وضعاه في غير مواضعه، فقيل له ولم ذاك؟ قال: لأنهما قرويان يصفان مالم يريا فيضعانه في غير موضعه، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في مواضعه» (١). وفي كلام العجاج هذا، تصريح واضح بقروية الطرماح، وتأكيد على أنه أخذ اللغة أخذاً، وتعلمها تعلماً، ولم تكن له سليقة.

على أن ادعاءات رؤبة، أكدت لنا شهرة الطرماح بالغريب، وطلبه له، واستعماله إياه في شعره، فضلا على أنها أبانت أن أخذ هذا الغريب وإتقان

= ويؤكد تفنيده لادعاء رؤبة فيقول: «وأكثر الاحتمال أن هذا الادعاء لا يقوم على أساس لأن الطرماح كان قد مات عندما اشتهر رؤبة — دائرة المعارف الاسلامية، النص الانجليزي، الطرماح».

أما برهان فك، فيعلق على هذا الموضوع في كتابه (العربية) معتبراً حكم الأصمعي في كون الطرماح مولداً، فلا يحتج بشعره، راجح الوزن، مؤيداً زعمه استعمال الطرماح والكميت عبارات أغارا عليها من أقوال غيرهما (المقصود رؤبة) دون أن يفهماها فهماً صحيحاً، يعلق، قائلاً: «ولقد كان رؤبة في مثل هذه البيانات — بطبيعة الحال — أبا عذرتها، الذي يسمو في فهم أسرار اللغة ودقائقها على المستفسرين بكثير، وحتى لو كانت أقواله مغالى فيها او كاذبة، كما شك فيها بعضهم، على غير أساس (والظاهر أنه يعني كرنكو)، فان حكم الأصمعي جد صحيح ويؤيده ديوان الشاعر كل التأييد — العربية ٣٧». ولقد استند كرنكو في تأكيده بطلان ادعاء رؤبة الى عدم مشابهة شعر الطرماح لشعر رؤبة، يقول: «إن المقارنة بين شعري رؤبة والطرماح لا تعطي إجابة مقنعة، بسبب ان شعر الطرماح يحوي كثيراً من الألفاظ غير موجودة أصلا في شعر رؤبة» ثم يقول: «وأنا أشعر أني أميل الى عزو هذا الحكم الى غيرة رؤبة وغروره — P. XX٧٠».

[١] الأغاني (دار الكتب ٢/٩٧).

استعماله كان مجال منافسة بين الشعراء .

ويتهم أبو عمرو بن العلاء الطرماح باستعمال النبطية ، فيزعم : « أنه رآه بسواد الكوفة ، وهو يكتب ألفاظ النبيط ، ويتعلمها ليدخلها في شعره » (١).

ويروي الأصمعي ذلك باسلوب آخر ، يحمل اعترافا من الطرماح ، بتعلم هذه النبطية وتعريبها ، وليس مجرد رؤية أبي عمرو له وهو يكتبها ويتعلمها ، قال : « ذكر الطرماح عند أبي عمرو بن العلاء ، فقال : رأيته بسواد الكوفة، وهو يكتب ألفاظ النبيط ، فقلت ما تصنع بهذه ، قال : أعربها وأدخلها في شعري »(٢).

وما يدرينا ، لعل هذا الذي حدثنا عنه رؤبة ، نوع من النبطية ، فانه يقول عنه : « انه ليس من لغتي » ، قال المبرد : ذكر عن رؤبة بن العجاج : أنه قال : « قدمت فارس على أبان بن الوليد البجلي ، منتجعا له ، فأتاني رجلان لا أعرفهما ، فسألاني عن شيء من الغريب ، ليس ممن لغتي ، فلم أعرفه ، فتغامزا بي ، فتقبعت عليهما ، فهمدا ، ثم كانا بعد ذلك يختلفان الي فيسمعان مني الشيء فيكتبانه ويدخلانه في أشعارهما ، فعلمت أنهما ظريفان ، وسألت عنهما فقيل لي: هما الكميت والطرماح .. »(٣) .

وقد يكون من جملة هذه النبطية المسائل العويصة ، التي سئل عنها ابن الأعرابي فلم يعرفها ، وأعلن جهله التام بها : قال محمد بن حبيب « سألت ابن الأعرابي في مجلس واحد عن بضع عشرة مسألة من شعر الطرماح يقول في كلها : لادري ولم أسمع أفأحدث برأيي !؟ »(٤).

---

[١] الموشح ٢٠٨ .

[٢] الموشح ٢٠٨ .

[٣] الموشح ١٩٢ ، انظر الخصائص ٢٩٧/٣ ، الا ان ابن جني يذكر ان ذلك حصل أثناء توجه رؤبة الى قتيبة بن مسلم .

[٤] المزهر ٤٠٧/٢ ، وفى الاغانى، (دار الكتب ٣٦/١٢) ثماني عشرة مسألة ، وفي الأمالي لليزيدي ٧٤ : سبع عشرة مسألة في مجلس واحد وعلى نسق واحد .

أما الأصمعي، فقد كان يحمل بشدة على الطرماح، وينكر بعض شعره عليه. وكان يعتبره مولداً، فلا يحتج بشعره، قال أبو حاتم: «ما مثل ابن كناسة ومحمد بن سهل، فانهما كانا يعرفان شعر الكميت والطرماح، وكانا مولدين لا يحتج الأصمعي بشعرهما» (١)، وهو لا يعتبره حجة ولا يأخذ بشعره، يقول: «الكميت بن زيد ليس بحجة لأنه مولد، وكذلك الطرماح» (٢)، ويعلل موقفه هذا منه، بأنه تعلم النحو، ولم يكن له سليقة، ثم يتحدد ذلك دليلا على أنه مولد، روى المازني أن الاصمعي قال: «الكميت تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الطرماح، وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه» (٣).

والأصمعي يقف هذا الموقف، من الكميت أيضاً كما رأينا ويصفه بأنه جرمقاني من جراميق الشام، مثل ما ينكر بعض شعر الطرماح ويلحن ذا الرمة، كما يقول الجرجاني (٤). ولعل مرد موقفه هذا الى ما كان يراه في أشعار هؤلاء

---

[١] مراتب النحويين ٧٣، الوساطة ١٠، المزهر ٤٠٧/٢، وأبو حاتم هو سهل بن محمد السجستاني، بصري من كبار علماء عصره باللغة والشعر، كان المبرد يلازم القراءة عليه. توفي عام ٢٤٨ هـ.

[٢] فحولة الشعراء ٤٠، ٤٦، الاقتضاب ١٠٩، الموشح ١٩١، ٢٠٨، ٢٠٩.

[٣] الموشح ١٩٢، ٢٠٩. وفي حديث يوهان فك في كتابه (العربية) ٥١، عن سيبويه (المتوفي حوالي ١٨٠ هـ) يذكر: أنه يعتمد — خلافاً للأصمعي — الكميت والطرماح، في الاحتجاج بشعرهما.

ومما كان يأخذه الأصمعي، على الطرماح، التكرار، جاء في المحاسن والمساوي ١٧٣/٢: أن الاصمعي قال: «أنشد رجل بشاراً العقيلي قول الطرماح:

فما للنوى لا بارك الله في النوى وهم لنا منه لأكلته كهم المباين

فقال: إن هذا البيت لو وثبت عليه شاة لأكلته — يعني إعادته النوى في البيت مرتين»، فقلت صدق بشار! إعادة الاسماء في بيت أكثر من مرة عي.

[٤] الوساطة ١٠.

من ميل وانحراف عن الأساليب العربية القديمة، من حيث اصطناع أصحابها للغريب في غير مواضعه، ومن حيث تأثرها بلغة أهل السواد،

وقد رأينا: أن الاصمعي كان مصدر أغلب الروايات، التي تتصل بتعلمه النبطية، وأخذه عن رؤبة، ويظهر من ملاحظات الأصمعي فيه، أنه يشكك في شعره ولا يحتج به، لما يبدو من تأثره بأساليب العامة في التعبير، واستعماله لألفاظها الدارجة، وهذا يفسر لنا سبب اختلاف المفسرين في ضبط كثير من ألفاظه، واضطرابهم في تأويل بعض تعابيره.

وحمل ابن قتيبة عليه، ولم يكتف بنقل ادعاءآت رؤبة بأخذه الغريب عنه، بل حاول أن يتتبع معانيه، ويردها الى أصولها عند الشعراء، فذكر في كتابه الشعر والشعراء، طائفة مما أخذه الطرماح من هذه المعاني.

وأيد أبو عبيدة (١) آراء الأصمعي، وشاركه في تأكيد قروية الطرماح، وكونه مولداً، ومن ثم كان يعيب شعره في الاسلاميين، جاء في فحولة الشعراء والأغاني: «كان الأصمعي وأبو عبيدة، يقولان: «عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري معها مجراها. وكذلك عندهم أمية ابن أبي الصلت، ومثلهما كان عندهم من الاسلاميين الكميت والطرماح» (٢).

واحتذى الرواة حذو الأصمعي، وأبي عبيدة، وابن قتيبة، في عدم الاحتجاج بشعره، مؤكدين أنه لم يكن بدوياً، قال ابن سنان: «وأبطل الرواة الاحتجاج بشعر الكميت بن زيد والطرماح، لأنهما كانا حضريين» (٣)، ومن المعاصرين من يذهب مذهب القدماء فيعتبره مولداً مقلداً كيوهان فك (٤)

---

[١] أبو عبيدة، معمر بن المثنى، من علماء البصرة، مرجع كبير في الغريب والأخبار والأنساب، ولادته بين سنتي (١١٠ و ١١٤) ووفاته بين سنتي (٢٠٧ و ٢١٣).

[٢] فحولة الشعراء ٥٠، الأغاني (دار الكتب ٢ ٩٧).

[٣] سر الفصاحة ٣٢٥.

[٤] العربية ٣٧.

كل ما تقدم من آراء اللغويين والنحاة في نشأة الطرماح، وأسلوبه ولغته، ومن ملاحظاتهم. حول الغرابة ، ومظاهرها في شعره، يؤكد حقيقة واضحة في الطرماح، وفي شعره، هي أن: (الطرماح قروي مولد حضري) وأن في شعره أثراً واضحاً من آثار بيئة الكوفة وسوادها ـ سنلمسه فيما يأتي من فصول، حين ندرس آثار البيئة في أسلوبه، ومظاهرها في فنه الشعري ـ وأنه تعلم الغريب تعلماً، واصطنعه في شعره أصطناعاً، ووصف به الحياة البدوية تقليداً (١).

لحظ القدامى في أسلوب شاعرنا ميلاً عن الأساليب الخالصة، ووجدوا في لغته، ما يصور تأثره بأساليب أهل الكوفة وسوادها، ونحن نلمس أثر كل ذلك في شعره. من ذلك استعماله للفظة (هيف) (٢) استعمالاً خرج بها عما كان يألفه العرب من معناها، إذ لم يستعملها في أجوائها، مما يدل على أنه لم يتمثل معناها تمثلاً كاملاً. فلفظة الهيف، كما جاء في اللسان (٣)، تعني ريحاً حارة

[١] رأينا ان غريب شعر الطرماح، أصبح ألغازاً، أو ما يشبه الألغاز يسأل عنه اللغويون والنحاة على سبيل الاحراج أحياناً، جاء في الأغاني (الساسي ١٥٤/١٢): «أن رجلاً يعرف بأبي ذؤيب كان بالأهواز وكان مقصد الشعراء وأهل الأدب، دخل عليه محمد بن خازم في هيئة رثة ولم يعرفه بنفسه، فسأله لما رأى من إعجابه بنفسه، وسعة اطلاعه، عن بيت شعر للطرماح، جهله، فرد عليه جواباً محالاً، كالمستصغر له، فازدراه، فوثب من مجلسه مغضباً.». وفي ديوان الأخطل ٢٥: أن الوليد بن عبدالملك سئل عن معنى بيت للطرماح هو:

اذا الأرطى توسد أبرديه خدود جوازيء بالرمل عين

فلم يعرفه وغضب فقيل له: مهلاً يا أمير المؤمنين، فان أباك كان يعطي على هذه الرغائب.

[٢] الأزمنة والأمكنة ٧٨/٢.

[٣] اللسان (هيف) قال ابن سيدة: والهيف كل ريح ذات سموم قال ذو الرمة في ديوانه ١١:

وصوح البقل نآج تجيء به هيف يمانية في مرها نكب

تأتي من قبل اليمن ، إلا أنه استعملها في البرد : قال يصف ثوراً في ليلة باردة :

كمخفق الحشبين بات تلفه وطفاء سارية وهيف مبرد(١)

ويقول المرزوقي ، معلقاً على استعمال الطرماح لهذه اللفظة : « إن الطرماح خالف أكثر العرب فجعل الهيف في البرد . . . ويقول أبو زياد — إذا كان يوم ريح — هذا يوم هائف طيب »(٢) .

ويعلق يوهان فك على لفظة (هيف) هذه قائلاً : « . . . فاذا وصف الطرماح ثوراً وحشياً تلفه سحابة مثقلة بالماء (وطفاء سارية وهيف مبرد) فانه لايكاد يفهم من اللفظين الأخيرين إلا ريح باردة ، ولكن لفظة هيف ريح الجنوب اللافحة الحرارة »(٣) .

وهيف في الديوان لفظ (هف) (٤) ، وفسرت بأنها الريح الباردة ، ويظن يوهان فك أن هناك تغييراً مقصوداً في رواية الديوان ، على أن لفظة (هف) رغم التغيير « لاتدل على معنى مقنع إذ أن لفظ (هف) معناه (فارغ) يدل على سحابة خالية من المطر ، وهذا لا يتناسب أيضاً — مثل ريح الجنوب — مع سياق الكلام . . »(٥) . ومهما يكن من شيء ، فان الطرماح — كما يبدو —

---

[١] الأزمنة والأمكنة ٧٨/٢ ، والمخفق الذي يخفق من الجوع والحشيان الخاصرتان والوطفاء السحابة القريبة من الأرض الكثيرة الماء ،

[٢] المصدر السابق ٧٨/٢ .

[٣] العربية ٣٧ — ٣٨ .

[٤] الديوان (٨ — ٣) .

[٥] العربية ٣٨ : وأعتقد أن (يوهان فك) يلمز (كرنكو) حين يقول : « إن هناك تغييراً مقصوداً في رواية الديوان » ويبدو أن (كرنكو) يتطرف في الدفاع عن الطرماح في هذا المجال ، يتضح ذلك من قوله : « . . إنني استطعت أن اتحقق بشيء من التأكيد أن الطرماح يستعمل =

لم يتمثل معنى اللفظـــة تمثـلاً كاملاً ، لذلك لم يقع بها في مكانها حين استعملها(١) .

أما آثار تعلمه النحو ، وأنه لم يكن له سليقة ، فيمكن أن نلمسها في هـذه المآخذ ، التي تؤخـذ عليه ، وفي تجوزاته في استعمال الألفاظ ، وجنوحه الى التعابير غير المألوفة :

فلفظة (لات) ، أداة نفي الزمان ، لا تستعمل ، في الأصل ، إلا مع حين ، جاء في اللسان : « ولات كلمة معناها ليس تقع على لفظ الحين خاصة ، عند سيبويه ، فتنصبه » ، وفي القاموس المحيط : « . . ولا تكون لات إلا مع حين »(٢) . وفي القرآن الكريم : جاءت لات مع حين : « ولات حين مناص » . أما الطرماح فيستعملها مع (هنا) ، يقول :

لات هنا ذكرى بلهنية الدهر وأنى ذكرى السنين المواضي (٣) .

وهو يفصل بين المضاف والمضاف اليه في شعره ، فيقول :

يطفن بحوزي المراتع لم ترع بواديه من قرع القسي الكنائن(٤)

ويعلق ابن جني على هذا البيت قائلاً : « أما قوله يطفن ، . . البيـت ، فلم نجـد فيه بدأ من الفصل ، لأن القوافي مجرورة ، ومن ذلك : قراءة ابن

= مفردات عديدة استعملت في المعاني نفسها في أشعار أبي زيد الطائي وابن مقبل العجلاني اللذين ربما كان الطرماح عرفهما شخصياً في سني شبابه . ويمكننا على هذا أن نفترض أن الكلمات التي يستعملها كانت موجودة فعلاً في كلام بعض القبائل العربية وأنها ليست (مستحدثة) كما هي الحال غالباً مع رؤبة ــ دائرة المعارف الاسلامية النص الانجليزي ، الطرماح » .

[١] انظر المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ٤٣٠ .

[٢] اللسان والقاموس (لوت) .

[٣] الديوان (٥ ــ ٢) .

[٤] الديوان (٣١ ــ ٤٧) ، توجيه أبيات ملغزة الاعراب ٥٥، والحوزي المتوحد .

عامر ، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » (١) .

وهو يجر اللفظ على المجاورة ، وفي ذلك ضعف ، فقد جر لفظة الموشح على المجاورة ، في قوله :

فاصبح كمش غبر الليل مصعداً ببم وتبه ذا العفاء الموشح (٢)

وفك إدغام (خد) وجعله (خدداً)(٣) « لضرورة شعرية ، قال :

ودارم قد قذفنا منهم مائة في جاحم النار إذ ينزون بالخدد(٤)

وقد رخم لفظة (كامل) فجعلها (كام)(٥) ، و(عامر) فجعلها (عام) ، و (تلاميذ) فجعلها (تلام) قال :

تنقي الشمس بمدرية كالحماليج بأيدي التلام(٦)

ومما يؤخذ عليه عدم صرفه للفظة (زوبر) (٧) ، ويؤخذ عليه قوله :

أحاذر يا صمصام إن مت أن يلي تراثي وإياك امرؤ غير مصلح

فقد أراد أن يقول (تراثي وتراثك ، فعدل عن الخفض الى النصب) (٨)

مظاهر الغرابة في شعره :

ولندرس الآن شعره ، لنلمس مواطن هذه الغرابة ، ولنتعرف على طبيعتها وأسبابها ، بعد ما عرفنا أنها كانت ملحوظة عند معاصريه ، وأنها شغلت نقادهم

---

[١] الخصائص ٤٠٦/٢ ، سورة الأنعام آية ١٣٧ .

[٢] الديوان (٤ ـــ ١) ، وقد يكون أراد وصف العفاء بالموشح .

[٣] الخد حفرة مستطيلة في الأرض كالأخدود .

[٤] الديوان (١٥ ـــ ٢٠) ، الكامل ١٤٧ .

[٥] ديوان الأخطل ٢٢ .

[٦] الديوان (٢١ ـــ ٤) ، وقيل في التلام (بكسر التاء وفتحها) غير ذلك إذ اعتبروها جمعاً مفرده (تلم) ويقول يوهان فك في العربية ٣٩ : أنه اختصر لفظ تلاميذ الى تلام بسبب القافية .

[٧] المفصل لابن يعيش ٣٨/١ .

[٨] الديوان (١٦ ـــ ١) .

وعلماءهم ولغوييهم وقتاً غير يسير ، وبعد مارأينا طرفاً من آثار تعلمه النحو وتوليده :

١ - الألفاظ الغريبة والنادرة :

أول مايلقى دارس شعر الطرماح منه ، هذه الكثرة من الألفاظ الغريبة ، والتعابير العويصة ، المنبثة في أكثر قصائده ، بحيث لا تكاد تخلو منها قصيدة ، سوى تلك التي تمت الى فخره أو هجائه أو عقيدته (الخارجية !) بسبب . فموضع الغريب في شعره ، قصائد الوصف ، والقصائد التي يجاري فيها شعراء الجاهلية .

هذه الغرابة غير مقترنة بالوحشية . الا في أقل الأحيان . فضلاً على أنها موطن أوصافه الجيدة ، فحيث يكثر الوصف تكثر هذه الغرابة ، قال الجاحظ ، في معرض تعليقه عن كلام كثير الغريب : « ... وان كانوا إنما دونوه وتذاكروه في المجالس ، لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجاج أو شعر الطرماح ، تاتي لهم — مع حسن الوصف — على أكثر مما ذكروا . »(١) .

وينبغي أن ننظر الى طبيعة هذه الغرابة ، لنرى هل هي مصطنعة متعمدة ، وما سبب اصطناعها ، أم هي لغة طبع عليها الشاعر ، لايستطيع الخلاص منها ؟ .

إن عصر الطرماح — وقد كان عصر العناية باللغة وجمعها ، وتدوين غريبها — ساهم في دفع الشعراء الى العناية باللغة وغريبها أيضاً ، فلا عجب أن يحفل الطرماح بالغريب ، ويطلبه ويتعلمه ويصطنعه في شعره . الا أن الشيء الذي يلفت الانتباه ويدعو للتأمل فى غريبه ، هو المبالغة في اصطناعه ، والتطرف في الولوع به حتى لا تخلو منه قصيدة .

---

[١] البيان والتبيين (٣٥٤/١ الاستقامة) ، ولم يكن الكميت ولوعاً هذا الولع الغريب باستعمال الألفاظ المهجورة ، يعلق يوهان فك على ذلك بقوله : « ولم يأخذ الناقدون على الكميت استعماله الألفاظ المهجورة تماماً كما هو الحال عند الطرماح ، وإنما انصب النقد على تسامحه في تعاطي اللغة الدارجة — كتاب العربية ٤٢ » .

ويرد الدكتور شوقي ضيف هذه الغرابة الى مهنة الشاعر (التعليم) ، فيقول : « والطريف أن وظيفة هؤلاء المعلمين ، وما يراد منهم من تثقيف الناشئة باللغة ، اضطرتهم الى أن يؤلفوا كثيراً من شعرهم لهذه الغاية نفسها ، ومن يرجع الى ديوان الطرماح ، يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن شعره يمكن أن يقسم الى قسمين ، قسم واضح فيه مديح وهجاء ، وقسم غير واضح ، فيه حديث عن الصحراء وما يتصل بها ، وهو شعر أريد به قبل كل شيء الى تعليم اللغة بغرائبها وأوابدها»(١) . وعلى الرغم من كون الطرماح معلماً ، فاننا لا نستطيع أن نقنع بسهولة ، أن كل القسم الذي يحفل بالغريب منه ، قيل لأغراض تعليمية ، كما لانستطيع أن نقنع أن شعر الطرماح أخذ يعبر عن لاحاجة وجدانية ، وإنما عن حاجة لغوية ، فمقاطع مهمة من شعره — وهي كثيرة الغريب — تمثل جوانب أعمق ذاتية من المديح والهجاء ، اللذين أشار اليهما الدكتور . والدكتور الفاضل ينكر كثيراً من الذاتية والوجدانية في شعر الطرماح ، إذ يقول : « وأخذ الشعر في بعض جوانبه يعبر عن لاحاجة وجدانية وإنما عن حاجة لغوية »(٢) . فالقصيدة الأولى من الديوان ، تحوي مقاطع مهمة تتناول علاقته بزوجه (سلمى) والقطيعة التي حدثت بينهما ، كما تتناول وساطة (صمصامة) ابنه لانهاء هذا الجفاء ، وشفاعته لأمه . ومن هذه القصيدة مقاطع في ذكر الموت ، يتخيل الطرماح فيها نفسه صريعاً :

إذا مت فانعيني لقومك وابجحي بذكرى فمثلي نهية المتبجح
لفارس ذي الأدراع زوجك فاندبي مناقب خرق بالتأى غير مفدح
سعى ثم أغلت بالمعالي سعاته ومن يغل في ربعية المجد يربح
أحاذر يا صمصام إن مت أن يلي تراثي وإياك امرؤ غير مصلح
إذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهي ملكت فأسجح

[١] التطور والتجديد في الشعر الأموي ٩١ .
[٢] التطور والتجديد في الشعر الأموي ٩١

وناصرك الأدنى عليه ظعينة   تميد إذا استعبرت ميد المرنح(١)

مفجعة لادفع للضيم عندها   سوى سفحان الدمع من كل مسفح

إذا جئتها تبكي بكت وتذكرت   مع الحزن صولات أمريء غير زمح

وقد أضمرته الأرض عنك وأسلمت   أباك الموالي للحمام المجلح

صريع قنا أو ميتاً تطرد الصبا   عليه السفا من كل جانبي كل أبطح

تعاوره ريحان تنتسجانه   كما اختلفت كفا مفيض بأقدح

أتيحت له أم اللهيم وماتني   على فاجع تغدو إذا لم تروح

وفيها — على الرغم من ذلك — من الغريب ما سمعه الناس فجهلوا معناه كما يقول الجاحظ(٢) .

وفي القصيدة الثانية(٣) ، وهي كثيرة الغريب ، موضوع ذو أهمية خاصة ، يتعلق بمذهبه الخارجي وزهده ، وانتقاله من حياة العبث والكبرياء والعنجهية ، الى حياة الرشد والايمان ، حياة الخوارج أو سواهم ، وفيها — الى ذلك — من الغريب ، ماقال عنه الأصمعي : « ولم أسمعه إلا في هذا الشعر »(٤) ، ويقصد لفظ « الكراض » في بيت الطرماح :

سوف تدنيك من لميس سبنداة أمارت بالبول ماء الكراض(٥) .

وفي طيات القصيدة الخامسة(٦) ، معان في التقوى والصلاح . تتدفق بايمان مخلص ، تسخر من جامعي المال ، وتذكر مكتنزيه بالموت والعقاب . وفيها أيضاً مقاطع تعج بالغريب .

والقصيدة الرابعة والثلاثون :

---

[١] يريد بناصرك الأدنى : أمه .

[٢] الحيوان ٢/٢٥٤ .

[٣] ذكرت مقاطع منها أثناء الحديث عن خارجيته .

[٤] الكامل للمبرد ١٤٣ .

[٥] الديوان (١٠ـ٢) .

[٦] استشهدت ببعض مقاطعها في الكلام عن خارجيته .

ندت لك حماة العـــلاط سجوع   وداع دعا من خلتيك نزيع(١)

لانشجع مطلقاً على قبول الرأي القائل : « بأن غريب الطرماح كان لغرض تعليمي ، بسبب خلوه من المدح والهجاء وهي موضوعات ذاتية . . » هذه القصيدة على الرغم من غريبها ، تتضمن غرضاً أكثر ذاتية ــ إن صح التعبير ــ من المدح والهجاء ، فضلاً على كونها قيلت في المدح ، تتضمن الفخر والحديث عن علاقته بالعامة ، وبغضها إياه ، وإجماعها على كراهيته(٢) ، وفيها يظهر جشع الطرماح عارياً . وقد أنشدت هذه القصيدة في مدح خالد القسري وأخذ الطرماح ثمنها وهو خمسون الف دينار وهو أكثر مما كان يتقاضاه من التعليم قطعاً(٣) .

فدعوى الدكتور شوقي ضيف ، لا يمكن أن تقبل بسهولة . على أنني لا أنكر أن مهنة المعلم تفرض عليه أن يلم بالغريب ، وأن يستعمله أكثر من سواه ، لكنني لا أستطيع أن أقنع بأن كل ما كتبه الطرماح من غريب كان بسبب المهنة ، فهل يمكن أن يكتب المعلم لصبيانه ، ما يعيا بفهمه أمثال ابن الاعرابي ، أو ما يقول عنه رؤبة إنه : « ليس من لغتي ولم أعرفه »(٤) . وهل يعقل أن يكتب الطرماح للصبيان :

وشاخص فاه الدهر حتى كأنه   منمس ثيران الكريص الضوائن

و : معيد قمطر الرجل مختلف الشبا   شرنبث شوك الكف شثن البراثن

و : بربر ببربرة الهبرقي   بأخرى خواذلهـا الأنحـه

أو يكتب نحو ذلك ، وانما يكتب ذلك . أو ما يشبهه ، لاعتبارات

---

[١] التزيع البعيد وقيل هو هنا الغريب (الديوان ١٥٠) والسجوع المطربة في حنينها ، والعلاط صفحة العنق .

[٢] أنظر الأبيات (٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤) من القصيدة الرابعة والثلاثين .

[٣] البيان والتبيين (الاستقامة ١٧٩/٣) ، ديوان المعاني ٢٣٨/٢ ، الأغاني (دار الكتب ٤٣/١٢) .

[٤] الموشح ١٩٢ .

تقليدية ، مستغلاً قرويته بعض الأحيان ، في استعمال كلمات من بيئته ، وقد تفرض قرويته هذه ألفاظها وتعابيرها على شعره فرضاً .

فوصف الناقة ، ووصف الصيد ، والبيداء ومايتصل بها ، من اعتبارات أدبية تقليدية ، كبكاء الأطلال ، واستيقاف الصحب ، وسؤال الطلول ، موضوعات يلجأ اليها الشاعر بدافع التقليد . وتحت تأثير فكرة مجاراة شعراء الجاهلية (المثل الأعلى للشعر). وهذه الموضوعات — من جانب آخر — مجال يعرض فيه الشاعر مقدرته اللغوية وبراعته ومعارفه ، في شؤون البادية ، وما يتعلق بحياتها . ولقد كان هذا في معايير النقدة ، من مميزات الشعر الجيد . ان التخلص من هذه الاعتبارات التقليدية أمر صعب ، وقد رأينا كم استمر التقليد يفرض طابعه على الشعر .

فهذه القصائد التي تعج بالغرابة ، تمثل الجانب التقليدي من حياة الطرماح الأدبية ، الا أنها كانت مطبوعة بطابع بيئته القروية .

وبحق لسائل أن يسأل : لم فاق الطرماح معاصريه في هذا التقليد ؟ ولم ألح في اصطناع الغريب ؟. وهنا نذكر أن الطرماح لم يكن طبيعياً في تصرفاته . كان مسرفاً في كل شيء ، مسرفاً في حبه لنفسه ، واعتداده بها ، مسرفاً في حبه للمال ، وطلبه له ، مسرفاً في إبائه وكبريائه ، وكراهيته للعامة ، ويبدو أن هذه الطبيعة انعكست في فنه ، فأسرف في استعمال الغريب ، وحاول أن يلفت انتباه الناس اليه في هذا الاستعمال ، تحدياً وتظاهراً بالمعرفة وطلباً للتفوق .

أما المقطوعات الأخرى ، من فخر الطرماح ، وهجائه ، وزهده ، مما يقل فيه الغريب ، فتمثل الطور الآخر من حياته الأدبية ، وتصور طابع العصر ومزيته .

الطرماح ، اذن ، لم يكن مقتصدا في تقليده شعر الجاهليين ، ولا في اصطناعه الغريب ، فقد بالغ ، هذا بالاضافة الى كونه قروياً حضرياً ، لم يعش حياة البادية ، ولم يلابس سكانها ، بل وصفها على التقليد ، أو كما قال

العجاج : « إنه كان يصف ما لم ير »(١) .

وهذه نماذج من الألفاظ الغريبة التي وردت في شعره :

أ ـ (الكراض) ،

سوف تدنيك من لميس سبنداة أمارت بالبول ماء الكراض(٢) .

ويبدو أن هذه اللفظة غريبة جداً ، أو مندرسة ، أحياها الطرماح ، فالعلماء ، يضطربون في تعيين المقصود منها على وجه الدقة . ومعنى (الكراض) عند الأصمعي ـــ كما ذكر المبرد وصاحب اللسان أيضاً(٣) ـــ (حلق الرحم) ، ويدعى الأصمعي : « أنه لم يسمعه الا في هذا الشعر »(٤) . وفي اللسان(٥) : قال ابن بري : « الكراض في شعر الطرماح ماء الفحل(٦) ، فيكون على هذا القول من باب إضافة الشيء الى نفسه ، وصف هذه الناقة بالقوة لأنها اذا لم تحمل كان أقوى لها » ، وقال ابن الاعرابي : « الكراض ماء الفحل في رحم الناقة ، بعد ما قبلته ، وقد كرضت اذا لفظته » ، وقال الأزهري : « خالف الطرماح الأموي في الكراض فجعل الطرماح الكراض الفحل وجعله الأموي ماء الفحل » ، وقال أبو عبيدة : « الكراض واحدتها كرضة » ، وقيل الكراض جمع لا واحد له .

ويعلق يوهان فك على هذا اللفظ ، قائلاً : « ولفظ كراض ، أيد المبرد مطابقته لمعنى يوناني فسره بعضهم(٧) مراعاة للسياق بالرحم ، أو مايلفظ الرحم من ماء الفحل ، فأي هذه المعاني ينطبق هنا ، وهل هو لفظ في لهجة معينة ،

---

[١] الأغاني (دار الكتب ٢/٩٧) .

[٢] الديوان (١٠ ـــ ٢)

[٣] الكامل ١٤٣ ، اللسان (كرض) .

[٤] المصدران السابقان .

[٥] اللسان (كرض) .

[٦] اعجاز القرآن ٣٢٧ .

[٧] تاج العروس ٥/٨٢ .

أو لفظ قديم بطل استعماله ، أو وضع جديد أو ناشي عن سوء فهم ؟ هذا مايعسره بيانه بالتحديد ! »(١) .

ب - (شيام) :

كم به من مكء وحشية قيض في منتثل أو شيام(٢)

ولنقرأ تفسير هذه اللفظة ، لنرى كيف يفسرها علماء العربية الأول ، وكيف يختلفون في هذا التفسير ، وكيف يختلفون في ضبطها ، فيقول بعضهم (شيام) بالفتح ، ويقول آخرون (شيام) بالكسر ، جاء في اللسان(٣) : « الشيام حفرة أو أرض رخوة » ، وقال ابن الاعرابي : « الشيام (بالكسر) الفأر(٤) ، والشيام التراب عامة قال الطرماح : كم به من . . . البيت » .

وقال أبو نصر : « الشيام التراب ، . . . وقال هذا للطرماح » وجاء بعده في مجالس ثعلب : قال أبو العباس : « . . ولم يعرف الشيام » والرواية لم توضح المعني ، أبا نصر هو أم محمد بن أبي عمرو الشيباني؟(٥) . وقال الخليل : « شيام حفرة وقيل أرض رخوة التراب » ، وقال الأصمعي « الشيام الكناس لانشيامه فيه أي دخوله ، وقال الشيام التراب » ، وقال أبو سعيد : « سمعت أبا عمرو ينشد بيت الطرماح أو شيام بفتح الشين ، وقال هي الأرض السهلة » ، ثم قال : وهي عندي شيام (بالكسر) وهو الكناس . . . والشيام الذي لم يندفن ولا يحتاج الى انتثاله فهو ينشام فيه » .

---

[١] العربية ٣٩ .

[٢] الديوان (٦ — ٤) المكء ، جحر الثعلب ، قيض حفر ، المنتثل ما كان محفوراً واندثر .

[٣] اللسان (شيم) .

[٤] أعتقد أنه تصحيف أو تحريف لكلمة (الغار) .

[٥] مجالس ثعلب ٥٣٧ ، ونص الرواية « وأمله أبو نصر ومحمد بن أبي عمرو الشيباني ، وقال أبو العباس : أوغلت . . . ولم يعرف الشيام » وأشار المحقق الى الغموض .

ج - (كمش) بمعنى أسرع[١]:

فيا صبح كمش غبر الليل مصعدا ... بيم ونبه ذا العفاء الموشح[٢]

إذا صاح لم يخذل وجاوب صوته ... حماش الشوى يصدحن من كل مصدح

وحسبي أن أنقل هنا، ما ذكره الجاحظ عن هذا البيت، لادلل على غرابة الكلمة، قال « وإنما قال القوم في تجاوب الديكة بيت شعر، سمعوه للطرماح، جهلوا معناه، وهو : فيا صبح كمش. . . »[٣].

د - (الصيدن) :

يثير نقا الحناءتين ويبتني ... بها نقب أولاج كخيم الصيادن[٤]

والصيدن الثعلب، وقيل من أسماء الثعلب، والصيادن جمعه، قال الأصمعي : « ولم أسمع به الا في بيت قاله كثير وهو ليس بشيء[٥]، وبيت كثير هو :

كأن خليفي زورها ورحاهما ... بنى مكوين ثلما بعد صيدن[٦]

وقا ابن خالويه : « لم يجيء الصيدن الا في شعر كثير »[٧]، وأورد الجوهري هذا البيت شاهدا على الصيدن، وهي دويبة تعمل لنفسها بيتا في الأرض وتعميه، والصيدن أيضا نوع من الذباب، يطنطن فوق العشب، وقيل هو البناء المحكم، ومنه سمي الملك، وقيل هو العطار. وللفظة معان كثيرة لا فائدة من إيرادها[٨] ويبدو أن كثرة مدلولات الكلمة منعت من كثرة استعمالها مما أدى الى غرابتها.

---

[١] اللسان (كمش).

[٢] الديوان (٤ ــ ١).

[٣] الحيوان ٢/٢٥٤.

[٤] الديوان (٤٦ ــ ٤٧) الحناءتان رينان في ديار طيء، والنقب الثقب أو الطريق في الجبل، والولج هو الطريق في الرمل.

[٥] اللسان (صدن).

[٦] اللسان (سدن).

[٧] اللسان (صدن).

[٨] اللسان (صدن).

وإذا عرفنا أنها لم ترد في غير شعر كثير والطرماح ، تبين لنا مدى غرابتها على الشعر ، وتبين لنا أيضا ولع شاعرنا بالنادر والغريب .

هـ ـ (رعـــم) :

ولم يجد الخليل ما يستشهد به ، على معنى لفظة (رعم) (١) في غير شعر الطرماح (٢) .

و ـ (الأريمين) :

فياليت شعري هل بصحراء دارة الى واردات الأريمين ربوع(٣)

والتدليل على غرابة هذا اللفظ ، يكفي هنا أن أنقل ما ذكره البكري فيه ، قال : « هكذا وقع في شعر الطرماح باتفاق من الروايات ، وأنا أظنه الأرنمين بالنون ، تثنية أرنم ، فان ذلك غير مرتاب به ، ولا يمترى في صحته ، ولم أر الأريمين بالياء الا في شعر الطرماح . . » (٤) .

ز ـ (الريع) :

كتوم التشكي ما تزال براكب تعوم بريع القيعة المتضحضح

فسر لفظ (الريع) بكسر الراء ، بأنه ما ارتفع من الأرض وفسر أيضاً بأنه السراب (٥) وما أبعد مابين التفسيرين ! ويطول بنا الحديث اذا نحن فتشنا عن هذا الغريب والمندرس ، فهو كثير في شعره .

الاستعمال غير المألوف للكلمات :

وقد يلجأ الطرماح الى وسيلة اخرى للاغراب ، ذلك أنه يعمـــد الى

---

[١] يرعم ينظر ويرعم الشمس اذا رقب غيبوبتها ، قال الطرماح في الديوان (٦٩ ـ ٤) :

ومشـــيح عـــدوه متاق يـــرعم الايجاب قبل الظلام

[٢] معجم مقاييس اللغة ٤٠٧/٢

[٣] الديوان (٣ ـــ ٣٤) .

[٤] الديوان ١٥٠ ، معجم ما استعجم للبكري ١ / ١٤٥ ، وفي معجم البلدان « الأرتمين » ٥٢٧/٢ طبع طهران .

[٥] الديوان ٧٧

ألفاظ وتعابير شائعة ، غير مندرسة ، الا أنه يستعملها استعمالا غير مألوف ، فهذه لفظة (دارة) وهي رمل مستطيل ، في وسطها فجوة وهي الدورة (١) - لاتستعمل الا مضافة ، غير أن الطرماح عمد الى استعمالها ، غير مضافة ، فقال :

فياليت شعري هل بصحراء دارة ... الى واردات الأربعين ربوع

قال صاحب مراصد الاطلاع : « ودارة غير مضافة جاءت في شعر الطرماح . . » (٢) ، وفي معجم البلدان مثل هذا التعليق أيضاً (٣) .

ومن غير المألوف ، استعماله لفظة (قاتن) بمعنى قاتم ، قال :

كطوف متلي حجة بين غبغب ... وقرة مسود من النسك قاتن(٤)

قال الزمخشري : « وجاءت قاتن بمعنى قاتم في شعر الطرماح »(٥) . وفي كتاب الابدال : قال ابن جني : « ذهب أبو عمرو الشيباني الى أنه أراد قاتم أي أسود فأبدل الميم نونا »(٦) . قال : « ويمكن غير ماقال ، وذلك أنه يجوز أن يكون أراد بقوله (قاتن) فاعلاً من قول الشماخ : « . . . قرى حجن قتين » ، ودم قاتن وقاتم وذلك اذا يبس واسود . . » .

وأحب أن أنقل تفسير لفظ آخر . ورد في شعر الطرماح ، لنرى الاختلاف في تأويل معناه ، وتخريج المقصود منه . ذلك هو لفظ (وشوع) في قوله :

---

[١] مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ٥٠٩ ، اللسان (دور) ، معجم البلدان ٢/ ٥٢٦ طبع طهران ،

[٢] مراصد الاطلاع ٥٠٩ .

[٣] معجم البلدان ٥٢٦/٢ طبع طهران .

[٤] الديوان (٣٦ — ٤٧) عبعب وقرة صنمان ، والنسك الذبح ، ويقول الكلبي في الأصنام ١١٠ : « العبعب صنم لقضاعة أو موضع الصنم ، ويقال غبغب » .

[٥] الفائق في غريب الحديث ١٣٩/١ .

[٦] الابدال ٤٢٥/٢ .

وما جلس أبكار أطاع لسرحها   جنى ثمر بالواديين وشوع(١)

« قيل فيه قولان : وشوع أي كثير ، ومنه قوله : « إني امرؤ لم أتوشع بالكذب ، أي لم أتحسن به ، ولم أتكثر به » ، وقيل : إنها واو العطف ، والشوع ضرب من النبت »(٢) .

وفي اللسان : « الشوع شجر البان ، وهو معطوف على جنى ثمر ، وقيل وشوع جمع وشع وهو زهر البقول »(٣) . وقال أبو حنيفة : « ويروى وشوع وهي الضروب »(٤) .

وما كان أغنى الطرماح عن مثل هذا اللفظ ، وما كان أغناه عن هـذه التخريجات ! الا أن نزعة الاغراب فيه ، كانت تدفعه الى مثل هـذه التعابير غير المألوفة .

وهذه جملة من الألفاظ الغريبة أدرجها من غير تعليق ، فان ما فيها من الغرابة يغني عن التعليق :

أخلج ، الأزحة ، أفد ، الأنحة ، أوفاض ، أولاج ، أيق ، بارض ، برير ، بريم ، تناويط ، الثول ، جلعد ، جماعير ، حمالبج ، حنظب ، خشرم ، خنيف ، الدعاع ، ذهلت ، رفت ، الزبرج ، سفاسق ، سلعام ، سبنداة ، سبنتاة ، شاخس ، شامذات ، شش ، شرنبث ، شناظي ، شنفارة ، شودح ، صحماء ، صمالبخ ، الصيادن ، الصيخد ، الضهل الظوائن ، طخاءة ، الطخف ، طهاءة ، عبنقاة ، عربسيس ، عرفج ، العزهاة ، المقاق ، عوهج ، غراث ، فجا ، فيقات ، قافحة ، القدوع ، قناقن ، قهزة ، كداية ، كديون ، الكريص ، كعوع . كمش ، مبلت ، متحاتن ، متضحضع ، متطحطح ، مجذئر ، مجلوذ ، محدرج ، مرغنات ، مزاوير . مستوهل ، مصعنفر . المقلة ، منمس ، نكز ، الهبرقي ،

---

[١] الديوان (١٥ ــ ٣٤) .

[٢] الخصائص لابن جني ١٧٠/٣ .

[٣] اللسان (وشع) .

[٤] الديوان ١٥٢ ، يريد بأبكار النحل أفراخها وأحداثها ــ اللسان (وشع) .

هبهبي ، هضاء ، هكوع ، هلواعة ، وشوش ، يأزو ، يستتيع ، يعارة .. الخ .

٣ ــ الوحشي :

ومن هذا الغريب ، الذي يكلف به الطرماح ، ماهو غير مأنوس ، وحشي ، لاترتاح الاذن الى سماعه ، ولايقع في النفس موقعاً حسناً ، بسبب غرابة تأليفه ، أو تنافر حروفه ، على أن ذلك قليل نوعاً . وقد مرت بنا أمثلة منه : طخاءة ، طهاءة ، مزارير ، هبرقي ، صماليخ ، شختة ، عبنقاة ، قافحة ، حنظب ، متطحطح ، متضحضح شناظي ، خنيف ، وشوش ، جماعير ،

المتنافر :

وقد يلجأ الطرماح ، في محاولاته للاغراب ، الى تكرار الكلمات المتشابهة الحروف والمقاطع ، أو المتنافرة الحروف ، مما يحدث تعابير متنافرة وهذا قليل أيضاً . وكأمثلة لهذا القسم نقرأ هذه الأبيات :

أ ــ أخلقت حد الحروم كما أخلق التهقر قذف الغلام (١)

ب ــ معيد قمطر الرجل مختلف الشبا شرنبث شوك الكف شثن البراثن (٢)

ج ــ وبربر بربرة الهبرقي باخرى خواذلها الأنحه (٣)

د ــ على أن للعينين في الصبح راحة بطرحهما طرفيهما كل مطرح (٤)

وعلق على هذا الأخير ، أبو هلال العسكري ، قائلا : « والتكلف في قوله ــ بطرحهما طرفيهما كل مطرح ــ بين والكراهية فية ظاهرة » (٥) . ولاشك في أن هذا التنافر يلقي على المعاني ظلالا من الغموض وعدم الوضوح .

---

[١] الديوان (٧٩ ــ ٤) والبيت في الديوان مختل الوزن .

[٢] الديوان (٤٢ ــ ٤٧) .

[٣] الديوان (٨ ــ ١٧) ، (٥ ــ ٥٩) .

[٤] الديوان (٢ ــ ١)

[٥] ديوان المعاني ٣٤٦ ، وقد مربنا : أنه كرر مثل هذا التعبير ، وأنه لقب بسببه بالطراح .

٥ ـ **الشاذ :**

وقع في شعره كثير من الشاذ ، الذي لم يجر في اشتقاقه على قيـــاس ، وطبيعي أن قسما من هذا الشاذ جره اليه الوزن ، أو طلب التوافق الموسيقي ، أو الجأته اليه أحدى الضرورات ، فاستساغ استعماله(١) . والأمثلة على هذا النوع كثيرة نسوق منها جملة :

أ : سلمة : كأني اذا باشرت سلمة خاليا   على رملة ميثا للمتبطح (٣)

يقصد بسلمة (سلمى) زوجه ، وقد يكون ذلك نوعا من الترخيم ، جاء في الديوان « أراد سلمى ، والهاء والياء(٣) عنده بمزلة واحدة »(٤).

ب : مزائد : مزائد خرقاء اليدين مسيفة   يخب بها مستخلف غير آين(٥)

[١] ويعلق يوهان فك على هذه الظاهرة بقوله « .. ولمثل هذه الظواهر كان من المرغوب عنه تماما اعتماد أشعار الطرماح ، في قاموس اللغة العربية عـــلى الاخص ، بالنظر الى المفردات التي كان ينفرد باستعمالها ـ العربية ٣٩ » . ونحن نقول : إن القواميس العربية تعج بالشواهد من شعر الطرماح ، ويكفي أن صاحب اللسان ذكر له أكثر من مائة شاهد ، مما لا وجود له في الديوان أو كتب اللغة الاخرى ، فضلاً على ستة وخمسين شاهداً نادراً أوردها الزمخشري في الأساس . وقد مر بنا تحقق كرنكو من استعمـــال الطرماح لمفردات تشيع في شعر أبي زيد الطائي وابن مقبل العجلاني واتخاذه ذلك دليلاً على شيوع المفردات التي يستخدمها الطرماح في كلام بعض القبائل العربية . ويؤكد كرنكو : أن المفردات التي تشيع في قصائده الوصفية تقتبس في القواميس العربية كدليل على شيوعها في اللغة (مادة الطرماح في دائرة المعارف الاسلامية).

[٢] الديوان (٥ ـ ١) ويسميها (سلم) وذكر الزمخشري في الأساس (ملح) : أن اسمها (سليمة) . والميثاء الرملة اللينة الضخمة .

[٣] أظنه التاء والألف .

[٤] الديوان ٦٩ .

[٥] الديوان(١١ ـ ٤٧)، والمزادة القربة ،واسافت حرمت وأفسدت ،واستخلف الرجل استقى .

مزائد والصواب مزاود(١) ، والمزادة الظرف الذي يحمل فيه الماء كالراوية والقربة والسطيحة(٢) .

ج : بيننا : فاني وإياكم وموعد بيننا كيوم لبيد يوم فارق أربدا(٣)

يقول المرزوقي في تفسير معنى البيت : « يريد أن يومنا ويومكم ويوم ميعاد بيننا كيوم لبيد ، والأجود في تفسير البيت ، أن يكون المصدر لا الظرف » ومعنى كلامه : أن المعنى لايستقيم إلا اذا اعتبرنا (بيننا) مصدراً .

د : اجترت : فاجترت للماء يأدو لها مسحل مقلاء عون قطام(٤)

صاغ افتعل (اجترى) من جرى .

٦ - الجموع الغريبة والشاذة :

وقع في شعر الطرماح جملة من الجموع الشاذة والغريبة ، سجل اللغويون والنحاة آراءهم فيها ، وهذه مجموعة منها :

أ - صويها :

في تيه مهمهة كأن صويها أيدي مخالعة تكف وتنهد(٥)

وجمع صوة صوى ، والصوة أعلام من حجارة ، منصوبة في الفيافي والمفازة المجهولة ، يستدل بها على الطريق وعلى طرفيها ، والجمع صوى ، وأصواء جمع الجمع(٦) ، أما صوي فهو غير مسموع .

ب - حوالص :

لزمت حوالسها النفوس فثورت عصباً تقوم من الحذار وتقعد(٧)

---

[١] الخصائص ١ / ٣٢٨ ، ٣ / ١٤٤ ، اللسان (زيد) ، وانفرد الشعر والشعراء ٢٤٧ بروايتها مزايد .

[٢] اللسان (زبد) .

[٣] الأزمنة والأمكنة ٢ / ٣١٤ .

[٤] الديوان (٦٥ — ٤) .

[٥] الديوان (٨ — ١٨) والمخالعة امرأة تقامر .

[٦] اللسان (صوى) .

[٧] الديوان (١ — ٦٠) .

جمع حلس على حوالس . والحلس كل شيء ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج . وجلس البيت مايبسط تحت المتاع من مسح ونحوه . ويقال فلان حلس بيته إذا لم يبرحه ، وفلان من أحلاس البلاد لا يزايلها ، من حبه إياها . وجمع حلس أحلاس وحلوس(١) . ولم يذكر (حوالس) في المعاجم ولا هو بقياس .

ج ـ الحوافي :

تجنبها الكماة بكل يوم مريض الشمس محمر الحوافي(٢)

فسر بأنه جمع حافة ، قال ابن الاعرابي : وقول الطرماح . . . فسر بأنه جمع حافة ، ولا أدري وجه هذا ، إلا أن تجمع حافة على حوائف ، كما جمعوا حاجة على حوائج ، وهو نادر عزيز ثم تقلب »(٣) .

د ـ الأشامل :

لأم يحن به مزامير الأجانب والأشامل(٤) .

قال ابن سيدة : « أراه جمع شملاً على أشمل ، ثم جمع أشمل على أشامل »(٥) ، وعلق يوهان فك على هذا البيت بقوله : « وهنا صاغ الشاعر للفظ شمل ، وهي صيغة ثانية الى جانب شمأل ، أو صاغ ــ بعبارة أخرى ــ لجمع شمل وهو أشمل جمعاً جديداً على أشامل ، وجعله مجارياً للفظ أجانب ، بحيث نشأ من ذلك ازدواج لفظي غريب »(٦) . ومعنى ذلك ، أن طلب التوافق الموسيقي أو القافية هو الذي ألجأه الى هذه الصياغة كما قدمنا .

---

[١] اللسان حلس ، ويفسر ابن قتيبة ، في المعاني الكبير ٢ / ١١٧ ، لفظ الحلس، بأنه قدح له أربعة أنصباء .

[٢] الوساطة ٢٦١ ، ٣٩٣ ، الديوان (٤ ــ ٣٦)

[٣] اللسان (حيف) .

[٤] الديوان (١٢ ــ ٤١) .

[٥] اللسان (شمل) .

[٦] العربية ٣٩ .

هـ : الحنات :

وأكره أن يعيب علي قومي هجائي الأرذلين ذوي الحنات(١)

جمع إحنة على حنات ، والاحنة الحقد في الصدر(٢) ، وجمعها إحن ، ولايقال حنات ، وقد تكون الحنات جمع حنة ، وهي لغة قليلة في الاحنة(٣) . قال الأصمعي معلقا على هذه الصيغة من الجمع : « كنا نظن الطرماح شيئاً حتى قال هذا البيت ، لأنها إحنة وإحن ، ولا يقال حنات »(٤) ، وعلق ابن سنان الخفاجي على هذا البيت بمثل ذلك(٥) .

و : اللواتي :

أخلفتهن اللواتـــي الألى بالمقاني بعد حسن اعتمام(٦)

يريد باللواتي الغدران والحشيش ، وهي اللوايا ، جـاء في الديوان « وقالوا اللواتي ـــ عن أبي عمرو ـــ خطأ »(٧) واللوايا واحدتها اللوية ، وهي آخر ما يبقى من العشب ، إذا يبس .

وفي قصيدته النونية(٨) ، وقعت جملة من الجموع على نمط واحد ، قال البغدادي معلقا على أحدها ، وهو (البرين) : « . . . لما تقدم قبله أنه معرب بالحركة على النون ، وهو جمع برة بضم الباء ، قال في الصحاح كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال . . . وقد أورده أبو علي في كتاب إيضاح الشعر ، مع

---

[١] الديوان (٣ـــ١٢) .

[٢] اللسان (احن) .

[٣] اللسان (احن) .

[٤] الديوان ١٣٤ ، الموازنة ١٨ .

[٥] سر الفصاحة ٨٨ ، وانظر الموازنة ١٨ ، الفائق ١٠ .

[٦] الديوان (٦٤ـــ٤) . اخلفتهن ذهب ما فيهن من نبت والمقاني الامكنة التي لاتصيبها الشمس واحدتها مقنؤة واعتم النبت طال .

[٧] الديوان ١٠٧ .

[٨] الديوان القصيدة التاسعة والأربعون .

أبيات اخر على طرز البرين، ثم قال وقد كثر هذا الضرب من الجمع حتى لوجعل قياساً مستمرا كان مذهبا . . . » (١) .

ويبدو أن الطرماح أراد أن يجعله قياسا مستمرا، فقد استعمله في قصيدة واحدة أربع مرات(٢) .

أ ـ البرين : حسان مواضع النقب الأعالي غراث الوشح صامتة البرين(٣)

جمع برة ، وهي كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال أو ما أشبهها . والبرة أيضا حلقة من صفر ، تجعل في لحم أنف البعير ، وقال الأصمعي ، تجعل في أحد جانبي المنخرين ، وربما كانت البرة من شعر فهي الخزامة(٤). وتجمع البرة على برى وبرين وبرين (٥)

ب ـ العزين : ترى أصواؤها متجاورات على الأشراف كالرفق العزين (٦)

العزة الجماعة والفرقة من الناس والعصبة منهم والأصناف ، والجمع عزى وعزون وعزون (٧) .

ج ـ الأضين : عفت الا أياصر أونؤيا محافرها كأسرية الأضين (٨)

الأضين جمع الأضاة ، وهو الغدير والماء المستنقع ، والجمع أضاً

---

[١] خزانة الأدب ٤١٦/٣ .

[٢] هذا على الرغم من أن أكثر من نصف القصيدة مفقود ، وهي ـ على مايقول البغدادي ـ سبعون بيتاً .

[٣] الديوان (١٠ ـ ٤٩) النقب اللون والوجه .

[٤] اللسان (برى) .

[٥] اللسان (برى) برين بكسر الباء وضمها .

[٦] الديوان (٦ ـ ٤٩) وفي القرآن الكريم « عن اليمين وعن الشمال عزين » من سورة المعارج آية ٣٧ .

[٧] اللسان (عزا) عزون بكسر العين وضمها .

[٨] الديوان (٤ ـ ٤٩) من جموع الأضاة : أضاً وإضاء وأضاء وأضون . وفي القرآن الكريم : « الذين جعلوا القرآن عضين » من سورة الحجر آية ٩١ .

وإضون ، وأنشد ابن بري في جمعه على أضين بيت الطرماح : « محافرها كأسرية الأضين »(١) .

د ـــ الكرين : ترى الحلوق جلتها أداوى   مولعة كتوليع الكرين(٢)

الكرة هي التي يلعب بها ، والتي تضرب بالصولجـــان ، والجمع كرون ، وكرون(٣).

٧ ـ المعرب والاعجمي :

وقعت في شعره مجموعة من الألفاظ الأعجمية أو المعربة ، ولعل لاقامته في بلاد فارس أثراً في كثرتها ، وهذه نماذج من هذا الضرب :

أ ـــ ورد في شعره بعض أسماء المدن الأعجمية مثل قزوين وبم والقاقران وفج الريح وكرمان(٤) .

ب ـ التلام : تتقي الشمس بمدريه   كالحمـاليج بأيدي التـلام(٥)

والتلام أعجمي معرب ، قيل هم الصاغة ، وقيل غلمان الصاغة ، وقيل هم التلاميذ ، مرخمة(٦) .

ج ـــ السيطل : جبست صهارته فظل عثانه   في سيطل كفئت له يتردد(٧)

السطل والسيطل أعجميان ، تكلمت بهما العرب (٨) ، وعده في اللسـان

---

[١] اللسان (اضا) .

[٢] الديوان (١٨ ـــ ٤٩) . الكرين بضم الكاف .

[٣] اللسان (كرا) ، والديوان ١٧٨ ، كرون بضم الكاف وكسرها .

[٤] الديوان ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٦٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

[٥] الديوان (٢١ ـــ ٤) ، كما قيل : إن اللفظة آرامية وقد يكون منها (التلمود) .

[٦] المعرب من الكلام الأعجمي ٩١ . والحماليج منافخ الصاغة ، واحدها حملوج ، وشبه قرون البقرة الوحشية بها .

[٧] الديوان (١١ ـــ ٣) ، المعرب من الكلام الأعجمي ١٩٣ ، اللسان (سطل) والعثان الدخان .

[٨] المعرب من الكلام الأعجمي ١٩٣ .

عربياً صحيحا قال : « والسطل الطسيسة الصغيرة ، والسيطل لغة فيه ، والجمع سطول عربي صحيح »(١) .

د ــ القرمد : قدرت على مثل فهن توائم   شتى يلائم بينهن القرمد(٢)

القراميد في كلام أهل الشام طابوق الحمامات ، وهي في الرومية قرميدي(٣) ، وفي اللسان : « القرمد والقرميد حجارة لها خروق ، يوقد عليها حتى إذا نضجت بني بها ، قال ابن دريد هو رومي تكلمت به العرب قديما »(٤).

٨ ــ لغة طيىء :

ومظهر آخر من مظاهر الغرابة ، في شعر الطرماح ، هذه المجموعة من المفردات الطائية ، التي تلمح فيه ، وهذا الاسلوب الطائي في اشتقاق بعض الكلمات وتركيبها مما يلوح خلال قصائده :

أ ــ عملس غارات كأن مسافه   قرى حنظب أخلى له الجو مقمح(٥)

وغدا اذ بدت له الشمس   يجتاب كثيباً أخلى له عقده(٦)

وأخلى هو أخلي (المبني للمجهول) ومثل أخلى ازدرى بمعنى ازدري .

ب ــ ازدرى : واستضلعت عقد الجماعة وازدرى   أمر الخليفة واستحل المنكر(٧).

ج ــ ظلت : آذن الثاوي ببينونة   ظلت منها كصريع المدام(٨)

---

[١] اللسان (سطل) .

[٢] الديوان (١٠ــ١٨) . الشعر والشعراء ١٥٤ .

[٣] المعرب من الكلام الأعجمي ٢٥٥ ، اللسان (قرمد) .

[٤] اللسان (قرمد) .

[٥] الديوان (٣٤ــ١) وأخلى (مبني للمجهول) العملس الخفيف الجري ، ومسافه مشم أنفه ، والقرى الظهر ، والحنظب حيوان يشبه الجمل وهو الخنفس والمقمح الرافع رأسه .

[٦] الديوان (٦٠ــ٥) العقد الكثيب من الرمل ماتراكم بعضه على بعض .

[٧] الديوان (٣ــ٢٥) .

[٨] الديوان(٢٢ــ٤)في القرآن الكريم«فظلتم تفكهون» من سورة الواقعة آية ٦٦ .

أي ظللت .

د ــ الأوفاض : كم عدو لنا قراسية العز تركنا لحما على أوفاض(١)

والأوفاض : جمع وفض ، وهي الخشبة التي يستعملها القصاب لتقطيع اللحم(٢) ، وهي لغة طائية(٣) .

هـ ــ كجبة الساج فجابابها صبح جلا خضرة أهدامها(٤)

فجاباه يفجوه اذا فتحه بلغة طيء(٥) .

و ــ عين : فأخلق منها كل بال وعين وجيف الروايا بالملا المتباطن(٦)

العين الجديد في لغة طيء ، قال الأنباري : « وطيء تقول عين للجديد »(٧).

ز ــ شجع : هل يدنيك منهم ذو مصدق شجع يجل عن الكلال ويحصد(٨)

الشجع النشيط ، يقال للذكر ، والشجع من الابل الذي يعتريه جنون(٩)، والشجع بلغة طيء الشرة(١٠) .

٩ ــ لغة ليمن ،

الرفة : حبست مناكبها السفى فكأنه رفة بناحية المداوس مسند(١١)

---

[١] الديوان (٣٤ــ٢) .

[٢] اللسان (وفض) ، الديوان ٨٦ .

[٣] الديوان ٨٦ .

[٤] الديوان (٣ــ٤٦) .

[٥] اللسان (فجا) .

[٦] الديوان (٢٧ــ٤٧) الملا الفضاء والمتباطن المتطامن .

[٧] أضداد الأنباري ٢٩٤ ،الأضداد في كلام العرب لعبد الواحد بن علي اللغوي ٥٠٠ ، والأضداد للأصمعي ٤٣ ، والأضداد لأبن السكيت ١٩٧ ، والعين من الأضداد ، يقال عين للخلق ، كالقربة التي قد تهيأت مواضع منها للتثقب من الاخلاق .

[٨] الديوان (٧ــ٣) ، يجل عن الكلام بغلظ عن الاعياء ، ويحصد يزداد شدة .

[٩] الديوان ٨٩ ، اللسان (شجع) .

[١٠] الديوان ٩٠ ، وهو الشر والحدة والنشاط والغضب والطيش .

[١١] الديوان (٤ــ٣) .

والرفة بلغة أهل اليمن التبن ، وجمعه رفات . (١)

١٠ ــ لغة حمير :

المبلت : وما ابتلت الأقوام ليلة حرة لنا عنوة الا بمهر مبلت (٢)

المبلت المضمون ، والمهر المبلت المهر المضمون في لغة حمير (٣) .

١١ ــ النبطية :

أما هذه النبطية ، التي حدثنا عنها أبو عمرو بن العلاء ، وقال : إنه رأى الطرماح بسواد الكوفة ، يكتب ألفاظها ، ويتعلمها ليدخلها في شعره (٤) ، فليس منها في ديوان الطرماح الموجود أي ظل ، وقد تكون هذه اللغة الغريبة ، التي قال عنها رؤبة ، إنها ليست من لغتي (٥) ، ولم أعرفها قسما أو ضربا من النبطية ضاع مع ماضاع من شعر الطرماح الغريب .

وكما يتبادر هذا الأمر الى الذهن ، كذلك تتبادر اليه قصة المسائل الملغزة ، التي سأل عنها محمد بن حبيب محمد بن الأعرابي فلم يعرفها (٦) ، فقد تكون من لغة النبيط فلم يسغها القوم ولم يحفظوها فضاعت .

قلت اني لم أجد للنبطية في شعر الطرماح ظلا ، إلا أن الأنباري ، يقول أثناء تعليقه على الفعل (صار) :

« إنه حرف من الأضداد ، صرت الشي إذا جمعته ، وصرته إذا قطعته وفرقته ، (فصرهن اليك)(٧) أي قطعهن » (٨) ، واستشهد ببيت الطرماح :

---

[١] الديوان ٨٩ ، السفى شوك البهمى ، المداوس حيث يداس التبن .

[٢] الديوان (٩ ــ ١١) .

[٣] الديوان ١٣٣ ، اللسان (بلت) .

[٤] الموشح ٢٠٨ .

[٥] الموشح ١٩٢ .

[٦] المزهر ٤٠٧/٢ ،الأغاني ٣٦/١٢ ، أمالي ابي العباس اليزيدي ٧٤ .

[٧] سورة البقرة آية ٢٦٠ .

[٨] الأضداد للأنباري ٣٨ .

عفائف إلاذاك أو أن يصورها هوى والهوى للعاشقين صروع[1]

وقال : « قال بعض المفسرين : صرهن معناه قطع أجنحتهن ، وأصله بالنبطية صرية ، ويحكى هذا عن مقاتل بن سليمان ، فان كان أثر هذا عن أحد الأئمة ، فانه مما اتفقت فيه لغة العرب ولغة النبيط ، لأن الله تعالى لا يخاطب العرب بلغة العجم . . »[2].

هذه ألوان من الغرابة في شعر الطرماح . لا أدعي أني استقصيت نماذجها لكنها ــ فيما أعتقد ــ كافية لأن تعطينا صورة واضحة عن طبيعة الغرابة في لغة هذا الشاعر . ومن الواضح أن الأصمعي وأبا عبيدة وابن قتيبة وسواهم ، كانوا ينكرون شعر الطرماح ، ولا يحتجون به ، بسبب هذه الظواهر وأشباهها .

---

[1] الديوان (١٣ ــ ٣٤) .

[2] الأضداد ٤٨ ، وواضح ، مهما يكن من شيء : أن « صرى » مادة عربية أصيلة من « التصرية » كما يدل على ذلك سياق الآية الكريمة « وصرهن إليك ، أي « اجمعن اليك » ، سورة البقرة آية ٢٦٠ .

الفصل الرابع

مظاهر البيئة القروية وآثارها

في أسلوبه

أولا ـ الحيوان :

وصف الطرماح الحيوان وصفاً كثيراً وجديداً ، فيه دقة وفيه استقصاء ، واهتم به اهتماماً بالغاً ، خلال موضوعاته وفنونه المختلفة . فقد وجـدت أنه ذكر أكثر من ستين نوعاً من الحيوانات ، بأسماء وصفات مختلفة ، غريبة وشائعة . وصف بعضها مرات كثيرة ، واهتم بها جملة اهتماماً غريباً ، فضلاً على وصفه التقليدي للبعير والناقة وحيوان الوحش ، خلال موضوعاته التي يجاري فيها شعراء الجاهلية . وتلك ظاهرة تستلفت الانتباه وتدعو للتأمل وتقتضي الدراسة .

ولابد لمن يصف الحيوان هذا الوصف ، ويستقصي فيه هذا الاستقصاء ، أن يكون قد لاحظ الحيوانات عن كثب وبكثرة ، واعتاد رؤيتها ، حتى أصبحت بالنسبة اليه شيئاً مألوفاً .

ولا يتيسر كل ذلك إلا لهؤلاء القرويين ، الذين لابسوا حياة الريف ، وألفوا مظاهره ، فحياة الريف تتيح للانسان هذه الملاحظة الدقيقة ، وتيسر له هذه الألفة الكبيرة .

يسرت حياة الطرماح الريفية ، في قرى الكوفة وسوادها له ، أن يألف الحيوان ، ويعرف أحواله وصفاته ، ودقائق حياته ، وهيأت له أن يصف وصفاً دقيقاً ، فيه استقصاء وفيه أصالة .

فنحن نراه يذكر النحل في مواضع متعددة من شعره ، وهل يتهيأ لشاعر بدوي ، أن يصف النحلة كما فعل الطرماح ، حين دقق في وصف أجزاء جسمها ؟ فهي مخصرة البطن ، دقيقتها ، عارية الأطراف ، بشعة الرأس قبيحة . وهل يتيسر له أن يذكر عملها العسل ، والخلايا النحلية ، كما ذكرها ؟ حين قال :

مخصرة الأوساط عارية الشوى ... وبالهام منها نظرة وشنوع[1]

---

[1] الشوى السوق ، والشنوع القبح .

إذا ما تأرت بالخلي بنت به شريجين مما تأتري وتتبع(١)

والجاهليون وصفوا الحيوان ، كالناقة والظبي ، وسواهما . وذكروه في قصائدهم ، كما وصفوا الحيوان الوحشي ، وكان أكثر ذلك يجري حين يصف الشاعر الجاهلي راحلته ، ثم يعمد الى تشبيهها بحيوان الوحش ، ويستطرد الى وصفه وصفاً شاملاً(٢) . فهو على ذلك وصف عرضي ، غير مباشر ، وقد يكون بعضه غير مقصود . أما وصف الطرماح فانه نوعان :

١ ـ وصف تقليدي ، اتخذ فيه الشعراء الجاهليين مثلا احتذاهم فيه . فوصف الناقة والبعير ، وشبههما بحمار الوحش ، وذكر الظباء ، وجرى في كل ذلك مجرى شعراء الجاهلية .

٢ ـ وصف جديد ، فيه أصالة ، وفيه صدق وإبداع ، وفيه أثر من آثار البيئة القروية . والجديد في هذا الوصف أمران :

أولهما : أنه ذكر من الحيوان الكثير ، ووصف الكثير ، وتعدى وصف البعير والناقة وحيوان الوحش وكلاب الصيد ، الى النحل والضباب والغربان والنعام (ذكورها وإناثها وفراخها) ، والحمام والخنافس والبوم والهام والنسر والسبع والنعاج والخراف والسخلان واليرابيع والحراقيص والبراغيث والقمل والقراد والحيات وأم حبين(٣) والقنفذ والثعلب والذئب والعقاب

---

[١] الديوان (١٦ ، ١٧ ـ ٣٤) ، تأرت عملت العسل ، تأتري تعسل ، وتتبع تقيء العسل ، والشريجان لونان مختلفان من كل شيء ، يعني العسل والشهد .

[٢] يقول بروكلمن « . . . وبحق يقرر نولدكة أن شعراء العرب لم يكرروا دائماً إلا وصف المها ، والعير ، من حيوان الوحش ، أما غيرهما فلم يذكروه أصلاً ، أو ذكروه نادراً بايجاز ، وكان وصف الحيوانين الأولين يعد من لوازم الأسلوب الذي اعتمده أئمة الفحول ـ تاريخ الأدب العربي ٦٠ »

[٣] أم حبين دويبة أصغر من الحرباء ، كدرة السراة ، بيضاء البطن قيل لأعرابي ما تأكلون ؟ قال ما دب ودرج ، غير أم حبين ـ محاضرات الأدباء ٦٨٤/٤ .

والحوت الدلفين (الدخس)(١) والجنادب والفراش والذباب والبراذين والظباء والقطا والجعل والحرباء وسواها .

وثانيهما : أنه إذ يصف هذه الحيوانات ، يستقصي في الوصف ، ويبالغ فيه ويدقق في ذكر أجزاء جسمها وأعضائها . ونستطيع بسهولة ويسر ، أن نلمس آثار العقلية القروية ، التي تلاحظ الجزئيات وتدقق فى الملاحظة ، كما نلمس البساطة والسذاجة القرويتين ، في أثناء هذا الوصف ، فهو يلاحق الحيوانات الصغيرة في جحورها ومكامنها ليصفها أو يصف بعضها ، وهو في دور الاستحالة . وهو يعرض للجنادب ولحاقها ، والضباب والحيات وخروجها من سباتها ، إذ يقبل الربيع فيبعث الحياة في الطبيعة .

ولنقرأ بعضا من وصفه للحرباء والجنادب والذئب ، لنلاحظ كيف يصفها ، وكيف تزدحم بها صوره الشعرية :

وقد عقل الحرباء واصطهر اللظى ... جنادب يرمحن الحصى كل مرمح(٢)

يشلن إذا اعرورين واستوقد الحصى ... ولسن على تشوالهن بلقح

بمستوجف الأرطى كأن جروسه ... تداعي حجيج رجعه غير مفصح(٣)

وينتقل الى وصف الذئب ، ثم يدقق في وصفه ، ويذكر حياته في هذا القفر ، ويصف خفته ، ويشبهه لسرعته ، بظل السحابة الرقيقة ، ويصف لونه مشبهاً إياه بلون الصنم ، لطخ رأسه بدماء الذبائح ، التي يهديها الجاهليون لأصنامهم ، ويشبه سواد أنفه بظهر الخنفس الكبير ، ويستطرد الى وصف قوة جسمه ، وصفاً فيه استقصاء وتدقيق :

يحيل به الذئب الأحل وقوته ... ذوات المرادي من مناق ورزح(٤)

---

[١] الدخس من دواب البحر ، ويقال هو الدلفين ـ المسلسل ١١٨ .

[٢] إذا صعد الحرباء شجرة أو صخرة فقد عقل عليها ، والجندب الجراد الذي لم يطر ولم يكتف .

[٣] الأرطى شجر ثمره كالعناب ، واحدته أرطاة .

[٤] يحيل يقيم حولاً ، والأحل الذي في رجله عوج ، وذوات المرادي =

إذا استترت منـــه بكل كداية من الصخر وافاها لدى كل مسرح(١)
عملس غارات كأن مسافـــه قرى حنظب أخلى له الجو مقمح(٢)
كلون الغري الفرد أجسد رأسه عتائر مظلوم الهـــدي المذبح(٣)
إذا امتل بوي قلت ظل طخـــاءة ذرى الريح في أعقاب يوم مصرح(٤)
وإن هو أقعى خلته من أمامه على حاله ما لم يزل جذم مسطح(٥)
بمنتـــاط ما بين النيـــاطين موره من الأرض يعلو صحصحا بعد صحصح(٦)

هذا وصف جديد ، فيه حركه وحياة ، وفيه صورة واضحة للذئب ، وهو — بعد ذلك — وصف مقصود ، يختلف عن وصف الجاهلية .

ويبلغ من دقة وصف الطرماح ، أنه يعتني بالأجزاء الدقيقة من جسم الحيوان الصغير ، يقول :

يلاوذن من حر كأن أواره يذيب دماغ الضب وهو ختوع(٧)

ويقول في وصف الحيوانات الصغيرة ، وقد ودعت الربيع واستقبلت الحر الشديد :

حتى إذا صهب الجنادب ودعت نور الربيع ولاحهن الجدجد(٨)

= الضباب التي تردى بالمرادي ، وهي الصخور واحدتها مرداة ، والمناقي السمان ،والرزح المهازيل .

[١] الكداية ماصلب من الأرض .

[٢] العملس الخفيف الجري ومسافه مشم أنفـــه ، والقرى الظهر ، والحنظب الخنفس الكبير ، والمقمح الرافع رأسه .

[٣] الغري حجر ينصب يلطخ بالدماء ، وأجسد لطخ رأسه بالـــدم ، والعتائر جمع عتيرة ، وهي الذبائح التي كانوا يذبحونها لأصنامهم .

[٤] أمتل عدا ، والطخاءة السحابة الرقيقة ، ويوم مصرح ذهب السحاب عنه .

[٥] الجذم الأصل ، والمسطح صفاة عريضة محاطة بحجارة يستنقع فيها الماء .

[٦] المنتاط المعلق ، والنياطان أقصى الأرض وأدناها .

[٧] الديوان (٧ ـ ٣٤) ، ختع هرب من الحر ، وختوع هارب .

[٨] الجدجد الحر .

وتجرد الاسروع واطرد السفا   وجرت بجاليها الحداب القردد(١)
وانساب حيات الكثيب وأقبلت   ورق الفراش لما يشب الموقد
كم دون إلفك من نياط تنوفة   قذف تظل بها الفرائض ترعد
فيها ابن بجدتها يكاد يذيبه   وقد النهار اذا استذاب الصيخد(٢)
يوفي على سوق الجذول كأنه   خصم أبر على الخصوم يلندد(٣)
أو معزب وحـــد أظل أفائلاً   ليلاً فأصبح فوق قرن ينشد(٤)

وملاحظة أثر الفصول في هذه المخلوقات الصغيرة ، أمر جـــديد في في الوصف دون أدنى شك ، فهي تودع نور الربيع ، فيلوحها حر الصيف ، فتضطرب له ، وتتكيف لاستقباله .

ونجده في هذا الوصف يذكر مجموعة غير قليلة من الحيوانات ، في أبيـــات عدة ، فالمقطوعة مزدحمة بذكر صهب الجنادب ، وورق الفراش بل بذكر بعضها ، وهو في دور الاستحالة وبذكر حيات الكثيب المنسابة .

وهذا الاهتمام بالحيوانات الصغيرة ، والتدقيق في وصف أعضاء أجسامها ينم عن دقة في الملاحظة والاستقصاء ، وينبيء عن احساس ذكي لماح بالاشياء والعلاقات ، فضلاً على كونه أثراً من آثار الحياة القروية .

وخصيصة دقة الملاحظة والاستقصاء ، في وصف الحيوان ، نلحظها بيسر في اسلوب الطرماح ، وهي تلازمه في أكثر موضوعاته الشـــعرية ، وقد أعانته اعانة بالغة في هجائه . فهو يتخذ من القملة والبرغوث والنملة والعنكبوت والحرقوص واليربوع والعصفور ، مادة يبني منها موضوعا شعريا جيدا ، في هجاء

[١] الأسروع دويبة تنسلخ فتصير فراشة ، والحداب القردد ماارتفع وغلظ من الارض ، والجالان الجانبان .
[٢] يقال للخبير بالشيء والحاذق به هو ابن بجدته ، وهو من بجد بالمكان اذا اقام به وسمي به الحرباء للزومه القفار .
[٣] البلندد الشديد الخصومة .
[٤] المعزب طالب الكلأ والأفائل جمع أفيل وهو الفصيل .

تميم والفرزدق ، يقول :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة   يكر صفي تميم لولت (١)
ولو أن حرقوصا يزقق مسكه   اذاً نهلت منه تميم وعلت(٢)
ولو أن أم العنكبوت بنت لها   مظلتها يوم الندى لأكنت(٣)
ولو أن عصفورا يمد جناحه   لقامت تميم حوله واستظلت(٤)

وهو يتخذ من أم حبين ، مادة يهجو بها بني سعد حين يشبههم بها :

كأم حبين لم يرا الناس مثلها   وغابت حبين حين غابت بنو سعد(٥)

ومن الدلفين يتخذ مثلاً ، يسب به الفرزدق :

فكن دخساقي البحر أو جزورواه   الى الهند إن لم تلق قحطان في الهند(٦)

ويشير من طرف خفي الى الكلب ، يشبه به بني تميم ساخرا :

لاتأمنن تميمياً على جسد   قد مات مالم تزايل أعظم الجسد(٧)

وفي وصف الطرماح للحيوان ، نجد أغرب الاسماء والصفات ، فضلا على الاستقصاء في الوصف ، والغرابة في التشبيه ، فهو يسمي الحيوانات بصفاتها ونعوتها ، ويستعمل أغرب الألفاظ في ذلك ، يستعمل القمع الذبان :

تقمع في أظلال مخنطة الجنى   صحاح المآقي مابهن قموع(٨)

---

[١] ويروى نملة ، والأبيات من القصيدة الحادية عشرة .

[٢] ويروى يربوعا ، أي يعمل من جلده زقا ، والمسك الجلد .

[٣] أكنت استترت واحتمت .

[٤] البيت غير موجود في الديوان ، رواه صاحب العقد (الاستقامة ١٣١/٦) .

[٥] الديوان (١٥ ــ ١٩) ، وأم حبين دويبة أصغر من الحرباء كدرة السراة بيضاء البطن ، وقيل لأعرابي : ما تأكلون ؟ قال ما دب ودرج الا أم حبين . فقال لتهن أم حبين العافية انظر محاضرات الأدباء ٦٨٤/٤ .

[٦] الديوان (٧ ـ ١٩) ، المسلسل في غريب لغة العرب ١١٨ .

[٧] الديوان (١٣ ــ ٢٠) .

[٨] الديوان (٦ ــ ٣٤) والقمع ضرب من الذبان .

والكوادن صفة للبراذين :

يساقطها تترى بكل خميلة كبزغ البيطر الثقيف رهص الكوادن(١)

والشيذمان اسما من اسماء الذئب :

على الحولاء يطفو السخد فيها فراها الشيذمان عن الجنين(٢)

والساق ذكراً للحمام :

بين أظآر بمظلومة كسراة الساق ساق الحمام(٣)

والطمل وهو الذئب الأطلس الخفي الشخص نراه في شعره :

أطاف بها طمل حريص فلم يجد بها غير ملقى الواسط المتباين(٤)

و: صادفت طملاً طويل الطوى حافظ العين قليل السأم(٥)

وحماش الشوى ، أي دقائق السوق ، يستعملها صفة للديكة :

---

[١] الديوان (٤٤ــ٤٧) . الرهص جمع رهصة وهي كالوقرة في حافر البرذون، والبزغ الشرط ، والكوادن البراذين .

[٢] الديوان (٢٨ــ٤٩) ، الحولاء الجلدة التي تخرج على رأس الولد ، والسخد ماء أصفر يكون في الحولاء .

[٣] الديوان (٤ــ٤) والبيت مختل الوزن . والمظلومة الأرض التي لم يصبها الغيث ولا رعي فيها للركاب وسراة الشيء ظهره ووسطه . والبيت الذي قبله :

وخصيف اللون جادت به مرخة من مخدج أو تمام

شبه الرماد بظهر الحمامة في خضرته ، والخصيف الرماد والمرخة شجرة يتخذ منها الزند والمخدج المعجل وهو ما لم تتلعق به النار ، وتمام ما تم منه حتى صار رماداً .

[٤] اللسان (طمل) ، الديوان (١٩ ــ ٤٧) ، المعاني الكبير ١٩٠ ، الشعر والشعراء ٦٣ .

[٥] الديوان (٧١ ــ ٤) .

اذا صاح لم يخذل وجاوب صوته حماش الشوى يصدحن من كل مصدح(١)

والثول ، لجماعة النحل . والخشرم ، للخلية المتبددة وللنحل أيضا

يستدرن الأحراج كالثول والحرج لرب الصبود يصطفده(٢) .

و : صعر السوالف بالجراء كأنها خلف الطريدة خشرم متبدد(٣)

ويصف ذكر الدراج ، بالحيقطان ، والقطا بالهوذ :

من الهوذ كدراء السراة وبطنها خصيف كلون الحيقطان المسيح(٤)

والدلفين ، بالدخس :

فكن دخساً في البحر أو جز وراءه الى الهند ان لم تلق قحطان في الهند(٥)

وينعت القنفذ ، بالأنقد وبالعجاهن :

فبات يقاسي ليل أنقد دائباً ويحدر بالقف اختلاف العجاهن(٦)

ويطول بنا الحديث ، لو أردنا إيراد الشواهد على ذلك ، ونكتفي بايراد مجموعة من الصفات والأسماء الغريبة ، التي استعملها في وصفه الحيوان :

استعمل العنبقاة للعقاب ، والهجق للظليم ، والكسب للكلاب ، ولعوة للكلبة ، والحفان لفراخ النعام ، والنغضة للنعامة ، والقراشيم للقراد الضخم ، والعل للقراد المهزول ، والضراء ، للكلاب ، وذا أدواى للقطا ، وذوات المرادي للضباب ، والشاحج للغراب والصيدن للثعلب ، والمضرحية للنسور (في أربعة في مواضع) ، واليعفور للظبي ، والذرة للنملة الصغيرة ، والشنع للحمير

---

[١] الديوان (٤ ــ ١) .

[٢] الديوان (٦٣ ــ ٥) . الأحراج وأحدها الحرج وهو نصيب الكلب من الطريدة التي يصيدها ، والثول جماعة النحل ولا واحد له ويصطفده يأخذه .

[٣] الديوان (١٧ ــ ٣) .

[٤] الديوان (٥٠ ــ ١) .

[٥] الديوان (٧ ــ ١٩) ،

[٦] الديوان (٣٥ ــ ٤٧) .

الدقاق السوق ، وساق حر لذكر القماري والحمام(١) ، والأحل للذئب الأعرج ، والأزل له أيضا ، والعملس للذئب الخفيف الجري وللكلب ، والشودح للناقة الطويلة والشناحي والقوداء للناقة الطويلة العنق ، والسبتاة والسبنداة للناقة الجريئة ، والعوسرانية والشامذة للناقة التي ترفع ذنبها نشاطاً ، والصتع للحمار الصلب الرأس ، والعوهج للظبية الطويلة العنق ، والهلواعة للناقة السريعة ، والعنسل للناقة التي تهملج في مشيتها ، والعقيل والعقيلة للثور واناه ، والشمهد للكلبة الحديدة النفس ، والعولق للكلبة الشديدة الحرص ، والحقباء للأتانة التي في موضع الحقب منها بياض ، والحر للأبيض من الحيات ، وذات شنفارة للناقة ذات الحدة ، وابن الفلاة وابن بجدتها للحرباء ، وحمش الظنابيب للنعام الدقيق الساقين ، والمرغنات للكلاب المطيعة ، وأخلج الشدق للكب الواسع الشدق ، والسلعام كذلك ، وقد يستعمله صفة للكلب الطويل ، والدوامك للطيور المسرعة ، وذب رياد والهبرقي للثور الوحشي ، والخشاش للثعبان العظيم ، والحوزي لبقر الوحش المتوحد ، والأنقد للقنفذ ، والشواحن للكلاب اذا أبعدت ولم تصد ، وقمطر الرجل للكلب اذا كان به عقال من اعوجاج ساقيه ، والشرنبث للكلب الغليظ الكفين ، والشنون للذئب الجائع ، والأخنس للثور ، وقد استعمل كل صفة أو اسم من هذه الصفات والأسماء في أكثر من موضع .

ومما يلاحظ في وصفه هذا ، ان الحيوانات التي ذكرها فيه أو وصفها ، هي من حيوانات الريف ، مما يألفه القرويون . كما يلاحظ ، أنه يشغل جزءاً كبيراً من وصفه للطبيعة

وقد ذكرنا أننا نلمس في هذا القسم الدقة والاستطراد والعناية بالجزئيات والأشياء البسيطة ، مما يصور سذاجة الريفي .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ، أن بعضا من موضوع الحيوان في شعر الطرماح ذو أهمية خاصة ، استخدمه للتعبير عن شعور معين تجاه الحياة ، ذلك هو (الطرد) وقد اعددت فيه فصلا خاصا .

---

[١] أمالي الزجاجي ٨٢ ذكر بيتاً فيه ساق حر .

ثانيا ــ مشاهد الحياة الريفية في شعر الطرماح :

وخلال وصف الطرماح وفي أثناء وصفه للحيوان بخاصة ، نلمس مظاهر الحياة الريفية وملامحها ، ونجد صور الطبيعة القروية ونعيش جو الريف ، فنرى المزارع والنخيل والأشجار المختلفة ، والجداول والخمائل ، ونسمع هذه الألفاظ ، التي يتداولها المزارعون والفلاحون وأبناء القرى ، والتي تتعلق بشؤون الزراعة والحصاد وجني الثمار فهو يذكر لقاح النخل كما يذكر العذوق المحملة :

نخل القرى شالت مراجيحه	بالوقر فانزالت بأكمامها (١)
شم الأعالي شائك حولها	شعران مبيض ذرى هامها (٢)
تظل بالأكمام محفوفة	ترمقها أعين جرامها (٣)

وهو يذكر هذه العذوق ، ويذكر النخل وأصنافها ، غيرمرة :

عنسل تلوي اذا أبشرت	بخوافي أخدري سخام (٤)
أو بشمل شال من خصبة	جردت للناس بعد الكمام (٥)
ألحقت ما استلعبت بالذي	قد أنى إذ حان حين الصرام (٦)

[١] الديوان (٤ ، ٥ ، ٦ ــ ٤٦) ، نخيل مراجيح أذا كانت مواقير ، وانزالت تدلت أكمامها ، حين ثقلت ثمارها .

[٢] شعران اسم جبل بالموصل ، سمي بذلك لكثرة شجره .

[٣] الأكمام جمع كم وهو وعاء الطلع ، والجرام الذين يصرمون الثمر ، من الجرم ، وهو القطع .

[٤] الديوان (٣٩ ، ٤٠ . ٤١ ـ ٤) العنسل الناقة السريعة ، وأبشرت اذا رفعت ذنبها للقاح ، أي بشرت ، والأخدري العقاب ، والسخام الريش الأسود ، شبه ذنب بذنب العقاب الكثير الريش الأسود .

[٥] ثم شبهه بعذق نخلة دقلة ، والشمل واحد الشماليل ، وهو عذق فيه قليل من حمله ، والخصبة النخلة الدقلة ، والكمام أن تجعل العناقيد في الأغطية الى حين صرامها .

[٦] الاستلعاب الحمل الثاني ، وفي الشجرة بقية من الحمل الأول والصرام الجداد .

ويقول ، وهو يصف حمراً وحشية :

فهي ملس كعجيم النوى ... تر من عرض نواحي الجرام(١)

أخلفتهن اللواتي الألى ... بالمقاني بعد حسن اعتمام(٢)

ويذكر أنواعا اخرى من الأشجار ، التي تكثر في المناطق الزراعية، ومنطقة سواد العراق بخاصة ، فقد ذكر الى جانب النخيل ، الذي تشتهر منطقة الفرات الأوسط بزراعته ، أشجار السدر :

ظللنا بذات النعف بين عماية ... وخبرائها طلحي هوى مانريمها

تحن بأعلى الهيج ذي السدر ناقتي ... لعرفان دار قد أحالت رسومها(٣)

وصور الطبيعة الريفية ، بورودها وأقاحيها ونوارها ، ونباتاتها وأغصانها الملتفة ، وثمارها المتنوعة ، ومياهها الجارية ، تشيع في شعره ، يقول :

إني امرؤ لك لالغيرك ماأني ... منكم أشيم مصاوب الأمطار

ولقد عرتني منك جدوى أنبتت ... خضراً الى لفف من الأشجار

حتى تركت جنابهم ذا بهجة ... ورد الثرى متلمع الثمار(٤)

ويقول: عقائل رملة نازعن منها ... دفوف أقاح معهود ودين(٥)

---

[١] الديوان (٦٣،٦٤ ـ ٤) عجيم النوى ما مضغ وما اكل منه ، والجرام ماجرم من النخل ، وهو الصرام .

[٢] المقاني الأمكنة التي تصيبها الشمس ، واحدها مقنوءة ، واللواتي واحدتها لوية ، وهي آخر ما يبقى من العشب إذا يبس ، واعتم النبات إذا طال .

[٣] الديوان (٨،٧ ـ ٦) ، الخبراء قاع ينبت السدر ، والهيج الأرض التي يكثر فيها السدر . والنعف ما انحدر من الجبل الى الأرض وعماية جبل .

[٤] الديوان (٨،٧،٦ ـ ٣٠) ، والثمار الثمر .

[٥] الديوان (١٢ ـ ٤٩) وودين بمعنى مودون أي مبلول ومنقوع ، وقيل الواو في ودين للعطف ، والدين نوع من المطر ، وقال الأزهري عن التفسير الأخير : إنه خطأ والواو في ودين هي فاء الفعل (اللسان ـ ودن) .

و : حتى اذا صهب الجنادب ودعت ··· نور الربيع ولاحهن الجدجد(١)

وصور الطبيعة هذه ، غير مقصورة على غرض دون آخر ، فنحن نجدها في موضوعات المدح والهجاء والفخر كما نجدها في موضوعات الوصف والصيد ، إلا أنها أكثر وأظهر خلال قصائد الوصف وأثناء وصف عملية الصيد ، وهذه نماذج أخرى من هذه الصور ، التي تتضح فيها مشاهد الريف ومظاهر حياته ، يقول :

تذكرني ليلى وليلى مليمة ··· حمائم سرحات تسامى خصومها(٢)
و : وترى العين فيها من لدن متع الضحى ··· الى الليل في الغيضات وهي هكوع
تقمع في أظلال محنطة الجنى ··· صحاح المآقي ما بهن قموع(٣)
و : عشار وعوذ شيعت طرفاتها ··· أصول لها مستكة وفروع(٤)
و : ومخاريج من شعار وغين ··· وغماليل مدجنات الغياض(٥)
و : تميم تمنى الحرب ما لم تلاقها ··· وهم قصف العيدان في الحرب خورها(٦)

---

[١] الديوان (٣ ــ ٦) ، تسامى ترتفع ، وخصومها أصواتها ، وسرحات جمع سرحة وهي شجرة .

[٢] الديوان (٥،٦ ــ ٣٤) والغيضات جمع غيضة ، وهي الأجمة أي الشجر الكثير الملتف والهكوع المستظلة ، وتقمع تطرد عنها القمع ، وهو الذبان ، والمحنطة الجنى الناضجة الثمر ، يقال للشجر إذا أدرك ثمره أحنط .

[٣] الديوان (١٨ ــ ٣٤) ، المستكة الملتفة ، إذا اشتد خصاص النبت قيل استك ، والعوذ الحديثات النتاج من الظباء وكل اثنى ، والطرفات التي تطرف المرعى هنا وهناك ، والعشار التي مضى لحملها عشرة أشهر .

[٤] الديوان (٢٠ ــ ٢) ، المخاريج أمكنة يكثر فيها الشجر وكذلك شعار يقال أرض ذات شعار إذا كثر شجرها ، والغين الشجر الملتف ، والغماليل وأحدها غملول وهو كهيئة السكة في الأرض كثير النبات والغياض مجتمع الشجر .

[٥] الديوان (٢ ــ ٣١) ، قصف سريع الانكسار .

ومن ملاحظة معاني هذه المجموعة من الألفاظ ، التي وردت في الأمثلة السابقة : مثل المراجيح واتزالت والأكمام والجرام والشمل والخصبة والكمام واستلعبت والصرام واللواتي والمقاني والاعتمام والخبراء واللفف والثمار والسرحات والغيضات والغياض والمحنطة والمستكة والمخاريج وشعار والغين والعماليل وقصف وشاجنة ، يتبين لنا مدى قروية معانيها ، ومن ثم فلا يمكن أن يتهيأ لشاعر غير قروي ، أن يلم بدقائق مدلولاتها ومعانيها ، ولا يتيسر له أن يستعملها بكثرة ودقة كما استعملها الطرماح .

وإذا عرفنا أن صاحب اللسان والعلماء الذين يعول عليهم ، لم يجدوا ما يستشهدون به على معاني بعض هذه الألفاظ وأمثالها غير أبيات الطرماح ، تبين لنا مدى تأثره بالبيئة الزراعية .

ومن مظاهر البيئة القروية في شعره ، وصفه لصناعة العسل ، وذكره للنحل في مواضع كثيرة من قصائده ، من ذلك قوله :

وما جلس أبكار أطاع لسرحها ... جنى ثمر بالواديين وشوع
مخصرة الأوساط عارية الشوى ... وبالهام منها نظرة وشنوع
إذا ما تأرت بالخلي بنت به ... شريجين مما تأتري وتتيع(١)

ويقول مخاطباً ابنه :

وإن كنت عندي أنت أحلى من الجنى ... جنى النحل أضحى واتنا بين أجبح (٢)

وقد ذكرت أنه شبه كلاب الصيد المنتشرة خلف الطريدة بالنحل في موضعين .

ونلاحظ أن شعره هذا يصطبغ بألوان الريف المستمدة من شمسه الساطعة ، وحقوله الخضر والصفر ، وأشجاره الملونة الأوراق والأزهار والأثمار .

وهذه الألوان المعهودة في الحقول ، غير مقصورة على صور الوصف بل

---

[١] الديوان (١٥ ، ١٦ ، ١٧ — ٣٤) ، الجلس العسل أو الشديد منه . وتأرت عملت بالعسل وتأتري تعسل ، وتتيع تقيء العسل .

[٢] الديوان (١٨ — ٤) واتن مقيم .

نجدها تشيع خلال موضوعاته المختلفة ، كما رأيناها شائعة خلال وصفه لمظاهر الطبيعة . نلاحظ أنه ولوع بالألوان : الأخضر والأحمر والأصفر ، يصبغ بها صوره ، يقول :

ولقد عرتني منك جدوى أنبتت   خضراً الى لفف من الأشجار(١)

ويقول :

كحبة الساج فجا بابها   صبح جلا خضرة أهدامها(٢)

و : فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن   على شرجع يعلى بخضر المطارف(٣)

ويقول :

تجنبها الكماة بكل يوم   مريض الشمس محمر الحواني(٤)

ويقول :

طوف متلي نذر على نصب   نصب دوار محمرة جدده(٥)

ثم يقول :

وردة إذ هاج صنبرها   تحت شفان شبأ ذي سجام (٦)

و : كل مشكوك عصافيره   قانيء اللون حديث الدمام (٧)

---

[١] الديوان (٧ — ٢٩) .

[٢] الديوان (٣ — ٤٦) .

[٣] الديوان (٣ — ٣٥) .

[٤] الديوان (٤ — ٣٦) .

[٥] الديوان (٥٤ — ٥) ، معاني الشعر ٧٤٥ ، متلي نذر مقضي نذر ، ودوار صنم وجدده طرائقه .

[٦] الديوان (٤٧ — ٤) . أراد بالوردة حمرة السماء والصنبر البرد ، والشفان ريح باردة والشبا الباردة ، والسجام المطر السائل .

[٧] الديوان (٢٤ — ٤) ، يصف رحلاً أدخل بعضه في بعض ، والعصفور العود الذي يدخل في رأس القتب ، والقانيء الأحمر والدمام مأخوذة من دمه أي لطخه بالحمرة حتى يصير كلون الدم .

و : ذات أوضان حجازية زان ألحيها أحمرار العظام(١)

و : كأنها خاضب غدا هزجا ينقف شري الدنا ويختضده(٢)

ومن ذلك :

قطا قرب تروح عن فراخ نواهض بالفلا صفر البطون(٣)

و : أنامت غريراً بين كسري تنوفة من الأرض مصفر الصلا لم يرشح(٤)

ولاشك في أن تنقله الكثير ، واضطرابه بين أقطار الدولة ، هيأ لاحساسه أن يغنى بألوان الطبيعة ، ويتجلى ذلك في ولعه بالألوان البراقة ، فقد صبغت مشاهد الطبيعة ومناظرها شعره بألوانها الساطعة المشرقة . فحيثما أجلنا البصر في شعره ، لاحت لنا الألوان المذهبة والبراقة والصهباء والبيضاء والفضية ، ويبدو ذلك جلياً مع ملاحظة النماذج التالية من شعره :

وقام المها يقفلن كل مكبل كمارص أيقا مذهب اللون صافن(٥)

و : بخدود كالوذائل لم يختزن عنها ورى السنام(٦)

و : كمت تشبهها عتاق قرائن السبت العواطل(٧)

---

[١] الديوان (٢٧ ــ ٤) الأوضان النسع التي تشدبها الرحل وزان الحيها زان عراها ، وعظام الرحل عيدانه .

[٢] الديوان (٤٧ ــ ٥) ، والخاضب النعام الذي أكل الربيع فاحمرت شفتاه وينقف يكسر ، ويختضده يكسره أيضاً ، والدنا أرض .

[٣] الديوان (٩ ــ ٤٩) .

[٤] الديوان (٣ ــ ٥٨) الصلا وسط الظهر .

[٥] الديوان (٢ ــ ٤٧) المكبل الهودج ورص قيد والزق والأبق الرسغ .

[٦] الديوان (٣١ ــ ٤) الوذائل سبائك الفضة . وورى السنام سمينه .

[٧] الديوان (١ ــ ٧٠) ، المعاني الكبير ٤٩٢ ، كمت جمع كميت ، والكميت الأحمر الداكن ، والعتاق الكرام ، والعواطل التي لاشرك عليها ، والسبت جلد البقر المدبوغ ، شبه الرحال بالنعال المصنوعة من الجلد المدبوغ ، وهي نعال لينة ذات جلد طري .

و : حتى اذا صهب الجنادب ودعت — نور الربيع ولاحهن الجدجد(١)

و : حتى تركت جنابهم ذا بهجة — ورد الثرى متلمع الثيمار(٢)

و : شم الأعالي شائك حولها — شعران مبيض ذرى هامها(٣)

و : يزيد غدا في عارض متألق — مرته الصبا واستنصته دبورها(٤)

و : مغزلا تحنو لمستوسن — ما ثل لون القضيم التهام(٥)

وقد تصرف في هذه الألوان ، فما زجها في صوره الشعرية ، وعرضها مختلطة ومتقابلة ، وتفنن في تشكيلها وتوزيعها : قال يصف هوادج البست الكتان ، وادبرت حولها ثياب ملونة كأنها قوس السحاب :

ذات أوضان حجازية — زان ألحيها احمرار العظام

قنع الانصاف منها العلى — فهي غر بالخنيف الشآم(٦)

وادبرت حفف تحتها — مثل قسطاني دجن الغمام (٧)

وقال يصف ثوراً أبيض في قوائمه سواد ، فكأن قطعة حريرية بيضاء في حواشيها دارات سود أديرت على ظهره ، فتدلت حواشيها على قوائمه :

يقق السراة كأن في سفلاته — أثر النؤور جرى عليه الاثمد(٨)

[١] الديوان (١١ — ١٨) الصهبة أن يعلو الشعر حمرة وأصوله سود ، وقيل أن يخالط بياضه حمرة .

[٢] الديوان (٧ — ٣٩) .

[٣] الديوان (٥ — ٤٦) .

[٤] الديوان (١ — ٣١) .

[٥] الديوان (١٥ — ٤) المغزل الظبية معها غزالها ، والمستوسن النائم والقضيم الصحيفة البيضاء ، شبه ولدها لشدة بياضه بالصحيفة .

[٦] الأبيات من القصيدة الرابعة ، وقنعت ألبست والخنيف ثياب الكتان .

[٧] الحفف جمع حفاف أي يحفون حول الهوادج ثياباً مثل الأزر ، فهي من كل لون ، والقسطاني قوس الله .

[٨] الديوان (١٠ ، ١٥ — ٣) يقق السراة أبيض الظهر .

وكأن قهزة تاجر جيلت له لفضول أسفلها كفاف أسود(١)

وقال يصف الثور ، في لونه لمع :

كعقيل الحسر في لونه لمع كالشام من غير شام(٢)

خلط وشي مثلما هلهلت ذات أصداف تؤور الوشام(٣)

و : يفجأ الذئب بها قائماً أبرق النحر أحم اللثام(٤)

و : مثل ما عاينت قبل الشفا واضح العصمة أحوى الخدام(٥)

واستعمل كلمة الخصيف بكثرة ، وفي اللسان « الخصيف لون كلون الرماد . ورماد خصيف فيه سواد وبياض ، وربما سمي الرماد بذلك »(٦) . قال :

وخصيف لدى مناتج ظئرين من المرخ أتأمت زنده(٧) .

و : خصيف اللون جادت به مرخة من مخدج أو تمام(٨)

و : من الهوذ كدراء السراة وبطنها خصيف كلون الحيقطان المسيح(٩)

واستعمل اللون الأصحم ، وهو لون بين السواد والصفرة :

---

[١] القهزة الحريرة البيضاء ، وكفاف دارات .

[٢] الديوان (٤٢ ، ٤٣ ـ ٤) العقيل الثور والحسر الرمل واللمع سواد وبياض .

[٣] هلهلت خلطت .

[٤] الديوان (٣٥ ـ ٤) أبرق فيه سواد وبياض ، وأحم أسود .

[٥] الديوان (٩ ـ ٤) واضح العصمة أبيض اليدين ، وأحوى الخدام أسود الرجلين .

[٦] اللسان (خصف) . كما استعمل اللون الأخرج ،« والخرج لونان سواد وبياض ـ اللسان ، خرج » أنظر البيتين (١٣ ـ ١٧) و (٥ ـ ٤٩) .

[٧] الديوان (٥ ـ ٥) ، اللسان (خصف) .

[٨] الديوان (٣ ـ ٤) ، والمرخة شجرة يتخذ منها الزند .

[٩] الديوان (٥٠ ـ ١) الحيقطان ذكر الدراج ، والمسيح المخطط ، والهوذة القطاة الأنثى ، أنظر المعاني الكبير ٣٢٦ .

وصحماء أشباه الحزابي ما يرى | بها سارباً غير القطا المتراطن(١)

ولعل اهتمامه بالغروب ، وما قبل الغروب ، ثم بالفجر والشروق ، أثر من آثار شغفه بالألوان البراقة المشرقة ، فهو يرقب الشمس إذ تغيب ، ليتزود من ضيائها ، ويصبغ به صوره وتشبيهاته ، قال في وصف ثور وحشي :

يرقب الشمس اذ تميل بمثل الجبء جأب مقذف بالنحاض(٢)

وقال : حب بالزور الذي لايرى | منه الا لمحة عن لمام(٣)
مثل ما عاينت قبل الشفا | واضح العصمة أحوى الخدام(٤)
ومن ذلك قوله : وما نيل مصر قبيل الشفا | اذا نفحت ريحه النافحه(٥)
و : حتى تلاقى والشمس جانحة | ادحي عرسين رايباً نضده(٦)
و : كأعين ذب رياد العشي | اذا وركت شمسه جانحه(٧)
و : ألامن لعين لاتجف سجومها | تأوبها عاداتها وهمومها
توافي غروب الشمس في كل ليلة | كشن شعيب لم تسدد هزومها(٨)

---

[١] الديوان (١٢ ــ ٤٧) ، اللسان (صحم) الأصحم والصحمة سواد الى صفرة ، وقيل هي حمرة وبياض ، وقيل صفرة في بياض ، أو لون من الغبرة الى سواد قليل .

[٢] الديوان (١٩ ــ ٢) الجبء ضرب من الكمأة ، شبه به عيني الثور لنتوئهما وسوادهما ، وقيل الجبء كمأة حمراء وقيل بيضاء ، والجأب الغليظ والنحاض اللحم .

[٣] أي أحبب بالزور ، واللمام الاتيان .

[٤] الديوان (٨ ، ٩ ــ ٤) ، والشفا المساء عند مغيب الشمس .

[٥] الديوان (٤ ــ ١٧) .

[٦] الديوان (٥٠ ــ ٥) جانحة مائلة للغيبوبة .

[٧] الديوان (١٧ــ٧) ، ذب رياد : الثور الوحشي ، ووركت مالت للغروب .

[٨] الديوان (١،٢ــ٦) . والشن الجلد الذي قد يبس وأخلق .

وهو يبرم بالليل وثقله ، ويرقب الفجر بشوق ولهفة ، ويستعجل الشمس لأن تطلع ليمتع نظره بالمرئيات :

ألا أيها الليل الذي طال أصبح ... بيم وما الاصباح منك بأروح
على أن للعينين في الصبح راحة ... بطرحهما طرفيهما كل مطرح
كأن الدجا دون البلاد موكل ... بيم بجني كل علو ومرزح
فيا صبح كمش غبر الليل مصعداً ... بيم ونبه ذا العفاء الموشح(١)

ويقول : وغدا إذ بدت له الشمس يجتاب كثيباً أخلى له عقده(٢)

و : فعبت غشاشاً ثم جالت وبادرت ... مع الفجر وراد العراك المصبح(٣)

و : كحبة الساج فجا بابها ... صبح جلا خضرة أهدامها

وليس أدل على ولعه بالألوان المشرقة والأضواء وحبه للفجر والشروق ، من وصفه نفسه بالشمس عند الشروق :

أنا الشمس لما أن تغيب ليلها ... وغابت فما تبدو لعين نجومها
تراها عيون الناظرين إذا بدت ... قريباً ولا يسطيعها من يرومها(٤)

ونحن نجد أبداً صور التشاؤم والخوف والحزن مقرونة بالليل ، ونجد صور الفرح والبهجة مقرونة بالنهار :

بقصر مغداهن كل مولول ... عليهن تستبكيه أيدي الكرائن(٥)

وهو يطرب للبرق والنجوم اللامعة :

طربت رشافك البرق اليماني ... بفج الريح فج القازان
ألم تر أن عرفان الثريا ... يهيج لي بقزوين احتزاني(٦)

ومن كل ذلك تتبين ، أن شعر الطرماح ، في كثير من مفرداته ، وكثير من موضوعاته ، كان استجابات لدواعي التأقلم ،

---

[١] من القصيدة الأولى . [٤] الوساطة ٢٦١ .
[٢] الديوان (٦٠ ـ ٥) . [٥] الديوان (٤ ـ ٤٧) الكرائن المغنيات .
[٣] الديوان (٤ ـ ٥٨) . [٦] الديوان (١ ، ٣ ـ ٤٨) .

ثالثا ـ التشبيــه :

يستمد الأديب عناصر أدبه من محيطه . والطرماح ـ كما رأينا ـ ابن الكوفة وابن قراها وسوادها ، ومن ثم فشعره نسيج هذه البيئة ، تتضح فيه صور حياتها . ويتضح أثر البيئة القروية في تشبيهاته بشكل جلي .

استمد الطرماح موضوعات تشبيهاته من مشاهد الحياة في الريف والقرية ، فانعكست ملامح المجتمع القروي ـ بكل مظاهره ـ في هذه التشبيهات .

واذ كان موضوع الحديث ، في هذا الفصل ، يدور حول مظاهر الحياة القروية وآثارها في شعر الطرماح ، واذ كان التشبيه يصور جانبا من مظاهر هذه الحياة ، فقد رأيت أن أجعل حديثي عن التشبيه ، تابعا للحديث عن مظاهر الحياة القروية في شعره ، هذا فضلا على أن تشبيهات الطرماح تصور ولعه بالغريب ، واحتفاله به . والكلام عن غرابة تشبيهاته في هذا المقام مناسب أيضا لموضوع هذا القسم ، فقد ذكرت أني ساقصر الحديث فيه على الجوانب اللفظية من شعر الطرماح .

نجد في شعر الطرماح نوعين من التشبيه : الأول التشبيه الاستطرادي أو الطويل ، أو التشبيه (القصصي) كما يدعوه الدكتور البهبيتي(١) ويستخدم الشاعر هذا النوع للانتقال من موضوع الى آخر ، كأن يشبه الناقة بثور وحشي . ثم يعمد الى وصف هذا الثور ، ويطيل في وصفه ، ويستطرد الى ذكر عملية الصيد ، ويصف الصياد وكلابه ، التي تلاحق الطريدة أو يشبه ناقته بالظليم ثم ينتقل الى هذا الظليم ، يدير حوله قصصاً . . وهنا تصبح أداة التشبيه واسطة لربط موضوع الصيد بموضوع القصيدة ، أو تصبح باباً يطل منه الشاعر على موضوعات ثانوية اخرى في القصيدة . فهي ، لذلك ، وسيلة للاستطراد والوصف ليس الا .

---

(١) تاريخ الشعر العربي ٩٥ . لم يتحدث الدكتور البهبيتي عن تشبيه الطرماح وانما تحدث عن التشبيه القصصي الذي أجد مثلاً له في شعر الطرماح .

ويعلق الدكتور البهيتي ، على مثل هذا التشبيه في الشعر الجاهلي ، وعند لبيد بخاصة قائلا : « وهذا النحو من التصوير ، يجري فيه الشاعر الجاهلي على نفس الاسس التي يجري عليها كاتب القصة ، ولاريب في أن الشاعر يتخذ من هذه القصة مرآة يعكس عليها صورة أمر آخر غير موضوع القصة الأصلي ، ولو حذفت الأداة لاستغنت القصة بنفسها ، ولوجدنا أنفسنا أمام بنية فنية سليمة محبوكة الأطراف تامة الجوانب »(١) ، فانه لايربط هذه الصورة بسائر القصيدة غير أداة التشبيه(٢) .

والنوع الثاني — وهو موضوع دراستنا — التشبيه الذي يقصد به الى المماثلة والمقارنة بين شيئين . وهو عند الطرماح ذو سمات جديدة وخصائص معينة . تطغى الغرابة على بعضه ، ونجد أثر البيئة القروية فيه ، كما نجد هذه الدقة البالغة في الملاحظة ، ونلمس فيه قابلية ممتازة لادراك أوجه التشابه بين الأشياء والموضوعات ، ومقدرة لاستنباط أوجه شبه لاتدرك بسهولة ويسر ، بل يحتاج فيها الذهن الى التأمل والنظر ليدركها . فيجد فيها بعد ذلك جمالا كثيرا ، مبعثه الدقة في لمح العلاقات بين الاشياء ، والمقدرة على استنتاج وجوه من التماثل بين الموضوعات .

ولعل هذه الخاصية ، هي التي كانت تدفع بالنقاد الى وصمه بالغرابة والبعد عن الصواب ، فلقد كانوا يعدون سلامة المطابقة بين المشبه والمشبه به شرطاً في التشبيه الجيد ، كما يعدون المقاربة في التشبيه من جملة الأسس التي يقوم عليها عمود الشعر(٣) .

فدقة الملاحظة عند الطرماح ، من القوة بحيث تتيح له أن يرى في الأشياء أوجهاً للتماثل والتشابه ، يستخدمها في تشبيهاته . بل هو قادر على انتزاع أوجه شبه من أشياء متفرقة متعددة ، يشكل الجمع بينها موضوعات وصوراً .

[١] تاريخ الشعر العربي ٩٨ .
[٢] سأتحدث عن هذا النوع من التشبيه في موضوع الطرد .
[٣] المرزوقي في مقدمة شرحه على حماسة أبي تمام .

ثم يلمح ، بعد ذلك ، علاقة التماثل بين هذه الموضوعات والصور ، ويصطنعها مادة جديدة في هذا الفن .

فهو ، مثلاً ، يضائل من شخص الرجل الصياد الذي يجري بخفة وحذر ، لئلا تراه الطريدة فتهرب ، ثم يعمد الى النظر الى مواضع معينة من جسمه ، يبصر فيها أعلى ظهره المحدودب استخفاء ، ويلاحظ اضطراب هذا الظهر وتناسق اضطرابه مع حركة ساقيه الدقيقتين الخفيفتين ، فتتداعى في ذهنه صورة الدلو ، وقد تعلقت بحبلين ، يتناوب على نزعها رجلان يمتحان ، ينزع هذا وينزع هذا ، والدلو تضطرب وتتمايل بسرعة وخفة ، بين الحبلين من أثر السحب الشديد المتناوب :

فلما غدا استذرى له سمط رملة لحولين أدنى عهده بالدواهن
أخو قنص يهفو كأن سراته ورجليه سلم بين حبلي مشاطن(١)

وهو لا يكتفي بادراك العلاقات بين الأشياء لدقيقة ، ولا بمحاولة تصويرها ، بل يعمد الى تشكيل صور غريبة متشابهة ، من هذه الأشياء مجموعة ، ثم يدلنا على أوجه التماثل ، أثناء عملية التصوير . ولننظر الى الدقة في تشبيهه ، الذي يصف به عناناً مضفوراً ، ويشبهه بممر الحبة :

ومحقق ذي زرين في الأرض متنه وفي الكف مثناه لطيف الأسائن
خفي كمجتاز الشجاع وذبل ثلاث كحبات الكباث القرائن(٢)

وقد يبدو غريباً أن يشبه عيني الثور بالكمأة السوداء ، لتوئيما وسوادهما :

---

[١] الديوان (٣٩ ، ٤٠ ـ ٤٧) ، سمط الرمل حبله ، جعل هذا الصائد في لزومه للرملة كالسمط في لزومه للعنق ، والمشاطن الذي ينزع الدلو بحبلين .

[٢] الديوان (٢٠ ، ٢١ ـ ٤٧) الأسائن واحدها أسينة ، وهي القوة ويريد بها السيور المضفورة ، والكباث ثمر شجرة الأراك .

يرقب الشمس إذ تميل بمثل الجب جأب مقذف بالنحاض(١)

لكنها الدقة في استجلاء أوجه التشابه بين الأشياء والموضوعات ، فمن الدقة والغرابة بمكان ، إدراك أوجه التشابه بين يدي الناقة المسرعة في عدوها ، وقد زادها التعب والجري قباضة واتثاء ، وحركة يدي الماتح ، الذي يستقي من البئر تتناوب يداه على جر حبل الدلو منه :

يداها وقد زادت يداها قباضة كأوب يدي ذي الرفضة المتمتح(٢)

وهذه صورة من تشبيهاته الغريبة ، صورة القطا ، وقد أهزله التعب ، وآذاه العطش ، وطول الطيران ، فانتحى في أصل الجبل ناحية ، يستظل فيها من الشمس ، حتى ليبدو فيها وكأنه بقايا الخرق البالية في أصل هذا المرتفع ، أو كالنبت قطع ثم بله المطر ، فاخضرت بعض اصوله ونواحيه :

فترى الكدر في مناكبها الغبر رذايا من بعد طول انقضاض(٣)
كبقايا الثوى يلذن من الصيف جنوحا بالجرذي الرضراض(٤)
أو كمجلوح جعثن بله القطر فأمسى مودس الأعراض(٥)

وقد شبه القطا في مواضع عديدة بالخرق البالية :

---

[١] الديوان (١٩ ـ ٢) .

[٢] الديوان (٤٢ ـ ١) ، الرفضة النصيب .

[٣] الديوان (٢٥،٢٦،٢٧ ـ ٢) الكدر جنس من القطا ، والرذايا المهزولة .

[٤] في الديوان بالحزم ذي الرضراض وفي معاني الشعر ٣٢٣/١ بالجر ، والجر أصل الجبل ، والرضراض الحصى الصغار .

[٥] نبات مجلوح ما قداكل ثم نبت ، والجعثن اصول النصي ، ومودس كثير النبات .

رفاقاً تنــادي بالنزول كأنهــا بقايا الثوى وسط الديار المطرح(١)

كما شبه زغبها بالنصي المجلح وقد أمطر :

سماوية زغب كأن شكيرها صماليخ معهود النصي المجلح(٢)

غرابة غير مألوفة في الصور ، ودقة في استخراج أوجه التماثل والمشابهة ، وعناية في اختيار الموضوعات ، التي يشبه بها ، بل هو متفنن في اختيــار المشبه به ، فما أروع أن يشبه الذئب السريع العدو ، بظل غمامة رقيقة في أعقاب يوم سريع الريح :

عملس غــارات كأن مسافه قرى حنظب أخلى له الجو مقمح

إذا امتل يهوي قلت ظل طخاءة ذرى الريح في أعقاب يوم مصرح(٣)

ولايفوتنـا ، أن نلاحظ أيضاً غرابة التشبيه في البيت الأول ، الذي شبه فيه أعلى أنف الذئب ، بظهر الجعل الكبير الأسود ، ومن الغرابة أيضاً أن يشبه الهودج المقفل بأحكام ودقة ، برسغي الفرس المذهب اللون ، وقد رص بعضهما الى بعض :

وقام المهـا يقفلن كل مكبل كما رص أيقا مذهب اللون صافن(٤)

لاغرو أن وراء كل ذلك ، مقــدرة ممتازة ، على رسم الصور من موضوعات متعددة ، تتيح له أن يستنبط منها أوجه التماثل والتناظر .

وهو لا يكتفي بكل ذلك ، ولايقف عنده ، إنما يعمد الى أسلوب في التشبيه ، يضفي على الصورة جواً من عدم الافصاح ، لايدع للمتأمل مجالاً يقع فيه على حقيقة الصورة ، بل يترك له مجال التخيل والتصور واسعاً ، ينطلق فيــه

---

[١] الديوان (٣ ــ ١٤) المعاني الكبير ٣٢٥ .

[٢] الديوان (٤٨ ــ ١) شكيرها زغبها ، والصماليخ اصول النصي أو ما خرج من رؤوسه بعد الأكل ، وهو يبيس الخلا ، والمجلح كالمجلوح ، أنظر المعاني الكبير ٣٢٦ .

[٣] الديوان (٣٤ ، ٣٦ ــ ١) .

[٤] الديوان (٢ ــ ٤٧) يقصد بالمها النساء .

خياله وفكره .

وهو يصنع كل ذلك — على الغـالب — في التشبيهات التي تتصل بالأصوات ، فتراه يشبه صوت شجيرات الأرطى ، حين تهزها الريح ، فتسترجف وتصوت جروسها ، بتداعي الحجيج ، يأتيك صوته من بعيد ، لاتكاد تسمع منه غير أنه تداع ، فلا تميز صوتاً منه :

بمسترجف الأرطى كأن جروسه تداعي حجيج رجعه غير مفصح(١)

وكأن الشاعر لم يكتف بذلك ، بل أراد أن يؤكد أنه لا يريد الافصاح عن طبيعة صوت الحجيج المتداعي ، طلبـاً للتوسع في تصوير المعنى فأضاف : « رجعه غير مفصح » .

وهو حين أراد أن يصور نداء ذكر النعام لأنثاه ، وتجاوبهما في هـذا الصوت المتكرر المتردد ، شبه عملية التنـادي هذه بصوت المريض ، وقد اشتد به ألمه ، فأفصح عنه بالشكوى ، والأنين ، فتجاوبه النساء العائدات بمثل أنينه المتصل ، وشكواه الحزينة ، مشاركة إياه آلامه وأوجاعه :

يدعو العرار بها الزمار كما أشتكى ألم تجاوبـه النساء العـود(٢)

وتراه هنا استعاض عن ذكر الذكر بصوته ، وكذلك عن الأنثى بذكر صوتها مبالغة ، فقـال : « يدعو العرار بها الزمار »(٣) ومثل ذلك تشبيه أزيز الريح بالتجاج المأتم المتنوح المختلط الصوت :

يظل هزيز الريح بين جوانحي له كالتجاج المآتم المتنوح (٤)

---

[١] الديوان (٣١ — ١) ومعنى جروس (واحدها جرس) الصوت الذي لايفهم ، وجاء في شرح البيت أيضاً : وقوله غـير مفصح لأنها أصوات مختلفة فلا يكاد من يسمعها يفهمها .

[٢] الديوان (٦ — ٣) . المعاني الكبير ٣٤٣ .

[٣] العرار صوت الذكر من النعام والزمار صوت الأنثى .

[٤] الديوان (٢٨ — ١) الالتجاج كثرة الصوت واختلاطه والمتنوح كثير النوح .

ويبدو اهتمامة بالصوت في تشبيهه الأروى الخائفة تنصت وتخافت من صوتها خشية الصياد بالمهندسين الذين يعرفون مواضع المياه إذا ما دققوا السمع أو وضعوا آذانهم على التربة تفتيشاً عنه ، يقول :

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى ونيضن للسمع انتصات القناقن (١)

ويبدو الطرماح ، وكأنه لايرغب في الافصاح عن صوره بجلاء ودقة ، بل يترك عليها ضلالاً من الغموض ، فيما يدعو للتأمل والتخيل ، يقول :

إنما ذكرك ما قد مضى ضلـه مثل حديث المنام
حب بالزور الذي لا يرى منـه إلا لمحة عن لمام
مثل ما عاينت قبـل الشفا واضح العصمة أحوى الخدام(٢)

وقد يقصد في تشبيهاته الى الأشياء الصغيرة والتافهة ، على أننا ـ على الرغم من ذلك ـ نلمس إصابة تشبيهاته ، وقوة تصويره ، فهو ـ بما يملكه من دقة في الملاحظة — يدرك أوجه الشبه بين هذه الأشياء الصغيرة ، والموضوعات الساذجة فيصورها ، وقد تبدو لأول وهلة غريبة وبعيدة ، لأنها غير مألوفة ، ولكن ما إن نمعن النظر اليها ، حتى نقع على مواضع الجمال فيها . من ذلك تشبيهه الرماد في الطلل الدارس بظهر الحمام :

وخصيف اللون جادت به مرخة من مخدج أوتمـام
بين أظـآر بمظلومـة كسرات الساق ساق الحمام(٣)

ومن غير المألوف ، أن يشبه لسان البعير ، يبله بشفتيه ، بخوصة المقل ، تضعها الجارية بين شـفتيها :

يبل بمعصور جناحي ضئيله أفا وبق منها هلة ونقـوع

---

[١] الديوان (٣٠ ـ ٧٢) ، المعاني الكبير ٦٤٠/٢ . القناقن المهندسون واحدها قنقن ، ويقال ازاد بالقناقن الضفادع

[٢] من القصيدة الرابعة .

[٣] الديوان (٤،٣ـ٤) ، أمالي الزجاجي ٨٢ ، وجاء في الحيوان ٢٤٣/٣ : « وذهب الأصمعي الى قول الطرماح في تشبيه الرماد بالحمام » . المرخة شجرة يتخذ منها الزند ، المخدج المعجل وهو ما لم تتعلق به النار والساق ذكر الحمام .

كما بل متني طفية نضح عائط   يزينها كن لها وسفوع(١)

على أن للطرماح تشبيهات بادية الروعة ، بالغة الجمال . وقد اعجب العلماء بطائفة منها ، فمن الجمال والروعة بمكان تشبيهه الثور الأبيض ، ينطلق في الصحراء ، يعلو النجاد ، ويهبط الوهاد ، بالسيف يسل تارة ، ويغمد أخرى ، على مرتفع من الارض :

يبدو وتضمره البلاد كأنه   سيف على شرف يسل ويغمد
وكأن قهزة تاجر جيلت له   لفضول أسفلها كفاف أسود(٢)

ولنسمع أراء النقاد في هذا التشبيه ، لنرى مدى إعجابهم به :

ذكر الأصمعي : أن الطرماح جود في هذا المعنى فقد جمع لستعارة لطيفة بقوله : « وتغمره البلاد » وتشبيه اثنين بقوله :« يبدو وتظمر ويسل ويغمد » وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة (٣):

وأيد الجاحظ وابن قتيبة : « أن الأصمعي كان يستحسن قول الطرماح في صفة الثور : يبدو وتظمره البلاد . . . »(٤) .

وابن قتيبة نفسه حكم بالجودة والحسن لتشبيه ذاك(٥) .

وجاء في الأغاني : « كان الأصمعي وأبو عبيدة يفضلان الطرماح في هذين البيتين ، ويزعمان أنه فيهما أشعر الخلق »(٦) ، وفي موضع آخر ذكر أبو الفرج مانصه : « كان أبو عبيدة والأصمعي ينشدان بيتي الطرماح :

---

[١] الديوان (٢١،٢٢ــ٣٤) أفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء وأراد بالجناحين ، الشفتين ، والطفية خوصة المقل ، وعائط جارية لم تحمل ، والسفوع الثياب والكن الستر والمعصور اللسان اليابس عطشاً .

[٢] الديوان (١٤،١٥ ــ ٣) والكفاف الدرات والقهزة الحريرة البيضاء .

[٣] فحولة الشعراء ٥٨ ، الشعر والشعراء ٨٠ ، شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٢٣٨ .

[٤] الحيوان ٣/٤٦٥ ، الشعر والشعراء ٣٧٣ ، ديوان المعاني ٢/١٣١ .

[٥] الشعر والشعراء ٨٠ ، ٣٧٣ .

[٦] الاغاني (دار الكتب ١٢/٤١) .

يجتاب حلة برجد لسراته   قدراً وأخلف ما سواه البرجد
يبدو وتضمره البلاد كأنه   سيف على شرف يسل ويغمد

وكانا يقولان : « هذا أشعر الناس في هذين البيتين »(١) . وقال أبو هلال العسكري عن هذا التشبيه : « إنه غاية في حسن الوصف »(٢) . وواضح أن أكثر ما كان يعجب هؤلاء ، هو سعة ما يجتمع في صوره من أوجه العلاقة والمماثلة بين أطراف التشبيه من وجه ، ثم ما يتوافر لهذه الصور من أصالة الاحساس ، وروعة التصوير ، وجمال التعبير ، من وجه آخر . وتصدق هذه الصفات على مجموعة غير يسيرة من تشبيهاته ، فمن الجمال وأصالة الاحساس بمكان ظاهر ، تشبيهه تهافت الهموم عليه ، بالنوق العطشى ، وقد سد عنها المورد :

قالت أمامة والهموم يعدنني   ورد الحوائم سد عنها المورد(٣)

ومن ذلك قوله يصف قلبه وقد عرض له ذكر سلمى حبيبته :

كأن فؤادي بين أظفار طائر   إذا سنحت ذكراك من غير مسنح(٤)

ومنه وصفه الذئب وهو يعدو ، بظل الغمامة الرقيقة ، تدفعها الرياح ، في أواخر يوم صحو :

إذا امتل يعدو قلت ظل طخاءة   ذرى الريح في أعقاب يوم مصرح(٥)

وقد مر بنا تشبيهه الكلاب ، تنطلق خلف الطريدة ، بالنحل المتبدد من الخلية :

صعر السوالف بالجراء كأنها   خلف الطريدة خشرم متبدد(٦)

---

[١] الأغاني (دار الكتب ٥ / ٩٥) .
[٢] ديوان المعاني ٢ / ١٣١ ، كتاب الصناعتين ٨٥ .
[٣] الديوان (٢٦ — ٣) .
[٤] الديوان (٧ — ١) .
[٥] الديوان (٣٦ — ١) .
[٦] الديوان (١٧ — ٢)

وقد شبه الكلاب في موضع آخر بالسهام الصغيرة ، يلهو بها الطفل :

ينما ذلك هاجت به   أكلب مثل حظاء الغلام[1]

وما أروع تشبيهه الثور يظهر من بعيد ثم يختفي وهو يعلو النجاد ويهبط الوهاد ، بنور البرق ، يضيء التماحاً من خلل السحاب :

يبين ويستعلي ظواهر خلفة   له من سنا ينعق بعد بطائن[2]

ومن تشبيهاته الجميلة ، وصفه الدنيا تضيق بعين عدوه . إذ يراه ، بكفة الحابل :

ملأت عليه الأرض حتى كأنها   من الضيق في عينيه كفة حابل[3]

ومنها :

ومن يلتمس فى طيء ترة له   يكن كالثريا من يد المتناول [4]

وما أجمل أن يشبه لوعة الذكرى ، بنار أو جمرة يتغلغل وجيعها في الفؤاد :

إذا ذكرت سلمى له فكأنما   تغلغل طفل في الفؤاد وجيع[5]

ومن جميل تشبيهاته قوله :

فبات بنات الليل حولي عكفا   عكوف البواكي بينهن صريع[6]

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نذكر تشبيهاته الجميلة ، فهي كثيرة منبثة في كل قصائده ، على اختلاف موضوعاتها .

وأثر البيئة في تشبيهات الطرماح واضح ، كما ذكرنا ، فهو كثيراً

---

[1] الديوان (٥١ ــ ٤) .

[2] معاني الشعر ٧٤٧ .

[3] الديوان (٤ ــ ٤٠) .

[4] الديوان (٤ ــ ٧١) .

[5] الديوان (٩ ــ ٣٤) ، طفل النار هو السقط أو الجمرة . وورد في شروح سقط الزند ١٨١٩ عجز البيت فقط ، وفسر الطفل بأنه نصل .

[6] الديوان (٢٥ ــ ٣٤) .

ما يختار أطراف تشبيهاته من هذه البيئة القروية ومألوفاتها ومظاهر حياتهـــا ، فنراه يشبه قرون حمار الوحش بمنافخ الصاغة :

تتقي الشمس بمـــدرية كالحماليج بأيدي التـــلام(١)

ولا يتسنى لغير الريفي أو الحضري أن يرى هذا المنظر ، ويذكر الصاغة ومبافخهم وتلاميذهم (الصناع) ، أو يذكر سبائك الفضة ، مشبها بها خدود النساء الجميلات :

خـدود كالـوذائل لم يخترن عنها وري السـنام(٢)

ولا يتهيأ لغير الحضري أو القروي أن يشبه أنف حبيبته ، بعرق من الذهب أو الفضة :

حرة شبهت عرنينـــها حين ترنو سافرا عرق سام(٣)

وهو يشبه قشور بيض النعام ، بفلق القوارير ، حينما تجلى ، بعد إخراجها من الكـور :

والقيض أجنبه كأن حطامه فلق الحواجل شافهن الموقد(٤)

ويشبه طعن الثور للكلاب ، بشرط البيطار لمواضع الورم ، في رجل الحمار :

يسـاقطها تترى بكل خميلة كبزع البيطر الثقف رهص الكوادن(٥)

كما يشبه خوار الثور ، بصوت الريح ، تخرج من الكير :

وبربر بربرة الهـــبرقي باخرى خواذلهـا الأنحـــه(٦)

ومثل ذلك ، تشبيهه طعن الثور الوحشي للكلاب ، بعمل المبرد ، حين يذري شبا الحديد :

---

[١] الديوان (٢١ ــ ٤) والتلام هم التلاميذ . والحماليج منافخ الصاغة الطوال . انظر المعرب من الكلام الأعجمي ٩١ .

[٢] الديوان (٣١ ــ ٤) الوذائل سبائك الفضة .

[٣] الديوان (٣٣ ــ ٤) عرق سام عرق الفضة أو الذهب .

[٤] الديوان (٥ ــ ٣) القيض قشر البيض ، والحواجل القوارير .

[٥] الديوان (٤٤ ــ ٤٧) الرهص جمع رهصة ، وهي الوقرة في حافر الدابة ، والكوادن البراذين .

[٦] الديوان (٨ ــ ١٧) الهبرقي الذي يصفي الحديد ، والأنحة التي تأنح من الهم والتعب اي تزفر وتنفخ

يذري روائسها الأوائل مثلما   يذري فراش شبا الحديد المبرد(١)

أن تكرر أدوات الصناعة ، وترددها في شعره — وهي مألوفة للحضري والقروي — يوضح مدى تأثره بمظاهر البيئة القروية والحضرية .

وهل يتسنى لبدوي ، لم ير المدينة أو يألف حياتها ، أن يذكر المبرد والحديد والصاغة والتلاميذ والمنافخ ، أو أن يشبه بالذهب والفضة والسبائك والقوارير أو أن يصف عمل العسل ، كما فعل الطرماح .

أما التشبيه بمظاهر البيئة الزراعية — والزراعة عمل الريفيين الأول — فانه كثير في شعر الطرماح . فنجده يشبه الناس في قلة مكوثهم في هذه الحياه ، بالزرع لابد أن يحين موعد نضجه فيحصد :

إنما الناس مثل نابتة الزرع   متى يأن يأت محتصده(٢)

وقد شبه القطا في أكثر من موضع باصول النصي ، وقد مر بنا ذلك :

سماوية زغب كأن شكيرها   صماليخ معهود النصي المجلح(٣)

و : وتري الكدر في مناكبها الغبر رذايا من بعد طول انقضاض

كبقايا الثوى يلذن من الصيف جنوحا بالجرذي الرضراض

أو كمجلوح جعشن بله القطر فأمسى مودس الأعراض(٤)

كما شبه ولد الظبية باصول النصي ، قطعت ثم نبتت ثانية :

---

[١] الديوان (١٩ — ٣) .

[٢] الديوان (١٦ — ٥) ، حماسة البحتري ٨٥ ، أسرار البلاغة ٢٨١ ، ويذكر الجرجاني حديثاً للرسول الكريم ، نصه : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة » ويبدو أن الطرماح استفاد من معنى الحديث ، وصدر البيت في فصل المقال ٧ : « إنما نحن مثل خامة زرع » وهذا يؤكد استفادة الطرماح من معنى الحديث ، وانظر البيت في التشبيهات ٢١٦ ، والتاج ٢/٣٤٠ والفائق ١/١٨٦ .

[٣] الديوان (٤٨ — ١) .

[٤] من القصيدة الثانية .

مغزلا تحنو لمستوسن ماثل لون القضيم التهام(١)
أو كأسباد النصية لم تجتذل في حاجز مستنام(٢)
مطرق تعتاده عوهج بين أحجار كضغث الثمام(٣)

ونراه في البيت الثالث ، شبه هذا الخشف بحزمة من الثمام ، وهو يصف الطيور المجتمعة ، تطير مسرعة ، بأنامل النساء اللائي يجنين العصفر :

دوامك حين لا يخشين ريحا معاً كبنان أيدي القايات(٤)

ومما يكشف بصورة واضحة ، عن تأقلم شعر هذا الرجل ، وتأثره بمظاهر محيطه ، انعكاس صور البيئة النهرية في تشبيهاته ، فنراه يشبه « بأشرعة السفين »(٥) ، ويشبه بالنوتي والملاح ، يقول :

لما رأيتهم حزائق أجهشت نفسي وقلت لهم ألا لاتبعدوا
كصياح نوتي يظل على قرى قيدوم قرواء السراة يندد(٦)

على أن هناك ظاهرة أخرى تستدعي الانتباه ، في تشبيهاته ، تلك هي كثرة تشبيهه بالأقمشة الملونة والمخططة ، وذلك أيضاً ضرب من تأثره بمظاهر

---

[١] من القصيدة الرابعة ، المغزل الظبية معها غزالها ، والمستوسن النائم والماثل المنتصب ، والقضيم الصحيفة ، شبه ولدها لشدة بياضه بالصحيفة .

[٢] التسبيد للشعر إذا حلق ثم نبت ، واستعاره للنبات ، والحاجز المستنقع ، والمستنام للولد أي تركته أمه نائماً .

[٣] المطرق الذي لايتحرك ، يريد به الخشف والعوهج الظبية الطويلة العنق .

[٤] الديوان (١ ــ ١٢) الدوامك المسرعات ، والقايات جانيات العصفر .

[٥] اللسان (شرع) والبيت مفقود ولم يبق منه غير المشبه به (كأشرعة السفين) .

[٦] الديوان (٦ ، ٧ ــ ١٨) الحزائق جمع حزيقة ، وهي القطعة من كل شيء يريد متفرقين ، استعداداً للرحيل ، وقيدوم السفينة قادمتها . والقرواء شديدة الظهر ، ويندد يرفع صوته .

المحيط ، يقول :

مجتاب شملة برجد لسراته قدراً وأسلم ماسواه البرجد
وكأن قهزة تاجر جيلت له لفضول أسفلها كفاف أسود(١)

و : إذا أنفذته جانباً من أمامها بدا جانب كالرازقي المنصح(٢)

و : تراكل عريس المتن مرتا كظهر السبح مطرد المتون(٣)

و : ومضى تحسب أقـرانه ثوب سحل فوق أعواد قام(٤)

ولعل لسكناه في مدينة (بم) التي يكثر فيها الحاكة والمشهورة بصناعة الأقمشة أثرا في ولعه بالتشبيه بالأقمشة(٥) . وهو يكثر من ذكر الأقمشة وأنواعها في موضوعات شعره المختلفة ـ لاعلى سبيل التشبيه حسب ـ ذكراً يؤكد ألفته لحياة المدينة. نراه مثلاً ، يذكر الخنيف (وهي ثياب الكتان) والأتحمي المسيح (وهو ضرب من البرود المخططة) والبجاد (وهو كساء فيه سواد وبياض من الخطط ، أو حمرة وبياض) والربط (وهو الثوب الأبيض) وقد ذكره مشبهاً به السحاب الرقيق الأملس . وقـد وصف الحرب الشديدة بأنها ذات نيرين كالثوب الذي من سديين(٦) .

---

[١] الديوان (٢ ، ١٥ ـ ٣) القهزة الحريرة البيضاء .

[٢] الديوان (٤٤ ـ ١) يتحدث عن ناقته ، ويشبه السراب بالكتان ، والمنصح المخيط .

[٣] الديوان (٢٣ ـ ٤٩) السبح المسح المخطط ، والعريس متن مستو من الأرض .

[٤] الديوان (٥٨ ـ ٤) يشبه قرون الثور بثياب منشورة على خشبة البئر ، والسحل الثوب الأبيض والقامة خشبـة منصوبة على البئر وهي البكرة .

[٥] الديوان (١ ـ ١) ، مراصد الاطلاع ٢٢٢ . المعرب بين الكلام الأعجمي ٧٣ ، حماسة ابن الشجري ٢١٦ .

[٦] انظر الأبيـات (٢٨ ـ ٤) و (٢٥ ـ ١) و (٤ ـ ٧) و (٥ ـ ٨) من الديوان .

واهتمامه بالألوان ، وولوعه بها ، وعنايته بالألوان التي تشيع في بيئته الريفية بخاصة ، ظاهر كل الظهور ، فتراه يشبه بقوس السحاب ، ويشبه بالألوان المذهبة :

وأديرت حفف تحتها مثل قسطاني دجن الغمام(١)

و: وبات المها يقفلن كل مكبل كما رص أيقا مذهب اللون صافن(٢)

والأمثلة على التشبيه بالأشياء الملونة كثيرة في شعره .

---

[١] الديوان (٢٩ ــ ٤) .

[٢] الديوان (٢ ـ ٤٧) والأيق الرسغ .

الفصل الخامس

موسيقى شعر الطرماح

اولا - الموسيقى الداخلية للالفاظ والتراكيب :

يحبب شعر الطرماح — على الرغم من صعوبة ألفاظه — موسيقى لايكاد يخلو منها بيت ، أو يفلت منها تعبير ، نقرأ شعره فنحسبه أنغاماً ، تتدفق تراكيبها برشاقة وخفة بارعتين . هذه الموسيقى يطلبها الشاعر طلباً ويصطنعها اصطناعاً . وهو في اصطناعها دقيق كل الدقة ، موفق كل التوفيق ، فنحن لا نكاد نتنبه لمواضع هذه الصنعة ، وان كنا نطرب لأثرها ، فلا يبدو فيها التكلف والتعمل إلا قليلاً ، إذ أن شاعرنا من البراعة والدقة ، بحيث يستطيع أن يخفي آثار الصنعة في ثنايا أنغامه الحلوة ، ولكن ما إن نمعن النظر حتى نرى من آثارها الكثير .

ويسلك الطرماح الى اصطناع هذه الموسيقى أساليب مختلفة ، ويطلبها بطرق متنوعة متعددة :

١ — فهو يعمد في الغالب ، الى تكرار الحروف ، وذلك أنه يستعمل في تراكيبه كلمات مشتركة في حرف واحد أو حرفين ، أي أنه يستخدم في هذه التراكيب ألفاظاً متشابهة الأحرف ، مستغلاً موسيقى الحروف ، ليكسب التركيب إيقاعاً ونغماً حلواً ، وليصور جواً ملائماً لمعانيه .

والغريب في هذا الاسلوب أنه — على شيوعه وكثرة استعماله — يطبع شعره بطابع الحلاوة والجمال ، ويمنح معانيه قوة وعمقاً .

لننظر كيف كرر الباء والدال في بيته هذا :

كأن الدجا دون البلاد موكل ‏ ‏ ‏ ‏ ينم بجنبي كل علو ومرزح(١)

ولاشك في أنه يستعين بالباء والدال هنا ، على رسم الجو العام لمعانيه ، مستغلاً قوة الحرفين ليعبر بهما عن برمه باستطالة الليل واتساعه وشموله .

---

[١] الديوان (٣ ـ ١) ، والمرزح ما اطمأن من الأرض .

ومثل ذلك تكرار الصادات في قوله :

إذا صاح لم يخذل وجـاوب صوته　　حماش الشوى يصدحن من كل مصدح(١)

ولا يفوتنا أن نلمح وجود الشينين وتقاربهما في (حماش الشوى) ، فضلاً على علاقتهما الصفيرية بالصادات . ولنتأمل بيته التالي ، لنرى بعضاً من سر صنعته هذه ، ولنلاحظ كيف استخدم الميم والكاف فى ذلك :

أنا ابن حماه المجد من آل مالك　　وان مالك كانت كرام المعادن(٢)

والميم والراء في قوله :

إذا ما امتحت أم الطريق ترسمت　　رثيم الحصى من ملكها المتوضح(٣)

والسين والعين في قوله :

سيعلم كلهـم أني مسن　　إذا رفعوا عناناً عن عنان(٤)

والسين والحاء في بيته :

من يرم جمعهم يجدهـم مراجيح حماة للعزل الأحراض(٥)

والسين والظاء في :

بـين أظـآر بمظلومـة　　كسراة الساق ساق الحمام(٦)

والسين في هذا البيت :

حذراً والسرب أكنافها　　مستظل في أصول السلام(٧)

ولننظر الى ازدحام أبياته التالية بالراءات :

---

[١] الديوان (٤ ــ ١) .

[٢] الديوان (٥٠ ــ ٤٧ .

[٣] الديوان (٤٦ ــ ١) امتحت درست ، وأم الطريق عظمها ، والرثيم الدقيق ، وملك الطريق وسطه .

[٤] الديوان (١٠ ــ ٤٨) .

[٥] (٣٠ ــ ٢) ، الأحراض الضعاف الذين لا يقاتلون .

[٦] الديوان (٤ ــ ٤) .

[٧] الديوان (٢٠ ــ ٤) .

ولست براء من مرورات برقة　　بها آل ليلى والجناب مربع(١)
فياليت شعري هل بصحراء دارة　　الى واردات الأريمين ربـوع
وبيته : واذ دهرنا فيه اغترار وطيرنا　　سواكن في أوكارهن وقوع(٢)
وأبياته التالية أيضا تزدحم فيها الراءات :
قل في شط نهروان اغتماضي　　ودعاني هوى العيون المراض
فتطربت للهوى ثم أقصرت رضى بـالتقى وذو الـبرراض
وأراني المليك رشدي وقد كنت أخا عنجهية واعتراض
غير ما ريبة سوى ريق الغـرة ثم ارعويـت عنـد البيـاض
لات هنا ذكرى بلهنية الدهر وأنى ذكرى السنين المواضي
وذهلت الصبا وأرشدني الله بدهر ذي مـرة وانتقـاض(٣)
وكذلك بيته :
قطعت الى معروفها منكراتها　　بفتلاء إمرار الذراعين شودح(٤)
وبيته التالي أيضاً :
قطا قرب تروح عن فراخ　　نواهض بالفلا صفر البطون(٥)
ولننظر الى تكرر الفاء والراء في قوله :
فصدفن عنه وقد عصفن بنعجة　　خذلت وأفلتها فرير مفرد(٦)
والعين والراء والهاء :
تنكـر رسمهـا الا بقايـا　　عفا عنها جدا همع هتون(٧)

---

[١] الديوان (٣،٢ ـــ ٣٤) .
[٢] الديون (١٠ ـــ ٣٤) .
[٣] الديوان من القصيدة الثانية .
[٤] الديوان (٤٠ ـــ ١) .
[٥] الديوان (٩ ـــ ٤٩) .
[٦] الديوان (٢١ ـــ ٣) الفرير ولد النعجة .
[٧] الديوان (٧ ـــ ٤٩) .

والقاف والراء :

كصياح نوتي يظل على قرى — قرواء قيدوم السراة يندد(١)

وتكرر الراء في قوله :

ألم تر أن عرفان الثريا — يهيج لي بقزوين احتزاني(٢)

ولنر الى تكرار الحاءات في بيته التالي :

فأضحوا فما نالوا بصالح سعيهم — لحاقا ومن لم يحرم النجح ينجح(٣)

والميمات في قوله :

وتنمى كلما آنست — نبأة والمؤنس الروع نام(٤)

والراءات والميمات في قوله :

وصحماء أشباه الحزابي ما يرى — بها سارب غير القطا المتراطن(٥)

والراءات والدالات في قوله :

ثم أدته كبرياء على الكروحرد في صدره يجده(٦)

والميمات في بيته :

لاتأمنن تميمياً على جسد — قدمات مالم تزايل أعظم الجسد(٧)

و : اني امرؤ لك لالغيرك ما أني — منكم اشيم مصاوب الأمطار(٨)

الطاءات في بيته التالي :

صادفت طملا طويل الطوى — حافظ العين قليل السأم(٩)

---

[١] الديوان (٧ ــ ١٨) .

[٢] الديوان (٣ ــ ٤٨) .

[٣] الديوان (٥٦ ــ ١) .

[٤] الديوان (١٩ ـ ٤) .

[٥] الديوان (١٢ ــ ٤٧) .

[٦] الديوان ٦٩ ــ ٥) .

[٧] الديوان ١٣ ـ ٢٠) .

[٨] الديوان (٦ ــ ٣١) .

[٩] الديوان ٧١ ــ (٤) الطمل الذئب ، طويل الطوى كثير الجوع .

والأمثلة على هذا النحو كثيرة ، يصعب إيرادها هنا . وما هذا الاسلوب الموسيقي الا وسيلة ، يحاول أن يرسم بها الجو العام للمعنى ويمهد له .

إنه — كما رأينا من الأمثلة — يستعين بهذه الموسيقى ، التي يؤلفها من تزاوج الحروف وترابطها ، على تصوير أجواء ملائمة لمعانيه .

٢ — كل وبعد وأي وذات :

وهناك وسيلة (موسيقية) أخرى ، يستغلها في توفير التشابه والتماثل الحرفي ، يعمد اليها ، ليوفر لشعره ضرباً من الحلاوة الصوتية والنغم الجميل ، مستغلاً موسيقى الحروف المتشابهة ، حين تجتمع وتأتلف : ذلك بأن يستعمل لفظة (كل) ، معبراً بها عن الاطلاق والسعة والمبالغة والشمول . وهو إذ يستعمل (كلاً) هذه يضيفها الى المصدر أو الاسم . بعد الفعل أو المصدر (على المفعولية المطلقة) . وهذا الاستعمال (لكل) بين الفعل ومصدره ، أو بين مصدرين ، يضفي على التعبير موسيقى رائعة ، فضلاً على أيحائه بالشمول والسعة في المعنى . من ذلك إضافة كل الى مطرح في قوله :

على أن للعينين في الصبح راحة　　　بطرحهما طرفيهما كل مطرح(١)

ومنه أيضاً قوله :

إذا اجتابها الخريت قال لنفسه　　　أتاك برحلي حائن كل حائن(٢)

إذا صاح لم يخذل وجاوب صوته　　　حماش الشوى يصدحن من كل مصدح(٣)

وقوله : مفجعة لادفع للضيم عندها　　　سوى سفحان الدمع من كل مسفح(٤)

وقوله : نصبت لنا مني جبين ابن حرة　　　وظمأى الكرى لماحة كل ملمح(٥)

---

[١] الديوان (٢ — ١) .

[٢] شرح التبيان للعكبري ١٣ ، الديوان (١ — ٥٣) .

[٣] الديوان (٤ — ١) .

[٤] الديوان (١٩ — ١) .

[٥] الديوان (٢٧ — ١) .

وقوله : وقد عقل الحرباء واصطهر اللظى جنادب يرمحن الحصى كل مرمح(١)
وقوله : مخافة أن يرين النوم فيهم بسكر سنانه كل الريون(٢)
وقوله : وجرى بالذي أخاف من البين لعين ينوض كل مناص(٣)
وقوله : كل مستأنس الى الموت قد خاض اليه بالسيف كل مخاض(٤)

وهو في استعمالها رائع دقيق ، لايكاد القاريء يتنبه لصناعته أول الأمر ، لأن لشاعرنا من الدقة والقدرة ماتختفي معه آثار الصنعة ، فعلى الرغم من تكرار كل ، على هذا النحو ، ست مرات في قصيدته الأولى ، وفي أبيات متقاربة ، وتكرارها في القصيدة نفسها ، على نحو آخر — سنذكره — بضع مرات ، فانها تبدو جميلة ، لا تمل الاذن سماعها ، ولا يتنبه القاريء لسر الصنعة فيها ، لدقتها ، وللجو الموسيقي الذي يوفره تكرر الحرف .

ويستعمل الشاعر لفظة كل مضافة ، غير هذا الاستعمال ، يستعملها للدلالة على الشمول والاتساع في معانيه لاغير ، من أمثلة ذلك قوله :

صريع قنا أو ميتاً تطرد الصبا عليه السفا من جانبي كل أبطح(٥)
وقوله : كأن الدجى دون البلاد موكل بيم يجتبي كل علو ومرزح(٦)
وقوله : إذا استترت منه بكل كداية من الصخر وافاها لدى كل مسرح(٧)
وقوله : ظعائن يسترثن في كل موقف رهيناً وما يحسن فك الرهائن(٨)

---

[١] الديوان (٢٩ — ١) ،
[٢] الديوان (١٥ — ٤٩) .
[٣] الديوان (٨ — ٢) ، ينوض كل مناص يذهب كل مذهب .
[٤] الديوان (٣٩ — ٢) .
[٥] الديوان (٢٢ — ١) .
[٦] الديوان (٣ — ١) .
[٧] الديوان (٣٣ — ١) .
[٨] الديوان (٣ — ٤٧) .

وقوله : اذا اجتنابها الخريت قال لنفسه أتاك برحلي حائن كل حائن(١)

ويستعمل الطرماح (بعد) استعمال (كل) ، يضعها بين الفعل ومصدره ، أو بين مصدرين ، مستفيدا تكرر الحرف ، بتكرر الفعل ومصدره ،أو تكرر المصدرين او الاسمين ، قبل (بعد) وخلفها ، فضلا على ما يوحيه التركيب من توسـع في المعاني ، من ذلك قوله :

بمنتاط ما بين النياطين موره من الأرض يعلو صحصحا بعد صحصح(٢)

وقوله : وخـوي سهل يثـير به القـوم رباضـا للعين بعد رباض(٣)

وهو يستعمل (ذات) استعمالا قريبا من ذلك يقول :

وجلبنا أليهم الخيل فاقتيض حماهم والحرب ذات اقتياض(٤)

وقد يلجأ الى أي ، ويصنع معها ما صنع مع (كل وبعد وذات) ، ويستفيد منها ما استفاد من هذه ، يقول :

عوسرانية اذا انتفض الخمس نطاف الفظيظ أي انتفاض(٥)

ويقول : باللواتي لم يتركن عقاقا والمذاكي ينهضن أي انتهاض(٦)

وقد يعمد الى كلمات أخر ، ويستعملها على المفعولية المطلقة ، ذات الاستعمال، ومن هذه الكلمات « أيما ومدى وغير ومثل واحدى . . . . » فنراه يقول :

أيما : ونحن حصدنا يوم لابة ضرغد بقمرة عنز نهشلا أيما حصد(٧)

---

[١] الديوان (١ــ٥٣) ، الخريت الدليل الحاذق .

[٢] الديوان (٣٨ــ١) .

[٣] الديوان (٢٢ــ٢) .

[٤] الديوان (٣٥ ــ ٢) .

[٥] الديوان (١٣ــ٢) . ، العوسرانية التي تعسر بذنبها أي ترفعه ، انتفض أفنى ، النطاف البقايا ، والفظيظ الماء في الكرش .

[٦] الديوان (٤٢ــ٢) . عقاق جمع عقوق وهي العقيم من الخيـل والمذاكي المسان من الخيل .

[٧] الديوان (١٤ــ١٩) .

ويقول : يا أيها الرجل المفاخر طيئا أعزبت لبك أيما إعزاب(١)
غير : كأن فؤادي بين أظفار طائر اذا سنحت ذكراك من غير مسنح(٢)
مدى : تلك أحسابنا اذا احتتن الخصل ومد المدى مدى الاغراض(٣)
مثل : ذا ضرير يصر مثـل صرير العقو لما أصاحه مسـده(٤)
احدى : واني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام إحدى المقاذف(٥)

٣ ــ التكرار باستعمال المفعول المطلق :

وقد يكرر الشاعر الحروف المتشابهة ، باستعمال المفعول المطلق ــ دون واسطة أو أداة ــ ليوفر هذا الجو النابع من تكرار الحروف . ويكفي أن تنظر الى هذه المجموعة من أبياته ، لترى طريقته في ذلك ، يقول :

اذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهي ملكت فأسجح
وناصرك الأدنى عليه ظعينة تميد اذا استعبرت ميد المرنح(٦)
ويقول : من كل ذي قنة يعوم زمامها عوم الخشاش على الصفا يترأد(٧)
ويقول : لقد شقيت شقاء لاانقطاع له ان لم أفز فوزة تنجي من النار(٨)
ويقول : فتـلافتـه فلاثت بـه لعوة تضبح ضبح النهام(٩)

---

[١] الديوان (١ ــ ٩) .
[٢] الديوان (٧ ــ ١) .
[٣] الديوان (٤٣ ــ ٢) واحتتن استوى اصابة المتناضلين ، والخصلة الاصـابة ، والاغراض الأهداف .
[٤] الديوان (٦٧ ــ ٥) الضرير الشدة ، والعقو هو حد البكرة اذا كان من خشب .
[٥] الديوان (١ ــ ٣٥) .
[٦] الديوان (١٧،١٨ ــ ١) .
[٧] الديوان (٣ ــ ١٨) الخشاش الحية ، ويترأد يميل يمينا وشمالا .
[٨] الديوان (١ ــ ٣٠) .
[٩] الديوان (٥٣ ــ ٤) تلافته أدركته ، ولاثت به دارت حوله ، واللعوة الكلبة الحريصة ، وتضبح تنبح ، والنهام طائر .

ويقول : يخافتن بعض المضغ من خشية الردى ... وينصتن للسمع انتصات القناقن(١)

ويقول : عولق الحـــرص إذا أبشرت ... ساورت فيـــه سؤور المسام(٢)

ويقول : ونبئت أن القين زنى عجوزه ... قفيرة أم السوء أن لم يكد وكدي(٣)

ويقول : بمنخرق تحن الريح فيه ... حنين الجلب في البلد السنين(٤)

٤ ــ وقد يوفر هذه الموسيقى ، بتكرار الكلمات تكراراً ، لا على المفعولية المطلقة . ولننظر الى هذا النحو من صناعته اللفظية ، فيما يأتي من أمثلة يقول :

إذا جئتها تبكي بكت وتذكرت ... مع الحزن صولات امرىء غير زمح(٥)

و : فان أشمط فلم أشمط لئيماً ... ولا متخشــعاً للنائبـــات

ومارست الأمـــور ومارستني ... فلم أجزع ولم تضعف قناتي(٦)

و : وتملح ما اسطاعت ويغلب دونها ... هوى لك ينسي ملحة المتملح(٧)

و : أصمصام إن تشفع لأمك تلقها ... لها شافع في الصـــدر لم يتبرح

هل الحب الا أنها لو تعرضت ... لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي

وإن كنت عندي أنت أحلى من الجنى ... جنى النحل أضحى واتنا بين أجبح(٨)

---

[١] الديوان (٣٠ ــ ٤٧) ، القناقن المهندس الماهر ، الذي يعرف المـــاء تحت الأرض .

[٢] الديوان (٥٥ ــ ٤) . العولق الشديدة الحرص ، وأبشرت ، باشرت ، والمسام المطاول ، وساورت وثبت .

[٣] الديوان (٥ ــ ١٩) وكد فلان أمره اذا مارسه وقصده .

[٤] الديوان (١٦ ــ ٤٩) وأنظر (١٨ ــ ٤٩) حيث يقول :

ترى لحلوق جلتها أداوى ... مولعة كتوليع الكرين

[٥] الديوان (٢٠ ــ ١) .

[٦] الديوان (١١ ، ١٢ ــ ١٢) .

[٧] الديوان) ٦ ــ ١٤) .

[٨] من المقطوعة الرابعة عشرة في الديوان .

و : وما نيل مصر قبيل الشفى　　إذا نفحت ريحه النافحه(١)
و : تزل عن الأرض أزلامه　　إذا زلت القدم الأزحه(٢)
و : بمثل ثنائك يحلو المديح　　وتستبحر الألسن المادحه(٣)
و : مثل عير الفلاة شاخس فاه　　طول شرس اللطى وطول العضاض(٤)
و : فيؤديهم علي فتاه سني　　حنانك ربنا يا ذا الحنان(٥)
و : وأنا ابن اباة الضيم من آل مالك　　وان مالك كانت كرام المعادن(٦)
و : ويفتق جانبنا ونرتق فتقه　　إذا ماعظيمات الأمور استجلت(٧)
و : فسلي الناس ان جهلت وإن شئت قضى بيني وبينك قاض(٨)
و : وتنمى كلما آنست　　نبأة والمؤنس الروع نام(٩)

ولنقرأ المقطوعة العشرين ، في الديوان ، ولننظر الى تكرار الحروف . فهي خير ما يوضح أسلوبه ، في تكرار الكلمات .

لاعز نصر امرىء أمسى له فرس　　على تميم يريد النصر من أحد(١٠)
اذا دعا بشعار الأزد نفرهم　　كما ينفر صوت الليث بالنقد(١١)
لوحان ورد تميم ثم قيل لها　　حوض الرسول عليه الأزد لم ترد

---

[١] الديوان (٤ — ١٧) .
[٢] الديوان (٩ — ١٧) أزحت القدم إذا زلت .
[٣] الديوان (١٦ — ١٧) .
[٤] الديوان (١٥ — ٢) .
[٥] الديوان (١١ — ٤٨) يؤديهم يعينهم .
[٦] الديوان (٥٠ — ٤٧) .
[٧] الديوان (٢٠ — ٨) .
[٨] الديوان (٣٢ — ٢) .
[٩] الديوان (١٩ — ٤) .
[١٠] القصيدة في هجاء تميم والفرزدق والاعتزاز بالأزد .
[١١] النقد ضرب من الغنم .

أو أنزل الله وحيا أن يعذبها ... إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
وكل لؤم أباد الدهر أثلته ... ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد(١)
لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد
قوم أقام بدار الذل أولهم ... كما أقامت عليه جذمة الوتد
فاسأل قفيرة بالمروت هل شهدت ... عسب الحطيئة بين الكسر فالنضد
أم كان في غالب شعر فيشبهه ... شعر ابنه فينال الشعر من صدد
جاءت به نطفة من شرماء صرى ... سبقت الى شر واد شق في بلد
لا تأمنن تميما على جسد ... قد مات ما لم تزايل أعظم الجسد

٥ ـ موازنة الصوت المعنى :

وهذا ضرب آخر ، من ضروب صناعة الطرماح الشعرية ، يستغل فيه الشاعر التراكيب لتقوم ، بما تحمل من تقسيم صوتي ، بتصوير المعنى وتجسيده ، ملائما بين التقسيم اللفظي ، والتصوير المعنوي . ذلك حين يقسم هذه الاصوات المستفادة من الحروف والكلمات ، بين صدر البيت وعجزه ، أو بين التراكيب أو التفعيلات تقسيما ينتج عنه توازن صوتي ، خلال التراكيب والتعابير ، مراعيا تتالي المعاني وترابطها وتوازنها ، وعلاقة بعضها ببعض ، فما تقوم علاقة معنوية بين تركيبين أو تعبيرين ، حتى نجد بينهما علاقة صوتية ، من الموسيقى الداخلية .

وهذا الاسلوب يكسو التعابير جمالا وروعة فضلا على الدلالات المعنوية التي يمنحها للتراكيب . مثال ذلك قوله :

لقد شقيت شقاء لاانقطاع له ... إن أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد ... الا المنيب بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري(٢)

فقد عاقب بين الشينات والقافات ، في صدر البيت الاول ، وجعل في مقابل هذه الشينات والقافات ، فاءات وزايات ، في العجز ، لنلاحظ (شقيت شقاء) ،

---

[١] أثلته أصله .

[٢] الديوان المقطوعة الثلاثون .

(وأفز فوزة) ، ولنلاحظ هذه الموازنة اللفظية والمعنوية بين التركيبين ، في الوقت نفسه .

ولنز الى النونات في (والنار لم ينج) ، وفي لفظة (المنيب) ، ولنز الى العلاقة المعنوية بينهما .

ولنلاحظ في البيت الثالث ، كيف ربطت بين (سبقت) و (السعادة) . أواصر لفظية ومعنوية ، فحين قدم (سبقت) تركنا نترقب (فاعله) ، ثم جاء به ، وقد علم عليه (بالسين) ، لينبه عليه ، ويذكر به ، ويربطه بفعله ربطاً موسيقياً .

ونستطيع أن نجد مثل تلك الصناعة في الأمثلة التالية من شعره ، يقول :

من يرم جمعهم يجدهم مراجيح حماة للمزل الأحراض(١)

ويقول : ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت(٢)

ويقول : مخافة أن يرين النوم فيهم بسكر سناته كل الريون(٣)

ثانياً ـ الأوزان والقوافي :

كانت البحور الطويلة النفس تغلب على شعر الجاهليين ، ويجيء البحر الطويل في المرتبة الأولى منها ، ثم الكامل فالوافر فالبسيط . ونجد — الى ذلك — المتقارب ، وفي شعر امريء القيس بخاصة ، كما نجد عنده المنسرح(٤) .

وقد أصابت الأوزان والقوافي ، على عهد الأمويين ، حظاً غير قليل من التطور والتجديد ، في بيئات الكوفة والشام والحجاز . دون البصرة التي كان شعراؤها قانعين بالأوزان الجاهلية القديمة(٥) ، إذ كان شعراء الكوفة والشام والحجاز

---

[١] الديوان (٣٠ ــ ٢) .

[٢] الديوان (٨ ــ ١١) .

[٣] الديوان (١٥ ــ ٤٩) .

[٤] تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ٥٣ .

[٥] نقائض جرير والفرزدق ٣٠٠ .

يجنحون الى استعمال الأوزان النادرة . كالمديد . والأوزان القصيرة الموسيقية ، كالمتقارب والخفيف والرمل ومجزوء الكامل .

ويرجع أستاذنا الدكتور الزهيري ، هذا التجديد في القالب العروضي ، الى تطور الحياة النفسية عند العرب في ظل الاسلام : « من حيث أنها ظفرت بأحاسيس ومشاعر جديدة ، لم تظفر بها من قبل ، ذلك أن ظواهر اللهو والمجون والشراب والغناء والفقر والحرمان والصراع حول المبادىء السياسية ونحوها ، مما أوجدته الحياة الاسلامية . قد خلفت ظواهر نفسية كالحب العميق والشوق المضني والصبابة القاتلة ، والحزن والفناء في المبدأ والعقيدة ، هذه الظواهر النفسية والانفعالات الجديدة ، لم تستطع أوزان الشعر القديمة أن تنهض بأعباء التعبير والابانة عنها جميعاً ، ولهذا لم يكن للشعر بد من استعمال الأوزان القصيرة » كما يقول أستاذنا الفاضل(١) .

ونلحظ هـذا التجديد في القالب العروضي في شعر الطرماح ، إلا أنه ليس من الميسور – وقد ضاع أكثر شعره – أن نحكم حكماً دقيقاً على تطور الأوزان في شعره ، وأن نعرف أي البحور كان أكثر شيوعاً ، أو أسبق استعمالاً بينها . ونجد – بصورة عامة – أن الأوزان الشائعة الاستعمال في الشعر الجاهلي ، كالطويل والكامل والوافر والبسيط ، شائعة في شعره ايضاً ، كما نجد المتقارب ضمن الأوزان التي استعملها وبشكل عام نجد عنده جنوحاً نحو الأوزان القصيرة .

وفي أصل الديوان – وهو ثماني قصائد – استعمل الطويل ثلاث مرات وكلاً من الكامل والبسيط والخفيف والمديد مرة واحدة ، كما استعمل الخفيف مع المنسرح في القصيدة الخامسة(٢) .

---

[١] نقائض جرير والفرزدق ٣٠١ .

[٢] تقول الدكتورة سهير القلماوي : « ... بحر المديد فاز بعدة قصائد ، منها قصيدة كاملة في نحو ثمانين بيتاً مع العلم أنه بحر صعب قليل الاستعمال – أدب الخوارج ١٢٦ » ، وأرى أن الدكتورة في ذلك واهمة . فالطرماح =

والخفيف (١) من الأوزان النادرة في الشـــعر الجاهلي ، وقد كان عمر بن ابي ربيعة أول من ساعد على انتشاره(٢) .

والظاهرة الغريبة والحرية بالدراسة وتدقيق الملاحظة ، في شعر الطرماح ، هي القصيدة الخامسة ، التي استعمل فيها وزني الخفيف والمنسرح معا .

والذي يتبادر الى الذهن ، أن هذه مزيج قصيدتين ، اتفقتا بالقافية ، على غرابتها ، غير أن امتزاج المعاني وتسلسلها وترابطهـا الدقيق ، في بعض أقسام القصيدة ، يجعل الاطمئنان الى مثل هذا الافتراض أمرا عسيرا ، وان كانت هناك بعض الحدود تلوح بين معانيهـا في بعض مقاطعها ، فتوحي بفكرة امتزاج قصيدتين ، على أن ذلك يمكن أن يدفع أيضا بضياع بعض أبيات القصيدة ، مما جعل قسما قليلا من أجزائها يبدو غير مترابط .

ونلاحظ الآن تسلسل الوزنين في القصيدة ، لنرى تعاقبهما ، وأيهمـا أكثر سيطرة على أبياتها: عدد أبيات القصيدة «٧٥» ، ابتدأها الشاعر بالوزن الخفيف . وهذا تفصيل سير الوزنين في أبياتهـا : من البيت «١ الى ١٦» من الخفيف ، ومن البيت «١٧ــ٣٠» من المنسرح ، والبيت «٣١» من الخفيف ، ومن البيت «٣٢ــ٣٦» من المنسرح ، ومن البيت «٣٧ الى ٤٢» من الخفيف ، والبيت «٤٣» من الخفيف وهو مكسور (٣) ، ومن البيت «٤٤ الى ٥٥» من المنسرح ، ومن البيت «٥٦ــ٧٥» من الخفيف .

ومن ذلك تتبين أن الوزن الخفيف غلب على القصيدة فكان «٤٥» بيتا وكان المنسرح «٣٠» بيتا .

= لم يستعمل هذا البحر غير مرة واحدة . وفي الذيل بيت واحد (مقطوعة ٤٢) من الوزن الخفيف ، وهو من هذه القصيدة نفسها .

[١] يقول الدكتور صفاء خلوصي : « وهذا قليل الورود نسبيا لثقله على السمع ــ فن التقطيع الشعري ٤٦ » .

[٢] تاريخ الادب العربي لبروكلمن ٥٣ .

[٣] عده الناشر من المنسرح .

أما الناشر (كرنكو) ، فقد ذكر أن القصيدة ابتدأت بالخفيف وسقطت في البيت «١٢» في الوزن المنسرح ، وعادت في البيت «٣١» الى الخفيف(١) ، وهذا — كما رأينا — خطأ .

وكما يتبادر الى الذهن ، بعد عرض تعاقب الوزنين ، احتمال امتزاج قصيدتين في قصيدة واحدة ، يتبادر كذلك احتمال آخر هو : أن الشاعر قد احس أن الخفيف — وهو الوزن الطاغي في القصيدة — يضيق عن استيعاب المعاني ، التي يريد تصويرها ، فلجأ الى المنسرح ليعينه في أداء هذه المعاني والفكر المحتشدة في ذهنه

ومعنى ذلك ، أنه كان جزئياً فتحرر — تحت وطأة معانيه — من قيد الوزن الواحد . ويجدر بنا ، أن نشير هنا الى أن هذه القصيدة ذات طابع خاص ، ويبدو أنه قالها تحت تأثير ظروف قاسية ، وسنرى في الحديث عن الصيد ، كيف أن هذه القصيدة تعبر عن شعور بالاخفاق والملاحقة . وتمثل بعض جوانب (عقيدته؟) .

واذا صح الاحتمال الأخير — وأنا أميل الى ترجيح صحته — تكون محاولة الطرماح أسبق من محاولات أصحاب الموشحات الأندلسيين .

أما جهل الطرماح بالشعر ، وأنه لم يتنبه الى هذا الخطأ ، ففكرة أستبعد وقوعها ، ويكفي ما صدر بحقه من أحكام تضعه بجانب الفحول ، لابعاد شبح مثل هذه التهمة عنه(٢) .

---

[١] مقدمة الديوان . P. X×111

[٢] يقول أبو الفرج في الأغاني (دار الكتب ١٢ /٣٤) : « والطرماح من فحول الشعراء الاسلاميين وفصحائهم » . وكان خالد بن كلثوم يصفه ويصف الكميت ، بالأسدين إعجاباً . وكان ذو الرمة يعبر عن إعجابه به بتعليقه على احدى قصائدة بقوله : « لله در هذا الكلام ما أحسن إجابته لرويتك ، إن كدت لأطيل لك حسداً — الأغاني ٣٧/١٢» . ولقد مر بنا أن أبا عبيدة والأصمعي يعدانه أشعر الناس بيتين — الشعر والشعراء ٣٧٣ ، =

وأمر آخر يلاحظ على وزن هذه القصيدة . ذلك أن الأبيات التي من الخفيف . محذوفة العروضة (فاعلن) وكذلك ضربها (وقد خبن كلا من عروضها وضربها) ، ويجوز له ذلك ، أي أن يجعله (فعلن) ، وأكثر هذه الأبيات — مدورة ، الا أنه حينما يدور البيت ، يعدل عن هذه العروضة المحذوفة (فعلن) التي اعتمدها في الأبيات غير المدورة ، الى العروضة الصحيحة (فاعلاتن) في حين يبقي الضرب محذوفا مخبونا (فعلن) . وقد لجأ الى التدوير « ٣٨ » مرة من « ٤٥ » استعمل فيها الخفيف ، وكما دور في الخفيف فعل في المنسرح

وكذلك القصيده الرابعة ذات الوزن المديد ، فقد خرج في بعض أبياتها على المألوف(١)

= الأغاني ٩٧/٢ . كما كان الأصمعي يستجيد قوله في صفة الظليم : « مجتاب شلمة ... الشعر والشعراء ٣٧٣ » . وأن أبا نواس كان يعده أشعر الخلق في بيته :

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

انظر الحيوان ٤٦٥/٣ والأغاني ٤٢/١٢ . وجاء في مجالس ثعلب ٥٣٧ : استحسان أبي نصر لوصفه الظبية بقوله :

مثل ماعاينت مخروفة نصها ذا عرخوف مسوام

وكان يستحسن هذا الوصف قدامة أيضاً في نقد الشعر ١٤١ ، في حديثه عن عيوب ائتلاف المعنى والقافية . كما اعجب به أبو هلال العسكري في الصناعتين ٤٥٠ . ويروى الخطيب التبريزي ، في معرض كلامه عن الطرماح مانصه :

« قال بعض العلماء لوتقدمت أيامه قليلاً لفضل على الفرزدق وجرير شرح الحماسة ١٢٢/١» . وعده صاحب الفهرست من الشعراء الفحول أيضاً (٧٤ ط ليبزك و١١٧ ط الاستقامة) ، وأيضاً يصفه أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي في كتاب الابدال ٣٢٤ بأنه شاعر فحل .

[١] البيت التاسع والتاسع والسبعون من القصيدة مكسوران .

فالقصيدة كلها محذوفة العروضة (فاعلن) ، مقصورة الضرب (فاعلاتْ) ، ماعدا البيت الثاني منها ، فهو صحيح العروضة (فاعلاتن) مقصور الضرب . ونجده كذلك خرج في بعض أعاريضها ، من محذوفة الى محذوفة مخبونة (فعلن) . وأمثلة ذلك الأبيات « ١٦ ، ٣٠ ، ٣١ »(١) .

ولقد كان شاعرنا ذا مقدرة في المناسبة بين أوزانه ومعانيه ، بلائم بينها ملاءمة ، ومن يقرأ شعره يجد هذه الظاهرة واضحة فيه . والوزن جزء من التعبير الموسيقي عن المعاني والافكار ، لذلك نجده يعنى في ملاءمته لموضوعاته .

ومن مظاهر عنايته بالموسيقى وبالوزن ، ومحاولة ملاءمته بين الوزن والمعنى ، أنه يعمد الى انهاء التفعيلة بانتهاء الكلمة أو المقطع أو التركيب ، فتأتي هذه على قدر التفعيلة ، ينتهي بناؤها بانتهاء صوتها ، أي أنه ينهي بناء العبارة ، بانتهاء المقطع الموسيقي ، فتجيء التفعيلات على قدر الكلمات لا تفيض عنها ولا تقصر دونها ، والشاعر — بذلك — لايدع مجالاً للوزن أن يجور على المعنى ، فيقتطع منه ، بل يترك بينهما توافقاً وانسجاماً ، فلو نظرنا الى بيته التالي :

وقفت بها ، فهيض جوى أطاعت   له زفرات مغترب حزين(٢)

لوجدنا معانيه مفصلة على قدر مقاطعه الموسيقية . فقوله (وقفت بها) مساو للتفعيلة الأولى ، و(فهيض جوى) . مساو للتفعبية الثانية ، و(أطاعت) مساو للثالثة . وكذلك لو قرأنا البيتين التالين ، لوجدنا فيهما من هذه الملاءمة ، ما وجدنا في البيت السابق :

فان أشمط فلم أشمط لئيماً   ولا متخشعاً للنائبات

ومارست الأمور ومارستني   فلم أجزع ولم تضعف قناتي(٣)

فقوله (فان أشمط) مساو للأولى و (لم أشمط) مساو للثانية و (لئيماً) للثالثة . ونرى مثل ذلك في تقسيم عجز البيت الثاني ونجد مثله

---

[١] عد أبو الطيب اللغوي صاحب كتاب الأضداد في كلام العرب بعض أبيات هذه القصيدة رجزاً ٤٨٠/١ .

[٢] الديوان (٨ — ٤٩) .

[٣] الديوان (١١ ، ١٢ — ١٢) .

في النماذج التالية :

أسرناهم وأنعمنا عليهم ... وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب ... ولا أدوا لحسن يد ثوابا(١)

و : بمثل ثنائك بحلو المديح ... وتستبحر الألسن المادحه
ومثلك ناحت عليه النساء ... من بين بكر الى ناكحه(٢)

ومثل عنايته بالأوزان عنايته بالقوافي . فنراه يميل الى استعمال الحروف الرخوة اللينة ، ذات الجرس الموسيقي الهادىء في قوافيه . وقد يعمد الى استعمال القوافي الساكنة ، طلبا للموسيقى الهادئة الساكنة ، كما فعل في القصيدة الرابعة ، ذات الوزن المديد(٣) ، والقصيدة الخامسة(٤) ، والقصيدة السابعة عشرة ، التي رثى فيها يزيد بن المهلب(٥) ، والمقطوعة الثانية والثلاثين ، والقصيدة الحادية والاربعين في مدح يزيد(٦) .

وأذكر هنا ، تعليق الدكتورة سهير القلماوي على قافية قصيدته الخامسة ، فانه يوضح مدى عنايته بالقافية ، تقول « ... وللأبيات موسيقى هادئة مفكرة تلائم معانيها ، موسيقى تستمد هدوءها ويسرها ، من هذا البحر الخفيف المتصل صدره وعجزه بكلمة واحدة كأنما هو صدى لاتصال التفكير المتأني ، ومن القافية الساكنة الخفيفة النطق ، قافية تجعل القارىء يهدأ هدأة آخر كل بيت ، كأنما هي هدأة التأمل والتفكير في معانيه ، وكأنما هي هدأة التأثر بتلك المعاني وموسيقاها ، وما تنقله من حس بأمور لا يكون الاحساس بها إلا هادئاً مهيباً جليلاً »(٧) .

---

[١] الديوان (١ ، ٢ ــ ١٠) .
[٢] الديوان (١٦ ، ١٧ ــ ١٧) .
[٣] مطلع القصيدة : شت شعب الحي بعد التئام وشجاك اليوم ربع المقام
[٤] مطلع القصيدة : طال في رسم مهدد أبده وعفا واستوى به بلده
[٥] مطلع القصيدة : قفا نسل الدمن الماصحه وهل هي إن سئلت بائحه
[٦] مطلع القصيدة : وتجود من عين صفوف الغرب مترعة الجداول
[٧] أدب الخوارج ١١٣ .

الفصل السادس

الهِجاء

أولا ـــ الطرماح شاعر هجاء :

قلت إن حديثي عن شعر الطرماح ، سيكون على قسمين : قسم يتعلق بالجوانب اللفظية من هذا الشعر ، وقسم يتصل بالجوانب المعنوية والأغراض .

واذ قد استوفيت الحديث ، فيما مر من فصول عن الجوانب اللفظية ، حين درست الغرابة ومظاهرها في شعره ، وتأثير البيئة القروية على ألفاظه ، وحين تحدثت عن الموسيقى ، أبدأ في هذا الفصل ، وما يليه من فصول ، بدراسة معانيه وفنونه وأغراضه مبتدئاً بالهجاء .

سار ذكر هجاء الطرماح واشتهر وكان موضع إعجاب القدامى من النقاد والأدباء كما كان موضع عناية بعض المعاصرين . الا أن هؤلاء المعاصرين نوهوا بهجائه هذا دون أن يدرسوه الدراسة الدقيقة التي تكشف عن سر الأصالة والابداع فيه .

لقد أطلت الوقوف عند هجائه لسلاسة لغته وحلاوة صوره الساخرة ، ولأنه يمثل قرويته ، وريفيته ، ولسبب آخر ذلك هو مناقضاته للفرزدق وقد كانت سراً مجهولاً . وهذه المناقضات تمثل وجهاً من وجوه العصر والبيئة .

« إذا ركب الطرماح الهجاء فكأنما يوحى اليه » ، حكم خطير للمفضل الضبي(١) ، يدل دلالة بالغة على أصالة أسلوب الطرماح ، وبصره بفن الهجاء .

وليس المفضل وحده ، الذي أكد براعته في هذا الفن ، ففي كتب الأدب إشارات كثيرة الى ذلك .

فهذا ابن قتيبة ذكر تائيته وعقب على أحد أبياتها قائلاً : « وهذا من الافراط »(٢) .

ودعبل بن علي الخزاعي ، يذكر : أن أهجى بيت قيل ، هو قول الطرماح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ومثله بيته في القلة والخمول :

لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد(٣)

وهذا ابن عبد ربه ، يؤكد في كثير من أحكامه ، تفوقه في فن الهجاء فيقول : « ولم يقل أحد في وصف الجبن والفرار ، مثل قول الطرماح في بني تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة ... يكر على صفي تميم لولت

ولو جمعت يوماً تميم جموعها ... على ذرة معقولة لاستقلت »(٤)

---

[١] الأغاني ٤٣/١٢ ، انظر الأبيات في حماسة ابن الشجري ١٢٦ .

[٢] الشعر والشعراء ٣٧٢ ، والبيت الأول من التائية في شرح النهج ٤٣٠ .

[٣] ذكر ذلك ابن قتيبة في عيون الأخبار ١٩٥/٢ .

[٤] العقد الفريد (لجنة التأليف ١٤٥/١ ، ١٧١/١ ، الاستقامة ١٠٣/١) ، أنظر كتب الصناعتين ٣٣٠ . الذرة النحلة والمعقولة المشدودة بالعقال .

ويقول أيضاً : « وقالوا أهجى بيت قاله العرب ، قول الطرماح بن حكيم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت(١)

وكان يصف هجاءه (بالخبث) . فيقول : « ومن أخبث الهجاء قول الطرماح :

وما خلقت تيم وزيد مناتها ... وضبة إلا بعد خلق القبائل »(٢)

وكرر ذلك في موضع آخر ، فقال : « ومن أخبث الهجاء قول الطرماح :

لو حان ورد تميم ثم قيل لها ... حوض الرسول عليه الأزد لم ترد»(٣)

وليس معنى ذلك ، إلا أن يكون هجاء الطرماح مراً لاذعاً موجعاً .

وذكر المرزباني(٤) جملة من الأبيات ، التي أغرق قائلوها في معانيها ، ومن ضمن هذه الأبيات ، مجموعة للطرماح منها قوله :

لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد

قوم أقام بدار الذل أولهم ... كما أقامت عليه جذمة الوتد

وقوله :

ولو جمعت عليا تميم جموعها ... على ذرة معقولة لاستقلت

ولو أن أم العنكبوت بنت لهم ... مظلتها يوم الندى لاستظلت

وقد شغل الهجاء جزءاً كبيراً من شعر الطرماح فضلاً على براعته وأهميته .

ولاشك في أن ما في هجائه من مبالغة ، ودقة في التصوير ، هو الذي سوغ للنقاد وصف معانيه بالاغراق .

---

[١] العقد الفريد (الاستقامة ٦ / ١٣١) .

[٢] العقد الفريد ١٣٢/٦ .

[٣] العقد الفريد ١٣٢/٦ .

[٤] الموشح ٢٣٦ ، ونسب هذا الحكم الى محمد بن احمد العلوي . وانظر نقد الشعر ١٠٧ .

وجاء في رسائل الانتقاد : « أما الكميت والرماح ونصيب[1] والطرماح ، فشعراء معاصرة ومناقضات ومفاخرة ، فنصيب أمدح القوم ، والطرماح أهجاهم والرماح أنسبهم نسيباً ، والكميت أشبههم تشبيباً »[2] .

وإذا رجعنا الى هذه الأحكام ، التي تدلل على براعته في الهجاء ، ومتانة أسلوبه فيه وروعـــة تصويره لمعانيه ، ثم استفسرنا عما حمل القدماء عليها ، تأكد لنا : أن أسلوبه في التصوير ، وبراعة سخريته ، وجدة معانيه وأصالتها ، كانت وراء هذه الآراء ، فضلاً على دلالة هذه الأحكام على شيء آخر هو ، أن هؤلاء القدماء درسوا نماذج كثيرة من شعره ، في الهجاء ، قبل أن يستخلصوا كل هذه الأحكام . وليس بين أيدينا من هذه النماذج إلا القليل .

وهجاء الطرماح أروع مظاهر حبه لنفسه وإعجابه بها ، وأجمل صورة من صور كبريائه وإبائه ، وتعصبة لطيء والأزد والقحطانيين واليمن ، وبغضه للعامة . ففيه مجال عريض للفخر بكل ذلك ، وهو متنفس رحب ينفث فيه حقده ، وألمه وكل مايعانيه من متاعب الحياة والناس ، ويعكس خلاله ثورته العارمة المضطرمة في صدره جراء ما يحسه من حرمان وملاحقة وإخفاق لذلك جاء مؤلماً قوياً ، تمتزج فيه السخرية بالكبرياء امتزاجاً .

تناول في هجائه بني يشكر ، وناقض شاعرهم « حميد اليشكري »[3] ، وسب بني سـعد ، وبني ضبة وبني أسد ومضر بعامة ، وخص تميماً والفرزدق بأكثر هجائه وأوجعه . ويكفي للتدليل على مدى قسوة ذلك الهجـاء وإيلامه ، أن أثره امتد ما يقارب القرن بعد وفاته ، اذ عزل ابراهيم بن الأغلب ، أمان

---

[1] الرماح بن يزيد بن أبرد ، يعرف بابن ميادة ، من ندماء الوليد بن يزيد . ونصيب بن رباح شاعر مقـدم وكان عبداً أسود هاجى الفرزدق توفي عام ١١٣هـ .

[2] رسائل الانتقاد ١٨ .

[3] الأغاني (دار الكتب ٤٢/١٢) ، الديوان (١ ، ٢ ٥٠) .

ابن الصمصامة (حفيد الطرماح) ، بسبب هجاء جده لبني تميم ، وكان ابراهيم تميمياً(١) .

ولقد شاع هجاء الطرماح لبني تميم ، واشتهـــر بين الناس ، حتى ماتت معانيه من ألعن ما يعير به التميمي ، يصور ذلك أحسن تصوير ، ماترويه كتب الأدب(٢) ، من أن رجلا من بني تميم مر برجل من بني نمير على يده بازي ، فقال التميمي للنميري : ما أحسن هذا البازي ، فقال له النميري : نعم وهو يصيد القطا . أراد التميمي قول جرير :

أنا البازي المطل على نمير   اتحت من السماء لها انصبابا

وأراد النميري قول الطرماح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا   ولو سلكت سبل المكارم ضلت

واذ كان أغلب هجاء الطرماح في تميم ، وفي الفرزدق ، فسارجىء الحديث عن معانيه ، حتى أدرس هجاءه ومناقضته للفرزدق ، ثم أعود بعد ذلك للحديث عن معانيه ، وهي أجلى وأظهر .

---

[١] طبقات النحويين ٢٤٥ ، بغية الوعاة ٢٠١ ، معجم الأدباء ٥١/٧ .

[٢] العقد الفريد (ط لجنة التأليف ٤٦٨/٢) ، سمط اللآلي ٨٦٣/٢ ، أمالي المرتضى ٢٨٩/١ ، الكنايات للثعالبي ٥٧ ، مختصر كنايات الأدباء ٧٢ ، المثل السائر ٩٥ .

ثانياً - الطرماح والفرزدق :

متى بدأ التهاجي بين الطرماح والفرزدق ، ولماذا ؟ ليس هناك أيسر من تعليل هذا الهجاء ، ولا من تحديد زمنه .

والسبب الكبير الذي يختفي وراءه كل هذا الهجاء ، هو تعصب الطرماح لليمن وطيء ، ووقوفه بجانب الأزد وقحطان ، وكراهيته لمضر بعامة ، فقد قدمنا : أن وراء هجائه عصبيته الشديدة المتطرفة . ولا يفوتنا أن نذكر هنا حقيقتين معروفتين ، تتصلان بهذا الموضوع اتصالاً وثيقاً .

أولاهما : ان عصر الطرماح هو العصر الذهبي للهجاء ، فقد بلغ فيه ذروته واستكمل فيه أروع أشكاله الفنية فكانت النقائض . ويكفي أنها دامت أكثر من أربعين عاماً ، بين شاعرين كبيرين ، هما جرير والفرزدق ، وأنها جذبت في محورها جمهرة من فحول شعراء العصر .

والحقيقة الثانية تمس جوهر سياسة الأمويين ، فقد كانت هذه السياسة قائمة على أساس استغلال المنازعات والخصومات بين العصبيات القبلية الكبرى ، فقد استفادت مما كان يقع بين اليمن متحدة مع ربيعة وبين مضر ، ومما كان يقع بين قيس وتميم (فرعي مضر الكبيرين) .

ومواقف شعراء هذه القبائل المتعصبة ، تتأثر بشدة بين ما كان يقع بين هذه القبائل نفسها ، من صراع أو حلف أو سوى ذلك ، فينعكس هذا التأثر في شعرهم ، ولقد كان أغلب هذا الصراع يدور حول الحكم ، وموقف الوالي ، ومدى تعصبه لقبيلته ، أو جوره ، على أعدائها وإيثاره إياها في المناصب والمناسبات . فهذه القبائل كانت تلتف حول الولاة الذين ينتسبون اليها .

لقد كانت الخصومة بين العدنانيين والقحطانيين قائمة في كل قطر من أقطار الدولة الاسلامية ، إلا أن أشهرها أثراً ، ما كان بين تميم البصرة وأزدها ، فلقد كان لهذه الخصومة أثرها البعيد ، إذ جرت الى الحرب بين

الطرفين ، وشاركت فيها كل من ربيعة وقيس ، فانضمت الأولى الى الأزد ، والثانية الى تميم .

عاش الطرماح فترة من حياته في البصرة — وهو من التعصب بالمكان الذي عرفناه — وشهد ما شهد من هذه الخصومات فتأثر بها أيما تأثر .

وليس من شك في أن هذا الهجاء ، الذي اتصل بينه وبين الفرزدق ، كان صدى للخصومات القبلية والتنافس الشديد ، بين القحطانيين ومضر ، أو بين الأزد وتميم بشكل خاص . فموقف الشاعرين كان متأثراً بهذه الخصومات والمنافسات كل التأثر — كشأن سائر شعراء العصر — وبميول الولاة ونزعاتهم القبلية أيضاً .

والدكتورة سهير القلماوي ربطت بين هجائه تميماً والفرزدق وعقيدته ، وردت بغضه لهم الى خارجيته ، وقد مر بنا ذلك ، تقول في تفسير هذا الهجاء : « . . . . ولعل في هذا ما يمت الى مذهب الخوارج بصلات ، بل هو مستمد منه ومن اعتناق الطرماح له ، فالمتتبع لتأريخ الخوارج ، قلما يجد قائداً أو أميراً لهم من غير مضر أو ربيعة ، فهل كان هذا مقصود أم أن الظروف هي التي حكمت به ، مهما يكن السبب فالواقع أن مذهب الخوارج لم يحقق أمل اليمنيين في السلطان »(١) .

وتبرر هذا الهجاء — في موضع آخر — بنفس السبب فتقول : « وكان التميميون بنوع خاص عنصراً خطيراً في حياة الخوارج منذ نشأتهم ، وقواد الخوارج أكثر ما ينتسبون الى تميم ، وكانت أشد القوى الموجهة ضد الخوارج ، قوى أزدية ويمنية (جيوش شامية وقواد يمنية) وكان بعض الخوارج يهجو الأزد أو اليمن اذا أراد هجاء العدو الديني ، فهل كان هذا حافزاً آخر للطرماح أن يهجو تميماً وان كانت خارجيه مثله ، . . »(٢) .

لم يبد الطرماح — طوال عهد الحجاج — أي موقف يصرح بعدائه

---

[١] أدب الخوارج ١٠١ .

[٢] أدب الخوارج ١٠٥

لتميم ، أو يكشف عن خصومته مع الفرزدق ، وقد سبق أن رأينا ، أنه كان خلال ولاية الحجاج العراق ، في بلاد فارس .

وأول بادرة نراها في شعره ، تنم عن هجائه مضر . كانت بعد وفاة الحجاج بعام واحد ، اذ حدثت وقعة وكيع ، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي كان يتعصب للقيسية . . وكان الأزد قد ساهموا في مقتله مساهمة فعالة ، اذ أنهم أول من تحدث في ضرب عصيانه ، وكان قد سبهم كما سب تميما ، في خطبة خطبها اثر عصيانه(١) . وقد استغل معارضو قتيبة موقف تميم ، وكانت تمثل قوة كبيرة من فرسان مضر ، فساهمت في اخماد الفتنة كما ساهم غيرها . كتب الفرزدق في هذا الحدث كما كتب الطرماح ، وقد تتبعنا قصيدة الفرزدق :

أتاني ورحلي بالمدينة وقعة　　　لآل تميم أقعدت كل قائم

فلم نلمس فيها أي مساس بطيء أو الطرماح . غير أن الطرماح لم يكتف بالانتصار لقحطان والأزد وتسجيل موقفهم في هذه الوقعة ، بل تعدى ذلك الى التعريض بمضر عامة :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج　　　والأزد زعزع واستبيح العسكر
وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب　　　منهم الى أهل العراق مخبر
واستضلعت عقد الجماعة وازدرى　　　أمر الخليفة واستحل المنكر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة　　　والخيل جانحة عليها العثير
بالمرج مرج الصين حيث تبينت　　　مضر العراق من الأعز الأكبر(٢)
اذ حالفت جزعا ربيعة كلها　　　وتفرقت مضر ومن يتمضر
وتقدمت أزد العراق ومذحج　　　للموت يجمعها أبوها الأكبر
قحطان تضرب رأس كل مدجج　　　تحمي بصائرهن اذ لا تبصر
والأزد تعلم أن تحت لوائها　　　ملكا قراسية وموت أحمر
فبعزنا نصر النبي محمد　　　وبنا تثبت في دمشق المنبر(٣)

---

[١] الطبري حوادث سنة ٩٦ هـ ص ١٢٨٧ .

[٢] اظنها الأكثر .

[٣] الطبري ١٣٠٢ ، الديوان المقطوعة الخامسة والعشرون .

على أن هذه بادرة لم تعقب شيئا . ويبدوا أن الطرمـاح اكتفى بعـدهـا بمدح يزيد وابنه مخلد حسب .

كانت هذه مقدمات ساعدت على أن تستعر نار الهجاء بين الشاعرين . أما السبب المباشر فيكمن في ثورة يزيد بن المهلب سنة (١٠٢ هـ) ، أي بعد فتنة قتيبة بست سنوات . وقد تنبه الى ذلك (كرنكو) ناشر الديوان(١) ، لكنه لم يقع على الدواعي الحقيقية للمهاجاة ، والتي جرت الطرماح الى هجاء تميم ، دون سائر مضر ، والفرزدق دون شعراء تميم أي أن (كرنكو) حدد وقوع الهجاء بأنه كان بعد ثورة يزيد (١٠٢ هـ) ، ولم يعرف علاقة الشاعرين بالثورة(٢) ، وكذلك الدكتورة سهير القلماوي ، فهي تعد سبب الهجاء لغزا في حياة الطرماح ، تقول : « ولعله من المسائل الغامضة في تاريخ الطرماح ، سبب هجائه للفرزدق ، والفرزدق تميمي ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون السبب الوحيد ، أو المباشر لتهاجي الشاعرين ، فلقد كان من شعراء تميم في ذلك العصر . غير الفرزدق »(٣) .

كانت ثورة يزيد أمل كل القحطانين ، فانتصار الثورة معناه انتقال الخلافة من نزار الى قحطان ، فضلاً على القضاء على القيسية . لذلك اتفق القيسيـــون والتميميون ، ما وسعهم الاتفاق ، على إحباط الثورة .

شارك الطرماح مشاركة فعلية في الثورة ، يبدو ذلك جليا في قصيدته الثانية ،

---

[١] مقدمة الديوان .

[٢] تقول الدكتورة سهير القلماوي : « يقول ناشر الديوان كرنكو : إن هجاء الطرماح للفرزدق كان بعد موت يزيد ، بسبب فرح التميميين بسقوط بني المهلب . فلو صح ذلك ــ وليس عليه دليل ــ لكان هذا الهجاء في أواخر أيام الطرماح ــ أدب الخوارج ٩٩ » .

[٣] أدب الخوارج ٩٨ ، ويحاول ابن بدران في تهذيب تاريخ ابن عساكر : أن يفسر سبب التهاجي بخلاف وقع بين الطرماح والفرزدق في مجلس عبدالملك الا انه يعود فيخلط بين طرماحنا والطرماح بن عدي بن عبدالله بن خيبرى ناهيك عن كون تعليله تبدو عليه السذاجة ٥٢/٧ .

التي تصوره من جملة الثائرين ، والتي يعتذر فيها عن اشتراكه بالثورة ويبرره :

عداني عنها أنني كل شارق ... أهز لحرب ذات نيرين ألتي
فان يك منا موقدوها فاننا ... بنا خمدت نيرانها فاضمحلت
ويفتق جانبنا ونرتق فتقه ... اذا ماعظيمات الامور استجلت(١)

وكان نصيب الثورة الفشل ، وغم فشلها القحطانيين المتعصبين ، وابتهجت به مضر كلها ، وشارك الفرزدق أيضاً ، وكأنه أراد بذلك أن يحسن موقفه من قيس ، التي أساء اليها زمن سليمان بن عبدالملك ، حين ثارت تميم خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلي ، تؤيدها ربيعة واليمن ، وقتلته ، فقد هجا الفرزدق قيساً وهجا قتيبة والحجاج الثقفي ، وجرته هذه الخصومة الى الوقوف بجانب اليمن ، فمدح يزيد بن المهلب ، الذي ولاه سليمان العراق ، ثم خراسان(٢) ، وحين جاء دور خلافة يزيد بن عبدالملك ، وولى ابن هبيرة العراق ، وكان هذا ميالاً للقيسية ، أراد الفرزدق أن يبرر موقفه وبحسنه ، فضلاً على كونه مضرياً ، شاركت قبيلته في إحباط الثورة ، فابتهج بفشل الثورة وفرح لانتصار مضر .

وهكذا شارك الفرزدق ، فانتصر لتميم ، وهجا الأزد ، واستغل موضوع هريم المجاشعي ، مادة يفاخر بها ويباهي : ذلك أن رجلاً من مجاشع رهط الفرزدق هو هريم بن أبي طلحة المجاشعي ، كان مع مسلمة يوم العقر في بابل ، ضرب يد يزيد بن المهلب فقطعها(٣) ، فاتخذ الفرزدق ذلك موضوعاً لقصيدته ، يفخر به :

أحل هريم يوم بابل بالقنا ... نذور نساء من تميم فحلت
فأصبحن لايشربن نفساً بنفسه ... من الناس إن عنه المنية زلت(٤)

أما الطرماح — وكان متأثراً أبلغ التأثر وأوجعه ، جزعاً لما آلت اليه

---

[١] الديوان (القصيدة الثامنة) .
[٢] الطبري حوادث سنة ٩٦ . نقائض جرير والفررزق ٢١٥ .
[٣] ديوان الفوزدق ١٣٥ .
[٤] ديوان الفرزدق ١٣٥ .

الثورة ، سيما أنها لم تكن أول ثورة (قحطانية) تفشل ، فقد سبقتها ثورة عبدالرحمن بن الأشعث — فقد رد على الفرزدق ، ينقض عليه قصيدته ، منتصراً للأزد اليمانية :

ألا إن سلمى عن هوانا تسلت وبتت قوى مابيننا وأدلت(١)
عداني عنها أنني كل شارق أهز لحرب ذات نيرين ألتي(٢)
أذبب عن أحساب قحطان إنني أنا ابن بني بطحائها حيث حلت
بأي بلاد تطلب العز بعد ما بموطنها هانت تميم وذلت
أقرت تميم لابن دحمة حكمه وكانت إذا سيمت هوانا أقرت(٣)
وكانت تميم وسط قحطان إذ سمت كمقذوفة في اليم ليلاً فضلت
ونجاك من أسد العراق كتائب لقحطان أهل الشام يوم استهلت
بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
بهم نصر الله النبي وأثبتت عرى عقد الاسلام حتى استمرت
وهم دمغوا بالحق أيام خالد شياطين أهل الشرك حتى اطمأنت
شياطين من قيس وخندف غرها من الله ما كانت سجاح تملت
فان يك منا موقدوها فاننا بنا خمدت نيراتها فاضمحلت
وبفتق جانبنا ونرتق فتقه إذا ما عظيمات الأمور استجلت
ملوك أصابتها ملوك لحقها وما بيع آجال لها اذ أطلت
أفخراً تميمياً إذا فتنة خبت ولؤماً اذا ما المشرفية سلت
ولو خرج الدجال ينشر دينه لزافت تميم حوله واحزألت(٤)
فراش ضلال بالعراق وحوة اذا مات ميت من قريش أهلت

---

[١] الديوان القصيدة الثامنة ، وجاء في مقدمتها التعليق التالي : « وقال الطرماح يرد على الفرزدق » .

[٢] ألتي حربتي .

[٣] دحمة أم يزيد بن المهلب .

[٤] زافت من المشي واحزألت ارتفعت .

فأين تميم يوم تخطر بالقنا		كتائب منا أظعنت وأحلت
كتائب من قحطان بالعقر أوقعت		وقائع فيها أعظمت وأجلت
فخرت بيوم العقر شرقي بابل		وقد جبنت فيه تميم وقلت
كفخر الاماء الرائحات عشية		برقم حدوج الحي حين استقلت
فبالعقر تبلى من تميم خبيثة		وبالمصر اخرى منهم ما أجنت
فما لقيت قتلى تميم شهادة		ولا صبرت للحرب حين اشمعلت(١)

افتتحها ــ كما رأينا ــ بالغزل ، وسب فيها تميما وقيسا ، وأنكر دورهما في احباط الثورة ، ورده الى كتائب أهل الشام القحطانية ، كما حاول ان يعتذر عن اشتراكه بالثورة ويبرره . وقد غاظ ذلك الفرزدق ، خاصة وأنه لم يتعرض للطرماح او لطيئ في شعره ، فرد الطرماح ينقض عليه قصيدته :

لقد هتك العبد الطرماح ستره		وأصلى بنار قومه فتصلت
سعيراً شوت منهم وجوها كأنها		وجوه خنازير على النار ملت(٢)

هل رد الطرماح على الفرزدق ؟ في الديوان مقطوعة عدد أبياتها تسعة ، تحمل وزن قصيدة الفرزدق الثانية وقصيدة الطرماح الاولى وقافيتهما . والمقطوعة كلها رد على الفرزدق وهجاء لتميم ، وقد جمع الناشر أبياتها من كتب الأدب(٣)، وهي تبدو لأول وهلة ، وكأنها من جملة أبيات قصيدته الاولى ، وقد ذكر الناشر في مقدمتها : أنها أبيات تعود للقصيدة الاولى (الا ان سلمى . . . .) ، والتي رد فيها الطرماح على الفرزدق ، ولكن هذه الأبيات ــ فيما يبدو لي ــ نقيضة لقصيدة الفرزدق الثانية (لقد هتك العبد الطرماح . . . .) ، ففيها طريقة جديدة للتصوير ، سلك فيها الطرماح مسلك الأغراق في المعنى والمبالغة فيه ، ورسم الصور المضحكة ، ولم يكن كذلك في قصيدته الاولى وانما كان متأثرا حزينا ناقما . وهذه مجموعة صور هزلية (كاريكاتورية) متتابعة لتميم من هذه القصيدة :

---

[١] اشمعلت استحدت .

[٢] ديوان الفرزدق ١٣٥ .

[٣] الديوان المقطوعة الحادية عشرة .

ولو أن برغوثا على ظهر قملة | يكر على صفي تميم لولت
ولو أن حرقوصا يزقق مسكه | اذاً نهلت منه تميم وعلت(١)
ولو جمعت يوماً تميم جموعها | على ذرة معقولـــة لاستقلت
ولو أن ام العنكبوت بنت لهم | مظلتها يوم الندى لأكنت

ويهجو فيها تميما هجاء دينيا ، معيرا اياها بموضوع سجاح التميمية ، وزواجها من مسيلمة الكذاب ، ويفخر بتمسك قومه بأسباب الدين :

لعمري لقد سارت سجاح بقومها | فلما أتت عز اليمامة حلت
فدارسها البكري حتى استزلها | فاضحت عروسا فيهم قد تجلت
فتلك نبي الحنظليين أصبحت | مضمخة في خدرها قد تظلت(٢)
ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا | وماذبحت يوما تميم فسمت

فثورة يزيد ، وموضوع (هريم) بالذات ، كان العامل المباشر لاستعار نار الهجاء بين الشاعرين . ومما يؤيد أن هذه الثورة كانت منطلق الهجاء ، أن ما وقع خلالها ، من أحداث ، وما استتبعت من حوادث ، ظل الى فترة بعيدة معين هجائهما ونقائضهما ، يستمدان منه القول . ويلتمسان فيه الموضوع .

من ذلك ما قاله الفرزدق في محمد بن منظور الأسدي ، فقد قطع هذا — وكان مع مسلمة يوم العقر — ثلاثة أسياف ، وقد ولاه مسلمة الكوفة بعد موت يزيد بن المهلب :

إن يقتل النصري تحت لوائكم | فليست تميم بعدها بتميم
بقطع هندي الصفيح مساورا | سوار امرىء في الحرب غير لئيم
أرى الأسد أنباط العراق ومذحجا | وماطييء من مذحج بصميم(٣)

---

[١] الحرقوص دويبة نحو البرغوث ، وفي كتاب الصناعتين ٣٦١ :« ولو أن يربوعاً . . ».

[٢] تظلت اختبأت .

[٣] ديوان الفرزق ٨١٩ ، وقد رد عليه جرير منتصرا لطيىء ، على الرغم من أن الطرماح سب قيسا ومضر ، مرات عديدة ، قال جرير :

جديلة والغوث الذين لقيتهم | كرام وما من عابهم بكريم =

لقد كان لثورة يزيد أثرها الخطير في توجيه تعصب الطرماح نحو تميم ، دون سائر مضر . فبعد أن كان يتعصب على مضر بعامة ، بدأ يصب على تميم أوفر نصيب من حقده وغضبه ، ويخص شاعرها الفرزدق بأكثر هذا النصيب(١) .

= أتجعل يا ابن القين أوساً وحاتماً   كذي مرجل عند استه وقدوم
وقد نسب النساب قبلك طيئاً   الى ذروة من مذحج وصميم

وهذه المقطوعة من النقائض المستدركة في كتاب نقائض جرير والفرزدق للأستاذ الزهيري .

[١] في تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧ / ٥٢) : ان الحسن بن احمد ابن يعقوب بن ذي الدمينة . ذكر في كتابه الذي صنفه ، في مفاخر اليمن : أن الفرزدق كان عند عبدالملك ، فدخل الطرماح ، ورأى انصراف عبدالملك عنه ، فقال يا أمير المؤمنين : من هذا الذي ألهاك عني ، فقال الفرزدق مغضباً :

أقول له وتكر بعض حالي   ألم تعرف رقاب بني تميم

فأجابه الطرماح :

بلى (أعرف) رقاب مخيساب   رقاب مذلة ورقاب لوم

ويقول الحسن بن أحمد : كان هذا الذي قاد الهجاء بينهما .

ثالثاً ـ نقائض الطرماح والفرزدق :

وهنا ـ في مجال دراسة نقائض الشاعرين ـ تعترض البحث بعض العقبات ، فتجعل دراسة نقائضهما ، والمقارنة بينها غير يسيرة ، فشعر الفرزدق في الطرماح وطيء محفوظ في ديوانه ، فقد هجاه ، وعرض بقبيلته ، في ثلاث عشرة قصيدة ، ذكره صراحة في ست منها ، ورمز له بلفظ (الكلب) في واحدة ، وكثيراً ما كان ينعته بذلك خلال القصائد الست ، فضلاً على سبه إياه سباً مقذعاً ، أما القصائد الست الباقية ، فانه إما أن يسب فيها طيئاً سباً قبيحاً ، دون أن يتعرض للطرماح ، أو أن يكتب في موضوع يرى الطرماح فيه تعريضاً به وبقومه : وواضح أن الفرزدق إذ يهجو في هذه المقطوعات طيئاً أو حلفاءها ، إنما يريد هجو الطرماح .

أما الطرماح ـ وقد ضاع أكثر شعره ـ فليس في أصل ديوانه غير القصيدة الثائية ، في هجاء الفرزدق والرد عليه ، وأما ما سوى ذلك ، فقد جمعه الناشر من المراجع الأدبية ، وأثبته في الذيل ، وعثرت أنا عليه مما فات الناشر . وأهم هذه القصائد الداليتان :

أصاح ألا هل من سبيل الى نجد　　　وريح الخزامى غضة من ثرى جعد(١)

وفيها هجاء للفرزدق ، وتعريض بأحد أجداده (القين) وبجدته (قفيره)(٢) ، وفيها سب لمجاشع وتميم ونهشل وبني سعد(٣) . وقد أفحش

---

[١] الديوان القصيدة التاسعة عشرة .

[٢] نسبه من ناحية الأب الى جبير ، وهو قين كان لصعصعة بن ناجية بن عقال ، ونسبه من ناحية الأم الى قفيرة ، إحدى جداته ، وكانت سبية من سبايا قضاعة .

[٣] هجا بني سعد لما بينهم وبين الفرزدق من القرابة ، فأمهم هند بنت صعصعة ذات الخمار عمة الفرزدق .

الطرماح في هذه القصيدة في (جعثن) أخت الفرزدق ، على الرغم من كونه قليل الافحاش[١] .

أما الدالية الأخرى :

إن الفؤاد هفا للبائن الغرد   لما تذيل خلف العنس الخرد[٢]

فقد هجا فيها بني تميم وبني أسد وضبة ، وعرض بجدة الفرزدق (قفيرة) ، وبأبيه (غالب) . وأما ما سوى هاتين القصيدتين ، فلا يعدو أن يكون أبياتاً قليلة ، أو إشارات يتعرض فيها للفرزدق وتميم خلال قصائده ، كالقصيدة الميمية :

ألا من لعين لا تجف سجومها   تأوبها عاداتها وهمومها

اذ نجد في آخرها بيتاً ونصف بيت ، في هجاء النهشليين ، وقد ذكر الناشر أن الورقة (في المخطوطة) ممزقة[٣] .

يضاف الى ذلك إشارات عابرة ، يفخر بها ويخاطب شخصاً ، الظاهر من السياق ، أنه الفرزدق ، مثال ذلك المقطوعة التاسعة :

يا أيها الرجل المفاخر طيئاً   أعزبت لبك أيما إعزاب

إن العرارة والنبوح لطيىء   والعز عند تكامل الأحساب

عمي الذي صبح الحلائب غدوة   من نهروان بجحفل مطناب

والمقطوعتان الحادية والثلاثون والخامسة والستون .

استمر الهجاء بين الشاعرين ، وسلك كل واحد منهما فيه كل السبل المعروفة في هذا الفن ، من تحقير شأن المهجو وشأن قبيلته ، ومن تنقيب عن المثالب والمعايب وتجسيمها ، والتزيد فيها . وبلغ الهجاء بينهما الذروة ، إذ

---

[١] تقول الدكتورة سهير القلماوي : « والطرماح لايفحش في الهجاء إلا مرة واحدة ، وكانت تلك المرة في الفرزدق ــ أدب الخوارج ٩٩ » ، وهي في ذلك على خطأ ، ففي الديوان مقطوعة في هجاء سعد بن نافذ المعني ، أما أنا فقد بنيت حكمي على نفي نسبة هذه المقطوعة اليه .

[٢] الديوان المقطوعة العشرون .

[٣] الديوان (١١ ، ١٢ ــ ٦) .

استوفى كل أسباب هذا الفن ، فكانت النقائض(١) . وهي نوع من الترف الفني يلجأ اليه المتهاجيان ، فيعمد أحدهما الى نقض معاني الثاني أو مجاراتها ، وقد يضيفان الى ذلك وحدة الوزن والقافية ، فيلتزم الشاعر ، اذ يرد على خصمه ، وزن قصيدة ذلك الخصم وقافيتها(٢) .

---

[١] لم تشر الدكتورة سهير القلماوي الى حدوث النقائض بين الشاعرين ، وأكبر الظن أنها لم تقف عليها ، وكذلك الناشر لم يجد غير النقيضة الصغيرة (ثلاثة أبيات) ، ولم يثبت نصها في ديوان الطرماح ، بل اكتفى بذكر ترجمتها في مقدمة الديوان ، تقول الدكتورة : « ويروي لنا ناشر الديوان أبياتاً في رد الفرزدق على هجاء الطرماح ، لأن قوم الفرزدق لم يكرموا ضيفاً يسميه مختار طبيء ، كذلك تتجلى الصنعة في تأليف هذا الشعر ، الذي دار بينهما كأن يأخذ الواحد منهما من الآخر كلامه ويقلبه من المدح الى الهجاء أو بالعكس — أدب الخوارج ٩٩ » ، وأحب أن اوضح أن هذه الصنعة التي تشير اليها ، انما هي طبيعة النقائض ، لكنها فاتها ذلك . والأبيات هذه التي تشير اليها ، رد من الطرماح على الفرزدق ، لا من الفرزدق على الطرماح كما تدعي . والناشر نفسه يصرح بأنها رد من الطرماح على هجاء الفرزدق .

[٢] جاء في اللسان : المناقضة في القول أن يتكلم بما يتناقض معناه . والنقيضة في الشعر ما ينقض به . . . وكذلك المناقضة في الشعر ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول ، والنقيضة الاسم يجمع على نقائض » ، وهذا النص يوحي بأن المناقضة في الشعر منصبة على المعاني لأنه لايشترط وحدة الوزن والقافية، يقول استاذنا الزهيري ، معلقا على هذا النص : « ومن هذا يتبين لنا أن المناقضة عند القدماء قائمة في الدرجة الاولى ، على نقض المعاني ، ولهذا وجب وحدتها بين النقيضتين ، ويتبين لنا كذلك أن وحدة البحر والقافية ليست واجبة اذ لم يرد ذكرها في هذا النص ولا في غيره ، وهذا مذهب معقول يتمشى مع طبيعة المناقضة في الشعر العربي التي لم تلتزم فيها وحدة =

كانت أولى النقائض — كما ذكرنا — تلك التي قالها الفرزدق في بلاء هريم ، في وقعة العقر مفتخراً به لأنه مجاشعي من رهطه ، مبتهجاً بفشل ثورة يزيد ، وانتصار مضر :

أحل هريم يوم بابل بالقنا ... نذور نساء من تميم فحلت

فرد عليه الطرماح بنقيضته الأولى :

ألا إن سلمى عن هوانا تسلت ... وبتت قوى ما بيننا وأدلت

والفرزدق في قصيدته الأولى لم يمس — كما ذكرنا — طيئاً أو الطرماح في قليل أو كثير ، ولكن الطرماح هو الذي نقض عليه قصيدته تلك ، انتصاراً للأزد ، وحزنا على ماصارت اليه ثورة يزيد ، وقد آذى الطرماح الفرزدق وتميماً في رده ، مما حفز الفرزدق أن ينقض عليه نقيضته الأولى ، بقصيدته الثانية :

لقد هتك العبد الطرماح ستره ... وأصلى بنار قومه فتصلت

وليس للطرماح نقيضه لهذه القصيدة ، لكن هناك مجموعة أبيات أثبتها — كما أشرت سابقاً — ناشر الديوان في الذيل (المقطوعة الحادية عشرة) ، جامعاً إياها من كتب الأدب ، واعتبرها جزءاً من النقيضة الأولى للطرماح ، وقد رجحت أن هذه المجموعة بقايا نقيضة لقصيدة الفرزدق الثانية . وأول هذه المقطوعة :

لعمري لقد سارت سجاح بقومها ... فلما أتت عز اليمامة حلت

ولقد رأينا أن لهذه المقطوعة أسلوبها الخاص في رسم الصور الكاريكاتورية المتلاحقة ، وأن فيها إشارات دينية قد تكون جواباً لما في قصيدة الفرزدق الثانية من غمز لدين طيء . وأضيف هنا أن النقيضة الأولى مثبتة في أصل الديوان ، وليس من المعقول أن تفوت الجامع الأول للديوان تسعة أبيات هي من أروع ما قال الطرماح في الهجاء .

واستمرت بعد ذلك هذه المناوشات بين الشاعرين ، تتناول أول الأمر

= البحر والقافية إلا في أوج ازدهارها في العصر الأموي .

مخلفات ثورة يزيد بن المهلب ، وما جرت من تغيير في الولاة والعمال ، وتتعرض لما وقع خلالها من أحداث . فقال الفرزدق قصيدة ، في محمد بن منظور الأسدي (أحد بني نصر بن قعير) الذي أبلى بلاء حسناً في إخماد الثورة ، منها :

إن يقتل النصري تحت لوائكم فليست تميم بعدها بتميم
يقطع هندي الصفيح مساوراً سوار امرىء في الحرب غير لئيم
أرى الأسد أنباط العراق ومذحجاً وما طيىء من مذحج بصميم(١)

وقد نقضها عليه جرير ، في نقيضة أشرنا اليها ، منها :

وقد نسب النساب قبلك طيئاً الى ذروة من مذحج وصميم(٢)

ولا يعقل أن يرد جرير ويسكت الطرماح ، وعلى ذلك ، فانه من المحتمل جداً أن مقطوعة الفرزدق ، كانت رداً على الطرماح ، ويبدو لي أنها نقيضة لقصيدته السابعة في هجاء بني يشكر وشاعرهم حميد اليشكري ، والتي يقول فيها :

نحن الرؤوس على منهاج أولنا من مذحج ، من يسوى الرأس بالذنب ؟

وهناك قصيدة أخرى ، ذات صلة بثورة يزيد ، قالها الفرزدق في عمر ابن هبيرة ، وكان تولى العراق بعد مسلمة ، عقيب وقعة العقر ، منها :

تظل بعينيها على الجبل الذي عليه ملاء الثلج بيض البنائق
وفض بسيف الله عنه ودفعه كتايب كانت من وراء الخنادق
دعاهم مزوني فجاءوا كأنهم بجنبيه شاء تابع كل ناعق(٣)
لقوا يوم عقر بابل حين أقبلوا سيوفاً تشظى جمجمات المفارق(٤)

وواضح ، أن الفرزدق أراد أن يغمز هؤلاء ، الذين شاركوا في ثورة يزيد ، وآزروها ، من أزديين وطائيين ومذاحجة ، وهو يشبههم بالشاء تتبع كل ناعق .

---

[١] ديوان الفرزدق ٨١٩ .

[٢] نقائض جرير والفرزدق ٤٣٠ وهي من النقائض المستدركة .

[٣] أراد يزيد بن المهلب ، ومزون مدينة عمان .

[٤] ديوان الفرزدق ٢ / ٥٧٩ .

وكأنما نكأ الفرزدق بهذه القصيدة ، جرحاً عميقاً لما يلتئم بعد ، تركه فشل الثورة في قلب الطرماح ، وكأنما جدد له حزنه على أمل القحطانيين الفقيد (يزيد) ، فقد حركت قصيدة الفرزدق ــ بمعانيها وزنها وقافيتها ــ حبه القديم ، وذكرى الثورة ، فقال من قصيدة ، مفقود أكثرها :

تيممت بالكديون كي لا يفوتني ... من المقلة البيضاء تقريظ باعق(١)
لحا الله قوماً أسلموا يوم بابل ... أبا خالد تحت السيوف البوارق(٢)
فتى كان عند الموت أصبر منهم ... حفاظاً وأعطى للجياد السوابق
وأغير عند المحصنات إذا بدت ... براهن واستعجلن شد المناطق
فلا حملت بصرية بعد فقده ... جنيناً ولا أملن سيب الغوادق(٣)

ولقد كانت الخصومة بين الربعية واليمانية ، من جهة ، والمضرية من جهة أخرى ، والتي عادت عنيفة ، خلال الفترة التي تولى فيها ابن هبيرة العراق ، تؤجج نار الهجاء والمناقضة بين الشاعرين . فكانا يهتبلان كل مناسبة ، ويغتنمان كل فرصة ، ليتهاجيا . قال الفرزدق في رجل يدعوه (مختار طيء) :

ومر بنا المختار مختار طيء ... فروى مشاشاً كان ظمآن صاديا
أقمنا له صهباء كالمسك ريحها ... إقامته حتى ترحل غاديا
فمر وقد كان عليه غباوة ... يخال حزون الأرض سهلاً وواديا(٤)

وقال الطرماح في نقضها :

ومر بك المختار مختار طيء ... فلم تقره حتى ترحل غاديا
سوى شربة أبكتك حين قريته ... فلا رقأت عيناك إن كنت باكيا

---

[١] الكديون التراب الدقيق على وجه الأرض .
[٢] أبو خالد يزيد بن المهلب ، أنظر قسماً من أبيات القصيدة في حماسة ابن الشجري ٥٤٢ .
[٣] في الديوان شيب الغرانق .
[٤] ديوان الفرزدق ٨٩٤ .

فلو كنتم قوما كراماً كنتمم — قراكم ولكن لم تبالوا المخازيا(١)

وهذه النقيضة ، غير موجودة في الديوان ، وهي من جملة ماعثرت عليه ، مما فات الناشر . وأرى في أبيات الفرزدق التالية :

وداع بنبح الكلب يدعو ودونه — غياطل من دهماء داج بهيمها

دعا وهو يرجو أن ينبه أذرعاً — فتى كابن ليلى حين غار نجومها

بعثت له دهماء ليست بناقة — تدر اذا ماهب نحساً عقيمها

كأن المحال الغر في حجراتها — عذار بدت لما أصيب صميمها(٢)

أرى فيها رداً على قصيدة الطرماح السادسة الناقصة :

ألا من لعين لا تجف سجومها — تأوبها حاجاتها وهمومها

فلا تلحمني نهشلاً إن نهشلا — بدار الغنى أن يستحل حريمها

وحقك إني العام إن أهج نهشلاً (لم ؟) تسلم على أديمها

وفي لخبط النهشلي ....(٣) .

أما قصيدة الطرماح التاسعة عشرة :

أصاح ألا هل من سبيل الى نجد — وريح الخزامى غضة من ثرى جعد

والتي يسب فيها الفرزدق ، وبيوت بني سعد ، حيث يقول فيها :

ونبئت أن القين زنى عجوزه — نقيرة أم السوء أن لم يكد وكدي

ولو كنت حراً لم تنم ليلة النقا — وجعثن تهي بالكباس وبالعرد(٤)

فكن دخساً في البحر أوجز وراءه — الى الهند ان لم تلق قحطان بالهند

أغصت عليك الأرض قحطان بالقنا — وبالهندوانيات والقرح الجرد

ولم تنطق بحرية من مجاشع — عليه ولم يدعم له جانب المهد

---

[١] الحماسة الصغرى ٣٦٨ .

[٢] ديوان الفرزدق ٢ / ٨٠٣ .

[٣] المواضع مخرومة في المخطوطة كما يشير كرنكو .

[٤] تهي يثار منها الغبار لشدة العمل بها . والكباس والعرد معنى كل واحد منهما الذكر ، وجعثن أخت الفرزدق .

وجاءت لتقضي الحقد من أبلاتها | فثنت لها قحطان حقدا على حقد
لنا سابقات العز والشعر والحصى | وربعية المجد المقدم والحمــد
فأي ثنايا المجد لم نطلع بها | على رغم من لم يطلع منقب الحمد
ونحن أجارت بالأقيصر هامنا | طهية يوم الفارعين بلا عقد(١)

فقد رد عليها الفرزدق ــ كما ينم السياق ــ بقصيدته الميمية :

إن الذي أعطى الرجال حظوظهم | على الناس أعطى خندفا بالخزائم(٢)
لخندف قبل الناس بيتان فيهما | عديد الحصى والمأثرات العظائم
أخذت على الناس اثنين لي الحصى | مع المجد مالي فيهما من مخاصم
أبونا خليل الله وابن خليلــه | أبونا أبو المستخلفــين الاكارم
وما أحد من فخرنا بالذي لنا | على الناس مما يعرفون براغم
وهل من أب في الناس يدعون باسمه | له ابنان كانا مثل سعد ودارم
اذا ماهبطنا بلدة كان أهلها | بها ولدوا يظعن بها كل جارم(٣)
لنا العز من تحلل عليه بيوتنا | يمت غرقا أو يحتمل أنف راغم
فان بني سعد العم الليل فيهم | حلوم رست والظالمو كل ظالم
أبت لبني سعد جبال رست بهم | شوامخهـا لاترتقى بالسلالـم
وما أحد ممن هجاني علمته | يكون وفـاء عرضه لي بدائم
وما كنت أخشى طيئاً ان تسبني | وهم نبط لم تعتصب بالعمـائم
نبيط القرى لم تختمر أمهاتهم | ولا وجدت مس الحديد الكوالم
ولا يعلم الطائي ممن أب له | ولو سألوا عن طيئ كل عالم
وما ليل طائي اذا أمه دنت | اليه على جنب الفراش بنائـم

---

[١] الاقيصر والفارعان موضوعان ، ويقول صاحب كتاب الأصنام ٤٨ : « كان لقضاعة ولخم وجذام ، وغطفان وأهل الشام صنم يقاله الاقيصر . فكانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده . . . » .

[٢] ديوان الفرزدق ٨٢٣ .

[٣] جزم الفعل يظعن باذا الشرطية .

يفرج رجليها ويركب بطنها ... بأير مجوسي غشوم المحارم
وما يمنع الطائي إلا رصاصة ... بها نقش سلطان على الناس قائم
متى يهبط الطائي أرضاً ولم يكن ... به وشم موشوم يكن غنم غانم
متى يمنع الطائي من حيث يرتقي ... يكن مغنماً من طيىء في المقاسم
وان هجائي طيئاً وهي طيىء ... نبيط القرى احدى الكبار العظائم
إذا أم طائي رجت بزه بها ... تيمم ثبجا بظرها بالعجارم
بنى اللؤم بيتاً فاستقرت عماده ... على طيىء الأنباط ضربة لازم
أرى كل طائي يشارك أيره ... أباه على عود رحيب المثالم
حر حملته فيه حولاً ضلوعها ... وأرضعه حولين تحت التمائم
إذا اقتسم اللؤم اللئام وجدته ... يكون أبا الطائي دون العمائم
وما طيىء واللؤم فوق رقابهم ... ولم ترم الأحبال عنها برائم

ويبدو أن موت يزيد — وهو أمل القحطانيين — كان ذا أثر بعيد في قلب الطرماح، فهو يذكره بلوعة وحزن، ويترحم عليه، ولا ينسى عند ذلك أن يسب تميماً، التي شاركت في قتله، يقول:

يزيد غدا في عارض متألق ... مرته الصبا واستنصته دبورها(١)
تميم تمنى الحرب ما لم تلاقها ... وهم تصف العيدان في الحرب خورها
وتلقى (تميماً) شيخها عند بابها ... ذليلاً ويغذى بالهوان صغيرها
ولو كان يبكي القبر من لؤم حشره ... بكت من تميم كل يوم قبورها

وقد رد عليه الفرزدق — كما يظهر من المعاني والوزن والقافية — بأبياته المقذعة التالية:

وكل حر من طيىء فيه شهدة ... من النبطيات الصحاح بظورها(٢)
ولو كن حرات وجعن وصرعت ... أسافلها بين النساء ظهورها
ألم يك قبل الجادعات أنوفهم ... أتى طيىء الأنباط مني نذيرها

[١] الديوان المقطوعة الحادية والثلاثون.
[٢] ديوان الفرزدق ٣٤٣.

هم نبط من أهل حوران نصفهم ومن أهل عين التمر كانت شطورها
لعمرك مايدري الطرماح إذ عوى من العصبة الساري إلي نفيرها
لقد قلدت أم الطرماح جبة من اللؤم قد خيطت لها لايعيرها
وهل يعصم الطائي إلا زناؤه مع الوبر في أرض صعاب وعورها

وللطرماح قصيدة ، قالها في البصرة ، ذلك أن رجلاً — كما يروي أبو تمام — رأى الطرماح وهو يخطر في مسجد البصرة ، فدهش لخيلائه فسأل متعجباً :

« من هذا الخطار » فأجابه الطرماح(١) : أنا الذي أقول :

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض الى كل أمريء غير طائل(٢)
وأني شقي باللئام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل
إذا ما رآني قطع الطرف دونه ودوني فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حابل
اذا ذكرت مسعاة والده اضطنى ولا يضطني من شتم أهل الفضائل
وما منعت دار ولا عز أهلها من الناس الا بالقنا والقنابل
وما خلقت تيم وعبد مناتها وضبة الا بعد خلق القبائل
عراقيب ضم الذل واللؤم بينهم كما انضم شخص الخاريء المتضائل
وتوعدني الأقيان من آل دارم بكل لئيم من معد وخامل
ومن يلتمس في طيء ترة له يكن كالثريا من يد المتناول
أكل امريء ألفى أباه مقصراً معاد لأهل المكرمات الأوائل
لنا العضد الشدى على الناس والأتى على كل حاف من معد وناعل
اذا الجبلان استتليا دين معشر على الناس كان الدين أحلام باطل
اذا مارآه الكاشحون ترمزوا حذاراً وأوموا كلهم بالأنامل

وقد رد عليه الفرزدق — كما يظهر من المعاني — بقصيدته اللامية

---

[١] حماسة أبي تمام ٢٤٩ .

[٢] الديوان المقطوعتان الأربعون والحادية والسبعون .

التي يقول فيها :

ألم تر جنبي عن فراشي جفا به ... طوارق من هم مسر دخيلها(١)

وكم عرضت لي حاجة فتقيتها ... بكفي بعد اليوم لا أستقيلها

اذا ضمت الناس المنازل والتقى ... ورائي طودا خندف وفحولها

ألسنا بأرباب لقوم وأمة ... خلائفهم منا ومنا رسولها

ملوك ترى الأقوام يتبعوننا ... الينا انتهت حاجاتها ورحيلها

اذا ضاق عن قوم مكان رأيتنا ... لنا العرض من أرض السماء وطولها

نهزت بدلو يملأ الأرض نصفها ... وخير دلاء المستقين سجيلها

على نبط من أهل حوران أصبحت ... موشمة الأيدي لئيماً فلولها

واني أنا النجم الذي عذبت به ... قرى أمة بادت وباد نخيلها

وكان الطرماح الأحيمق اذ عوى ... كبكر ثمود حين حن فصيلها

سيسمع من يعوي الي وقومه ... عوائر مني يصدع الصخر قيلها

اذا قتل الطائي كانت دياته ... على طبيء يودى التيوس قتيلها

وفي ديوان الفرزدق مقطوعة أخرى هي — بلا ريب — بعض من من هذه القصيدة فالبيت الأول منها يشبه العاشر من القصيدة ، والخامس منها يشبه الرابع من هذه :

وكان الطرماح بن ثقبة اذ عوى ... كأشقى ثمود حين حان فصيلها(٢)

وما طبيء الا مجوس كأنهم ... بهايم تعلو الأمهات فحولها

وما تلكم الا مجوس نساؤهم ... بناتهم آباؤهن بعولها

فحلوا بأعلى تلعة أجثية ... تبول العناق فوقها فتسيلها

ألسنا بأرباب لقوم وأمة ... خلائفها منها ومنها رسولها

وللطرماح ، مع غير الفرزدق ، نقائض ، فقد روى له صاحب الأغاني نقيضة مع حميد اليشكري (٣) .

---

[١] ديوان الفرزدق ٦٧٥ .

[٢] ديوان الفرزدق ٦٧٥ .

[٣] الاغاني (دار الكتب ١٢ / ٤٢) ، الديوان المقطوعة الخمسون .

رابعاً ـ مقارنة بين هجاء الطرماح وهجاء الفرزدق :

ينبغي في مقدمة هذا الموضوع ، أن نلاحظ أن الفرزدق كان هدف الطرماح الأول في الهجاء ، على الرغم من تعدد مهجويه وخصومه . فقد وفر الشاعر جهده وفنه الهجائي لسب الفرزدق ، منفساً في هجوه عما كان يضطرم في قلبه من ثورة على أعدائه وأعداء قحطان بعامة . على حين كان الطرماح بالنسبة للفرزدق موضوعاً ثانوياً عارضاً ، إذا وازناه بجرير . فقد وقف الفرزدق جهده وفنه لهجاء جرير ، في تلك الخصومة الطويلة المشهورة . وكان — فيما يبدو من قصائده في الطرماح — يتحاشى الخصومة معه ، أو الاشتباك به ، أو الالتفات له ، انشغالاً عنه بسواه ، ينعته بالكلب الذي يعوي تارة ، وبالعبد أخرى ، محاولاً إظهار ضؤولة الطرماح بالقياس اليه ، وانصرافه عنه الى غيره . إلا أنه مهما يكن من شيء ، فان الطرماح استطاع أن يجر الفرزدق برشاقة ، الى ساحة الهجاء ، التي كانت تبدو رئيسة بالنسبة اليه ، ثانوية بالنسبة الى الفرزدق ، وأن تكون لهما فيها جولات وصولات ، أنتجت أثراً أدبياً جيداً ، كان فيه للشاعر الطرماح حظ كبير من الاجادة والابداع .

استند كل من الشاعرين في هجائه لخصمه ، الى الفخر ، يقيمه بصورة عامة على تعداد أيام قبيلته ورجالها ، وذكر فضائلهم ومحامدهم ومآثرهم . فتاريخ قحطان وبطونها وطيء بخاصة ، وتاريخ مضر وتميم بالذات وحلفائها ، كان المادة الأساسية في الفخر . الذي يشغل جزءاً مهماً وكبيراً من مناقضاتهما وهجائهما ، في هذه المعركة .

والطرماح في هذا الجزء كان يطيل من تعداد الأجداد ، بل ويسميهم بأسمائهم ، ويكرر ذلك بصورة فيها رتابة تجر الى الملل أحياناً :

أنا الطرماح فاسأل لي بني ثعل	قومي إذا اختلط التصدير بالحقب
جدي أبو حنبل فاسأل بمنصبه	أزمان أسنى ونفر بن الأغر أبي
لأمهات جرى في بضعهن لنا	ماء الفحول ارتشاداً غير ذي ريب
منا الفوارس والأعلام قد علمت	عليا معد ومنا كل ذي حسب

كعامر بن جوين في مركبه أو مثل أوس بن سعدى سيد العرب
المنعم النعم اللاتي سمعت بها في الجاهلية والفكاك للكرب
أو كالفتى حاتم إذ قالت ماملكت كفاي للناس نهبي يوم ذي خشب
أو كابن حية لما طر شاربه أزمان يملك أهل الريف والقتب

ومثل ذلك قوله :

انا بن بني نفر بن قيس بن جحدر بني كل عطاف إذا الخيل ولت
لنا من حجازي طيء كل معقل عزيز إذا دار الأذلين حلت

لكنه في فخره بنفسه ، كان رائعاً سامياً ، يغرف من ينبوع حبه الصادق لها ، يأخذنا بحديثه عنها ، وتسحرنا معانيه فيها ، فلا نملك إلا الاعجاب :

لقــد زادني حباً لنفسي أنني بغيض الى كل امريء غير طائل
وأني شقي باللئام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل
ملأت عليها الأرض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حابل

ويقول :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

ويقول :

أنا الشمس لما أن تغيب ليلها وغابت فما تبدو لعين نجومها
تراها عيون الناظرين إذا بدت قريباً ولا يسطيعها من يرومها(١)

أما الفرزدق ، فقد أعانته هذه الخصومة على عرض مآثر آبائه وأجداده ، وأيام تميم ، وهو يستمد قوته وجمال معانيه ، في هذا العرض من مكانه المرموق في تميم ، فهو في الذؤابة منها ، ويستمد هذه القوة أيضاً من محامد آبائه وأجداده المعروفين بالكرم . هذا في الفخر الذي يشغل جزءاً كبيراً من نقائض الشاعرين ، أما الهجاء ، فقد لجأ الفرزدق فيه الى وسيلتين قويتين ، أولاهما : تجريد طيء من الاسلام ، وطعنها في دينها ، ووصمها بالمجوسية

---

[١] الديوان من القصيدة السابعة والثامنة والقصيدة الأربعين والثالثة والعشرين والرابعة والخمسين .

والنبطية والنصرانية ، ووصفها بالضعة وتفاهة النسب ، فطيء أنباط ونصارى ومجوس ، يؤدون الجزية ، وهم من سكان عين التمر ، وهم مجهولو النسب ، ولا تكاد قصائده في الطرماح وطيء تخلو من مثل هذه المعاني ، فهو يرددها ويكثر تردادها ، ويطيل حتى لتبدو مملة ومستكرهة ، كقوله :

وما طيء الا مجوس كأنهم ... بهايم تعلو الامهات فحولها
وما تلكم الا مجوس نساؤهم ... بناتهم آباؤهن بعولها
وقوله : ان طيء صدقت فاللؤم محتدها ... وما لهم مفخر الا اذا كذبوا
فلوا وذلوا ولم يسلم أديمهم ... ولم يكن للمعالي فيهم أرب
تؤويهم مذحج فيهم وترحمهم ... والله يعلم أن ما بينهم نسب
لم تنزلوا ذروة منها ولا وسطاً ... بل أنتم المنسم الموطوء والذنب
وقوله : ولولا حذار أن تقتل طيء ... لما سجدت لله يوماً وصلت
نصارى وأنباط يؤدون جزية ... سراعاً بها جمزاً اذا هي أهلت
وقوله : وما طيء الا قبائل أنزلت ... الى أهل عين التمر من كل جانب
وما علمت طائية من أب لها ... ولو سألت عن أصلها كل ناسب
وقوله : وهم نبط من أهل حوران نصفهم ... ومن أهل عين التمر كانت شطورها
وقوله : على نبط من أهل حوران أصبحت ... موشمة الأيدي ائيماً فحولها(١)
وقوله : ألا يا طيء الأنباط لستم ... بمولى للصميم ولا الصميم(٢)
وقوله : ولا يعلم الطائي ممن أب له ... ولو سألوا عن طيء كل عالم
متى يهبط الطائي أرضاً ولم يكن ... به وشم موشوم يكن غنم غانم
وان هجاني طيئاً وهي طيء ... نبيط القرى احدى الكبار العظائم(٣)

وثاني الوسيلتين : هذا الفحش في نساء طيء ، وهذا الاقذاع والسب المكشوف ، فقد رماهم بالاباحية حتى ليأتي الرجل منهم أمه أو أخته أو ابنته .

---

[١] ديوان الفرزدق ٦٢٥ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ٤٤ ، ٣٤٣ ، ٦٧٥ .

[٢] ديوان الفرزدق ٨٣٤ .

[٣] ديوان الفرزدق ٨٢٣ .

وتكرار ذكر المحارم والعورات صفة تلازم الفرزدق في هجائه ، وهو يلح فيها الحاحه في وصم طبيء بالمجوسية والنبطية والنصرانية ، بل يكرر ذكر هذه المخازي والعورات ، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة . يعمد الى كل ذلك مبالغة في التشهير بالمهجو وتحقيره . هذا في الوقت الذي لم يفحش فيه الطرماح الا مرة واحدة . جره الفرزدق اليها جراً ، فضلاً على أن ما قاله في هذه المرة كان جرير قد ردده كثيراً ، وعير به الفرزدق . ذلك هو قصة جعثن ، أخت الفرزدق ، وقد أخذ الطرماح منه ذلك ، وعير به خصمه كما أخذ موضوع (القين) . أما البيت الذي ورد فيه هذا الهجاء فهو :

فلو كنت حراً لم تنم ليلة النقا وجعثن تهي بالكباس وبالعرد(١)

وهذا الموقف المتعفف من الطرماح ، قد يكون وليد (خارجيته القديمة) أو زهده أو خلقه الرفيع أو إبائه الجم على أنه من المفروض ، أن تصرفه عقيدته الخارجية عن كل ذلك أصلاً ، إن صحت خارجيته .

والطريف في هجاء الطرماح ، أنه لجأ فيه الى وسيلة فنية ، استطاع أن يقف بها في وجه الفرزدق موقف المنتصر ، هذه الوسيلة البارعة ، أكسبت هجاءه الروعة والشدة ، فكان مراً لاذعاً فيه تهكم وسخرية وتصوير فني .

وقد لجأ كل من الشاعرين الى الدين يتخذه سبباً الى الفخر بنفسه والهجاء لغيره في آن واحد ، وكان الطرماح أدق استعمالاً له وألطف ، وهو يمزج فخره بالهجاء مزجاً ، فيردد نصرة قومه للرسول ، ودعمهم للدين وبلاءهم في الذب عنه والذود عن الخليفة :

ونجاك من أسد العراق كتائب لقحطان أهل الشام يوم استهلت
بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
بهم نصر الله النبي وأثبتت عرى عقد الاسلام حتى استمرت

---

[١] الديوان (٦ ــ ٩) . وقد يلجأ الى الرمز كما فعل حين عيره بموقف الحطيئة منه في مجلس سعيد بن العاص راجع القصة في طبقات فحول الشعراء ٣٦٥ وأنظر القصيدة العشرين .

وهم دمغوا بالحق أيام خالد ... شياطين أهل الشرك حتى اطمأنت
شياطين من قيس وخندف غرها ... من الله ماكانت سجاح تملت[1]

ومن ذلك :

قحطان تضرب رأس كل مدجج ... تحمي بصائرهن إذ لاتبصر
والأزد تعلم أن تحت لوائها ... ملكاً قراسية وموت أحمر
فبعزنا نصر النبي محمد ... وبنا تثبت في دمشق المنبر[2]

ومنه :

ونحن ضربنا يوم نعفي بزاخة ... معداً على الاسلام حتى تولت[3]

و : فراش ضلال في العراق وجفوة ... إذا مات ميت من قريش أهلت[4]

---

[1] الديوان من القصيدة الثامنة .

[2] الديوان من القصيدة الخامسة والعشرين .

[3] الديوان (٣٦ ـــ ٨) .

[4] الديوان (٢٤ ـــ ٨) التنبيه والاشراف ٢٨٥ .

خامساً - معاني الهجاء وعناصره في شعر الطرماح :

تتراوح معاني الهجاء عند الطرماح ، بين القدم والجـدة والابتكار : أما معانيه القديمة فتكاد تمتزج بالفخر امتزاجاً ، بل هي استطالات لمعاني الفخر ، وامتداد لمعاني التمدح بفضائل قومه ، والتغني بأمجادهم وبطولاتهم . فهو إذ ينتهي من هذا التمدح ، وهذا التغني ، يجرد المهجو وقومه من أمثاله ، ثم يلصق به وبقومه نقيض ما امتدح به قومه وعشيرته ونفسه ، من صفات الخير والمروءة وكرم المحتد :

أنا الطرماح فاسأل لي بنى ثعل ... قومي إذا اختلط التصدير بالحقب
جدي أبو حنبل فاسأل بمنصبه ... أزمان أسنى ونفر بن الأغر أبي
لأمهات جرى في بضعهن لنا ... ماء الكرام ارتشاداً غير ذي ريب
شم العرانين والأحساب من ثعل ... ومن جديلة لا يسجدن للصلب
معاليات عن الخنزير مسكنها ... أطراف نجد من اهل الطابح والكتب
إذا السماء لقوم غيرنا صرفت ... عنانها في الرضى منهم وفي الغضب
إن نأخذ الناس لا تدرك أخيذتنا ... أو نطلب نتعد الحق في الطلب
منا الفوارس والأعلام قد علمت ... عليا معد ومنا كل ذي حسب
كعامر بن جوين في مركبه ... أو مثل أوس بن سعدى سيد العرب
المنعم النعم اللاتي سمعت بها ... في الجاهلية والفكاك للكرب
أو كالفتى حاتم إذ قال ماملكت ... كفاي للناس نهبي يوم ذي خشب
ليس ابن يشكر معتداً بمثلهم ... حتى يرقى الى الجوزاء في سبب
طابت ربيعة أعلاها وأسفلها ... ويشكر اللؤم لم تكثر ولم تطب
نحن الرؤوس على منهاج أولنا ... من مذحج من يسوي الرأس بالذنب

وهو ما إن يترك الفخر الى الهجاء ، حتى يعود اليه سريعاً . وواضح أن معاني الهجاء هذه تابعة الى معاني الفخر ، بل تكاد تتلاشى خلالها . وتتكرر

صور الهجاء هذه ، محولة معاني الفخر ، الى ما يناقضها من المثالب والمطاعن بكثرة ، في شعره الهجائي . وقد يفخر الطرماح ، ويعدد محامد قومه ، ويطيل في ذلك ، ثم يكتفي بأن ينفي هـــذه المحـامد جملة واحدة ، عن المهجو ، ويجرده من أمثالها ، وخير شاهد على ذلك ، قصيدته السابعة .

واذ كانت معاني الهجاء هذه ، تابعة الى معاني التمدح والمفاخرة ، فاننا نجد الروح القبلية ، طاغية عليها ، فأكثر ما تدور هذه المعاني ، على مفاهيم الشرف والعزة والجاه والكرم والشجاعة ، وسائر الفضائل المستفادة من واقع الحياة القبلية وهي الفضائل والصفات التي تعارف عليها العرب . وفيها الى ذلك حديث عن الأيام والوقائع والرجـال والأجـــداد والأنساب ، مشبع بروح الصحراء . وهذه المعاني ، في جملتها ، مادية ، خالية من الصور ، مفتقرة الى الخيال ، معتمدة على التعداد والسرد والتكرار :

أذيب عن أحساب قحطان إنني	أنا ابن بني بطحائها حيث حلت
أنا ابن بني نفر بن قيس بن جحدر	بني كل عطاف اذا الخيل ولت
لنا من حجازي طيىء كل معقل	عزيز اذا دار الأذلين حلت
لنا نسوة لم يجر فيهن مقسم	اذا ما العذارى بالرماح استحلت
بأي بلاد تطلب العز بعد ما	بمولدهـــا هانت تميم وذلت
أقرت تميم لابن دحمة حكمه	وكانت اذا سيمت هواناً أقرت
وكانت تميم وسط قحطان اذ سمت	كمقذوفة في اليم ليلاً فضلت

واذا أردنا أن نتتبع هذه المعاني ، تبين لنا مدى (جاهليتها) ، وارتباطها بالمفاهيم القبلية . فنراه يهجو خصومه ، بقلة العدد ، وضؤولة الشأن ، ويرميهم بالوضـاعة والذلة والضعة ، وينعتهم بالضعف والقرار على الهوان ، قال يهجو يشكر :

طابت ربيعة أعلاهـــا وأسفلها	ويشكر اللؤم لم تكثر ولم تطب
نحن الرؤوس على منهاج أولنا	من مذحج من يسوي الرأس بالذنب

وقال يصف تميم بالهوان والذلة :

بأي بلاد تطلب العز بعد ما بمولدهـا هانت تميم وذلت
أقرت تميم لابن دحمة حكمه وكانت اذا سيمت هواناً أقرت
وكانت تميم وسط قحطان اذ سمت كمقذوفة في اليم ليلاً فضلت

ومثل ذلك قوله . ينعت الفرزدق بالوضاعة :

لم تنتطق بحربة من مجاشع عليه ولم يدعم له جانب المهد

ونجده يكثر من وصف مهجويه بالجبن والخوف والفرار ، ويصمهم باللؤم والخور ، قال يهجو تميماً والفرزدق :

أفخراً تميمياً إذا فتنة خبت ولؤماً اذا ما المشرفية سلت
فأين تميم يوم تخطر بالقنا كتائب منا أظعنت وأحلت
فخرت بيوم العقر شرقي بابل وقد جبنت فيه تميم وقلت
فخرت بيوم لم يكن لك فخره وقد نهلت منك الرماح وعلت

ومن ذلك قوله في تميم أيضاً :

لأعز نصر امرىء أمسى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
اذا دعا بشعار الأزد نفرهم كما ينفر صوت الليث بالنقد

وقال يهجو تميماً بالجبن والخوف من الحرب ، ويصفهم باللؤم والهوان :

تميم تمنى الحـــرب ما لم تلاقها وهم قصف العيدان في الحرب خورها
وتلقى تميماً شيخها عند بابهـا ذليلاً ويغـــذى بالهوان صغيرها
ولو كان يبكي القبر من لؤم حشره بكت من تميم كل يوم قبورها

ومن جملة هذه المعاني القديمة ، مايرتبط بالفحش والاقذاع ، وهو نادر جدا . ومن مظاهر قبليتها ، أنها تتناول النسب ومكانة القبيلة ، وتحتفل بالأيام والوقائع والحروب ، فتراه قد نسب الفرزدق ــ وهو ألد أعدائه ــ من ناحية الأب الى جبير ، وهو قين ، كان لصعصعة بن ناجية . ونسبه من ناحية الام الى قفيرة احدى جداته ، وكانت سبية من سبايا قضاعة . قال :

ونبئت أن القين زنى عجوزه قفيرة أم السوء أن لم يكد وكدي

ونجده قد أقذع للفرزدق ، في البيت ، فضلاً على طعنه إياه في نسبه .

وقال يعير الفرزدق بمواقع هزم فيها قومه :

ونحن أجارت بالأقيصر هامنا ... طهية يوم الفارعين بلا عقد

ونحن حصدنا يوم لابة ضرغد ... بقمرة عنز نهشلا أيما حصد

وهجاه مذكراً إياه بقصة إحراق عمرو بن هند لمائة من الدارميين(١) ، ذاكراً يوم أوارة :

واسأل زرارة والمأمون ما فعلت ... قتلى أوارة من رعلان واللدد

ودارم قـد قذفنا منهم مائة ... في جاحم النار إذ يلقون في الخدد

ينزون بالمشتوى منها ويوقدها ... عمرو ولولا لحوم القوم لم تقد(٢)

وهناك ضرب آخر من المعاني ، فيه جدة هي أثر من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، وأثر من آثار العصر والبيئة ، ويلمس في هذا الضرب طابع العصر والاقليم بسهولة ويسر . امتزجت معاني هـذا القسم بالروح الديني امتزاجاً ، بل ان أكثرها هجاء ديني محض . وتدور هذه المعاني حول واجبات الدين ، والالتزام بها : والمحافظة على أدائها . ونحن نجد الى جانب هذه المعاني فخراً يتمدح بالمحافظة على الدين والمسارعة الى نصرته .

جدة هذه المعاني متمثلة في كونها هجاء مستمداً من المثل الجديدة ، التي نشأت في ظل الاسلام . فالطرماح استغل هذه المثل ، وهـذه القواعد الجديدة ، فهجا بها وتمدح . نفى هـذه المثل عن أعدائه ، وجردهم منهـا ، فكان هجاء جديداً نابعاً من قواعد ترعرعت في ظل الدين الجـديد . وادعى هذه المثل لنفسه ولقومه ، وتظاهر بالتمسك بها ، والحفاظ عليها ، فكان فخراً جديداً الى جانب الهجاء ، مستمداً من واقع المجتمع الاسلامي . ومن هنا

---

[١] القصيدة العشرون ، النقائض ٦٥٤ ، ١٠٨٧ ، الكامل للمبرد ١٤٧

[٢] الديوان من القصيدة العشرين ، وأنظر قصة حرق الرجال المائة من دارم التي يشير اليها الطرماح في كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام للاصمعي ١١٠ ، إذ تشير القصة الى إحراق عمرو بن هند (المحرق) إياهم انتقاماً لقتلهم أخاً له .

نستطيع أن نتبين ، أن تطوراً كبيراً طرأ على فن الهجاء . هذا التطور مستمد من مقومات المجتمع الاسلامي الجديد .

ونعود الى هـــذه المعاني الجديدة ، عند الطرماح ، لنرى ارتباطها بمفاهيم العصر .

لننظر اليه ، وهو يعير الفرزدق ، بسجاح التميمية ، كأنه يريد أن يذكره بكثرة مخالفة تميم للقواعد والمثل الجديدة :

ونجاك من أسد العراق كتائب | لقحطان أهل الشام يوم استهلت
بهم ينصر الله الخليفة كلما | رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
بهم نصر الله النبي وأثبتت | عرى عقد الاسلام حتى استمرت
وهم دمغوا بالحق أيام خالد | شياطين أهل الشرك حتى اطمأنت
شياطين من قيس وخندف غرها | من الله ما كانت سجاح تملت

ونراه قد تمدح بتمسك قومه بالدين ، ونصرتهم للاسلام ، وللرسول الكريم ، فضلاً على تذكير الفرزدق بكثرة خروج قومه على المثل الجديدة ، ومخالفتهم إياها . ويكثر الطرماح من هذا التذكير لمخالفة الدين وتعاليمه والخروج عليه ، فيقول :

ولو خرج الدجال ينشر دينه | لزافت تميم حوله واحزألت
فراش ضلال بالعراق وجفوة | إذا مات ميت من قريش أهلت
ونحن ضربنا يوم نعفي بزاخة | معداً على الاسلام حتى تولت

بل إنه ليجردها من الاسلام تجريداً ، ويحرم قتلاها من الجنة :

فما لقيت قتلى تميم شهادة | ولاصبرت للحرب حين اشمعلت

ولم يجد الطرماح أوجع للفرزدق من موضوع سجاح التميمية ، فنراه يكثر من هجائه به :

لعمري لقد سارت سجاح بقومها | فلما أتت عز اليمامة حلت
فدارسها البكري حتى استزلها | فأضحت عروساً فيهم قد تجلت
فتلك نبي الحنظليين أصبحت | مضمخة في خدرها قد تظلت

ويكثر الطرماح ، ويبالغ في تصوير تجرد خصومه من المثل الجديدة ، يقول :

ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا ... وما ذبحت يوماً تميم فسمت

وقد رمى تميماً بقلة الدين ، وبالجبن والخوف ، في وقت واحد ، قال :

لو حان ورد تميم ثم قيل لها ... حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو أنزل الله وحياً أن يعذبها ... إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد

وقد يمزج في هذا اللون من الهجاء ، بين الروح القبلي المتعصب ، والروح الاسلامي المتعصب ، فيستغل المثل القديمة ، ليهجو بها خصومه ، كما يستغل المثل الجديدة لهذا الغرض .

أما موضع الابتكار والأبداع في هجاء الطرماح ، فانه صوره الفنية ، التي يعمد بها الى المبالغة في تصغير شأن المهجو ، وتحقيره ، وتصويره بهيئة مضحكة مثيرة للسخرية . ولاشك في أن القدماء حين وصفوا هجاء الطرماح ، بأنه وحي ، اذ قالوا : « اذا ركب الطرماح الهجاء فكأنما يوحى اليه » . انما كانوا يعنون صوره الكاريكاتورية الهزلية المضحكة ، التي يعمد بها الى المبالغة في تحقير الخصوم ، واضحاك الناس منهم . لقد أجاد الطرماح تصوير معاني الهجاء ، التي قصد اليها في هذه الصور ، وأبدع في اظهار مهجويه بالهيئة المضحكة ، التي تكشف خورهم وضعفهم وهوانهم . قال يهجو بني تميم قوم الفرزدق :

ولو أن برغوثاً على ظهر نملة ... يكر على صفي تميم لولت
ولو أن حرقوصاً يزقق مسكه ... اذاً نهلت منه تميم وعلت
ولو جمعت يوماً تميم جموعها ... على ذرة معقولة لاستقلت
ولو أن أم العنكبوت بنت لها ... مظلتها يوم الندى لاستظلت
ولو أن عصفوراً يمد جناحه ... لقامت تميم حوله (واستظلت)

عماد هذه المعاني ، رسم الصور المضحكة ، التي ترمي الى المبالغة في

تحقير الخصم ، والتهويل من شأنه ، وبيان جبنه وذلته وضعته .

ولا شك في أن تتابع هذه الصور ، وتلاحقها ، يؤثر في نفس السامع ، فقد استطاع الشاعر أن يصور بأسلوبه البارع ، خصمه ، بما يريد من صور الخور والضعف والضعة وقلة الشأن .

ويلاحظ أن هذه الصور تعتمد كثيراً على المبالغة والتهويل يقول :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ويقول : ضجت تميم وأخزتها مثالبها ينقلن من بلد ناء الى بلد
لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد
قوم أقام بدار الذل أولهم كما أقامت عليه جذمة الوتد

ومنبع هذه الصور ، روح ساخرة ، وخيال محلق ، أعانه على إبداع مشاهد التهكم والهزل والسخرية . وقد تطغى على بعض هذه الصور مسحة من النقمة والحقد ، تبعث فيها قوة وعاطفة ، يظهر بهما على المهجو ، ويكشف جبنه ، وتفاهة شأنه وضؤولته ، من ذلك هجاؤه لبني تميم :

لاعز نصر امريء أمسى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
اذا دعا بشعار الأزد نفرهم كما ينفر صوت الليث بالنقد
وكل لؤم أباد الدهر أثلته ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد
لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

ومن ذلك قوله ، في هجاء تميم وضبة والدارميين :

وما خلقت تيم وزيد مناتها وضبة الا بعد خلق القبائل(١)
عراقيب ضم الذل واللؤم بينهم كما انضم شخص الخاريء المتضائل
وتوعدني الأقيان من آل دارم بكل لئيم من معد وخامل
ومن يلتمس في طبيء ترة له يكن كالثريا من يد المتناول
أكل أمريء ألفى أباه مقصراً معاد لأهل المكرمات الأوائل

وقد يلجأ الطرماح ، في محاولة تحقير خصمه ، الى تشبيهه بالحيوانات ،

---

[١] ضبة أخوال الفرزدق .

قال : كأم حبين لم ير الناس مثلها   وغابت حبين حين غابت بنو سعد

وقال : فكن دخساً في البحر أوجز وراءه   الى الهند إن لم تلق قحطان بالهند

والطرماح ، وإن تعفف عن معاني الاقذاع ، وترفع عن أسلوب الفحش ، لكنه جنح الى التعريض ، فتراه ينقب في تاريخ خصمه ، لعله يجد حادثة يستغلها في هجائه . من ذلك ما عير به الفرزدق من قصته مع الحطيئة ، قال :

فاسأل قفيرة بالمروت هل شهدت   عسب الحطيئة بين السجف والنضد

أم كان في غالب شعر فيشبهه   شعر ابنه فينال الشعر من صدد

ذلك أن الفرزدق ، أنشد سعيد بن العاص ، وهو على المدينة أيام معاوية :

ترى الغر الجحاجح من قريش   إذا ما الأمر في الحدثان غالا

وكان الحطيئة حاضراً فقال : « هذا والله الشعر ، لاما تعلل به منذ اليوم أيها الأمير . . ياغلام أدركت من قبلك ، وسبقت من بعدك ، لئن بقيت لتبرزن علينا » ثم قال : « ياغلام أنجدت أمك ؟ » ، فقال الفرزدق : « لا بل أبي »(١) ، فنعاه عليه الطرماح ، حين هجاه . ومن هذا التعريض قوله :

لا تأمنن تميمياً على جسد   قد مات ما لم تزايل أعظم الجسد

أراد وصفه بالكلب ، فلم يصرح ، وسلك سبيل الصورة المبتكرة ، التي تؤدي الى ذلك ، ومن ذلك قوله :

ولو كان يبكي القبر من لؤم حشره   بكت من تميم كل يوم قبورها

وكثيراً ما كان يعمد الطرماح ، الى الاشارة الى الحوادث ، التي يرى فيها خصمه عاراً ، من ذلك ذكره لقصة (جعثن) ، أخت الفرزدق ، وذكره للقين ، يقول :

ونبئت أن القين زنى عجوزه   قفيرة أم السوء أن لم يكد وكدي

ولو كنت حراً لم تنم ليلة النقا   وجعثن تبي بالكباس وبالعرد

ومهما يكن من شيء . فالطرماح مجدد في الهجاء ، ولعل هجاءه كان معيناً للمتنبي ، يستقي منه ، فروح التمرد والثورة تطغى على هجاء الرجلين ، ولعل أسلوبه الكاريكاتوري أيضاً كان نواة لطريقة ابن الرومي فيما بعد .

---

[١] طبقات فحول الشعراء ٢٧٢ ، الديوان ١٤٥ .

الفصل السابع

الطَّرَدُ

أولا - الطرد في شعر الطرماح

ثانيا - الطرد بين الطرماح وأبي نواس

أولا ـ الطرد في شعر الطرماح :

في طرد(١) الطرماح ، روح جديد ، هو مزيج أثرين ، فهو ، من نحو ، تعبير عن إحساس شاعرنا الطموح بالاخفاق في تحقيق ما يصبو اليه ، من أهداف ، وتعبير عن الشعور بالملاحقة . وهو من نحو ثان ، صورة من صور زهده أو (خارجيته ؟) أو صلاحه وحسن إسلامه ، ومن الغرابة بمكان ، أن صورة الصيد تتردد كثيراً في شعره ، وتستغرق جزءاً كبيراً من قصائده — على قلة ما وصلنا من قصائده الكاملة — بل انه قد يرسم هـذه الصورة ، أكثر من مرة ، خلال القصيدة الواحدة ، كما فعل في القصيدة الرابعة .

نجد صور الصيد هـذه ، في قصائده الثالثة والخامسة ثم في القصيدة السابعة والأربعين ، ونجد أنه رسمها في القصيدة الرابعة مرتين . وأعتقد أنه كان يلتزم هذه الصورة في أغلب قصائد وصفه(٢) ، ولو أنه تيسر لنا أن نطلع على كل شعره ، لأمكننا أن نتبين ذلك بدقة .

يلجأ الشاعر الى رسم هـذه الصور ، حين يصف ناقته ، ثم ينتقل الى الصيد ، مشبهاً إياها — على الطريقة الجاهلية — بحيوان وحشي ، تطرده الكلاب ، أو يلاحقه الصيادون . وهو يروي ذلك بطريقة قصصية ، يريد من خلالها أن يظهر قوة الراحلة ، التي ستبلغه الحبيبة أو الممدوح . وهذا الغرض — بهذا الشكل — ليس جديداً في الشعر العربي ، فقد كتب في صور الصيد شعراء الجاهلية ، وكتب الطرماح وكان أشبه بلبيد أسلوباً(٣) .

والطرد يتيح للشاعر أن يصف الحيوان والطبيعة وصفاً حسياً ، فضلاً على

---

[١] الطرد لغة في مزاولة الصيد .

[٢] في القصيدة السابعة عشرة بقايا صورة من صور الصيد .

[٣] في الشعر والشعراء مجموعة من المعاني ، أشار ابن قتيبة الى أن الطرماح أخذها من لبيد وسواه .

أنه يترك مجال المبالغة في وصف قوة الناقة وصلابة خلقها . يصف الشاعر ناقته ، وينتقل الى تشبيهها بالحيوان الوحشي (الثور أو الأتانة) ، ويجهد الشاعر هذا الحيوان الوحشي إجهاداً عظيماً ، ويفتن في إجراء الكلاب والصيادين في ملاحقته ــ مجرياً التشبيه مجرى القصة ــ ليظهر مدى سرعة جريه ، يفعل كل ذلك ، لكي يصف مبلغ النشاط والقوة في ناقته ، ثم يختتم الصورة ، ليعود ثانية الى الراحلة .

وطرد الطرماح مثل طرد كل الشعراء ، لكن الجديد فيه ، أننا نعيش خلاله في جو زاخر بالعواطف والانفعالات النفسية ، حتى نصل في نهايته الى نتيجة واحدة دائماً ، هي انتصار الطريدة في كل الصور وفي كل القصائد(١) . وشاعرنا يفتن في عرض صور الملاحقة والاحتيال لصيد هذه الطريدة ، لكنه أبداً ينصرها ، فيستريح لهذا النصر ، وينجيها فيهش لهذه النجاة . وهو أثناء ذلك يتتبع أعمق الانفعالات النفسية وأدقها في الصورة .

ولنقرأ هذه الصور ، ليتم لنا مشاهدة هذا الجو النفسي الغريب ، وليتاح لنا تبين الانفعالات النفسية فيه ، فنتمكن من استخلاص خصائص هذا الفن وميزاته بدقة ، بادئين بالصورة الأولى من القصيدة الثالثة :

هل يدنينك منهم ذو مصدق ... شجع يجل عن الكلال ويحصد
كمخفق الحشيين بات تلفه ... وطفاء سارية وهف مبرد
ضاحي المرانع والطيات كأنه ... بلق تعاورة البناة ممدد
يقق السراة كأن في سفلاته ... أثر النؤور جرى عليه الاثمد

---

[١] يقول الجاحظ في الحيوان ٢ / ٢٠ : « ومن عادة الشعراء اذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش . واذا كان الشعر مديحاً ، وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها . وأما في أكثر ذلك فانها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم » .

حبست صهارته فظل عثانه في سيطل كفئت له يتردد
حتى إذا هو آل وأطردت له شعب كأن وحيهن المسند
أجلت يدا بلوية عنها لها إبر تركن قرائحاً ما تبلد
يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد
وكأن قهزة تاجر جيلت له لفضول أسفلها كفاف أسود
هاجت به كسب تلعلع للطوى والحرص يدأل خلفهن الموسد
صعر السوالف بالجراء كأنها خلف الطريدة خشرم متبدد
فاجتبن حاصبه وولى يقتري فيحان يسمح مرة ويعرد
يذري روائسها الأوائل مثلما يذري فراش شبا الحديد المبرد
تبرأ ويخصفها بحرفي روقه شزراً كما اختصف النعال المسرد
فصدفن عنه وقد عصفن بنعجة خذلت وأفلتها فرير مفرد
فالقوم أجنبها شرائح منهم طـــاه يحش وهبيي يفأد
وعدا تشق يداه أوساط الربى قـم الفئال تشق أوسطه اليد
يقرو الخمائل بين حزم عوارض ويسوف أسفلها خزامى تمأد
فبذاك أطلع الهموم اذا دجت ظام خوالفها تخل وتوصد

شبه البعير ، الذي تمنى أن يبلغ به أحبابه ، بثور وحشي ، تلفه سحابة سارية ، وريح بارد ، في مرعى بارز ، وكأن هـذا الثور لضخامته ، بناء عال طويل وهو أبيض الظهر أسود الأسافل ، يبدو من بعيد ، وهو يعلو الهضاب ، ويهبط في الوديان ، كأنه سيف يسل ويغمد على مرتفع من الأرض ، وهو في بياض ظهره ، وسواد قوائمه ، وترقيطها ، كأن قطعة من الحرير الأبيض مطرزة الأطراف ، بدارات سود ، جيلت على ظهره وانسدلت أطرافها على قوائمه . وبعد أن بدا للشاعر ، أنه استوفى وصف الثور ، انتقل الى وصف عملية الصيد ، فقد هاجت بهذا الثور الكلاب ، يغريها به صاحبها الصياد ، فهي مائلة الرقاب ، مسرعة غاية السرعة ، منتشرة ، وهي تعدو خلفه ، كأنها خلية من خلايا النحل ، تبددت وانتشر ما فيها من نحل . . أدركته الكلاب ، ودخلت فيما يثيره من

تراب ، وما يتطاير ، لشدة ضرب أقدامه الأرض ، من حصى ، وقد هرب منها ، يريد أن ينجو ، يميل عن الطريق تارة ويعود اليها أخرى .

أدركته ، فأخذ يضرب ما قرب منها اليه بقرنيه القويين ، وإنه ليخصفها في هذا الضرب خصفاً ، كما يخصف المسرد النعال . وقد انتصر في النهاية ، وصدفت عنه الكلاب ، إذ وجدت نعجة أضاعت ولدها ، أو قل إن الطرماح رسم له طريق النصر والنجاة .

انتصر الشاعر ، في هذه الصورة ، للثور ، لكنه لم يخيب أمل الصائد وكلابه ، من ناحية أخرى ، إذ جعل من نصيبه ونصيبها نعجة . ولهذا كله دلالته النفسية . بلغ الشاعر الانتصار للثور في هـذه الاستراحة اللطيفة ، التي انتهت اليها الأبيات ، فقـد شغل القوم بنعجة صغيرة ، أخمد بها جلبتهم وضوضاءهم ، وأراحهم واستراح هو لنجاة الطريدة .

فالقوم أجنبها شرائج منهم　　طـاه يحش وهبهي يفأد

إذ ترك لثوره ذاك ، طريق الخـلاص والهرب أمينة خالية ، وهو على أتم قوة ، يعدو في نشاط ، ويقرو من خمائل هذه الطريق الآمنة الهادئة :

وعدا تشق يداه أوساط الربى　　قسم الفئال تشق أوسطه اليد
يقرو الخمائل بين حزم عوارض　　ويسوف أسفلها خزامى تمأد

والدقة في التعبير عن المعنى النفسي لهذه الصورة ، تكمن في البيتين السابقين ، فقد كان موضعهما من القصيدة ، بعد عثور الكلاب على النعجة ، وبعد انشغال القوم بها . وقد ظننت حين تتبعت (الصورة) في القصيدة ، أن الشاعر ترك للثور سبيل الهرب ، ثم اكتفى بهذه النهاية ، وإذا به يعود ، ليؤكد المعنى النفسي (بهذين البيتين) في هذه الصورة .

هذه الطريدة ، التي رسم لها الطرماح طريق النجـاة ، وكتب لها نهاية النصر ، ترمز ــ كما أرى ــ للطرماح نفسه : هذا الشاعر المسكين الطموح الموهوب ، الذي يسعى في سبيل المجد والمـال ، فلا يظفر منهما بشيء ، لأن القدر الظالم وقسوة الحياة يقفان له أبداً بالمرصاد ، ولأن الحاسدين (الذين

يرمز لهم بالكلاب والصيادين) أبداً خلفه يلاحقونه ، كما يلاحق الصياد وكلابه الطريدة ، ويسعون به لدى السلطان ، أو يغضون من فضله وذكائه .

ولنقرأ ما يأتي ، في القصيدة ، بعد صورة الصيد ، ففي ذلك حجة بالغة ، تؤيد ما أذهب اليه :

قالت أمامة والهموم يعدنني ورد الحمائم سد عنها المورد
أنبا بحاجتك الأمير ومده في ذاك قوم كاشحون فأجهدوا

ولنتذكر الآن ، صورة الطريدة ، التي انتصر لها الطرماح ، فهو مازال يرسم الصورة في ظل التأثير الذي رسم به صورة الصيد . ولنقرأ ما جاء بعد ذلك من أبيات ، يخاطب بها نفسه :

فاقذف بنفسك في البلاد فانما يقضي ويقصر همه المتبلد

ولنتذكر ثانية صورة الطريدة ، التي راحت تعدو في أرجاء الصحراء الواسعة ، تطلب الحياة :

فعدا تشق يداه أوساط الربى قسم الفئال تشق أوسطه اليد

صورة الطرد هذه ، وثيقة الصلة بواقع نفسي يعيشه الطرماح ، هو فيه الطريدة (طريدة الحياة) ، وعداته من أبنائها ، ولنتذكر ، دائماً أنه كان كثير التنقل ، لا يستقر به مقام في بلد ، حتى يرحل الى سواه . أما العامة ، وسائر الناس ، من كاشحين وحاسدين ، فهم (الصيادون والكلاب) ، ولنتذكر دائماً علاقته السيئة بالعامة . مما لا شك فيه أنه يطلب لنفسه نهاية كنهاية هذه الطريدة ، يطلب النجاة رمزاً للسعادة والخلاص ، وهو إذ يمنحه في صورة الطرد للطريدة ، إنما يمنحه لنفسه .

وطرده — الى ذلك — صورة لصراع الانسان مع القدر ، تمثل حب الانتصار ، وترمز الى نوع من الطموح ، إذ ينفس الشاعر في هذه اللمحات من التصوير النفسي عن الحقد والنقمة ، كما ينفس النائم عن كثير من رغباته وأمانيه في أحلامه الليلية .

وتتكرر هذه الصورة في شعره ، مختومة أبداً بالانتصار للطريدة ،

مشحونة بالانفعالات النفسية العنيفة . ولنمر الى صورة أخرى من صور الصيد هي بعض من قصيدته الرابعة :

كمقيل الحر في لونه — لمع كالشام من غير شام
خلط وشي مثلما هلهلت — ذات أصداف نؤور الوشام
يمسح الأرض بمعنونس — مثل مئلاة النباح القيام
يبتنــه وهو مسـترسل — يبتني مأوى لأدنى مقــام
ليلة هــاجت جمــادية — ذات صر جربيــاء النسام
وردة إذ هــاج صنبرها — تحت شفان شباذي سجام
بات يستن الندى فوقه — ضيف أرطاة بحقف هيام
يستبيث الترب عن منحنى — كل عسلوج كمتن الزمام
ثم أضحى يقتري حبــة — بين أكنــاف كثيب ركام
بينما ذلك هاجت بــه — أكلب مثل حظاء الغــلام
فلافتــه فــلاثت بــه — لعوة تضبح ضبح النهــام
شمهد أطراف أنيابهــا — كمناشيل طهاة اللحــام
عوله الحرص اذا أبشرت — ساورت فيه سؤور المسام
ضغمته فتــأبى لهــا — بقويم المتن عار حسام
فهوت للوجــه مخذولة — لم يضف عنها قضاء الحمام
ومضى تحسب أقــرابه — ثوب سحل فوق أعواد قام

وصف الناقة بثور طويل الذنب ، قضى ليلته خائفاً ، تصب السماء عليه مطرها المتصل ، وتفزعه ريحها الباردة ، فهو يحفر له مأوى ، يقضي فيه بقية ليله ، هرباً من الريح الباردة ، والمطر المتواصل . واضطر أخيراً ، الى أن يلتجيء الى أصل شجيرة صغيرة ، وقد حاول الشاعر ، من خلال هذه الصور ، أن يثير إشفاقنا ، ويحرك عاطفتنا ، على هذا الحيوان ، فبالغ في وصف الليل بالبرودة ، والمطر بالشدة . وأضحى هذا الحيوان يرتعي بيبس الكلأ ، في جوانب أحد الكثبان ، وبينما هو ذاك ، اذ تهيج به أكلب ضامرة ، سريعة ،

فيهرب فتنطلق خلفه ، كأنها السهام الصغيرة ، وتدركه ، وتكون اول من يدركه منها ، كلبة بالغة الحرص ، كأن أنيابها مناشيل الطباخين . وهو يذكر طهاة اللحم ومناشيلهم ، ليصور لنا المصير المؤلم الذي سينتهي اليه هذا الثور ، فيما لو تمكنت منه هـذه الكلبة الحريصة ، وليثير إشفاقنا ، ثم ليتم له شحن الجو النفسي للصورة ، بأعنف الانفعالات وأدقها .

وثبت اليه الكلبة ، فتأبى لها ، وطعنها بقرنه الطويل الحاد القاطع ، فهوت على وجهها مخذولة صريعة . ومضى هو سريعاً في طريق الخلاص والنجاة .

نلحظ هنا الانتصار للطريدة ، كما لحظناه هناك في الصورة الأولى ، وتلمح الانفعالات النفسية ، كما لمحناها فيها ، فيتأكد لنا المدلول النفسي لهذا الجو ، ومما لاشك فيه ، أن وراء هذا النصر ، الذي يخطه للطريدة ، روحاً إسلامياً أو زهدياً أو (خارجياً) فضلاً على ما ذكرناه ، من أنه تعبير رمزي عن واقع نفسي ، يعيشه الشاعر ، هذا الروح الاسلامي أو (الخارجي) أو الزهدي ، لايبيح للطرماح ، أن يفرط في هذا المخلوق ، وكم رأينا بين الزهاد من يبتعد عن الصيد ، ويتعفف عن أكل لحم الحيوان .

مذهب الطرماح .. أو زهده ، أو حسن إسلامه ، هو الذي يمنعه من إيذاء الطريدة ، وكيف يؤذيها وهي رمز لنفسه ؟ .

ويعرض الشاعر في القصيدة نفسها ، صورة مؤثرة أخرى لبيدانة (أتانة) :

ذاك أم حقباء بيدانة　　　غربة العين جهاد المسام
أكل السبع طلاها فما　　　تسأل الأشباح غير انهزام
ضمها الخوف الى شنع　　　أبدت الأضغان بعد الكتام
أغلقت من دون أغراسها　　　حلقا ارتجن بعد اعتقام
فهي ملس كعجيم النوى　　　تر من عرض نواحي الجرام
أخلفتهن اللواتي الألى　　　بالمقاني بعد حسن اعتمام
فاجترت للماء يأدو لها　　　مسحل مقلاء عون قطام
ذو مزارير بأعطافه　　　جـدر منها قديم ودام

في محان حفرتها كما — حفر القوم ركي اعتقام
ومشيح عــدوه متأق — برعم الايجاب قبل الظلام
قد نحاها فهي مسعورة — فوقها مثل شواظ الضرام
صادفت طملا طويل الطوى — حانظ العين قليل السأم
يلحس الرصف له قصبة — سمحج المتن هتوف الحطام
منطو في مستوى رجبة — كانطواء الحربين السلام
إن يصب صيداً يكن جله — لعجايا قوتهم باللحـام
أو يصادف خفقاً يصفهم — بعتيق الخشل دون الطعام
فرماها واثقـاً أنه — صائد إن أطعم الصيد رام
فأزال السهم عنها كما — زل بالساقي وشيع المقام
ومضت رهواً تطير الحصى — بصحيح النسر صلب الحوام

أكل السبع وليد هذه الاتانة ، فهي خائفة مرتعبة ، لا تلوي على شيء ، ولا تطلب غير الانهزام ، وهي في ذعر دائم وقد ضمها ذعرها وخوفها هذا ، الى حمر وحشية دقيقة السوق ، سريعة العدو يقودهما فحل قوي ، يهبط بها أحد شعاب الوادي يطلب الماء . . صادفت هذه الاتانة صياداً منطوياً في حفرة ، كما تنطوي الحية بين كسر الأحجار ، فرماها الصائد ، واثقاً أنها لن تفلت منه ، لكن سهمه زل عنها ، فمضت تطير الحصى بحوافرها الصلبة ، وهي تعدو الى طريق الخلاص .

إن أروع صور الطرماح الشعرية ، تتجلى في صيده ، ويكفي دليلاً على ذلك ، أن الأصمعي وأبا عبيدة ــ وهما من أكثر الناس تتبعاً لهفوات الطرماح ــ كانا يقولان عن إحدى هذه الصور : « إنه أشعر الناس فيها » (١) . ولذلك فانه لابد لي ، من أن أعرض صوراً أخرى من صور صيده ، أتتبع

---

[١] الحيوان للجاحظ ٤٦٥/٣ ، الأغاني ٩٥/٦ ، ٤١/١٢ ، أما الصورة فهي :
يبدو وتضمره البلاد كأنه — سيف على شرف يسل ويغمد
وكأن قهزة تاجر جيلت له — لفضول أسفلها كفاف أسود

خلالها ، فنه الشعري ، ,أدلل على ما ذكرته ، من أن فيه ووحاً زهدياً و اسلامياً أو « خارجياً » ، وأن فيه أثراً من آثار اخفاقه بالحياة واحساسه بالملاحقة :

أذاك أم ناشط توسنه جاري وذاذ يستن منجرده(١)
بات لدى نعضة يطيف بها في رأس متن أبزى به جرده(٢)
طوف متلي نذر على نصب نصب دوار محمرة جدده
لما استبان الشباشبا جرباه المسن من كل جانب ترده
غاط حتى استباث من شيم الأرض سفاة من دونها ثأده
طالع نصفه ونصف يواريه حفير بحفه سنده
ينته السماء من آخر الليل بشؤبوب مهذب برده
فهو طاو يزل عن متنه القطر نقي اهابه صرده
وغدا اذ بدت له الشمس يجتاب كثيباً أخلى له عقده
بينما ذاك هاجه غدوة جمع ضراء مقلد قدده
صائبات الصدور يبدو اذا أقعين من كل مرفق بدده
يستدرن الأحراج كالثول والحرج لرب الصيود يصطفده
مرغنات لأخلج الشدق سلغام عمر مفتولة عضده
يضغم النابيء الململع بين الروق والعين ثم يقتصده
ثم إن لم يوافه القوم لم يشكل عليه من أين يفتصده
ذا ضرير يصر مثل ضرير العقو لما أصاحه مسده
من خلال الآلاء عاين فأنقض ملياً ما يرعوي زؤده
ثم أدته كبرياء على الكر وحرد في صدره يجسده
فهو ثان يذوحهن بروقيه معاً أو بطعنه عنده
ذا ضرير يشك آباطها القصوى بطعن يفوح معتنده

[١] الديوان القصيدة الخامسة ، والناشط الثور وتوسنه جاءه ليلاً .

[٢] في اللسان وفي معاني الشعر ٧٤٥ يطوف ، والنعضة النعامة .

تشظى عنه الضراء فما تثبت أغماره ولا صيده
فنهى سبحة اليقين وما لأفي عطاف والموت محترده
إذ أفادته عادة كان يرجوها فوافى المنون ترتصده
وعدا الثور يعسف البيد لايكتن من جريه ويجتهده

شبه ناقته بظليم ، ثم بثور الوحش ، يجري فوق متنه الرذاذ المتصل ، أدركه الليل ، فبات لدى شجرة ، يطوف بها طوف متلي النذر حول الصنم ، وإذ أحس بالبرد ، ينصب عليه من كل جانب ، حفر له مأوى واختبأ به ، فبدا جانب من جسمه . ووارى حفير المأوى جانباً آخر ، وقد أمطرته السماء بمائها المتواصل ، طوال ليله ، وإذ بدت له الشمس ، أخذ يجتاب الكثيب ، فهاجه جمع ضراء. (وصور المفاجأة هذه ، تكررت بهذا الاسلوب ، في كل صور الصيد ، كما كررت صور المطر يجري بشده إثارة لاشفاقنا) ... وكان في مقدمة هذا الجمع من الضراء المنتشرة انتشار النحل ، كلب واسع الشدق ، شديد الأسر ، انقض على الثور ، بوحشية وقسوة ، تجوطه الكلاب من كل جانب ، تعينه في انقضاضه على الثور ، الا أن هذا الثور ، أخذ يدافع بشدة ، ويدفع عنه الكلاب ، ويذوحها بقرنيه ، وبشك آباطها ، وهي لاتثبت لهذا الذوح ، ولا تصبر لذاك الدفاع ، فتهرب ، وتترك الكلب الكبير (عطافاً)(١) ، وحده ، في صراعه ، لاتنصره غير أنثاه (سبحة) ، ثم يتمكن الثور من عطاف ، ويرديه قتيلا ، فتنتهي سبحة عنه وتكف عن الملاحقة ، (وهنا نلاحظ عطفاً على الأنثى) ، وينجو الثور :

وعدا الثور يعسف البيد لايكتن من جريه ويجتهده

ونتيجة الصورة الخامسة ، كنتيجة الصور الاخرى ، الانتصار للطريدة :

وشاخس فاه الدهر حتى كأنه منمس ثيران الكريص الضوائن(٢)

[١] عطاف اسم كلب وسبحة اسم اناثه .
[٢] القصيدة السابعة والاربعون وأبياتها مجموعة من كتب اللغة والادب .
وشاخس خالف بين أسنانه فبعضها طويل وبعضها منكسر والضوائن البيض والكريص الجوز بالسمن والمنمس القديم .

فبات يقاسي ليل أنقــد دائباً ويحدر بالقف اختلاف العجاهن(١)
كطوف متلي حجة بين عبعب وقرة مسود من النسك قاتن
الى أصل أرطاة يشيم سحابة على الهضب من حيران أو من توازن
فباتت أهاضيب السماء تلفــه الى نعج من عجمة الرمل ضائن
فلما غدا استذرى له سمط رملة لحولين أدنى عهـده بالدواهن
أخو قنص يهفو كأن سراته ورجليه سلم بين حبلي مشاطن
يوزع بالأمراس كل عماس من المطعمات الصيد غير الشواحن
معيد قمطر الرجل مختلف الشبا شرنبث شوك الكف شثن البراثن
يهز سلاحاً لم يرثها كلالة يشك بها منهـا أصول المغابن
يساقطها تترى بكل خميلة كبزغ البيطر الثقف رهص الكوادن
فأصبح محبوراً تخط ظلوفــه كما اختلفت بالطرق أيدي الكواهن
يثير نقـا الخنـاءتين ويبتني بها نقب أولاج كخيم الصيادن

يصف الوعل أو العير ، وقد بات الى أصل شجيرة صغيرة في الخلاء ، يقاسي ليلاً طويلاً كليل القنفذ(٢) ، وباتت السماء تلفه الى نعج بسحاب كثيف ، كأنه الهضبات ، وفي الصباح ، استذرى له الصياد ، ثم أخذ يلاحقه ، وكان هذا الصائد دقيقاً في استذرائه وملاحقته ، يعدو بخفة واستخفاء ، حانياً أكثر قامته ، حتى ليبدو أعلى ظهره ورجلاه كدلو يضطرب ويتمايل ، خلال البئر ، بين حبلين ، ينزعه بهما الماتح ، تعين هذا الصائد في مهمة صيده كلاب ، غليظة الأكف ، حادة البراثن ، وكانت قرون هذا الحيوان الحادة تقوم له مقام السلاح ، فأخذ يشك بها بطون الكلاب ، التي تلاحقه كما يبزغ البيطار الحـاذق الدمامل ، في قوائم البراذين . فكان يساقطها ويطرحها ، وكانت النتيجة النجاة :

---

[١] في معاني الشعر الحقف بدل القف . والأنقد القنفذ ويحدر يهبط والعجاهن غلام الطباخ .

[٢] القنفذ يسري الليل كله .

فأصبح محبوراً تخط ظلوفه كما اختلفت بالطرق أيدي الكواهن

والخلاصة : أن هذا الفن في شعر الطرماح ، بما فيه من تصوير رائع لغريزة حب الحياة ، والدفاع عن النفس ، صورة أدبية صادقة للصراع بين الانسان والقدر ، وهو في الوقت ذاته ، تعبير عن فشل الطرماح في تحقيق أمانيه الكبرى في الحياة ، ورمز للألم والحقد على الناس ، ثم إن أثراً قوياً من آثار خلقه أو زهده أو حسن إسلامه أو عقيدته الخارجية ، إن صحت ، قد شارك في رسم هذه الصورة النفسية .

ثانياً ـ الطرد بين الطرماح وأبي نواس :

مما لا ريب فيه ، أن طرد الطرماح كان أساساً تمتد خلاله جذور طرد أبي نواس ومقلديه ، ممن أصبح عندهم الطرد فناً مستقلاً وغرضاً منفصلاً . وهو على هذا الاعتبار ، حلقة وصل بين طرد الجاهليين ، وطرد أبي نواس وابن المعتز ، وغيرهما من العباسيين .

وكما يعتقد بعض الباحثين ، أن أبا نواس مبتدع فن الخمريات ، بعد أن اختفى أو كاد ، خلال عصر الأمويين ، كذلك يظنون ، أن أبا نواس هو باعث هذا الفن ، بعد اضمحلاله واختفائه خلال هـذا العصر . والذي أراه ، أن الطرماح كان أستاذ أبي نواس في هذا الفن ، فقد أبدع في رسم صوره ، واستقصى أوصاف الحيوانات . ولو أنه تيسر لنا العثور على ما ضاع من شعره ، لاتضح لنا ذلك بصورة أجلى . وقد رأينا أن اهتمام الطرماح بالصيد ، وولعه بصوره ، ليس الا جانباً من اهتمامه وولعه بالحيوان ، إذ مر بنا كيف دقق في نعته واستقصى وأكثر من ذكر أنواعه ، في تشبيهاته ، وفي سائر وصفه .

ويبدو أن بروكلمن كان على صواب في رأيه ، حين لم يستطع أن يصدق أن أبا نواس هو الذي بعث هذا الفن ، من غير مقدمات ، سبقه فيها الشعراء الاسلاميون والأمويون ، ومهدوا له فيها طريق القول والابداع فيه ، إذ يقول : « ويجب أن نذكر الى جانب زهدياته ، أشعاره عن الصيد ، التي تبدو مبتكرة عند النظرة الأولى ، ولكن لابد أن له في هذا الضرب من الشعر أسلافاً ، نسج على منوالهم ، ولم تصلنا أخبارهم . . . »(1) .

وسنحاول هنا ، أن ندرس هذا الفن عند أبي نواس ، لنتبين العلاقة بينه وبين الطرماح ، ولنتبين أثر مذهب أبي نواس الماجن في هذا الفن ، كما تبينا أثر مذهب الطرماح المسلم أو (الخارجي ؟) أو الزاهد فيه .

---

[1] دائرة المعارف الاسلامية ١ / ٤١٤ .

وإذ كان الطرماح يشفق على الطريدة ، بدافع من زهده ، أو عقيدته (الخارجية ؟) أو حسن إسلامه ، أو مرضه النفسي ، فماذا يمكن أن يكون موقف أبي نواس منها ، في طرده ، وهو من المجون والتهتك بالمكان المعروف ؟

كان يلذ لأبي نواس ، أن يرى دم الطريدة يسيل ، وكانت تأخذه النشوة وهو يشاهد أعضاءها تتشظى ، ويطرب — كعادة الصياد — إذ يشم ريح الشواء يتصاعد من لحم هذه الطريدة ، فيحس بنشوة الظفر :

في هبوات الضيق أو رباطه   فأدرك الظبي ولم يباطه
ولف عشرين الى أشراطه   فلم تزل نقرن في رباطه
ويخمط الشاوون من خماطه   ويطبخ الطابخ من أسقاطه
حتى علا في الجو من شياطه(١)

وهو لايكتفي بصيد واحد ، ولايرضى عن (صورته) حتى تبدو كالمجزرة . وهو لايكتفي أيضاً بأن يصيد بازيه أو كلبه الطريدة ، وانما يتوق الى أن يراها وقد تمزقت مزقاً ، وتطايرت أعضاؤها أشلاء ، يقول :

حتى اذا ما انشام في غباره   عافره أخرق في عفاره
فتلتل المفصل من فقاره   وقد عنه جانبي صداره
لا خير في الثعلب في ابتكاره(٢)

ويقول : فاصطاد قبل التعب المبرح   وقبل أوب العازب المروح
خمسين مثل العنز المشدح   ما بين مذبوح وما لم يذبح(٣)

ويقول : وضربة بنيزك مذروح   فاصطاد قبل الأين والتبريح
خمسين مستحيي الى مذبوح(٤)

بل انه ليبلغ منتهى نشوته ولذته ، إذ يرى الطريدة تتمزق :

كأنه في الكر واقتحامه   ضرب فتى شيبان في إقدامه
من خبطة النحر ومن قدامه   حتى هوى يفحص في رغامه

---

[١] ديوان أبي نواس ٦٢٦ .
[٢] المصدر السابق ٦٢٩ .
[٣] المصدر السابق ٦٤٩ .
[٤] المصدر السابق ٦٥١ .

منقلب الروق على أزلامه　　　يالك من عاد الى حمامه(١)

ومن صور تمزيق الطريدة قوله :

كأنما يطلب في عفائه　　　ديناً له لابد من قضائه

فقحص الثعلب في دمائه　　　يالك من عاد الى حوبائه(٢)

والدماء تصبغ أكثر صور صيده ، وهو يعتصرها من الطريدة اعتصاراً :

يحوز منها كل يوم حظاً　　　حتى ترى نجيعها مفتظاً(٣)

والكلب أو البازي (أداة الصيد) صائد لا يخيب أبداً ، في صور أبي نواس ، والطريدة مغلوبة ، تتمرغ في دمائها لا محالة ، على نقيض ما رأيناه من طريدة الطرماح ، فهي غالبة ، وكلابه مغلوبة يائسة ، إن لم تكن مقتولة . ومادام الأمر كذلك ، فليس بأبي نواس من حاجة لابراز لحظات المقاومة والصراع بين الكلب والطريدة ، كما يفعل الطرماح ، بل إن مشاهد الصراع والمقاومة لتختفي عنده اختفاء ، إذ أنه يطمسها ، مبالغة في إظهار قوة الكلب ، وهذا يصور عكس ما كان يرمي اليه الطرماح وأسلافه ، إذ يجلون مشاهد المقاومة والصراع ، إبرازاً لصفات القوة والفتوة في الطريدة ، التي شبهوا بها ناقاتهم أو جمالهم ، فضلاً على أن الطرماح كان يطل من خلالها على الجو النفسي ، الذي يريد تصويره ، يقول أستاذنا الدكتور جميل سعيد : (ونرى أن أبا نواس يغفل في طردياته ذكر الصراع ، يدور بين الكلاب والطريدة ، ويتابعه ابن المعتز ، وربما كان هذا الموقف أجمل مواقف الصيد وألذها عند الصياد . والعاطفة تكون مهتاجة فيه أكثر منها حين يظفر بالصيد . . . وقل أن نجد شاعراً جاهلياً وصف الصيد ، وفاته هذه اللحظة فيه ، على أنني لا أعرف شاعراً عباسياً واحداً عني في وصف هذه الناحية الهامة »(٤) .

---

[١] ديوان أبي نواس ٦٣٦ .

[٢] ديوان أبي نواس ٦٣٩ .

[٣] المصدر السابق ٦٤٢ .

[٤] الوصف في الشعر العراقي ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

والطرماح يشفق على الطريدة ، ويرثي لها ، أما ابو نواس فانه يرثي الكلب ، إما أصابه حادث ، في معركة من معارك الصيد :

يا بؤس كلبي سيد الكلاب قد كان أغناني عن العقاب(١)

ومهما يكن من شيء ، فالتناقض بين المذهبين واضح ، كل الوضوح ، وأثر الاتجاه الخلقي عند الشاعرين ، بين ظاهر في هذا الفن . الطرماح يذهب مذهب الاشفاق ، ينتصر للطريدة ، حتى لانجد في طرده حيواناً تدركه الكلاب ، أو يتمكن منه الصائد . وأبو نواس ينتصر للكلب ، وللصائد ، فيجعلهما منتصرين ، إمعاناً في وصفهما بالدقة في الصيد ، والحرص والاجادة في أداء المهمة ، حتى لا نجد في طرده حيواناً واحداً يفلت من صائد ، أو ينجو من كلب أو بازي .

ولئن كان التناقض والاختلاف واضحين ظاهرين في الأسلوب والمذهب ، بين طرد الطرماح وأبي نواس ، فانه من الممكن أيضاً ، بل من اليسير ، ملاحظة التماثل والتشابه في كثير من أجزاء الصورة الطردية عند الشاعرين . فلا شك عندي في أن أبا نواس تأثر بطرد الطرماح ، بل قلده تقليداً في نواح كثيرة ، وإني أكاد أعد طرد الطرماح اللبنة الأولى لاستقلال هـذا الفن ، ونضجه وتطوره ، وتميزه بميزات خاصة ، في العصر العباسي ، يوم أصبحت حفلات الصيد ، مظهراً من مظاهر اللهو والعبث ، لا حرفة أو رياضة يصطنعها البدوي والقروي في القديم(٢) .

جدد أبو نواس في فن الطرد ، وقد احتذى في تجديده الطرماح ، ومن يقرأ شعرهما ، يدرك أن جذور فن أبي نواس تمتد بعيداً في طرد الطرماح . ولا غرو فقد كان أبو نواس يقرأ شعر الطرماح ويعجب به ، ويفصح عن مدى إعجابه بقوله : « هو أشعر الناس في هذا البيت :

---

[١] ديوان أبي نواس ٦٤٣ .

[٢] يقول بروكلمن : « . . . ولم تصل نشوة الرياضة واللذة بالصيد الى نمو كامل الا في طرديات شعراء المدن المتأخرين ــ تاريخ الأدب العربي ٤٩/١ »

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد(١)

وقد تأثر بغريبه تأثراً واضحاً ، فطرده كثير الغريب أيضاً ، كما تأثر بكثير من صوره .

لم يكن عصر الطرماح — وهو عصر جد — يسمح لصور صيده أن تنفصل ، فتصبح قصائد مستقلة ، فبقيت مرتبطة بالقصيدة ، ولو أتيح للطرماح أن يفصل صورة الصيد بقصيدة مستقلة ، لوجدنا له خطرات رائعة ، ولأمكن أن يقفز به الى مرتبة الابداع . ويجدر بنا أن نلحظ هنا ، أن صورة الصيد هذه لا يربطها بسائر القصيدة ، غير خيط واه (أداة التشبيه) . على أن هذا الغرض ، أصبح على يد أبي نواس فناً قائماً بذاته ، فتحققت بذلك في كل طردياته ، الوحدة الموضوعية ، على حين كان عند أسلافه غرضاً ثانوياً .

يجمع كل طرديات أبي نواس ، التي تربي على الخمسين ، وزن واحد هو (بحر الرجز) . ويتيح هذا البحر للشاعر ، بما يحمله من موسيقى الاضطراب والقلق ، وبما يوحيه من سرعة وحركة ، أن يؤدي مشاهد الصيد ، التي تتسم أبداً بالحركة والقلق . وتتميز بالاضطراب . فهو اذن يلائم — بما يحمله من قيم صوتية — موضوعات الطرد ، ويستوعبها ، أدق استيعاب . يقول الأستاذ الدكتور جميل سعيد : « . . وأمر آخر جدير بالاهتمام ، هو أنهم جعلوا وصف الصيد رجزاً ، مع أن الجاهليين جعلوه قصيداً . وعندي أن الرجز أكثر ملاءمة لوصف الصيد من القصيد ، ذلك أننا حين نتتبع تاريخ الرجز ، نراه لا يقال الا في المواطن يقلق فيها الانسان قلقاً مادياً ، أو في المواطن يقلق فيها الانسان قلقاً مادياً يصحبه قلق نفسي ، نراهم يقولونه في الاستقاء على البئر ، ويحدون به ، وقد قاله المسلمون في حفر الخنادق . وقالوه في المبارزة ، والمبارزة من الأمور التي يقلق فيها الانسان قلقاً نفسياً ، مع قلقه المادي أو الجسمي . والصيد شبيه بهذه المواطن ، فالانسان يضطرب فيه اضطراباً مادياً ، يصحبه شيء من الاضطراب النفسي ، ساعة يرى الطريدة ، ويجري في إثرها ، وبحر الرجز نراه أكثر

---

[١] الأغاني (دار الكتب ٤٢/١٢) .

تمثيلاً للحركة المادية ، منه للعاطفة المنسابة التي تجدها في الغالب في بحور الشعر الطويلة ، ونراها في الرثاء أو في الغزل العذري الحزين »(١) .

لقد وجد أبو نواس أن الشعراء الذين سبقوه ، كتبوا في الموضوعات ، التي تتعلق بمواقف حرجة دقيقة ببحر الرجز ، فقد كتبوا المبارزة رجزاً ، وكتبوا في الاستسقاء على البئر رجزاً ، وجد أبو نواس ذلك فسار على هديه .

وليس في مقدور الطرماح وأمثاله ، ما دام الصيد غرضاً ثانوياً أو عرضياً في قصائدهم . يرتبط بموضوعها بعلاقات ، أن يكتبوه رجزاً ، على أن الرجز يضيق عن تصوير كل مشاهد الصراع والمقاومة ، تجري بين الطريدة والكلاب ، لأنها تكون معرضاً للعواطف والانفعالات الدقيقة ، وقد رأينا احتفال الطرماح في تتبعها وتصويرها ، ويلاحظ أيضاً أن الطرماح كتب صورتين من صور طرده ، في وزن شبيه في تصويره للحركة والاضطراب ، بوزن الرجز ، ذلك هو الوزن المديد ، الذي كتب به القصيدة الرابعة ، كما كتب صورة أخرى ، في وزنين مختلفين ، هما المنسرح والخفيف ، اللذان يقتسمان القصيدة الخامسة ، وقد يكون الطرماح أحس بأن وزناً واحداً ، يضيق عن استيعاب معانيه ، خلال هذه القصيدة ، فلجأ الى وزن ثان ، يستعينه في عرض معانيه .

ينصب أكثر وصف أبي نؤاس ، على وسائل الصيد (الكلب أو البازي أو الصياد) ، ويتناول المظاهر المحسوسة من مشاهد القوة والفتوة والصفات المأثورة ، في حيوانات الصيد ، أما وصف الطرماح ، فينصب على العملية نفسها ، ويتناول الصراع بين الطرائد وحيوانات الصيد ، ليتيح له ذلك مراقبة الانفعالات بصورة جلية ، وليصور الصراع بين الانسان ومظاهر قوى الطبيعة ، ذلك حين يجهد الثور في حفر مأوى له ، يلوذ به من الريح والمطر ، ويقيه شر البرد الشديد . . فهو يتعمق أدق الانفعالات ، في أصغر المواقف ، وقد رأيناه في وصفه الحيوان ، يتتبع الدويبة الصغيرة ، يصف تحسسها بالمظاهر الطبيعية ، كما يصور محاولاتها للاختباء والنجاة ، وهو هنا — تصد أم لم

---

[١] الوصف في الشعر العراقي ٢٣٠ .

يقصد ــ يصور جانباً من الصراع الأزلي بين الحيوان والطبيعة .

وقد أفرد أبو نواس قصائد كثيرة من طرده ، وصف بها الكلب أو الديك أو الحصان أو البازي ، ثم لم يخص الطريدة في هذه القصائد إلا باشارة صغيرة أو قد يهملها(١) . ووصفه هذا بارد خال من الانفعال ، الذي نجده في وصف الطرماح ، هذا على الرغم من أن أبا نواس يشارك بنفسه في عملية الصيد ، فيخرج اليها ، وقد يقضي فيها أياماً .

ونحن إذ نقرأ صور أبي نواس ، نلمح خلالها صور الطرماح ، شبه الطرماح الكلاب تعدو خلف الطريدة ، بالسهام ، قال :

بينما ذلك هاجت به أكلب مثل حظاء الغلام(٢)

ويذكرنا ذلك ، بقول أبي نواس ، يصف كلبه مشبهاً إياه بالسهم أيضاً :

كأنه سهم الى غاية أو كوكب في الأفق محدور(٣)

ويصف أبو نواس كلبه ، فيقول :

كالكوكب الدري في انخراطه عند تهاوي الشد وانبساطه

فيذكرنا ببيت الطرماح :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد

ويستغل الشاعران الطرد . ليعرضا لنا صوراً من الطبيعة ، تصف الليل والسماء والسحاب والمطر والرذاذ والحقول والشروق والغروب والحيوانات ، وقد ذكرنا من تصوير الطرماح لمشاهد الطبيعة نماذج كثيرة ، ونذكر هنا صور أبي نواس ، يقول :

قد أغتدي والصبح محمر الطرر والليل تحدوه تباشير السحر

---

[١] مثل ذلك قصيدته في وصف الديك (٦٤٥) :

أنعت ديكاً من ديوك الهند كريم عم وكريم جد

فهي خالية من غير وصف الديك ، ومثل قصيدته في وصف الكلب (٦٢٤) .

[٢] الديوان (٥١ ــ ٤) .

[٣] ديوان أبي نواس ٦٣٥ .

وفي تواليه نجوم كالسرر بسحق الميعة ميال العذر(١)

ويقول: لما رأيت الليل منشق الحجب عن سائل الغرة مشهوز النقب(٢)

ويقول: قد أغتدي قبل الصباح الأبلج وقبل نقناق الدجاج الدجج(٣)

ويقول: لما رأيت أليل قد تشزرا عني وعن معروف صبح أسفرا(٤)

وقد وردت في وصفه ألفاظ غريبة استعملها الطرماح قبله ، مثل: « شثن سلامى الكف » ، وعند الطرماح « شثن البرائن » ، ومثل شرنبث ومضبور القرا ، وقد وردت هذه التعابير في شعر الطرماح . وكما كان الطرماح يلجأ الى وصف الحيوانات بالسرعة ، ويبالغ في ذلك ، فكذلك أبو نواس بالغ في وصفها بالسرعة ، فشبهها بالكوكب تارة وبالسهم أخرى :

فانصاع كالكوكب في انحداره لفت المشير موهناً بناره(٥)

وقد قلد أبو نواس الطرماح في تسمية كلابه :

حتى دنا من راحة المشاح أجد في السرعة من سرياح(٦)

وسرياح اسم كلب ، ومن أسماء الكلاب ، التي وردت في شعر الطرماح : « عطاف وسبحة وصي » . ويبدو أن ذلك من تأثير البيئة القروية . وكان أبو نواس يختتم أراجيزه بنصف بيت على الغالب ، في حين لم يكن ذلك في وسع الطرماح . فطرده جزء من القصيدة ، مرتبط بها . ويلاحظ ، أن وصف الكلب يستغرق أغلب القصيدة عند أبي نواس ، أما الطرماح ، فيطيل عملية الملاحقة والصراع . والكلب عند الاثنين هو وسيلة الصيد خلافاً للجاهليين ، الذين يعدون الفرس والحصان في مقدمة عدد الصيد .

---

[١] ديوان أبي نواس ٦٤٦ .

[٢] ديوان أبي نواس ٦٤٤ .

[٣] المصدر السابق ٦٤٥ .

[٤] المصدر السابق ٦٥٠ .

[٥] المصدر السابق ٦٢٩ .

[٦] المصدر السابق ٦٣٧ ، ومن أسماء الكلاب عنده أيضاً (زنبور) .

وقروية الطرماح ، وألفته للحيوان ، أتاحت له أن يستغل الكلب ــ وهو حيوان قروي ــ في رسم صورة الصيد ، وقد أشار الأستاذ الدكتور جميل سعيد الى اختلاف ابي نواس عن الجاهليين في هذا المنحى ، فقال : « .. وتنظر في وصف أبي نواس للصيد ، فتراه نحا به غير منحى الجاهليين ، أخذ الفرس عندهم المحل الأول ، وأخذ الكلب المحل الأول عنده ، وربما كان سبب ذلك ، أن الفرس اعتبروا الكلب هو العدة الأولى من عدد الصيد »[1] .

إن تكرار صور الصيد عند الطرماح موضع غرابة ، الا أنه لم يصل الى درجة التركز والاستقلال ، فتحقق فيه وحدة الموضوع ، والغرض ، والاسلوب (الوحدة الفنية) ، كما حصل لقصيدة أبي نواس ، على أن طرده كان أساساً ، استفاد منه أبو نواس وبنى عليه . فالطرماح يمثل حلقة تطور هذا الفن خلال العهد الأموي .

---

[1] الوصف في الشعر العراقي ٢٠٦ .

الفصل الثامن

شعره المذهبي والسياسي

وإذ كان الدين . ومـا أوجده من مفاهيم ، في بيئة الكوفة بخاصة ، قد ترك في شعر الطرماح أثراً ظاهراً ، وتركت الفكرة الخـارجية(١) مثل ذلك الأثر أيضاً ، فانه من الممكن ملاحظة نتائج هـــذه المؤثرات في أقسام ثلاثة من شعره :

القسم الأول : شعره الخارجي ، وهو ـــ كما تبينا ـــ إما شعر صريح في خارجيته ، يذكر الشراة ، ويصف حالهم ويصور شوق الطرماح للموت في سبيل عقيدتهم ، وهو لايعدو مقطوعتين صغيرتين أولاهما :

لله در الشـــراة إنهم	إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحنين آونـــة	وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوناً تبيت القلوب واجفة	تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف أرجي الحياة بعدهم	وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم	بالفوز مما يخاف قد وثقوا (٢)

والثانية : لقد شقيت شقاء لا انقطاع له	إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد	إلا المنيب بقلب المخلص الشاري
أو الذي كتبت من قبل مولده	له السعادة من خلاقها الباري(٣)

وإما شعر يلمح فيه الروح الخارجي لمحاً ، يصور الحنين الى الاستشهاد ، والشوق الى الخروج ، وخير مثل على ذلك قصيدته :

وإني لمقتاد جوادي وقاذف	به وبنفسي العام إحدى المقاذف(٤)
وقصيدته : وإني وإياكم وموعد بيننا	كيوم لبيد يوم فارق أربدا
فأخبره أن السبيل ثنية	صعود ينادي كل كهل وأمردا

---

[١] ناقشت خارجية الطرماح وأوضحت رأيي فيها والموضوع مكتوب هنا على فرض صحة نسبة كل شعره اليه .

[٢] الديوان المقطوعة السابعة والثلاثون .

[٣] الديوان المقطوعة الثلاثون .

[٤] الديوان المقطوعة الخامسة والثلاثون .

(صعود) فمن يلمع به الموت يأته ومن لا (يلهى) بالضحاء فأوردا(١)

وشعره الخارجي لا يعدو وصف الشراة وتدينهم وشـدة وثوقهم بالفوز وإعجابه بإيمانهم ، ثم يصف شوقه للخروج ، ويذكر شقاءه إن حرم من الفوز بالنجاة من النار حين لم يستطع أن يكون شارياً ، لأن الجنة مقصورة على الشراة . ولم يتعرض الطرماح بهذا الشعر لبسط آراء الخوارج في الخلافة والدين ولم يذكر خلاله أي رأي سياسي .

القسم الثاني : شعره الديني ، وشعر هـذا القسم ليس قصائد مستقلة ، وإنما هو أبيات ومقطوعات مبثوثة ، خلال قصائده ومعاني هـذا القسم كلها إشارات دينية تطبع فنون شعره المتنوعة من هجاء الى وصف الى فخر ، وتصور نزعته الدينية ، وتعكس خلقه الاسلامي الصافي ، وتعبر عن واقع الكوفة الملتزم ، كما تعبر عن روح العصر وطبيعته ، ذلك أن كثيراً من الشعر الأموي ، طبع بطابع الحياة الدينية ، فالمفاهيم التي وجدت في ظل الاسلام أثرت أثرها العميق في شعر العصر ، فأصبح من غير اليسير أن نرى شعراً لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة .

فنحن اذا قرأنا هجاء الطرماح ، وجدنا فيه هـذا الأثر واضحاً جلياً ، فهو يهجو بقلة الايمان ، وكثرة مخالفة قواعد الدين ، من ذلك هجاؤه تميماً بقوله :

لو حان ورد تميم ثم قيل لها حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو أنزل الله وحياً أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد(٢)

وظاهر أنه أراد هجاءها بضعف الدين وبالجبن ، في وقت واحد ، فهي لجبنها وقلة ايمانها ، تضعف عن تلبية النداء الديني للزحام كي تشرب من حوض الرسول ، ومن ذلك قوله :

---

[١] الأزمنة والأمكنة ٢ / ٣١٤ وهي من المقطوعات التي استدركناها على الناشر ، وقد رفع الفعل في الشرط .

[٢] الديوان (٥ ، ٦ ـــ ٢٠) .

ولو خرج الدجال ينشر دينه لزافت تميم حوله واحزألت
فراش ضلال بالعراق وحسوة اذا مات ميت من قريش أهلت(١)
وقوله : لعمري لقد سارت سجاح بقومها فلما أتت عز اليمامة حلت(٢)
فدارسها البكري حتى استزلها فأضحت عروساً فيهم قد تجلت
فتلك نبي الحنظليين أصبحت مضمخة في عطرها قد تظلت(٣)

يعير تميماً بسجاح التميمية ، التي تنبأت وتزوجت من مسيلمة . ونجد هذه الاشارات في فخره ، كما وجدناه في هجائه ، يقول :

ونحن ضربنا يوم نعفي براخة معداً على الاسلام حتى تولت
بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
بهم نصر الله النبي وأثبتت عرى عقد الاسلام حتى استمرت
ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت(٤)
ويقول : لأمهات جرى في بضعهن لنا ماء الكرام ارتشاداً غير ذي ريب
معاليات عن الخنزير مسكنها أطراف نجد من أهل الطلع والكتب
شم العرانين والأحساب من ثعل ومن ربيعة لا يسجدن للصلب(٥)
ويقول : فبعزنا نصر النبي محمد وبنا تثبت في دمشق المنبر(٦)

فخر ديني ، يتمدح بنصرة القحطانيين ، للدين والتزام الواجبات المفروضة ، وجهاد أعداء الدين . ووصفه أيضاً لا يخلو من مثل هذه المعاني ، وهذه

---

[١] الديوان من القصيدة الثامنة .

[٢] سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية اليربوعية تنبأت وسارت الى اليمامة وتزوجت مسيلمة البكري (الكذاب) وأقامت عنده ثلاثاً ـ التنبيه والاشراف ٢٨٥ .

[٣] الديوان المقطوعة الحادية عشرة .

[٤] الديوان المقطوعة الثامنة والحادية عشرة .

[٥] الديوان القصيدة السابعة .

[٦] الديوان (١٠ ـ ٢٥) .

التلميحات ، يقول :

منازل لا ترى الأنصاب فيها ولا حفـــر المبلى للمنون
ولا أثر الدوار ولا المـــآلي ولكن قد ترى أرب الحصون(١)

ويقول : انما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده(٢)

ومعنى هـذا البيت ، مأخوذ من حديث للرسول الكريم ، هو : « مثل المؤمن كمثل النخلة ، أو مثل الخامة »(٣) .

أما القسم الثالث ، فهو شـــعر زهدي . فقد كانت تستيقظ في صدر الطرماح ، بعض النوبات الزهدية ، وتخطر له خطرات ، فيها من التقى والورع ما في شعر الزهاد . الا أنه لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق ، فقد كان يباعد بينه وبين ذلك ، حبه المسرف للمال ، وسعيه في طلبه ، وجشعه وشدة طمعه .

يحمل هـــذا القسم كل سمات الشعر الزهدي وخصائصه ، فهو يصور التوبة والانابة ، بعد حياة اللهو والعنجهية والعصيان .

فتطربت للهوى ثم أقصرت رضى بالتقى وذو البر راض
وأراني المليك رشدي وقد كنت أخا عنجهية واعتراض
غير ماربة سوى ريق الغرة ثم ارعويت عنـــد البياض
لات هنا ذكرى بلهنية الدهر وأنى ذكرى السنين المواضي
فأذهبوا ما اليكم خفض الحلم عناني وعريت أنقاضي
وذهلت الصبا وأرشدني الله بدهر ذي مرة وانتقاض(٤)

ويصور العقـاب ، ويعرض صوراً لحساب الانسان في الآخرة ، ويذكر الجنة والنار ، ويذكر بأن هذه الحياة الدنيا فانية ، وأن أجل الانسان فيها محدود ، بل هو كنابتة الزرع ، لايلبث أن يأتي حصاده بعد حين . كما نلمس

---

[١] الديوان (٢ ، ٣ ــ ٤٩) .
[٢] الديوان (١٦ ــ ٥) ، أسرار البلاغة ١٢١ ، فصل المقال ٧ .
[٣] أسرار البلاغة ١٢١ .
[٤] الديوان من القصيدة الثانية .

فيه ثورة على الجشع وعلى اكتناز الأموال وعلى الحرص ، ونقرأ كثيراً من الحكمة والموعظة ، مصدرهما الايمان العميق المتغلغل في أعماق قلبه ، والخلق الكريم والاستقامة ، اللذان كانا يطبعان شخصيته :

ترك الدهر أهله شعباً فاستمرت من دونهم عقده
وكذلك الزمان يطرد بالناس الى اليوم يومه وغده
لا يلبثان باختلافهما المرء وإن طال فيهما أمده
كل حي مستكمل عدة العمر ومود إذا انقضى عدده
عجباً ما عجبت للجامح المال يباهي به ويرتفده
ويضيع الذي يصيره الله اليه فليس يعتقده
يوم لا ينفع المخول ذا الثروة خلانه ولا ولده
يوم يؤتى به وخصماه وسط الجن والانس رجله ويده
خاشع الصوت ليس ينفعه ثم أمانيه ولا لدده
قل لباكي الأموات لا تبك للناس ولا يستنع به فنده
إنما الناس مثل نابتة الزرع متى يأن يأت محتصده(١)

ويستمد الشاعر أكثر معاني أبياته الزهدية هذه ، من القرآن الكريم ، وما يتردد في آياته البينات ، من أن أجل الناس محتوم : « لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، وأنهم « لمجموعون الى ميقات يوم معلوم » ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون » ، « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »(٢) . يوم يأتي الظالمون الذين خرجوا عن جادة الدين مصفدين لا تنفعهم أمانيهم ولا ما كانوا يجادلون فيه عن أنفسهم ولا ما اختزنوه من أموالهم كأنما غرهم بالله الغرور .

ثم أننا نلاحظ أبياتاً كثيرة من شعره الزهدي هذا ، تتناول فكرة الموت ،

---

[١] من القصيدة الخامسة .

[٢] سورة النحل آية ٦٠ ، وسورة الاعراف آية ٣٤ ، وسورة الواقعة آية ٥٠ ، وسورة الشعراء آية ٨٨ ، وسورة النور آية ٢٤ .

التي تتردد في القرآن الكريم : « كل نفس ذائقة الموت » ، « انك ميت وانهم ميتون »(١) .

وعلى كل حال ، فاننا نلمس في هذا الضرب من شعره الديني ، جذوراً زهدية ، تحمل كل صفات الشعر الزهدي ، كشعر أبي العتاهية وسواه من الزهاد . وليس شعر الطرماح وحده ، هو الذي تلمس فيه الخطرات الزهدية ، فشعر الشعراء الخوارج ، كعمران بن حطان ، وقطري بن الفجاءة ، وشعراء الشيعة ، كالكميت بن زيد ، كان يعج بمعاني الزهد والوعظ ، مما يصح أن يعتبر أساساً لحركة الزهد ، التي نشأت زمن بني العباس ، وبرز فيها من الشعراء . أبو العتاهية المتوفى سنة (٢١١ هـ) . ولا ننسى أن الكوفة كانت بعد ذلك ، مركز الحركة الزهدية ، فقد اشتهر فيها من الزهاد ، علقمة بن قيس ، والشعبي ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، وسواهم ، وكذلك نشأ فيها الشعر الزهدي ، فقد كانت الكوفة منزلاً لكثير من الصحابة ، وقد نزلها — كما رأينا — سبعون بدرياً ، وكانت مركزاً تجمعت فيه القوى المؤمنة ، التي جاءت لتنشر الدين الجديد في العراق ، وكانت مصطرعاً تنازعت فيه القوى الدينية ، مع السلطة تارة ، وفيما بينها تارة أخرى ، وأراقت دماءها ، وبذلت الكثير من التضحية .

في مثل هذه البيئة الدينية ، نشأ شعر الزهد ، وكانت بذوره الأولى في شعر الشعراء الخوارج والشيعة ، وظهرت في شعر الطرماح بارزة قوية . ومن هنا تبين أيضاً ، أن شعراء الزهد والوعظ ظهروا زمن بني أمية(٢) . ويجب ألا يغرب عن بالنا روح العصر وطبيعة الظروف ، التي كتب فيها الشعر الأموي ، والمؤثرات الدينية ، التي كتب تحت تأثيرها .

---

[١] سورة العنكبوت آية ٥٧ ، وسورة الزمر آية ٣٠ .

[٢] نقائض جرير والفرزدق ٢٩٣ .

الفصل التاسع

المديـــح

لم يمدح الطرماح ، كما يظهر من المتيسر من شعره ، سوى يزيد بن المهلب ، ومخلد بن يزيد ، وخالد بن عبد الله القسري ، وكل هؤلاء قحطانيون (١) .

وهنا يظهر تعصبه لقحطان ، وميله لليمن ، واضحا جليا ، فقد مدح بسبب هذه العصبية . وهنا يحق لنا أن نتساءل : كيف يمدح الطرماح وهو خارجي ، بل كيف يمدح أبرز ولاة بني أمية ، اعداء الخوارج ، ومنهم من أبلى بلاء كبيرا في مقاتلة الخوارج ومطاردتهم ؟ .

وقد مر بنا كيف أن الدكتورة سهير القلماوي بررت له هذا المدح ، ولم تر ضيراً في أن يمدح ، وهو خارجي ، بل اعتبرت أن ذلك أمر طبيعي ، اذ هو ضرب من التعصب القبلي ، تحمله طائفة من الخوارج ، جاء في كتابها أدب الخوارج : « الخوارج — ككل حزب — مكونون من عناصر مختلفة ، تجمعهم غاية واحدة ، وكانت أهم غاية للخوارج قلب نظام الحكم ليوافق مبادىء الاسلام الاولى . . . وهذه الغاية كانت غاية الطرماح أيضا ، وليس يمنع بل إنه لمما يزيد ذلك عصبيته القبلية ، فقلب نظام الحكم حسب مبادىء الاسلام الاولى ، لا يتنافى وقلب نظام الحكم لينال اليمنيون ولينال هو حقه في الحكم بل ان ذلك ليتفق وإياه (٢) . فهي — كما يظهر — تؤكد عصبيته القبلية ، وتؤكد أيضاً أن هذه العصبية كانت هدفه من وراء السعي في حزب الخوارج . وأنا أرى — وقد ذكرت ذلك في معرض الحديث عن خارجيته — أن هذه

---

[١] ذكر ابن عساكر في تأريخه ٥٢/٧ : أنه قصد الخليفة عبدالملك في الشام .

[٢] أدب الخورج ٩٩ ، بل هي تذهب الى أبعد من ذلك فترى أن : « شعره كله لم يكن يطابق المبادىء المشهورة للخوارج وأن مواضع اخرى بعيدة عن الدين والايمان تشغل الجزء الأكبر من شعره وأن في خلقه ما يبعد عنا فكرة كونه رجلاً دياناً شديد الايمان » ومع ذلك فهي لاتجد في هذه الظواهر مايتعارض وكونه خارجيا بل تجده يمثل فريقاً كبيراً منهم — أدب الخوارج ٩٦ ، ١٠٠ .

العصبية ، تقدح في خارجيته ، وتعرضها للطعن ، فالخوارج حزب ثوري ، وهو يرى الخلافة في أتقى المسلمين ، عربياً كان أو غير عربي ، فكيف يسيغ أن ينضم تحت لوائه المتعصبون لقبائلهم ، وإذا صح ذلك ، فهو مندس على الخوارج .

وتقول الدكتورة : « ولقد كان العنصر المتعصب تعصباً قبلياً في الخوارج ، عنصراً هاماً عديداً مؤثراً في تأريخهم . . هذا الحزب رغم ما كان يقول به من تسوية المسلمين قد ضم منذ نشأته عنصرين هامين من العرب ، عنصر القراء من البدو الخالصي العربية ، الذين فنوا في العقيدة ، فنسوا العصبية وكل شيء ، إلا الايمان ، وعنصر الاعراب الذين قوى إيمانهم ، ولكنهم لم ينسوا أنهم منتمون الى قبيلة يتعصبون اليها ، بل ان هذا الفريق الأخير وجد في المذهب الخارجي ما لم يجده في أي مذهب آخر ، وجـد إشباعاً لنزعتين خطيرتين في حياته ، نزعة الدين ونزعة التطلع الى فرصة السلطان ، أما الفريق الأول ، فهو مصور في شعر عمران ، وأما الفريق الثاني ، فيمثله الطرماح أصدق تمثيل . . »(١) .

ولست أدري ، كيف تستقيم آراؤها هذه ، مع الحكم الذي أطلقته ، حين تحدثت عن آثار معركة النهروان في الخوارج ، فقالت : « لعل أهم أثر للنهروان ، أنها ركزت المذهب الخارجي ، وأقامته على قواعد ثابتة وطهرته كثيراً من ذوي الأغراض الملتفين حوله »(٢) .

فهو — كما تعتقد — خارجي ، يمثل فرقة من الخوارج ، وهذه الفرقة لاترى في التعصب القبلي ضيراً ، ومن ثم لاترى في المديح من أجل هذا التعصب ضيراً أيضاً ، وأعيد رأيي هنا وأؤكده ، فأقول إن هذا التصرف مما لايستقيم مع مبدأ الخوارج .

التعصب القبلي في سلوك الطرماح أظهر من السلوك الخارجي ، وليس

---

[١] أدب الخوارج ١٠٠ ، تؤكد المصادر أن عمران كان فقيه الصفرية وزعيمهم والدكتورة هنا تجعله يمثل فريقاً غير الذي يمثله الطرماح وقد سبق أن ذكرت أن الطرماح من الصفرية — أدب الخوارج ٩٦ .

[٢] أدب الخوارج ٣٤ .

التزامه بمدح القحطانيين واليمانيين إلا وليد هـذا التعصب . فهو يمدح القحطانيين ، لأنه يحبهم ، وحبهم ـــ كما رأينا ـــ جزء من حبه لنفسه ، وهيامه بها ، فمدحه إياهم من هذا الجانب ، هو تأكيد لهذا الحب وهذا الهيام.

والدافع الآخر لمدحه هو المال ، فالطرماح يحب المال حباً جماً ، ويسعى اليه ، ويلح في طلبه ، وقد رأينا أن حبه المال وجه آخر من وجوه حبه لنفسه ، فهو يعتبر المال وسيلة من وسائل الرفعة ، يبلغ بها أبواب الملوك ، وتمكنه من الاستعلاء على العامة الذين يكرههم ، وتزيده شموخاً وكبرياءاً ، لذلك نراه يسعى في طلبه بشدة ، ويتمنى أن ينال منه قبل أن يموت :

أمخترمي ريب المنون ولم أنل ... من المال ما أعصي به وأطيع
وإن رجال المال أضحوا ومالهم ... لهم عند أبواب الملوك شفيع

وقد رأينا أنه يجعل المال هدفاً يخرج في سبيله ، خروجه في سبيل العقيدة ، فقد قرن الخروجين في قصيدة واحدة :

وإني لمقتاد جوادي وقاذف ... به وبنفسي العام إحدى المقاذف
لأكسب مالاً أو أؤول الى غنى ... من الله يكفيني عدات الخلائف

فالمال إذن هدف يسعى اليه ، كما يسعى الى تحقيق أهدافه الكبرى في الحياة ، بل هو من أهدافه الكبرى ، إن لم يكن في طليعتها . الطرماح مدح ليحصل على المال ، كما مدح بسبب العصبية لقحطان واليمن .

ولقد سبق أن ذكرت ، أن الطرماح ـــ كما يبدو لي ـــ كان يعاني من صراع عنيف بين حبه للمال الذي يقوده للمديح والتذلل ، وحبه لنفسه وكبريائه وشموخه ، وذكرت أيضاً ، أن أوضح مظهر من مظاهر هذا الصراع ، ما رواه ابن الاعرابي : من أن الطرماح والكميت وفدا على مخلد بن يزيد بن المهلب ، فجلس ودعاهما ، فتقدم الطرماح لينشد ، فقال له أنشدنا قائماً ، فقال له كلا والله ، ما قدر الشعر أن أقوم له ، فيحط مني بقيامي ، وأحط منه بضراعتي ، وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لمآثر العرب . قيل له فتنح ، ودعي بالكميت ، فأنشد قائماً ، وأمر له ، بخمسين الف درهم ، فلما خرج

شاطرها الطرماح ، وقال له أنت أباضبيبة أبعد همة وأنا ألطف حيلة(١) . هذه ولاشك نوبة من نوبات الصراع النفسي ، انتصرت فيها كبرياؤه وحبه لنفسه .

ومادام التعصب من دوافع مدح الطرماح . فهو من هـذا الباب مرتبط بالسياسة العامة للدولة ، وهو — على وجه التدقيق — مرتبط بسياسة استغلال العصبيات القبلية الكبرى ، يمدح الوالي لأنه قحطاني ، يرى في ولايته نوعاً من الانتصار ، ويستشعر بهذه الولاية ضرباً من السلطان ، يعلو به على أعدائه ، ويفخر به على أعداء اليمن بعامة . ومدحه — على هـذا — يجري في تيار واحد مع هجائه ، وينبع معه من المنبع نفسه . لكنه يختلف وإياه في الأسلوب والمذهب ، ومن ثم يختلف في الجودة والابداع . فهو لم يتقن المديح كما أتقن الهجاء .

ما وصلنا من مدح الطرماح أقل مما وصلنا من هجائه ، إذ لم يصلنا من هذا المدح سوى أبيات متفرقة ، خلال قصائد مبتورة ولا نجد في هذا الذي وصلنا ما هو من أصل الديوان ، بل انه مما جمعه الناشر ، وألحقه بالذيل أو الملحق (الضميمة) .

ويمثل مدحه — كما يظهر من أبياته المتفرقة — أضعف فنونه ، فمعانيه بجملتها تقليدية ، تتناول المفاهيم القبلية ، جارى فيها المعاني القديمة في هـذا الفن ، فنحن نجد أن الصفات المأثورة عند الجاهليين ، كالشجاعة والسماحة والكرم ورجاحة الرأي ، تتردد في مدحه . فممدوحه أشم ، جواد ، قليل المثالب ، صبور ، شجاع ، طيب الذكر ، يحلو مديحه ويعذب الحديث في الثناء عليه ، وهو من أهل السماحة ، فالشاعر أبداً ينتسب اليه ، ويذكر أفضاله عليه :

أشم كثير يدي النوال ... قليل المثالب والقادحـه
هو الغيث للمعتفين المفيض ... بفضل موائده الرادحـه

---

[١] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٧) .

بمثل ثنائك يحلو المديح وتستبحر الالسن المادحه(١)

وقد يلجأ الطرماح الى بعض المبالغة ، فينعت الممدوح بالغيث ، ويبالغ في وصف هباته وعطاياه بالعظمة والسعة ، ويكرر الى ذلك نعته بالملك :

هل تدنينك من أجارع واسط أو بات يعملة اليدين حضار
من خالد أهل السماحة والندى ملك العراق الى رمال وبار
واذا النفوس جشأن وقر خالدا ثبت اليقين بحتمه المقدار
وأدل في عظة أذا مالم يكن أبدا ليدهنه ذوو الأبصار
إني امرؤ لك لالغيرك ما أني منكم أشيم مصاوب الأمطار
ولقد عرتني منك جدوى أنبتت خضرا الى لفف من الأشجار
حتى تركت جنابهم ذا بهجة ورد الثرى متلمع الثيمار(٢)

ويقول :

إني اعتمدتك يايزيد فنعم معتمد الوسائل
أرجو نوافل من يديك وأنت مبسوط النوافل
غمر البديهة بالنوال إذا غدا سبط الأنامل
ملك تدين له الملوك ولا يجائيه المناضل(٣)
ملك تدين له الملوك أشم عصاء العواذل

وهو لايستحي أن يطلب المال ، أثناء المديح ، بشكل صريح لاتلميح فيه ، يقول لخالد القسري :

وشيبني أن لا أزال مناهضا بغير غنى اسمو به وأبوع
وأن رجال المال أضحوا ومالهم لهم عند أبواب الملوك شفيع
أمخترمي ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصي به وأطيع(٤)

---

[١] الديوان القصيدة السابعة عشرة في مدح يزيد بن المهلب .
[٢] الديوان القصيدة التاسعة والعشرون في مدح خالد القسري .
[٣] الديوان القصيدة الحادية والاربعون في مدح يزيد بن المهلب .
[٤] الديوان القصيدة الرابعة والثلاثون .

ويروى : أن خالدا حين سمع أبياته هذه أعطاه خمسين الف دينار ، وقال له : « قم الآن فاعص وأطع » (١) . وقد يذكر الطرماح الممدوح بما يجب له عليه من عطاء ، ويلجأ الى وصفه بالكريم . الذي يعطي دفعة واحدة ، لاتقسيطا ، والى وصفه بالوفاء ، فهو متى وعد أنجز :

حمال أثقال ديات الثأى ... عن عدف الأصل وكرامها

كفاه كف لايرى سيبها ... مقسطاً رهبة إعدامها

متى يعد ينجز ولا يكتبل ... منه العطايا طول إعتامها(٢)

ومديح الطرماح ، جملة ، ضعيف المعاني ، بسيط يخلو من التصوير والابداع ، وقد يكون لحبه نفسه ، وهيامه بها ، أثر في هذا الضعف البادي في مديحه ، فهو لكثرة مايتغنى به من حب هذه النفس لم يستطع أن يتقن فن المديح . وقد يكون لزهده أو عقيدته الخارجية - إن صحت - أثر في ذلك الضعف ايضا .

---

[١] الأغاني (دار الكتب ٣٤/١٢) ، البيان والتبيين (الاستقامة ١٧٩/٣) ، ديوان المعاني ٣٢٨/٢ ، اللسان (بوع) .

[٢] الديوان القصيدة السادسة والاربعون في مدح يزيد بن المهلب .

الفصل العاشر

الخصائص الفنية لشعر الطرماح

تميز شعر الطرماح جملة خصائص ، يمكن لمسها بوضوح ، خلال كل فنونه وأغراضه . وقد أشرت فيما مر من فصول الى بعض هذه الخصائص ، وأعود الآن لأتحدث عنها مجموعة . وأهم مايميز شعر شاعرنا :

أولا — الغرابة :

١ — غرابة اللفظ . عرفنا أن الطرماح كان ولوعا بالغريب ، يطلبه بل يلح في طلبه ، ويكثر من اصطناعه ، لذلك بدا شعره وقد طبع بطابع الغرابة ، ولا سيما وصفه . وتحول هذه الغابة في كثير من الأحيان بين القارىء وتذوق هذا الشعر ، والاعجاب به . أما مظاهر غرابة اللفظ في شعره فكثيرة سبق أن ذكرناها ، ونعود لنشير اليها الآن :

آ — الألفاظ الغريبة والنادرة : مثل لفظ (الكراض) ، الذي قال عنه الأصمعي : « لم أسمعه الا في شعر الطرماح »(١) . وكثير من الفاظ شعر الطرماح تحتاج في فهمها الى الاستعانة بكتب اللغة والمعاجم ، من ذلك : كمش . الكريص . العزهاة ، الضوائن ، العجاهن ، العبنقاة ، وغيرها .

ب — الاستعمال غير المألوف للألفاظ : كان الطرماح يميل الى الخروج على التعابير المألوفة . من ذلك ، استماله لفظ (قاتن) ، بمعنى قاتم ، قال الزمخشري : « جاءت قاتن بمعنى قاتم في شعر الطرماح »(٢) ، وقال ابن جني : « ذهب أبو عمرو الشيباني الى أنه أراد قاتم أي أسود فأبدل الميم نونا »(٣) . ومن ذلك استعماله لفظة (دارة) غير مضافة ، وهي لا تستعمل الا مضافة ، قال :

فياليت شعري هل بصحراء دارة الى واردات الاريمين ربوع(٤)

وقال البكري عن (الأريمين) هذه : «ولم أر الأريمين الا في شعر الطرماح »(٥) .

---

[١] الكامل للمبرد ١٤٣ .

[٢] الفائق في غريب الحديث ١٣٩/١ .

[٣] كتاب الابدال ٤٢٥/٢ .

[٤] الديوان (٣ — ٣٤) .

[٥] معجم ما استعجم ١٤٥/١ .

ج ـ الوحشي : ومن هذا الغريب ، مايجمع الى وحشيته سوء تأليفه . أو تنافر حروفه ، مثل : مصعنفر ، عربسيس ، قافحة ، طخاءة ، حنظب صماليخ ، جماعير ، خنيف ، قراشيم ، . . .

د ـ الشاذ : قد يلجأ الطرماح الى استعمال كلمات يخرج بها على القاعدة والقياس ، ويضطره الى ذلك ، الموسيقى ، التي يطلبها دائما ، أو الوزن ، ومن هذا الشاذ ، لفظة (الحوافي) جمع حافة في قوله :

تجنبها الكماة بكل يوم   مريض الشمس محمر الحوافي(١)

وقد علق ابن الأعرابي على هذا الجمع بقوله : « ولا أدري وجه هذا الا أن يجمع حافة على حوائف كما جمعوا حاجة على حوائج ـ وهو نادر عزيز ـ ثم تقلب »(٢) . ومنه جمع إحنة على حنات ، والقياس إحن . وعلق الأصمعي على هذا الجمع قائلا : « كنا نظن الطرماح شيئا ، حتى قال هذا البيت لأنها إحنة وإحن ، ولا يقال حنات »(٣) . ومنه جمع حلس على حوالس ، وترخيم سلمى بجعلها سلمة ، وعامر بجعلها عام ، وكامل بجعله كام ، وتلاميذ بجعلها تلام .

هـ ـ لغة طيء : يلجأ الشاعر ، بعض الأحيان ، الى استخدام صيغ اللغة الطائية وألفاظها ، مثل عين بمعنى جديد(٤) ، وقد سبق أن ذكرت طائفة من ألفاظ اللغة الطائية حين تحدثت عن شعره .

و : لغة اليمن : منها استعماله لفظ (رفت) ، ويعني التبن .

ز : لغة حمير : مثل المبلت بمعنى المضمون .

ولعل كون الطرماح مولدا ، وكونه تعلم النحو تعلما ، ولم يكن له سليقة ، ساعدا على أن يقع في بعض الأخطاء ، فيستعمل الألفاظ استعمالا غير دقيق . من ذلك

---

[١] الديوان (١ ـ ٥٦) .

[٢] اللسان (حوف) .

[٣] الديوان (٣ ـ ١٢) .

[٤] الديوان ١٦٨ .

استعماله لفظة (هيف) ، التي علقنا عليها سابقاً ، واستعماله (لات) مع غير حين ، وفصله بين المضاف والمضاف اليه .

ولاشك في أن جانباً من هذه الغرابة ، يندرج تحت تأثير قرويته ، ويبدو لي أن الطرماح كان بعض الأحيان يستعمل الألفاظ والتعابير التي تلوكها ألسنة الناس ، وهـذا مايفسر لنا سبب اختلاف العلماء في ضبط بعض ألفاظه ، أو تحديد معانيها ، كالذي رأيناه من اختلافهم في تفسير معنى لفظ (الكراض) ، وما يفسر لنا أيضاً سبب انفراده باستعمال ألفاظ غريبة جداً ، ولمثل ذاك ، كان من المتوقع أن يتحرج الأصمعي وأمثاله من الاحتجاج بشعره .

٢ ــ غرابة التراكيب ، وقد يكون ولعه بالاغراب ، هو الذي دفع به الى نوع من التأليف الغريب ، تتقارب فيه الحروف وتتشابه وتتشابك ، فتزيد المعنى تعمية وبعداً ، كقوله :

أخلقت حده الحزوم كما	أخلق القهقر قذف الغلام
و : معيد قمطر الرجل مختلف الشبا	شرنبث شوك الكف شثن البراثن
و : بربر بسربرة الهبرقي	بأخرى خواذلها الأنحه
و : على أن للعينين في الصبح راحة	بطرحهما طرفيهما كل مطرح

على أن هذه الغرابة ، بكل مظاهرها ، تشيع في وصفه ، في حين نجد لغة فخره وهجائه سلسلة سهلة ، بعيدة عن الوحشية والتكلف ، فكأنه أراد لهذين الفنين أن يقرآ ويرويا فلا يجد الناس في روايتهما وقراءتهما عنتاً أو مشقة ، وكأنه أراد لهما أن يشيعا حين كتبهما بهذه اللغة المحببة .

٣ ــ غرابة الصورة : وما يقال عن ألفاظه وتراكيبه الغريبة ، يقال عن صوره ، فمن الغرابة بمكان تصوير اليوم بأنه مريض الشمس ، ومحمر الجوانب .

تجنبها الكماة بكل يوم	مريض الشمس محمر الحوافي

ثانياً ــ استغلال موسيقى الحروف والكلمات :

في شعر الطرماح حلاوة محببة الى النفس على رغم ما يعكر بعضه من

غريب ووحشي . مصدر هـذه الحلاوة ، الموسيقى الداخلية لأبياته وتعابيره وتراكيبه ، فقد أحسن استغلال كل الطاقة الصوتية للحرف والكلمة في شعره ، ليضعها بجانب معانيه ، ويمهد لهابها ، ويصطنع لهـا الجو الموسيقي الملائم ، ويفتن في اصطناعه . ويسلك الطرماح الى اصطناع هـذه الموسيقى وتوفيرها ، أساليب كثيرة مختلفة ، من ذلك :

١ ـ انه يعمد الى تكرار الكلمات المشتركة في حرف واحد ، ليكسب التركيب ايقاعاً جميلاً ، مصدره تكرر الحرف وتردده ، وهو دقيق في هذا الفن ، ومن أمثلة ذلك قوله :

فتطربت للهوى ثم أقصرت رضى بالتقى وذو البر راض
وأراني المليك رشدي وقد كنت أخا عنجهية واعتراض
غير ماربة سوى ريق الغرة ثم ارعويت عند البياض
لات هنا ذكرى بلهنية الدهر وأنى ذكرى السنين المواضي
وذهلت الصبا وأرشدني الله بدهر ذي مـرة وانتقاض

وتغنينا ملاحظة الايقاع ، الذي يحدثه تكرار الراء في الأبيات عن التعليق . ومن ذلك تكرار الميمات في قوله :

إذا ما امتحت أم الطريق ترسمت رثيم الحصى من ملكها المتوضح

وتكرار السين في قوله :

مفجعـة لادفع للضيم عندها سوى سفحان الدمع من كل مسفح

وتكرار الفاء في قوله :

فصدفن عنه وقد عصفن بنعجة خذلت وأفلتها فرير مفرد

وقد يلون هذه الموسيقى ، ويشكلها ، فيعدد المتشابه من الأحرف . من ذلك قوله :

كضياح نوتي بظل على قرى قرواء قيدوم السراة يندد

وقوله : منا الفوارس والأعلام قد علمت عليا معدومنا كل ذي حسب

وقوله : سيعلم كلهـم أني مسن إذا رفعوا عناناً عن عنان

فقد كرر الراء والقاف في البيت الأول ، والعين والميم في الثاني ، والعين والميم والنون في الثالث .

٢ ـــ وقد يوفر هذا الجو الموسيقي الملائم ، بوسيلة أخرى . ذلك بأن يعمد الى استعمال المفعول المطلق ليتمكن من تكرار الكلمة ، ومن ثم تكرار الحروف نفسها ، فضلاً ، على ما يوحيه هذا الأسلوب من التأكيد . وهو يفتن في أداء ذلك افتناناً ويصل اليه بأكثر من وسيلة . ولقـــد سبق ذكر ذلك مفصلاً ولا بأس من الاشارة اليه :

آ ـــ استعمال كل وأي : فهو يستعمل (كلاً) يعبر بها عن الاتساع والمبالغة والاطلاق في المعنى ، فضلاً على ما توفره من موسيقى بتكرار الحروف ، على طريقة المفعول المطلق هذه ، وتتضح هذه الطريقة في قصيدته الأولى اتضاحاً ، فقد عمد الى (كل) واستعملها مرات كثيرة خلالها ، من ذلك أبياته التالية :

على أن للعينين في الصبح راحة ... بطرحهما طرفيهما كل مطرح

و : وقد عقل الحرباء واصطهر اللظى ... جنادب يرمحن الحصى كل مرمح

و : نصبت لها مني جبين ابن حرة ... وظمأى الكرى لماحة كل ملمح

ومنه قوله : كل مستأنس الى الموت قد خاض اليه بالسيف كل مخاض

وقوله : مخافة أن يرين النوم فيهم ... بسكر سنانه كل الريون

وقوله : إذا اجتابها الخريت قال لنفسه ... أتاك برحلي حائن كل حائن

ويستعمل لفظ (أي) استعمال كل ، طلباً لتكرار الحروف ، يقول :

باللواتي لم يتركن عقاقاً ... والمذاكي ينهضن أي انتهاض

ويقول عوسرانية إذا انتفض الخمس نطاف الفظيظ أي انتفاض .

ومثل ذلك استعماله (ذات ، ومثل ، وبعد ، وحين) وسواها ، يقول :

تبيت على أطرافها بجذئرة ... تكابد هماً مثل هم المراهن

ويقول : ذا ضرير يصر مثل صرير القعو لما أصاحه مسده

ويقول : وجلبنا اليهم الخيل فاقتيض حماهم والحرب ذات اقتياض

ويقول : وخوي سهل يثير به القوم رباضاً للعين بعد رباض

ويقول : أضمرته عشرين يوماً ونيلت　　يوم تيلت بعارة في عراض

ب ــ وقد يعمد الى المصدر ويستعمله مفعولاً مطلقاً ، دون اللجوء الى واسطة أو أداة ، يقول :

إذا صك وسط القوم رأسك صكة　　يقول له الناهي ملكت فأسجح

وناصرك الأدنى عليه ظعينة　　تميد إذا استعبرت ميد المرنح

ويقول : فبات بنات الليل حولي عكفاً　　عكوف البواكي بينهن صريع

ويقول : يمر إذا ما حل مر مقزع　　عتيق حداه أبهر القوس جارن

ويقول : فتلافته فلاثت به　　لعوة تضبح ضبح النهام

٣ ــ وقد يوفر هذه الموسيقى بتكرار الكلمات أو مشتقاتها أو مشابهاتها ، تكراراً عادياً يقول :

ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا　　وما ذبحت يوماً تميم فسمت

ويقول : أقرت تميم لابن دحمة حكمه　　وكانت إذا سيمت هوانا أقرت

ويقول : نظرة ما أنت من نظرة　　أوغلت من بين سجفي قرام

ويقول : فلبست للحرب العوان ثيابها　　وشببت نار الحرب فهي توقد

ويقول : أنا ابن أباة الضيم من آل مالك　　وإن مالك كانت كرام المعادن

وأياً كان أسلوبه في اصطناع هذه الموسيقى ، فانه يطلبها ليمهد بها للمعنى ، أو ليحيطه بجو ملائم ، فهي لذلك تقوم من المعاني مقام الموسيقى من الغناء الحديث ، تصاحبه لتهيىء لمعانيه الجو المناسب ، فتعين على تقريبها وتصويرها .

٤ ــ وقد يذهب الى أبعد من ذلك ، فيحمل التراكيب موسيقى تتوزع وتنقسم فيه انقساماً يلائم المعنى ، ويرافقه ويدل عليه ، فهو يقسم هذه الحروف بين الصدر والعجز في البيت ، أو بين التراكيب أو التفعيلات ، قسمة ملائمة للمعاني متصلة بها ، ويظهر ذلك في قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له　　إن لم أفز فوزة تنجي من النار

والنار لم ينج من روعاتها أحد　　إلا المنيب بقلب المخلص الشاري

أو الذي كتبت من قبل مولده　　له السعادة من خلاقنا الباري

فقوله (أفز فوزة) ، يقوم بازاء (شقيت شقاء) ، ليؤكد المعنى كما أكده في (شقيت شقاء) من نحو ، وليكون بتكرار الفاء ، موسيقى متكافئة مع الموسيقى المستفادة من تكرار القاف ، فكما أن (أفز فوزة) مكافيء (لشقيت شقاء) ، من حيث المعنى ، فانه موازله من الناحية الصوتية . ومهما يكن من شيء فان موسيقى شعر الطرماح بالغة الدقة في تعبيرها عن العواطف ، وفي تصويرها للانفعالات .

ثالثاً — اعتماده على التشبيه :

اعتمد الطرماح على التشبيه في رسم صوره ، وتجسيد معانيه ، اعتماداً كبيراً حتى ليندر أن نجد قصيدة تخلو من مجموعة تشبيهات ، بل انه قد يبالغ ويلح في اعتماده عليه ، فتتوالى تشبيهاته وتزدحم بها صوره ازدحاماً ، ومما يلحظ في هذه التشبيهات — فضلاً على وفرتها وولعه بها — أن بعضها يتسم بالغرابة . ويظهر أثر الكوفة وطبيعتها في البعض الآخر ، ويتميز أغلبها بالدقة والصدق والجمال والاصالة .

آ — غرابة تشبيهاته : نجد في بعض تشبيهات الطرماح صوراً غريبة ، ومصدر غرابتها ، خفاء العلاقة أو بعدها ، بين المشبه والمشبه به ، ولعل إحساس الشاعر الأصيل ، وبصره الثاقب ، هما اللذان مكناه من لمح هذه العلاقات بين الأشياء وتصويرها ، فمن الغرابة بمكان تشبيهه الرماد بظهر الحمام . في خضرته ، يقول :

وخصيف اللون جادت به   مرخة من مخدج أو تمام
بين أظآر بمظلومة   كسراة الساق ساق الحمام

ومن ذلك ، تشبيه القطا ، وقد أهزله الطيران ، ببقايا الخرق البالية ، يقول :

رفاقاً تنادى بالنزول كأنها   بقايا الثوى وسط الديار المطرح

ومنه قوله ، يشبه عناناً مضفوراً ، بممر الحية :

ومخفق ذي زرين في الأرض متنه   وفي الكف مثناه لطيف الأسائن

خفي كمجتاز الشجاع وذبل ثلاث كحبات الكباث القرائن

وليس هناك أغرب من تشبيه أنف الذئب ، بظهر الجعل الكبير :

عملس غارات كأن مسافه قرى حنظب أخلى له الجو مقمح

إذا امتل يهوي قلت ظل طخاءة ذرى الريح في أعقاب يوم مصرح

والأغرب من ذلك ، أن يشبه ولد الظبية بحزمة من الثمام :

مطـــرق تعتاده عوهج بين أحجار كضغث الثمام

وقد سبق أن ذكرت : أنه لشدة ولعه بالاغراب ، كان يحيط بعض صور تشبيهاته ، بجو من الغموض ، وعدم الافصـاح ، بحيث لا يدع للمتأمل فرصة يقع فيها على حقيقة الصورة ، بل يترك له مجال التخيل والتصور كبيراً ، ينطلق فيه فكره ، ويحلق فيه خياله ، وقـد ذكرت أيضاً : أنه غالباً ما يصنع ذلك في التشبيهات ، التي تتصل بالأصوات ، من ذلك تشبيهه الصوت ينبعث من شجيرات الأرطى تهزها الريح ، بتداعي الحجيج :

بمسترجف الأرطى كأن جروسه تداعي حجيج رجعه غير مفصح

ونراه لم يكتف بوصف هذا الصوت بتداعي الحجيج يأتي من بعيد ، وهو مختلط لايكاد يسمع منه غير أنه اختلاط أصوات ، بل وصف هذا التداعي بأنه (غير مفصح) . ومثل ذلك قوله ، يصف أزيز الريح بالمـــأتم المتنوح المختلط الصوت :

يظل هزيز الريح بين مسامعي له كالتجاج المـــأتم المتنوح

ومن تشبيهاته ، التي حاول أن يلقي عليها غلالة من الابهام ، وعـدم الوضوح ، قوله :

إنما ذكرك ما قد مضى ضلة مثل حـديث المنام

وقوله : آذن النـاوي بينونة ظلت منها كصريع المدام

٢ ـــ قروية تشبيهاته وحضريتها : أثر الحياة الريفية في صور الطرماح التشبيهية واضح ، فهو يستمد مواد تشبيهه ـــ والمشبه به بخاصة ـــ من مظاهر الطبيعة الريفية ، من أشجار ونبات وحيوان أليف ، مما يدل على نشأته في

أحضان الريف زمنا غير يسير ، ويؤكد تأثره ببيئة الكوفة . فهو يشبه القطا المهزول بالنبت ، قطع ولم يبق منه غير أصوله ، فأمطرت فاخضرت نواحيها .

فترى الكدر في مناكبها الغبر رذايا من بعد طول انقضاض

كبقايا الثوى يلذن من الصيف جنوحا بالحزم ذي الرضراض

أو كمجلوح جعش بله القطر ،فأمسى مودس الأعراض

كما شبه زغب هذه القطا ، بيبيس الخلا ، وقد رعته السوام ، فلم تترك منه شيئا ، فأصابه المطر ، فاخضرت بعض اصوله :

سماوية زغب كأن شكيرها صماليخ معهود النصي المجلح

ونراه يشبه الناس في قلة مكوثهم في هذه الدنيا ، بالزرع لابد أن يحين موعد نضجه فيحصد

انما الناس مثل نابتة الزرع متى يأن يأت محتصده

وتظهر قرويته في ولعه الشديد بالتشبيه بالنحل ، فقد شبه الكلاب وهي تعدو خلف الطريدة بالنحل ، غير مرة ، فضلا على ذكره عمل العسل ، يقول :

صعر السوالف بالجراء كأنها خلف الطريدة خشرم متبدد

ويقول : يستدرن الأحراج كالثول والحرج لرب الصيود يصطفده

ومن مظاهر تأثر الطرماح بالحياة الحضرية ، تشبيهه خدود النساء بسبائك الفضة :

بخدود كالوذائل لم يختزن عنها وري السنام

وتشبيهه أنف حبيبته بعرق من الذهب :

حرة شبهت عرتينها حين ترنو سافرا عرق سام

ومن ملاحظة المشبه به في الصور التي مرت تتبين أنه مستقى من مظاهر البيئة القروية والحضرية ، وانه مما لايتسنى لبدوي الا أن يكون قد تردد على مدينة ، كثيراً وقد أشرت سابقا الى تأثر تشبيهاته بألوان الطبيعة الريفية سيما ، البراقة والمشرقة منها ، فقد افتن في عرضها ومقابلتها ، فنحن نراه يشبه بقوس السحاب :

وادبرت حفف تحتها مثل قطاني دجن الغمام

ويشبه الهودج المقفل ، بساقي الحصان المذهب وقد تقاربتا ، يقول :

وقام المها يقفلن كل مكبل كما رص أيقا مذهب اللون صافن

أما تشبيهه بأشرعة السفن وبالنوتي ، فهو بالغ الخطورة في التدليل على تاقلم أدب الطرماح ، وتكيفه للبيئة ، وتاثره بجوها .

٣ــ جمال تشبيهاته ودقتها وأصالتها : الطرماح أصيل الاحساس ، دقيق الملاحظة ، وقد أتاحت له أصالة إحساسه ، ودقة ملاحظته ، وتتبعه للجزئيات ، أن يرى في الاشياء والموضوعات ، أوجها للتماثل والتشابه ، صورها في تشبيهاته ، وقد رأينا مقدرته على انتزاع أوجه التماثل هذه ، من أشياء وموضوعات متفرقة ، ومقدرته على جمعها ، وتشبيه بعضها ببعض ، وتكوين صوره الدقيقة الجميلة ، وقد سبقت الاشارة الى صورة الصياد يستخفي للطريدة ، يلاحقها بخفة ورشاقـــة ، تعينه ساقاه الدقيقتان ، حتى ليدو كالدلو ، تضطرب بين حبلين ، ينزعها الماتحان :

فلما غدا استذرى له سمط رملة　　　لحولين أدنى عهده بالدواهن

أخو قنص يهفو كان سراتـه　　　ورجليه سلم بين حبلي ومشاطن

كما أشرنا الى صورة الناقة ، أتعبها الجري ، فازدادت يداها قبضا وتشنجا ، وهي تجري فاشبهت يدي المستقي ، أثقلتهما الدلو ، وهما تتاوبان سحبها :

يداها وقد زادت يداها قباضة　　　كأوب يدى ذي الرفضة المتمتح

وقد مر بنا إعجاب الأصمعي ، وابن قتيبة ، بابياته ، التي يصف فيها ثور الوحش ، يلوح من بعيد يعلو ويهبط ، بسيف يسل ويغمد على مرتفع من الأرض ، وكيف أنهما يزعمان : أنه فيها أشعر الخلق :

يبدو وتضمره البلاد كأنه　　　سيف على شرف يسل ويغمد

مجتاب شملة برجد لسراته　　　قدرا وأسلم ماسواه البرجـد

فكأن قهزة تاجر جيلت له　　　لفضول أسفلها كفاف أســـود

إن سعة مايجتمع لهذه التشبيهات ، من وجوه المشابهة ، والعلاقة بين أطرافها ، فضلا على أصالة الاحساس ، ودقة التقصي في الأوصاف وصدق التعبير وجماله ، تعتبر من أبرز مظاهر الابداع في هذا الفن .

ويمكننا ملاحظة هذه المزايا بجلاء ، اذا نحن أمعنا النظر في طائفة مـن تشبيهاته يقول مشبهاً مجموعة من الطيور المسرعة ، بأنامل النســاء اللائي يجمعن

العصفر .

دوامك حين لا يخشين ريحاً معاكبان أيدي القايات

ويقول متحدثاً عن الماضي :

إنما ذكرك ما قد مضى ضلة مثل حديث المنام

ويشبه السحابة ، بصفحة السيف الصقيل :

بماء سماء غادرته سحابة كمتن اليماني سل وهو صنيع(۱)

ويصف نفسه بصريع المدام :

آذن الثاوي بينونة ظلت منها كصريع المدام

رابعاً ـ ولعه بالطباق والمقابلة :

شاعرنا مولع بالطباق والمقابلة ، ولعاً ظاهراً ، وطباقه خفي ، حتى ليبدو وكأنه غير مقصود ، فنحن لانحس في اصطناعه أي تكلف ، بل انه أشبه مايكون بتداعي المعاني ، فما يذكر الشيء حتى يتداعى نقيضه ، وهذه جملة من الشواهد ، يبدو فيها ميله الظاهر لاستخدام الطباق والمقابلة :

محاهن صيب نوء الربيع من الأنجم العزل والرامحه(۲)

تبيت إذا مادعاها النهام تجد وتحسبها مازحه

و : يحل به الذئب الأحل وقوته ذوات المرادي من مناق ورزح

و : وذهلت الصبا وأرشدني الله بدهر ذي مرة وانتقاض

و : فاجتبن حاصبه وولى يقتري فيحان يسمح تارة ويحرد

و : تجتني ثامر جداده من فرادى برم أو تؤام

و : وكذاك الزمان يطرد بالناس الى اليوم يومه وغده

يوم يؤتى به وخصماه وسط الجن والانس رجله ويده

و : إذا السماء لقوم غيرنا صرفت عنانها في الرضى منهم وفي الغضب

---

[۱] الياء في اليماني مخففة مع أنها للنسبة .

[۲] في السماء نجمان يقال لهما السماكان ، أحدهما السماك الرامح ، والأخر السماك الأعزل .

وقد أعجب ابن سنان ببيتين أحسن الطرماح فيهما المقابلة ، ووصفها بأنها صحيحة والبيتان :

أسرناهم وأنعمنا عليهم ... وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب ... ولا أدوا لحسن يد ثوابا(١)

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

وولعه هذا غير مقصور على طباق الايجاب ، الذي مرت الشواهد عليه ، فهو ميال الى استعمال ضرب آخر من الطباق ، هو طباق السلب . ونسوق جملة من الشواهد من أبياته ، توضح ميله هذا :

طابت ربيعة أعلاها وأسفلها ... ويشكر اللؤم لم تكثر ولم تطب
نحن الرؤوس على منهاج أولنا ... من مذحج من يسوي الرأس بالذنب
و : أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى ... خلال المخازي عن تميم تجلت
و : ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا ... وما ذبحت يوماً تميم فسمت
و : إذا ذكرت مسعاة والده اضطنى ... ولا يضطني من شتم أهل الفضائل
و : ظعائن يستحدثن في كل موقف ... رهيناً وما يحسن فك الرهائن
و : ولا أعرف النعمى علي ولم تكن ... وأعرف فصل المنطق المتغابن

ويطول ذكر الأمثلة على هذا الضرب ، إذا أردنا تقصيها وتتبعها ، فهي كثيرة :

خامساً — نزوعه الى التصوير :

للطرماح مقدرة فذة على رسم الصور الشعرية ، وتتجلى هذه المقدرة في إبداع صور الهجاء والسخرية والتهكم بخاصة ، فقد كان — حين يريد أن يصور خور خصومه وضعفهم وقلة شأنهم — يعمد الى رسم هذه الصور (الكاريكاتورية) الهزلية المضحكة ، التي تعتمد على تجسيم معاني الذلة والضعة في هؤلاء الخصوم ، كما تعتمد على المبالغة والاغراق والتهويل . وهل هناك صورة أكثر دلالة على هوان المهجو وضؤولة شأنه ، من هذه الصور ؟ يقول

---

[١] سر الفصاحة ٣١٤ ، وأنظر نقد الشعر ١٥٣ .

في هجاء تميم :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة ... يكر على صفي تميم لولت

ولو أن حرقوصاً يزقق مسكه ... إذاً نهلت منـه تميم وعلت

ولو جمعت يوماً تميم جموعها ... على ذرة معقولـة لاستقلت

ولو أن أم العنكبوت بنت لها ... مظلتها يوم الندى لأكنت

ولو أن عصفوراً يمد جناحه ... لقامت تميم حوله واستظلت

ويقول : وكانت تميم وسط قحطان إذ سمت ... كمقذوفة في اليم ليلاً فضلت

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ومن هذه الصور قوله في تميم وبني أسد وضبة :

وكل لؤم أبـاد الدهر أثلته ... ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد

ضجت تميم وأخزتها مثاليها ... ينقلن من بلد ناء الى بلد

لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد

ولاشك في أن أسلوبه التهكمي هذا ، وطريقته في رسم الصور الكاريكاتورية الساخرة ، ومبالغاته وتهويلاته ، هو الذي كان يدعوه أبو عمرو بن العلاء بالوحي ، إذ يقول : « إذا ركب الطرماح الهجاء فكأنما يوحى اليه » ، وهو الذي كان يدفع بابن عبد ربه الى نعت هجائه بالخبث والندرة .

وتشيع في أثناء هذه الصور الساخرة ، نقمة وحقد ظاهران ، وتظهر فيها لباقة والمعية وبراعة في الافتنان ، فضلاً على سهولة ألفاظها ، فكأنما عمد الطرماح الى هذه السهولة ، ليغري الناس بحفظ هجائه ، وروايته ، ليعم وينتشر .

سادساً ـــ بساطة الخيال وسذاجته :

أكثر وصف الطرماح حسي ، ونادراً ما يسمو خياله بعيداً إذ يصف أو يصور ، فقـــد استعاض بصور التشبيه ، عن التحليق في أجواء الخيال . وتشبيهاته ـــ كما رأينا ـــ مادية ، على الرغم من أنه احتاج الى الخيال في صياغتها ، ولمح العلاقات الخفية بين أطرافهـا . على أن بعض تعـابير الطرماح وصوره ، لم تعدم الوثبات الشعرية في آفاق الخيال . ولننظر الى مجموعة من هذه

الصور يقول من مقطوعة جميلة في الرثاء ، فيها خيال يجسد الموت ويشخصه :

ولو أن غير الموت لاقى عدبسا وجدك لم يسطع له أبد هضما
فتى لو يصاغ الموت صيغ كمثله إذا الخيل جالت في تساجلها قدما
ولو أن موتاً كان سالم رهبة من الناس انسانا لكان له سلما

وتجد في الأبيات التالية ، تعابير مجازية ، غير قليلة الحظ من الخيال ، يقول :

وهاجرة كفنت ياسلم هامتى لها وفمي بالأتحمي المسيح
نصبت لها مني جبين ابن حرة وظمأى الكرى لماحة كل ملمح

ويقول : اذا السماء لقوم غيرنا صرفت عنانها في الرضى منهم وفي الغضب
ويقول : تجنبها الكماة بكل يوم مريض الشمس محمر الحواقي
ويقول : فقاموا ينفضون كرى ليال تمكن في الطلى بعد العيون
ويقول : يسارقن الكلام الي لما حسن حذار مرتقب شفون
ويقول : فاذ هبوا ما اليكم خفض الحلم عناني وعريت أنقاضي
ويقول : فراش ضلال في العراق وجفوة اذا مات ميت من قريش أهلت
ويقول : جمالية تغتال فضل جديلها شناح كصقب الطائفي المكشح

ونجد مثل هذه الوثبات الشعرية ، في عنايته بالكناية ، فأن فيها لونا من الوان الخيال ، ومن كناياته قوله :

حسان مواضع النقب الأعالي غراث الوشح صامتة البرين
وقوله : طوال مثل أعناق الهوادي نواعم بين أبكار وعون
وقوله : ويستن ثوباها على ظهر بيضة تكمكع عطورا عليها ظليمها
وقوله : قضت من عياف والطريدة حاجة فهن الى لهو الحديث خضوع
وإذ دهرنا فيه اغترار وطيرنا سواكن في أوكارهن وقوع
وقوله : لم تأكل الغث والدعاع ولم تنقف هبيدا يجنيه مهتبده
وقوله : منازل لاترى الأنصاب فيها ولا حفر المبلى للمنون
ولا أثر الدوار ولا المآلي ولكن قد ترى أرب الحصون

سابعا ـ المعاني :

الطرماح مقلد في معانيه ، بشكل عام ، وقد أشار ابن قتيبة في الشعر والشعراء الى جملة من المعاني أخذها شاعرنا ممن سبقه من شعراء الجاهلية والاسلام . الا أن تقليده محدود ، فقد أفتن في عرض هذه المعاني وصياغتها ، فضلاً على أنه ابتكر وابتدع .

وأكثر ما ابتكر الطرماح في الهجاء والتهكم والسخرية ، ثم في الفخر . ومن مظاهر الجدة والابتكار في معانيه ، تأثرها ببيئة الكوفة الاجتماعية والطبيعية ، فقد رأينا كيف تصطبغ صوره بالقروية والحضرية ، حتى لنستطيع أن نتخذ من شعره نموذجاً لتأقلم الأدب في هذه الفترة .

أما معانيه (الخارجية) ، فانها تتميز بالصدق والاخلاص ، يصدران عن التلازم بين الفن والعقيدة ، بالاضافة الى كونها تصور حنيناً الى الاستشهاد ، فيه حماسة دينية قوية .

وتتسم معاني سائر شعره الزهدي والديني بروح التقوى والصلاح . ويخلو كل شعره من صور العبث والمجون والغزل الفاحش ، ويشير الى معاني التوبة والانابة والرغبة في التخلص من أوضار الصبا ومعاصي الشباب .

أما معاني فخره فانها ، فضلاً على جدتها ، فخمة قوية ، تنتزع الاعجاب انتزاعاً ، بما تصور من بطولة وحماسة ، ويفيض فيها إعجابه البالغ بنفسه ، وحبه وإخلاصه لقومه .

ونلمس خلال معاني غزله ، صدق التجارب الشعورية ، فغزله يصور حنيناً وشوقاً أذكتهما الغربة .

ويظهر غلوه ، وتبدو مبالغاته ، في معاني المدح والفخر بالقبيلة والاجداد ، ومهما يكن من شيء ، فان شعر الطرماح بجملته يصدر عن أصالة ، وينم عن إحساس شعري ثر ، ويصور موهبة وذكاء . هذا الى أسلوب متين ، ولفظ جزل ، لا تفارقه الجزالة ، حتى في حالة سهولته ورقته ، والى تعبير قوي مسبوك .

وخير ما يعبر عن جمال شعر الطرماح وأصالته ، قول ذي الرمة فيه :

« لله در هـــذا الكلام ، ما أحسن إجابته لرويتك ، إن كدت لأطيل لك حسداً »(١) ، ولذلك أيضاً عده أبو الفرج من الفحول(٢) .

كرس الطرماح كثيراً من وقته لشعره ، يتقنه ، ويمده بأسباب الجودة ، فقد جمع لقسم كبير منه ، المفردات الصعبة ، وقضى في ذلك وقتاً غير يسير من شبابه ، وكان ينظر الى فنه هذا ، نظرة فيها شيء من الاجلال والاكبار ، يوضحان رأيه في الشعر ، فالشعر عنده : « عمود الفخر ، وبيت الذكر لمآثر العرب »(٣) ، وإجادته فن الفخر ، مصداق لنظرته هذه ، فقد صور فيه روح الفارس الشاعر الطموح .

---

[١] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٨) .
[٢] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٤) .
[٣] الأغاني (دار الكتب ١٢ / ٣٧) .

خلاصة البحث

عاش الطرماح في النصف الثاني من القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني . ولهـذا العصر أهميته البالغة في الأدب العربي وتطوره ، من حيث الأسلوب والموضوع والتكيف للبيئات الجديدة . وكان فحلاً من فحول شعراء هذا العصر وقمة شامخة من قممه الأدبية . واستكشاف هـذه القمة ، وارتياد مجاهيلها ، مهمة أدبية وتأريخية كبيرة وشائقة ، من حيث أنها تجلي لنا جوانب أدبية وتأريخية ، يرين عليها كثير من الغموض ، تتصل بحياة الطرماح من نحو ، وترتبط بحياة عصره الأدبية والتأريخية من نحو آخر ، فضلاً على أنها تتيح لنا أن نطل من أعلى هذه القمة ، على معالم الحياة الأدبية في هذا العصر ، الذي تأقلم فيه الأدب ، إطلالة بحيث نرى فيها الكثير من الوشائج والعلاقات بين هذه المعالم .

المعروف أن الطرماح شاعر خارجي ، الا أن سيرته ، من خلال مطالعاتي الأولى لديوانه ، ودراستي لشعره ، وملاحظاتي للجوانب المهمة من حياته ، تبين لي أن خارجيته لا تمثل سوى جانب بسيط من حياته الأدبية والسياسية .

فليس ، إذن ، لهذا الجانب أن يطغى على بقية الجوانب ، فيطمس معالمها ، ويحول بيننا وبين دراستها وتذوقها ، على أنها فنون ، أنتجت في ظلال الحياة الكوفية ، وفي ظلال النصف الثاني من القرن الأول ومطالع القرن الثاني .

وإذ كان الأمر كذلك ، فمن المحتم أن دراسة هذه الفنون في ظل خارجيته ، لا تتيح لنا هذه المعرفة المطلوبة ، ولا تحقق ذاك التذوق المنشود ، ولا تمثل الدراسة الدقيقة ، فضلاً على أنها تشغلنا بمحاولات التوفيق بين خارجيته وسائر فنونه الشعرية ، مما يتعارض صراحة مع هذه الخارجية .

ولقد ظهر لي من هذه المطالعات الأولية ، أن تأثير الكوفة وقراها في فنونه الشعرية هذه وفي أسلوبه ، كثير ، وأن أثر العصر فيها غير محدود ، لذا فقد ذهبت في دراستي هذه ، مذهباً اعتبرت فيه الطرماح الشاعر ، أثراً من آثار بيئة الكوفة الأدبية والسياسية ، في غضون النصف الثاني من القرن الأول ومطالع القرن الثاني . واعتبرت مظاهر سلوكه الشخصي ، مزيجاً من أثر البيئة

الخاصة والبيئة العامة . كما اعتبرت خارجيته ، وجهاً من وجوه العصر ، ومظهراً من مظاهر التأثر بطبيعة الكوفة السياسية المعارضة . وأشرت الى التناقض الواضح ، بين مظاهر سلوكه الشخصي بعامة وعقيدته .

ثم اني فصلت في دراستي ، بين مظاهر سلوكه وصفاته ، من عصبيته ، وحبه للمال ، وهجائه ، وعلاقته البيئة بالعامة ، وعقيدته الخارجية ، فلم تكن هذه العقيدة من القوة والعمق والتمكن ، بحيث تطغى على بقية صفاته وآرائه ونزعاته . بل أن مظاهر سلوكه العام — مما يناقض مبادىء الخوارج — كانت أقوى وأظهر ، فلم أدرس حياته من خلال عقيدته ، بل درست كل ذلك ، في ظلال الكوفة ومؤثراتها السياسية والاجتماعية والأدبية .

وقد صح لي ، بعد هذا الفصل ، بين صفاته وعقيدته ، أنه لم يكن خارجياً بالمعنى الدقيق لهذه اللفظة ، أو أنه اعتنق هذا المبدأ لفترة من فترات حياته ، قد تكون خلال شبابه .

فهو ، اذن ، خارجي ، بالقدر الذي لم يتعصب به ، ولم يمدح ، ولم يهج ، ولم يسع في سبيل مال أو سلطان .

وكذلك صنعت حين درست شعره ، فلم أدرس فنونه الأخرى في ظلال شعره الخارجي ، بل درست كل فن على انفراد ، في إطار الكوفة ومؤثراتها ، فلم يكن شعره الخارجي من الكثرة ، بحيث يطغى على بقية فنونه بل هو أقلها .

وقد أظهرت — حين درست شعره — التفاوت وأشرت الى التناقض ، مما أكد لي فكرة أن الطرماح لم يكن ذلك الخارجي المؤمن ، وأنه لم يمت ، وهو على مذهب الخوارج قطعاً .

ولتحقيق هـذا المذهب في الدراسة ، جعلت بحثي قسمين : تاريخياً وأدبياً ، درست في الأول الحياة في الكوفة ، خلال القرن الأول ، وحاولت أن أقف على طابعها السياسي والاجتماعي ، وأشخص عناصر مجتمعها ، وأتبين خصائصه وميزاته ، والمؤثرات التأريخية والجغرافية ، التي ساعدت على تميزه بهذه الخصائص ، وانفراده بتلك الميزات .

وقد أوليت الجانب السياسي من حياة الكوفة عناية كبيرة ، فدرست المعارضة وتتبعتها أثناء حكم ولاتها ، كما درست حزب الخوارج دراسة مفصلة .

وقد خرجت من هذه الدراسة بنتائج عدة أهمها : أن الكوفة تمثل مدينة المعارضة في تاريخ الاسلام السياسي ، وأن موقعها في هذه المنطقة العريقة الحضارة من الفرات الأوسط ، وتأثير سكان المنطقة فيها ، هيأ لها أن تفهم نظام الحكم والادارة ، وأن تفهم السياسة ، وتجادل في كل ذلك ، قبل غيرها من المدن الاسلامية ، فهي على ذلك ، وريثة حضارات المنطقة ، ولم تفتني ملاحظة أثر القبائل اليمنية المتحضرة التي نزلتها ، في نضجها المبكر ، ونشوء ظاهرة النقد السياسي فيها ، ومن ثم ظهور حركة المعارضة السياسية المنظمة المتبلورة في أحزاب ثورية عنيفة ، وقد لاحظت كذلك ، كونها محط الصحابة ومنزل العلماء ، ومعسكر الجيوش الاسلامية المقاتلة في العراق والمنطلقة في فتوحاتها نحو الأقاليم الشرقية ، وأثر ذلك في طبيعة سكانها ، ورهافة حسهم السياسي .

كل ذلك ، أدى الى أن تكون الكوفة ، مصطرعاً للآراء والمذاهب ، وموطناً للخلاف والمعارضة ، فتغرق في فتنة عثمان الى أذنيها . وتكون بعد ذلك حاضرة لخلافة علي وقاعدة لقيادة جيشه في صراعه خلال معارك الجمل وصفين والنهروان . وتكون بعد ذلك منبتاً خصباً لحزب الخوارج ، أعنف حزب ثوري في تاريخ الاسلام . وقد خرجت من دراستي للخوارج ، بملاحظات ، كان لها أثرها في حكمي على خارجية الطرماح .

فقد بحثت في تاريخ الحزب الخارجي ، ونشأته ، وتطوره . وحاولت أن التمس جذوره التأريخية في الأحداث التي أعقبت الفتح ، فتبين لي ، أنه لم يكن حزباً مقطوع الجذور ، ولا حدثاً طارئاً ، على الحياة السياسية في الكوفة ، بل هو تطور لطبيعة الأوضاع السياسية فيها وتبلور لروح المعارضة ، التي نشأت بعيد الاسلام ، ونشطت بين سكانها بخاصة .

وتبين لي أيضاً ، أن هذا الحزب لم يكن خليطاً غير متجانس — كما

يتوهم البعض — ولا تجمعياً يفقد صفة الترابط ، ويفتقر الى عامل التشابه ، ويحتاج الى مبررات الوجود ، ولم يكن نسيج صفين وأزمة التحكيم حسب . فان هناك جملة عوامل ، توحده وتمنحه طابع الترابط والتماسك ، وتؤكد وحدة الأسلوب والغاية في نضال أفراده ، فصفات التقوى والصلاح والتشدد بالعبادة ، تميز أفراده تميزاً ظاهراً ، وروح التمرد والثورة والصراحة — يحركها الايمان المطلق وتبطنها السذاجــة البدوية — تجسدت قبل صفين في مواقف أبطاله ، كما تجسدت بعد صفين في انقساماتهم المتعددة وخلافاتهم المتكررة . والشجاعة والاقدام والنظرة الى الموت على أنه خلاص كانت من أبرز صفات رجاله .

وجدوى هذه النتائج كبيرة ، في الشك في خارجية الطرماح ، ذلك أن بعض الباحثين يرى أن لاغبار على خارجية شاعرنا — على الرغم من مدحه ، وهجائه ، وحبه لنفسه ، وتعصبه لطيىء واليمن وقحطان ، وبغضه للعامة — مادام حزب الخوارج يضم منذ نشأته نماذج متفرقة الأهواء والغايات ، مختلفة الأهداف والمقاصد ، كما يدعون . والطرماح — عند هؤلاء الباحثين — يمثل فئة غير قليلة من الخوارج ، تتميز بميزات معينة ، وترمي الى أهداف معينة ، هي في النتيجة غير أهداف الخوارج .

ومضيت بعد ذلك ، الى الفصل الثالث من هذا القسم ، لأدرس حياة الطرماح ، وعلاقاته بأسرته : آبائه وأجداده وأولاده وأحفاده ، ولأدرس تأريخ قبيلته طيىء ، ومركزها في الكوفة ، ونشاطها السياسي والحربي فيها وتوصلت الى نتائج جديدة كان لها أثرها في شعره .

وفي الفصل الرابع ، توصلت الى تقسيم (حياته) الى فترات أربع ، تتصل الأولى بولادته ونشأته ، والثانية ، بحياته رجــلاً وأديباً في الكوفة ، والثالثة ، بحياته في بلاد فارس ، والرابعة بحياته في الكوفة ، بعد العودة من فارس .

والروايات في ولادته ونشأته متناقضة ، منها ما يجعلهما في الكوفة أو سوادها . وقد تمكنت من ترجيح ولادته ونشأته في السواد ، كما توصلت الى

تحديد زمن وفاته ، بعد ان اضطربت فيها المصادر اضطراباً عجيباً .

أما الفصل الرابع ، فقد درست فيه مقومات شخصيته ، وسلوكه العام . ولفتت انتباهي علاقته السيئة بالعامة ، وبغضه لها ، وحساسيته الشديدة منها ، مما وضع لي خارجيته في موضع الشك بصورة أجلى . كما لفت انتباهي حبه البالغ لنفسه ، وهيامه بها ، حتى ليصح أن نعتبره مريضا بالنرجسية . ولاحظت تفانيه في حب طيء ، والاخلاص لقحطان ، والميل لليمن ، وكل ذلك مما لايتفق مع عقيدة كعقيدة الخوارج .

وكان حبه للمال ، وسعيه في طلبه ، ومدحه من أجله أشهر أعداء الخورج ، من ولاة امية ، باعثا قويا ، وحافزاً على الطعن في مذهبه . ونوهت في هـذا الفصل بذكائه ، والمعيته وفطنته وظرفه . ومن جملة ما درست ، في سيرته علاقته بالكميت ، الشاعر الشيعي المعروف فقد مضيت التمس أسباب هذه العلاقـة ونتائجها وأثرها الأدبي في شعر الشاعرين .

وفي الفصل الاخير من القسم التاريخي ، عرضت لدراسة مذهبه السياسي فعرفت أن مصدر الاعتقاد بخارجية الطرماح ، أمران ، أولهما : روايات الجاحظ ، وابن قتيبة ، وابي الفرج ، التي تنص على وجود هذه الخارجية . وثانيهمـا : ثلاث مقطوعات تصرح اثنتان منها ، بذكر الشراة . وقد بادرت الى اعلان شكي في خارجيته ، وعللت لذلك بأدلة عرضتها إذ اتضح لي أن الطرماح . لم يكن ذلك الخارجي ، الذي يعتد بخارجيته ، او أنه اعتنق مذهب الخـوارج ، لفترة قصيرة من شبابه ، مجاراة لطبيعة الكوفة الشغوفة بالسياسة ، والميالة الى المعارضة ، ثم تخلى عنه لسبب ما . أي أنه لم يمت على مذهب الخوارج قطعا .

أما مبررات شكي في خارجيته ، فهي :

آ — تناقض الروايات ، التي تنص على خارجيته هذه ، واختلافها في فرقتـه ، فالجاحظ يجعله من الصفرية ، وابن قتيبة ، يذكر أنه كان يرى رأى الخـوارج مرة ، وأنه صفري مرة اخرى ، وأبو الفرج يجعله من الأزارقـة مـرة ، ومن الشراة اخرى ، ومن الصفرية ثالثة .

ب ــ تنص هذه الروايات ، على أنه خارجي ، قحطاني ، من شعراء اليمن ، متعصب لأهل الشام ، وذلك مما يثير الانتباه ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه المجموعة من الصفات المتناقضة !؟ .

ج إن احــدى المقطوعات (الخارجية) الثلاث ، تنسب ، في أنساب الأشراف الى الطرماح الكبير أو الأكبر ، وهو ــ كما يذكر البلاذري ــ القعقاع بن قيس الطائي ، عم الطرماح ، وقد مر بنا : أنه من الخوارج الأول . لكن صاحب جمهرة أنساب العرب ، يذكر أن الطرماح الكبير ، هو الطرماح بن عدي بن عبدالله بن خيبرى ، وهو خارجي من الصفرية ، وأنا أرجح رأي صاحب جمهرة الأنساب . وتنسب هذه المقطوعة ــ في مقاتل الطالبين ــ الى عبدالله بن موسى .

د ــ وجود أكثر من خمسة شعراء طائيين أغلبهم خوارج باسم (الطرماح) هم : شاعرنا ، والقعقاع بن قيس (على رواية أنساب الأشراف) ، والطرماح بين عدي الشاعر الخارجي الصفري ، والطرماح الأجئي ، والطرماح بن الجهم السنبسي ، الذي غلط الناشر ، فنسب مقطوعته في الهجاء الى شاعرنا ، كما أن هناك طرماحاً آخــر هو العقدي وأظنه أنا القعدي ، وذكرت بعض المصادر الطرماح الأجاني . فليس ببعيد ، أن تكون بعض أخبـار هؤلاء ، وأشعارهم ، نسبت غلطاً لطرماحنا ، وبصورة خاصة ، أخبار الشاعر الخــارجي الصفري الطرماح بن عدي وأشعاره .

هـ ــ ان كثيراً من مصادر شعر الطرماح القديمة اكتفت بذكر : « قال الطرماح : » دون ذكر اسم الأب أو اللقب مما ساعد على الخلط ومن ثم رجح الشك ناهيك عن اختلاف أساليب هذا الشعر الذي ينسب اليه بشكل ظاهر .

و ــ مدحه أشهر أعداء الخوارج من الولاة الأمويين طلباً للمال أو سعياً وراء الجاه . ولا يختلف الخوارج على تعدد فرقهم ــ في ضلال هؤلاء الولاة .

ز ــ حبه لنفسه واعتداده بها ، وكبرياؤه واحساسه بالعظمة .

ح ـ هجاؤه وخصوماته ومناقضاته .

ح ـ خلو هجاء الفرزدق وهو علوي الهوى من أية اشارة الى خارجيته .

ط ـ علاقته السيئة بالعامة وبغضه لها .

ي ـ عصبيته القبلية ، وولاؤه لقحطان واليمن ، وإخلاصه لطيء ، وميله لجيش الشام .

ك ـ علاقته بالكميت الشاعر الشيعي المعروف على الرغم من اختلافهما في المذهب والنسب والبلد .

ل ـ خلو سيرته ، من كل ما يشير الى خروج أو اعتقال أو مطاردة .

م ـ طمعه وحبه المسرف للمال ، وسعيه في طلبه ، سعي المتكسبين من شعراء أمية .

وفي بداية القسم الثاني (الأدبي) عرضت لدراسة الديوان ، فوصفته وصفاً عاماً ، وثمنت جهود الناشر في اخراجه ، ثم ذكرت ما مافاته في النشر والتحقيق ، وأدرجت نماذج من ملاحظاتي على نشره وتحقيقه وطبعه ، واستدركت عليه مقطوعات كثيرة ، فقد عثرت على ما يربو على الخمس والثلاثين مقطوعة ، غير موجودة في النص أو الذيل أو الملحق (الضميمة) ، ثم اقترحت أن ينشر الديوان نشراً جديداً في ضوء مقترحات ذكرتها .

وجعلت الفصل الثاني من هذا القسم ، تمهيداً لدراسة شعره ، فقد كتبت فيه وصفاً سريعاً لقصيدة الطرماح ، وأسلوبها ، وأغراضها ومعانيها ، وبنائها ، ومظاهر التجديد والتقليد في كل ذلك . وذكرت في نهاية الفصل : أن دراستي لشعر الطرماح ، ستتناول جانبين ، الجانب ، اللفظي والجانب المعنوي .

وقد جاء الفصل الثالث بداية للدراسة اللفظية ، فقد بحثت في ظاهرة الغريب في شعره ، وتتبعت مصادره ، وتحدثت عن مظاهر الغرابة في لغته ، وذكرت نماذج من ألوانها في قصائده ، ثم حللت آراء العلماء والنقاد في هذه الظاهرة .

وعرضت في الفصل الرابع ، لدراسة مظاهر البيئة القروية وآثارها في أسلوبه ، لأن تأثير بيئة الكوفة وقراها كبير في شعره . وقد أوليت موضوع الحيوان والتشبيه ومشاهد الحياة الريفية في قصائده ، عناية خاصة ، إذ لاحظت أنه يعنى عناية كبيرة بالحيوانات ، صغيرة وكبيرة . يصفها ويغرب في وصفها ، ويشبه بها ، ويذكرها بكثرة . مما يؤكد أنه تأثر بجو القرية ، ولابس حياتها ، وألف مشاهدة حيوانها . كما لاحظت أن مشاهد الحياة الريفية ، من أشجار ومزارع وحقول وأثمار وأزهار ، تشيع في صوره الشعرية .

وألفاظ الفلاحين . والتعابير التي يتداولها المزارعون ، تتردد في أبياته ، مما حدا بي أن أعمل ما يشبه الاحصاء لهذه الألفاظ . وألوان الريف الزاهية المشرقة ، تصطبغ بها صوره اصطباغاً ، لذا تتبعت هذه الألوان في صوره الشعرية .

أما التشبيه فقد وضح فيه أثر البيئة الكوفية ، بقراها ومزارعها وحيواناتها وأنهارها ومظاهر الحضارة فيها ، وضوحاً تاماً ، فقد استمد الشاعر موضوعات تشبيهه ، من مشاهد هذه البيئة ومألوفاتها ، فضلاً على ما في تشبيهاته من دقة في الملاحظة وذكاء في إدراك أوجه المشابهة . وأصالة وجمال .

وعرضت خلال الفصل الخامس ، لموضوع الموسيقى في شعره ، وجعلت حديثي فيه على قسمين ، يتناول الأول الموسيقى الداخلية للألفاظ والتراكيب ، ويتناول الثاني الأوزان والقوافي . وقد وجدت : أن شعر الطرماح حافل بموسيقى رائعة ، مصدرها صناعة دقيقة ، يحسن الشاعر اصطناعها ، ويسلك الى تحقيقها أساليب مختلفة ، شرحتها في موضعها .

ومما يلفت الانتباه في أوزانه ، ميله للبحور النادرة ، كالمديد والمنسرح ، واستعماله للخفيف والمتقارب . ولمست خلال هذا البحث ، ظاهرة حرية بالدراسة وتدقيق الملاحظة ، تلك هي القصيدة الخامسة ، ذات الوزنين المنسرح والخفيف وقلبت فيها الرأي وانتهيت الى اثبات انها قصيدة واحدة اضطر فيها الشاعر استعمال الوزنين عن ادراك وبفعل تأثير المعاني التي تناولها فيها . ولاحظت كذلك أن عنايته بالقوافي واضحة .

وجعلت الفصل السادس ، بداية لدراسة الجانب المعنوي من شعر الطرماح ، فقد درست فيه أهم أغراضه ، وأحفلها بالجدة والابتكار ، والصور الجميلة ، ذلك هو فن الهجاء . وقد تبينت خلال هذا الفصل ، سر إعجاب أبي عمرو بن العلاء ، بهجاء الطرماح ، ووصفه إياه ، بأنه وحي ، ذلك أن شاعرنا اعتمد الصور الهزلية الساخرة ، في هجاء خصومه ، وإبراز ضؤلتهم وخورهم ، كما اعتمد المبالغة والتهويل في تصوير ضعة شأنهم وتفاهتهم ، وقد أتاحت لي دراسة هجاء الطرماح ، أن أقع على أسباب هجائه للفرزدق ، وقد كانت سرا غامضا ، كما أتاحت لي ، اكتشاف مجموعة طيبة من نقائض الشاعرين ، لم يقف عليها قبلي دارسو الطرماح . وقد عقدت مقارنة بين فن الهجاء عند كل منهما . وختمت هذا الفصل ، بدراسة لعناصر هجاء الطرماح ومعانيه .

والطرد ، من أطرف ما يعنى به الطرماح من موضوعات ، فقد وجدت فيه روحا جديدا ، هو مزيج أثرين ، فهو من نحو تعبير عن إحساس الشاعر الطموح بالاخفاق ، في تحقيق ما يصبو اليه من أهداف ، وتعبير عن الشعور بالملاحقة ، وهو من نحو ثان ، صورة من صور زهده ، أو (خارجيته) ، أو صلاحه ، وحسن إسلامه . لذا فقد كرست الفصل السابع ، لدراسة طردياته وتطورها ، ومن ثم عرجت على طرديات أبي نواس ، وعقدت مقارنة بين فني الشاعرين ، لاتبين خصائص الطرد عند كل منهما .

وخصصت الفصل الثامن ، للبحث في شعره المذهبي ، فقسمته الى ثلاثة اقسام :

أما الأول ، فشعر صريح في خارجيته ، يذكر الشراة ، ويصور حياتهم في السلم والحرب . وأما الثاني ، فهو إشارات دينية ، وتلميحات تطبع كل فنون شعره ، من الوصف الى الفخر والى الهجاء . وتصور نزعة الشاعر المؤمن ، وتعكس خلقه الاسلامي الصافي ، وتعبر عن واقع الكوفة الملتزم ، كما تعبر عن روح العصر وطبيعته . والقسم الثالث ، شعر زهدى ، بكل معنى هذه اللفظة .

وجعلت الفصل التاسع ، لدراسة فن المديح عنده ، وختمت البحث بدراسة الخصائص الفنية التي تميز شعره .

وقد ألحقت ببحثي ثلاثة ملاحق ، جعلت في الأول ، كل ما استدركته على الناشر من مقطوعات ، وقد ذكرت أنها تربو على الخمس والثلاثين مقطوعة ، وذكرت في الثاني كل ماعثرت عليه من أبيات مكسورة أو مختلة الوزن ، فاتت الناشر ملاحظاتها ، سواء منها ما كان في نص المخطوطة ، أو في كتب اللغة والأدب ، وقد ذكرت ازاءها تقويمها . وفي الثالث أثبت ملاحظاتي على أخطاء (كرنكو) في النشر والتحقيق .

المَلاحِق

المقطوعات المستدركة

هذا ملحق فيه كل ما وجدته من شعر الطرماح مما لا وجود له في الاصل أو الذيل او الضميمة :

١ – ورمى بثغرته الثغور فسدها ⁂ طلق اليدين مؤملا مرهوبا[١]

٢ – قال الطرماح يمدح[٢] :

سما للعلا من جانبيها كليهما ⁂ سمو حباب الماء جاشت غواربه

٣ – ولو ان عصفورا يمد جناحه ⁂ لقامت تميم حوله واستظلت[٣]

٤ – وأبرق من براق لوى سعيد ⁂ . . . . [٤]

٥ – . . . . ثم اصبحت ⁂ براق اللوى من أهلها قد تخلت[٥]

٦ – ولو أني اشاء حدوت قولا ⁂ على أعلامه المتبينات

لاعقد مقرف الطرفين يبني ⁂ عشيرته له خزي الحياة[٦]

٧ – دعتنا بكهف من كنابيل دعوة ⁂ على عجل دهماء والركب رائح[٧]

٨ – عقاب عبنقاة كأن وظيفها ⁂ وخرطومها الاعلى نيار ملوح[٨]

---

(١) كتاب الصناعتين ٣٣٠ .

(٢) كتاب التشبيهات ٢٠٦ .

(٣) العقد الفريد (الاستقامة ٦/١٣١) .

(٤) المشترك وضعا والمفترق صقعا ١٧٠ .

(٥) المصدر السابق ١٧٠ .

(٦) معجم مقاييس اللغة ٤/٨٨

(٧) معجم البلدان ٤/٣٠٦ وينسب الى ابن مقبل ايضا .

(٨) كتاب نظام الغريب ١٧٠ .

٩ ـ دان مسف فويق الارض هيدبه | يكاد يلمسه من قام بالراح[٩]

١٠ ـ فاني واياكم وموعد بيننا | كيوم لبيد يوم فارق أربدا[١٠]
وأخبره أن السبيل ثنية | صعود ينادي كل كهل وأمردا
صعود فمن يلمع به اليوم يأتها | ومن لا يلهي بالضحاء فأوردا

١١ ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ | يمشي من البغي مشي الناب بالزبد[١١]

١٢ ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ | وابن أبي سلمي على حرد[١]

١٣ ـ وان قال غو من تنوخ قصيدة | بها جرب عدت علي بزوبرا[٢]

١٤ ـ وأني لمقتد جوادي وقاذف | به وبنفسي العام احدى المقاذف
مخافة دنيا رثة ان تميلني | اذا مال فيها الهالك المتجانف[٣]

١٥ ـ واقتل قعصا ثم يرمى بأعظمي | (مفرقة أوصالها في التنائف)[٤]

١٦ ـ وقال الطرماح في خالد القسري[٥]
ورد السقاة المعطشون فأنهلوا | رياً وطاب لهم لديك المكرع
وأراك تمطر جانباً عن جانب | ومحل بيتي من سمائك بلقع
ووردت بحرك طامياً متدفقاً | ورددت دلوي شنها يتقعقع
ألحسن منزلتي لديك منعتني | أم ليس عندك لي بخير مطمع

---

(٩) **خريدة القصر وجريدة** العصر القسم الثاني ٢٧٠ وينسب الى عبيد بن الابرص ايضا ٠

(١٠) الازمنة والامكنة ٢/٣١٤

(١١) شرح المفضليات ٣٠٧

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/٥١

(٢) المفصل لابن يعيش ١/٣٨ يقال اخذ الشيء بزوبره اي كله ، المخصص ١٥/١٨٣ ، ونسب البيت في اللسان (زبر) الى ابن احمر ، الخصائص ٢/١٩٨ ، وفي الخزانة ٤/٣٧٩ نسب الى الفرزدق ، والبيت موجود في ديوان الفرزدق ايضا ٢٥٥

(٣) المقصود البيت الثاني ، مقاتل الطالبيين ٦٣٣ وفي البيت اقواء ٠

(٤) العقد الفريد ٣/١٧٧ وعجز البيت في الديوان : « كضغث الخلا بين الرياح العواصف » ٠

(٥) تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٥٣

١٧ـ كأن الصوىٰ فيها اذا ما استحلها   عقير بمستن السراب يكوع[٦]

١٨ـ اذا ارتعشت خاف الكمي رعاثها   ومن يتعلق حيث علق يفرق[٧]

١٩ ـ ولو شهد الصفين بالعين مرثد   اذاً لرآنا في الوغى غير عزل[٨]

وما أنت في صدرى بغمر أجنه   ولا بقذى في مقلتي متجلجل

أبوكم لئيم غير حر وامكم   بريدة ان ساءتكم لم تبدل

وانتم كعظم الريم لم يدر جاوز   على أى بدأي مقسم اللحم يجعل[٩]

٢٠ـ عرفت لسلمى رسم دار تخالها   ملاعب جن او كتاباً منمنما[١]

وعهدي بسلمى والشباب كأنه   عسيب نما في ريه فتقوما

يعض سوارها جلانا لو انها   اذا بلغا الكفين ان يتقدما

٢١ ـ لاتنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك اذا فعلت عظيم[٢]

٢٢ ـ فقلت لها يا أم بيضاء انه   هريق شبابي واستشن أديمي[٣]

٢٣ ـ أنا الطرماح وعمي حاتم   والبحر حين تكشس الهزائم[٤]

٢٤ ـ وذكر الحسن به احمد بن يعقوب بن ذى الدمينة في كتابه الذى صنفه في مفاخر اليمن : ان الطرماح دخل على عبدالملك بن مروان وعنده الفرزدق وهو مقبل عليه ، فقال الطرماح يا أمير المؤمنين من هذا الذى الهاك عني ؟ فالتفت الفرزدق مغضباً فقال :

أقول له ولكن بعض حلي   ألم تعرف رقاب بني تميم ؟

---

(٦) المنصف ٣/٨٥ ٠

(٧) الشعر والشعراء ٠ ٨ ، والبيت في وصف عنق طويل ٠

(٨) تهذيب اصلاح المنطق ١/ ٤٤ ، سمط اللالىء ٢/٨٦٣ ويروى البيت للطرماح الاجئي كما ينسب لابي شمر بن حجر ٠

(٩) في البيت اقواء ٠

(١) النصف الاول من كتاب الزهرة ٢٧٥ ٠

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٥٣

(٣) كتاب التشبيهات لابن ابي عون ص ١ ، وينسب عجز البيت الى ابي حية النميرى ، كما ينسب البيت في الحيوان ٣/٣٦٤ الى ارطاة بن سهية ٠

(٤) معجم ما استعجم ١٠/٧٠١

فقال الطرماح :

بلى (اعرف) رقاب مخيسات   رقاب مذلة ورقاب لـوم
اذا ما كنت متخذاً خليلا   فلا تجعل خليلا من تميم
يكون صميمهم والعبد فيهم   فما أدنى العبيد من الصميم[5]

٢٥ ـ قال الطرماح في عرابة الاوسي (صاحبه ! ؟) :

اذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين[6]
٢٦ ـ اذا الأرطى توسد أبرديه   خدود جوازيء بالرمل عين[1]
٢٧ ـ ولكني أنص العيس حتى   أظلاها وتركع في الحزون[2]
٢٨ ـ ويلقى قفا الحناءتين بروقه   تناويط أولاج كخيم الصيادن[3]
٢٩ ـ . . . . كأشرعة السفين[4]
٣٠ ـ تولى كنجم الأخذ بعد عداده   يضيف وأشفى النفر نفر المعاين[5]
ملا بائصاً ثم اعترته حمية   على تشحة من ذائد غير راهن

---

(٥) تهذيب تاريخ دمشق ٧/٥٣ ويمكن اضافة هذه الابيات الى نقائض الشاعرين .

(٦) ديوان الاخطل ٢٥ .

(١) ديوان الاخطل ٢٥ ويروى البيت للشماخ بن ضرار الغطفاني ايضا .

(٢) أضداد ابن الانباري ٢٩٦.

(٣) كتاب المعاني الكبير ٧٤٧ ويروي مثل هذا البيت في الديوان على هذا النحو .

يثير نقا الحناءتين ويبتني   بها نقب أولاج كخيم الصيادن

(٤) لسان العرب (شرع) .

(٥) نسب ابن قتيبة (المعاني الكبير ٧٣٨) البيتين الى الكميت في الوقت الذى نجد فيه البيت الثاني في ديوان الطرماح (٢٦_٤٧) ، فضلا على وجوده منسوبا له في اللسان والقاموس المحيط ، وعلى ذلك يكون البيت الاول للطرماح ايضا ، وقد روى ابن قتيبة أبياتا كثيرة من هذه القصيدة ونسبها للطرماح ، ويبدو أنها هفوة او غلط مطبعي .

(٦) كتاب المعاني ٧٤٧ ويروى صدر هذا البيت في الديوان على هذا النحو :

« وباتت اهاضيب السمي تلفه » (٣٨_٤٧) .

٣١ - "بضاحية ثريا يميل سفاتها" على نعج من عجمة الرمل ضئن(٦)

٣٢ - فلما ادركناهن أبدين للهوى محاسن واستوين دون محاسن(٧)

ظعائن يستحدثن في كل بلدة رهينا ولا يحسن فك الرهائن

٣٣ - فما للنوى لا بارك الله في النوى وهم لنا منها كهم المباين(٨)

٣٤ - وقال الطرماح :

وما أروى وان كرمت علينا بأدنى من موقفة حرون

يطيف بها الرماة وتتقيهم بأوعال معطفة القرون(٩)

٣٥ - قليل العرك يهجر مرفقاها(١)

٣٦ - فللترك أوفى من نزار بعهدها فلا يأمن الغدر يوماً عهدها(٢)

٣٧ - قال الفرزدق (٣) :

ومر بنا المختار مختار طيىء فروى مشاشا كان ظمآن صاديا

أقمنا له صهباء كالمسك ريحها اقامته حتى ترحل غاديا

فمر وقد كانت عليه غباوة يخال حزون الارض سهلا وواديا

وقال الطرماح(٤) :

ومر بك المختار مختار طيىء فلم تقره حتى ترحل غاديا

سوى شربة أبكتك حين قريته فلا رقأت عيناك إن كنت باكيا

فلو كنتم قوما كراما كتمتم قراكم ولكن لم تباوا المخازيا

---

(٧) النصف الاول من كتاب الزهرة ١١ .

(٨) المحاسن والمساوىء ٢/١٧٣ .

(٩) شروح سقط الزند ١٥٨٥

(١) معجم مقاييس اللغة ٤/٢٩١ .

(٢) المصدر نفسه ٤/١٦٨ وينسب في اساس البلاغة الى نصر بن سيار .

(٣) ديوان الفرزدق ٨٩٤ ط١ (الصاوي) ، وتروى هذه الابيات في الوحشيات لمالك بن جعدة التغلبي ص ٢٥٤ رقم ٤٣٠ مع اختلاف قليل في بعض الكلمات .

(٤) الحماسة الصغرى (الوحشيات) ص ٢٢٣ رقم ٣٦٨ ، وهي من نقائض الشاعرين .

الأبيات المكسورة والمختلة الوزن

هذا ملحق فيه كل ما وجدته مختلا أو مكسورا من أبيات الطرماح مما فات الناشر ملاحظته ، سواء أكان ذلك من شعر الديوان أم مما عثرت عليه في المصادر • ويعود هذا الاختلال ـ بطبيعة الحال ـ الى التصحيف والتحريف وخطأ النساخ وسأحاول مجتهداً أو معتمداً على مصادر اخرى ـ ان اثبت بازاء كل بيت تصحيحه •

١ ـ (٢٥ـ٣) :

(فبذلك) أطلع الهموم اذا دجت ظلم خوالفها تخل وتوصد

الصواب فبذاك (من الكامل)•

٢ ـ (٩ـ٤) :

مثل ما عاينت قبل الشفا (واضحة) العصمة أحوى الخدام

الصواب واضح (من المديد)•

٣ ـ (٧٩ـ٤) :

أخلقت (حده) الحزوم كما اخلق (الفهر) قذف المرام

الصواب (حد)أو منه و(القهقر)(من المديد) •

٤ ـ (١٩ـ٥) :

(دفعت) فيهم ذا ميعة صخبا مغلاق قمر يزينه اوده

الصواب دافعت (من المنسرح)

٥ ـ (٤٣ـ٥) : (لما وردت) الطوى والحوض كالصيرة دفن الازاء ملتبده

الصواب اذ وردت ، والبيت على هذا الاعتبار من الخفيف ، وقد

أشار محقق كتاب الحيوان عبدالسلام محمد هرون في حاشية ص ٤٣٦/جـ ٥ الى أن البيت من المنسرح وقد حذفت فيه نون مستفعلن .

٦ ـ (٥٥ ـ ٥) :

لما استبان الشباشبا (جربيا) المسن من كل جانب ترده

الصواب جربياء والبيت مدور (من المنسرح)

٧ ـ القصيدة السابعة من البسيط عدها الناشر من الكامل .

٨ ـ (١-١٤) :

(ليس) بادمان الثنية موقد ولا نابح من آل ظبية ينبح

الصواب وليس (من الطويل) وفيه اقواء .

٩ ـ عد الناشر القصيدة السابعة عشرة من السريع وهي من المتقارب .

١٠ـ (١-٢٢) :

(من) كان لا يأتيك الا لحاجة يروح بها فيما يروح ويغتدي

الصواب فمن كان (من الطويل) .

١١ـ (٤٠-٣٤) : (ذو) البث فيه كلة وخشوع . الصواب وذو (من الطويل) .

١٢ـ (٤١-٣٤) : (قد) بات يأزوه ندى وصقيع . الصواب وقد (من الطويل) .

١٣ـ (٣-٤١) : (فبروا) النجائب عند ذلك بالرحال وبالرحائل .

الصواب بروا (من مجزوء الكامل) .

١٤ـ عد الناشر المقطوعة الحادية والخمسين من الكامل وهي من البسيط .

١٥ـ (٢-٤٨) :

خليلي مدطرفك (هل ترى) ظعائن باللوى من عوكلان

الصواب هل تراها أو هل ترى لي (من الوافر) .

١٦- (٣-٤٨) :

ألم تر أن عرفـان الثريا (يهيج) بقزوين احتزاني

الصواب يهيج لي (من الوافر)*

١٧- (٥٦-٤٧) : (وأرطاة) حقف بين كسرى سنائن • الصواب بدون تنوين أرطاة (من الطويل) •

١٨- (٣-٦٤) :

(يفون)ان وعدوا وان اتلوا حبوا دون التـلاء بفخمة مذكار

الصواب ويفون (من الكامل)•

١٩- (٤-٧١) :

وتوعدني الأقيان من آل دارم بكل لئيم من معد (خامل)

الصواب وخامل (من الطويل) •

٢٠- (٨-٧) :

أنا الطرماح (فاسألي) بني ثعل قومي اذا اختلط التصدير بالحقب

الصواب فاسأل بي (مـن البسيط)

٢١ - ذكر الناشر ان القصيدة الخامسة ذات الوزنين ابتدأت بالخفيف وسقطت في البيت الثاني عشر بالمنسرح وعادت الى الخفيف في البيت الحادي والثلاثين ، وقد بينت خطأ ذلك في حديثي عن الأوزان •

٢٢- اخطأ الناشر فعد البيت الأول من القصيدة الخامسة مختلا وقال ان مصراعه الأول من المنسرح والثاني من الخفيف • وليس البيت كذلك اذ انه مـن الخفيف بمصراعيه •

٢٣ - ورد في تهذيب تأريخ دمشق ص ٥٣/٧ هذا البيت(من الوافر) وهو مختل الوزن :

بلى (أعرف) رقـاب مخيسات رقـاب مذلة ورقاب لوم

٢٤- (٤-٤٩) : عفت الا أياصر أو(نؤيا) • الصواب نئياً (باليـاء المشددة) (من الوافر) •

٢٥- (١٤-٢٠) : واسأل زرارة والمأمون ما (فعلت) (بضم التـاء) والصواب سكونها (من البسيط)

ملاحظات حول تحقيق الديوان ونشره

ذكرت في هذا الملحق ملاحظاتي على طائفة من الكلمات المصحفة والمحرفة والمشكلة على غير الوجه الصحيح ، مما فات الناشر ، كما ذكرت فيه ملاحظاتي على بعض ما اخطأ الناشر في تحقيقه . ولم تفتني ملاحظة الاخطاء المطبعية التى وردت في الديوان فقد اشرت الى اكثرها .

(١-٦) يستبدل حرف ( ) بـ( ) في الحاشية .

(١-٩) الشرح : تعسف . الصواب تسعف .

(١-١٠) سوى فضل (أيدي) المستغاث المسبح . الصواب أيد .

(١-١١) الشرح : وكانت العرب يقول . الصواب تقول .

(١-١٢) الشرح : في ذكرى مفرح . الصواب منفرج .

(١-١٦) الشرح : يقول اذا مت تزوجت (امرأتي) . الصواب أمرأته ، كما كانت في المخطوطة .

(١-٢٨) الشرح : والتجاج كثرة الصوت . الصواب والالتجاج .

(١-٣٧) وان هو أفعى (خلته) من أمامه (بضم التاء) والصواب فتحها .

(١-٤٨) الشرح : (والجميع) الرصاد ، بتنوين الرفع في جميع . الصواب والجمع .

(١-٤٩) تباعد أظماء (الفؤاد) الملوح . الصواب الغوار .

(١-٥٠) الشرح الأظماء جمع (ظمي .) . الصواب ظمء .

(٥٢ـ١) الشــرح : والمسفح حيث(يفيض) الماء (بضم الياء) الصواب فتحهــا .

(٥٤ـ١) الشرح : المحددة (اطراف)الجناح ، (بفتح الفاء) الصــواب جرهــا .

(٢ـ٢) الشرح : لانه اِسم اعجمي . الصواب اسم

(٤ـ٢) الشرح : اِرعويت . الصواب ارعويت

(٧ـ٢) وذهلت (الصــبى) .. الصواب الصبا ، وفي الشرح أيضا .

(٩ـ٢) حين (تحتث) رجله في ا ِباض . الصواب يحتث .

(١٤ـ٢) وأوت بلة الــكظوم الى(الفط) . الصواب القظ .

(١٥ـ٢) مثل غير الفلاة (شاخص)فاه . الصواب شاخس .

(٢٠ـ٢) الشرح : يقول (تــر د)بولها . الصواب ترج ، كما كـانت في المخطوطة .

(٢٦ـ٢) كبقايا الثوى' يلــذن مــن الصيف جنوحا (كالحزم) . الصواب بالحزم أو بالجر .

(٣) شرح مقدمة القصيدة الثالثة(والالف) في حوالسها للايدى . الصواب الضمير أو الها .

(١ـ٣) يمسي بعقوتها (الهجق)كانه . الصواب الهجف .

(٣ـ٣) الشرح : الأدحي (واحد) الادحية . صححها الناشــر فجعلهــا (واحده) الا انــه أبقــى الادحيــة مجــرورة . والصــواب رفعهــا .

(١٥ـ٣) الشرح : لفضول (أسفله)الصواب أسفلها .

(٢٠ـ٣) تبرأ ويخصفهــا بحرفــي(روقة) شزراً كما اختصف (النقال) المسرد . الصــواب روقــه والنعال .

(٢١ـ٣) الشرح : فصدفن (صدرن)الصواب صددن .

(٢٣ـ٣) (وغدا) تشق يداه اوساط(الربا) . الصواب وعدا والربى .

(٢٥ـ٣) فبذلك أطلع الهمــوم اذادجت . الصواب فبذاك .

(٢٨ـ٣) يقضي ويقصر همه المتبلد(بناء يقضى للمجهول) •والصواب بناؤها للمعلوم •

(٣٩ـ٣) الشـــرح : (لأن لا) •الصواب لئلا •

(٢ـ٤) الشرح : واذا (أنحت)وهن • الصواب نحت •

(٣ـ٤) الشرح : وهو ما (تتعلق)به النار • كانت في المخطوطة يتعلق فأبدلها الناشر وهي ليست خطأ •

(٤ـ٤) الشرح : شبه الرمـــاد(بالحوار) • الصواب بالحمام •

(٦ـ٤) الملك• (حجر) الثعلب • •••• (ويثنى) فيقال مكوان وأمكاء الصواب جحر ويثنى ويجمع •

(٩ـ٤) (واضحة) العصمة أحوى الخدام • الصواب واضح •

(١٣ـ٤) الشرح : يكون (شقتين)(بضم الشين) • الصواب فتحها •

(٢٣ـ٤) الشرح : (ذابتها) بالتشديد(وضع الشدة على الالف بلا همز) الصواب همزها •

(٤٤ـ٤) مثل مثلاة النياح الفئـام •الصواب القيام •

(٥٨ـ٤) ومضى (تحسب) أقرابـه ،(بكسر السين) • الصواب فتحها •

(٥١ـ٤) أكلب مثل (خطاء) الغلام•الصواب حظاء ، وفي الشرح ايضا •

(٧١ـ٤) الشرح : لا يعيى • الصواب لا يعيا •

(٧٢ـ٤) يلحس الرصف له(قضبة)الصواب قصبة •

(٧٩ـ٤) أخلقت (حده) الحزوم كماأخلق (الفهر) قـــذف المرام الصواب (حد) أو (منـــه)والقهقر •

(٥ـ٥) الشرح : لانه فيه ســـواد وبياض • الصواب لان فيه ســوادا وبياضا ، كما كانت في المخطوطة •

(٨ـ٥) (لا يليثـان) باختلافهمـــا المرء • الصواب لا يريثان •

(١٥ـ٥) الشرح : لا (يستنع) اى لا يتمادى (بضم العين) •والصواب لا يستنبع •

(١٩ـ٥) (دفعت) فيهم ذا ميعـــة صخبا • الصواب دافعت •

(٢٤ـ٥) (حال) بريحا واستفردتـه يده • الصواب جال •

(٥-٣٤) الشرح : والفث شـــجر صغار (لها) حب . الصواب له .
(٥-٤١) (فأعيى) عليـه ملتحده . الصواب فأعيا .
(٥-٤٩) الشرح : ولبده (رينه) . الصواب ريشه .
(٥-٥١) بات لدى (نغضة) يطيف بها . الصواب نعضة .
(٥-٥٦) الشرح : حتى (استشار) . الصواب استثار .
(٥-٦٥) يضغم (النائي) .. الصواب النابيء ، وكذلك في الشرح .
(٥-٦٥) الشرح : (نأى) . الصواب نبأ وكانت في المخطوطة نيا فجعلهـا الناشر نأى لتتفق مع (النائي)التي هي النابيء .
(٥-٧٥) (وغدا) الثور يعسف البيد . الصواب وعدا .
(٦-١) (تأوبها) عاداتها وهمومهـا (بفتح الباء) . والصواب ضمها .
(٦-٢) الشـــرح : (والشعيب)المزادة (بضم الشين) . والصواب فتحها وكسر العين .
(٦-٣) الشرح : وحمائم جمـــع حمامة وحمام وحمائم . الصـــواب وجمع حمامة حمام وحمائم .
(٦-٦) الشرح : يريد ما هـــام النهدي كما (هممت) أنا . الصواب همت .
(٧-١) (لمن) ديار بهذا الجزع من رب (بكسر نون لمن) . الصواب سكونها كما كانت في المخطوطة .
(٧-٦) ما قد (تجزعت) من شـوق ومن طرب . الصواب تجرعت .
(٧-٨) أنا الطرماح (فاسألي) بني ثعل . الصواب فاسأل بي .
(٧-٩) الشرح : أجـار (أمرءاً)القيس . الصواب امرء القيس .
(٧-١٤) : ان نأخذ الناس لا تدرك أخيذتنا أو (يطلب تتعد) الحق في الطلب (برفع الفعل تتعدو تشديد تائه) . الصـــواب نطلب وتتعد الذي هو تتعدى مجزوماً وعلامة جزمه حذف الالف حـــرف العلة .
(٨-٣) الشرح : لا (ترقـــع)صوتها . الصواب ترفع .
(٨-٥) الشرح : اللي . الصـــواب اللين .

(١٦-٨) بهم نصر الله (النبيء) . الصواب النبي .
(٣٣-٨) (جلال) المخازي عن تميم تجلت . الصواب خلال .
(٨-١٢) (أبا) لي ذو القوى(والطول) ألا . الصواب أبى والطول بفتح الطاء لا ضمها .
(١٣-١٢)معا معاً . الصواب معاً معاًفي البيت وفي الشرح .
(١-١٤) (ليس) بأدءان الثنية موقد . الصواب وليس وفي البيت اقواء وهو مكسور .
(٣-١٤) رفاقاً (تنادي) بالنزول كأنها ، (بضم التاء في تنادى). الصواب تادى بفتحها .
(٧-١٤) لذبحك ياصمصام (قلت)لها اذبحي ، (بفتح التاء) .الصواب ضمها .
(١٧) عد الناشر القصيدة مدحاًوهي رثاء .
(٦-١٧) تجد (وتحسبها) مازحة (بكسر السين) . الصواب فتحها
(٦-١٨) نفسي وقلت لهم ألا لا(تبعدوا) ، (بضم التاء) .والصواب فتحها .
(٥-١٩) فقيرة ام السوء (إن) لم تكد وكدى . الصواب أن .
(١٥-١٩) الشرح : في رأسها(عرض) ، (بكسر العين وفتح الراء) . الصواب فتح العين وسكون الراء .
(٦-٢٠) أو (نزل) الله وحياً أن يعذبها . الصواب أنزل .
(١٣-٢٠) قدمات ما لم (تزايل)أعظم الجسد ، (بضم التاء) . والصواب فتحها .
(١٤-٢٠) واسأل زرارة والمأمون ١٠(فعلت) (بضم التاء) . والصواب سكونها والبيت مكسور .
(١-٢٢) (من) كان لا يأتيك الالحاجة . الصواب ومن وهو مكسور .
(٣-٢٥) واستضلعت عقد الجماعة(وازدري) (بالياء) . الصواب بالالف المقصورة .

(٥-٢٥) الاكبر • الصواب الاكثر •

(١-٢٨) أحق الخيـــل بالركض(المعار) ، (بضم الميم) • الصواب كسرها •

(٢-٢٩) الشرح : لا (تبت) شيئا ،(بفتح التاء وضم الباء) • الصواب ضم التاء وكسر الباء •

(٩-٢٩) لأولاها ، (بفتح الهمزة)• الصواب ضمها •

(١-٣٢) الشـــرح : الجامض •الصواب الحامض •

(٤-٣٤) وهل (بحليف) الخيل ،من عهدته ، (بضم الحاء) • الصـــواب فتحهـــا •

(١٦-٣٤) (مخضرة) الاوصال عريةالشوى • الصواب مخصرة •

(٢٧-٣٤) فلما عوى (لفت الشمالي سبعة) (بضم تاء لفت) • الصواب فتحهـــا ، و (الشمال) و (سبعته) •

(٣٤-٣٤) أنا ابن (الحماة) المجد من آل مالك • الصواب حماة •

(٤٠-٣٤) (ذو) البـث فيـه كلـةوخشوع • الصواب وذو وهـــو مكسور •

(٤١-٣٤) (قد) بت يأزوه نـــدى وصقيع • الصواب وقد وهو مكسور

(٢-٣٥) من الله يكفيني (عـــداة)الخلائف • الصواب عدات الخلائف

(٤-٣٥) يصابون في نج من الارض(خائف) • الصواب جائف •

(٦-٣٥) (تقا) الله نزالون عنـــدالتزاحف • الصواب تقى •

(١٠-٣٥) ويصبح لحمي (بين) طيرمقيله • الصواب بطن •

(١٠-٤٠) مضت فيـــه اذ بلقمي (وعاصل) • الصواب وعامل •

(٣-٤١) (فبروا) النجائب عنـدذلك بالرحال وبالرحائل • الصواب بروا وهو مكسور •

(١٢-٤١) لأم (يحن) به مزامـــير الاجانب والاشامل • الصواب تحن•

(٣-٤٥) من الناس انسـاً لكان لـه(سلما) (بكسر السين) •الصواب فتحها •

(٣-٤٦) : (كحبة) الساج فجأ بابها صواب كجبة .

(٣-٤٦) الشرح : قلب (بضـــم القاف وتشديد اللام) . الصـــواب فتح القاف وسكون اللام .

(٤-٤٦) الشرح : نخل مراجيـــح اذا (كلت) مواقيـر . الصـــواب كانت .

(٤-٤٦) الشرح : تدلت أكمامهـــا حين (ثقل) ثمارها . الصواب ثقلت.

(١٣-٤٦) الشـــرح : تسقيطـــاً . الصواب تقسيطاً .

(١-٤٧) اساءك (تفويض) . الصواب تقويض .

(٧-٤٧) الشرح : الناقة التي (ماتا) فرخاها . الصواب مات .

(٨-٤٧) عواسف أوساط الجفـون (يسفنها) . الصواب يسفنها .

(١٢-٤٧) بها سرب (عير) اقطـــا المتواطن (بضـم الراء) . الصواب فتحها .

(١٥-٤٧) وقد (ضمرت) حتى .. (بضم الضاد وتشديد الميـــم المكسورة) الصواب فتـــح الضاد وضم الميم .

(٢٤-٤٧) (مقلصة) طارت .. (بتشديد اللام المفتوحة) . الصـــواب المكسورة .

(٢٧-٤٧) وجف الروايا بالمـــلا المتباطن . الصواب وجيف .

(٣١-٤٧) بواديه من قرع (القسي) الكنائن (بجر القسي) الصواب نصبها .

(٤٢-٤٧) الشرح : كلب (قمطر) الرجل (بتنوين الضم للـراء) . الصواب عدم التنوين .

(٤٥-٤٧) الشرح : يصف الثـور (وانه) نجا . الصواب وأنه .

(٥٦-٤٧) (وأرطاة) حقف .. (بتنوين الكسر لأرطاة) . الصواب كسرها بلا تنوين .

(٤-٤٩) عفت الا أيـــاصر أو (نؤياً) . الصواب نئياً .

(٥-٤٩) لمعفور (الضبا) ضـرم الجنين . الصواب الضرا .

(١٩-٤٩) قطا (قرب) (بضـــم القاف والراء والباء) . الصـــواب

فتح القاف والـراء وكسـر الباء .

(١-٥٤) (اذا) الشمس لما أن تغيب ليلها (وغارت) فما تبدو لعين نجومها

الصواب (أنا) و (غابت) .

(١-٥٦) (تجنبه) الكماة بكل يوم مريض الشمس محمر (الحوامي)

(بضم تاء الفعل) . الصواب تجنبها بفتحها و (الحوافي) .

(٥-٥٨) (المسمح) (بتشديـد الميم المفتوحة) . الصواب كسرها

مشددة .

(٦-٥٨) (زفافا) تنادى . الصواب رفاقاً .

(٧-٥٨) (المتضيح) (بتشـديد الياء المفتوحة) . الصواب كسـرها

مشددة .

(١٢-٥٨) (أصاب) نطـاقاً وسط آثار أذؤب . الصواب أصابت .

(٤-٥٩) فجال (لم يصره قبلها) . الصواب ولم تصره .

(٦-٥٩) اذا القرم بادر (رفء)العشي . الصواب دفء .

(٣-٦٥) (يفون) ان وعدوا وان أتلوا حبوا . الصواب ويفون وهـو

مكسور .

(١-٦٨) (كسافي) الليل مـــن كدر وصافي . الصواب كساقي .

(٤-٧٠) جنيناً ولا أملن (شـيب الغرانق) . الصواب سيب الغوادق.

(٣-٧١) بكل لئيم من معـد (خامل) . الصواب وخامل وهـو

مكسور .

(٧-٧١) (توهز) فيه المضرحيـة بعدما . الصواب توهن .

(٦-٧٢) (يبين) ويستعلي ظواهر خلفة (بضم الياء) الصواب فتحها .

خطة البحث

جريدة المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

ابن الاثير / عزالدين أبوالحسن محمد بن عبدالكريم الجزري (٥٥٥-٦٣٠هـ)[1] .

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة ،طهران ، ١٣٤٢هـ .

٣ - الكامل في التاريخ ، المطبعة المنيرية ، مصر ، ١٣٥٦هـ .

ابن الاثير/ضياءالدين نصرالله بن محمد (- ٦٣٧هـ) .

٤ - المثل السائر ، تحقيق الدكتوراحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة، مطبعة الرسالة ، ط ١ ، مصر ، ١٩٦٢

د . احسان عباس

٥ - شعر الخوارج ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٣

احمد أمين

٦ - فجر الاسلام ، ط ٥ ، مصر

٧ - ضحى الاسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٤٩

احمد الشايب .

---

(١) قد أضطر الى الرجوع الى اكثر من طبعة للكتاب وحينذاك اشير الى الطبعات في هوامش الصفحات .

٨ – تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني ، مطبعة السعادة ، ط ٢ ١٩٥٣ .
٩ – تاريخ النقائض في الشعر العربي ، مطبعة مكتبة النهضة ، مصر ١٩٥٤
د . احمد عبدالستار الجواري .
١٠ – الشعر في بغداد ، مطبعة دار الكشاف بيروت ، ١٩٥٦ .
الاخطل ، غياث بن غوث التغلبي (– ٩٥هـ)
١١ – ديوانه ، تحقيق الاب انطوان صالحاني اليسوعي ، (برواية أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي عن السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الاعرابي) بيروت ١٨٩١
أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤هـ) .
١٢ – لباب الاداب ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة الرحمانية ١٩٣٥
الاشعري / أبو الحسن علي بن اسماعيل (– ٣٣٠هـ)
١٣ – مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ١٩٥٠ .
الاصبهاني / أبو القاسم حسين محمد الراغب (– ٥٠٢هـ)
١٤ – محاضرات الادباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١
الاصبهاني – عماد الدين الكاتب محمد بن محمد الاصبهاني (٥١٩ – ٥٩٧هـ)
١٥ – خريدة القصر وجريدة العصر ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، تحقيق محمد بهجت الاثري والدكتور جميل سعيد ، ١٩٥٥ .
الاصفهاني / ابو الفرج علي بن الحسين القرشي (٢٨٤ – ٣٥٦هـ)
١٦ – الاغاني ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٧ – ١٩٦١ / الساسي مطبعة التقدم ، مصر .
١٧ – مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار احياء الكتب ، ١٩٤٩
الاصفهاني / محمد بن داود (– ٢٩٧هـ) .
١٨ – كتاب الزهرة (النصف الاول) ، تحقيق الدكتور لويس نيكل

البوهيمي ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٣٢ .
الاصمعي / عبدالملك بن قريب (أبو سعيد) (١١٢-٢١٦هـ)
١٩ ـ الاضداد ، نشر أوغست هفنر، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين، (ثلاثة كتب في الاضداد) ، بيروت ، ١٩١٢ .
٢٠ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية .
٢١ ـ فحولة الشعراء ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي وطه محمد الزيني، المطبعة المنيرية ، ط١ ، القاهرة ١٩٥٣ .
الآمدي/ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ـ ٣٧٠هـ)
٢٢ ـ المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء ، تحقيق عبدالستار احمد فراج ، دار احياء الكتب ، مصر ، ١٩٦١ .
٢٣ ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد احمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ .
الانباري / محمد بن القاسم (٢٧١ ـ ٣٢٧ هـ)
٢٤ ـ الاضداد ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، كويت ، ١٩٦٠
الانباري / ابو محمد القاسم بن محمد بن بشار (ـ ٣٠٥ هـ)
٢٥ ـ شرح المفضليات ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٢٠ م .
الباقلاني ، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ـ ٤٠٣هـ)
٢٦ ـ اعجاز القرآن ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار المعارف، مصر ١٩٥٤،
البحتري / الوليد بن عبيد البحتري (٢٠٦-١٨٤هـ)
٢٧ ـ الحماسة ، بعناية الاب لويس شيخو ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت .
ابن بدران / عبدالقادر احمد بن مصطفى بن عبدالرحيم الدمشقي (١٣٤٦هـ)
٢٨ ـ تهذيب تاريخ دمشق ، المكتبة العربية ، ط١ ، دمشق .
البخاري : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ـ ٢٥٦هـ)
٢٩ ـ صحيح البخاري ، مطبعة الفجالة الجديدة ، مصر ، ١٣٧٦هـ .

بروكلمن / كارل (ـ ١٩٥٦م) .
٣٠ ـ تاريخ الادب العربي ، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، مصر .

البستاني .
٣١ ـ دائرة المعارف

البصري / صدرالدين بن أبي الفرج بن الحسين (ـ ٦٥٩هـ)
٣٢ ـ الحماسة البصرية ، حيدرآبادالدكن ، الهند ، ط١ ، ١٩٦٤

البطليوسي / أبو محمد عبد بن السيد البطليوسي (ـ٥٢١هـ).
٣٣ ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩٠١

البطليوسي والتبريزي والمعري (انظر التبريزي والمعري)
٣٤ ـ شروح سقط الزند ، نشر الدارالقومية ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ابن بطوطة / محمد بن عبدالله بن محمد الطنجي (٧٠٣ ـ ٧٧٩ هـ) .
٣٥ ـ رحلة ابن بطوطة ، دار صادر، بيروت .

البغدادي / عبدالقادر بن طاهر بن محمد البغدادي (ـ ٤٢٩ هـ) .
٣٦ ـ الفرق بين الفرق ، تحقيق الدكتور حتي ، مطبعة الهلال ، مصر

البغدادي / عبدالقادر بن عمر (١٠٣٠ـ١٠٩٣هـ)
٣٧ ـ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ، بولاق ، مصر ، ١٢٩٩هـ .
البغدادي/ صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ـ٧٣٩هـ)
٣٨ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق محمد علي البجاوي ، دار احياء الكتب ،١٩٥٤ .
البكرى / ابو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري الاونبي (٤٣٢ ـ ٤٨٧ هـ)

٣٩ ـ سمط اللآلي ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
٤٠ ـ فصل المقال في شرح كتاب الامثال ، تحقيق الدكتور عبدالمجيد عابدين ، ط١ ، ١٩٥٨ .
٤١ ـ معجم ما استعجم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٤٥

البلاذري / أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ـ ٢٧٩ هـ) .

٤٢ ـ أنساب الاشراف ، برلين ، ١٩٣٦ / طبعة القدس ، ١٩٣٦ .
٤٣ ـ فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ١٩٥٧ / تحقيق رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٩
٤٤ ـ تاريخ الشعر العربي حتى اخر القرن الثالث الهجري ، موسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦١

البيهقي / ابراهيم بن محمد (٢٩٥ ـ ٣٦٠ هـ)

٤٥ ـ المحاسن والمساوىء ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .

التبريزي / أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب (ـ ٥٠٢ هـ)

٤٦ ـ تهذيب اصلاح المنطق ، مطبعة السعادة ، ط١ .
٤٧ ـ شرح ديوان الحماسة ، مطبعة بولاق ، مصر ، ١٢٩٦هـ .

أبو تمام / حبيب بن أوس الطائي (١٨٠ ـ ٢٣٢ هـ)

٤٨ ـ ديوان الحماسة ، مطبعة السعادة ، ١٩٢٧ .
٤٩ ـ الوحشيات (الحماسة الصغرى) تحقيق عبدالعزيز الميمني الراجكوتي دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣

التميمي / محمد بن يوسف بن عبدالله (ـ ٥٣٨ هـ)

٥٠ ـ المسلسل في غريب اللغة ، تحقيق محمد عبدالجواد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مصر ، ١٩٥٧ .

الثعالبي / أبو منصور عبدالملك بن محمد (ـ ٤٣٠ هـ)
٥١ ـ الكنايات (مع المنتخب من كنايات الادباء للجرجاني) ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، مصر ، ١٩٠٨

ثعلب / ابو العباس احمد بن يحيى (٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ)
٥٢ ـ مجالس ثعلب ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٨ .

الجاحظ / أبو عثمان عمرو بن بحر (١٥٩ ـ ٢٥٥ هـ)
٥٣ ـ البيان والتبيين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٤٨ / تحقيق حسن السندوبي الاستقامة ، مصر ، ١٩٤٧ .

٥٤ ـ الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٣٨ .

الجرجاني / عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد (ـ ٤٧١ هـ)
٥٥ ـ أسرار البلاغة ، تحقيق احمد مصطفى المراغي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

الجرجاني / علي بن عبدالعزيز (٢٩٠ ـ ٣٦٦ هـ) .
٥٦ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥١ .

الجرجاني / ابو العباس احمد بن محمد الجرجاني الثقفي (ـ ٤٨٢ هـ) .
٥٧ ـ المنتخب من كنايات الادباء ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، مصر ، ١٩٠٨

جرجي زيدان .
٥٨ ـ تاريخ اداب اللغة العربية .

د. جميل سعيد .
٥٩ ـ تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٦٠ ـ الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ، مطبعة الهلال ، بغداد .

ابن جني / ابو الفتح عثمان بن جني النحوي (ـ ٣٩٢ هـ) .
٦١ ـ الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب ، مصر ، ١٩٥٢
٦٢ ـ المنصف (شرح كتاب التصريف لابي عثمان المازني) ، تحقيق ابراهيم مصطفى وعبدالله امين ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٠ .

الجواليقي / موهوب بن احمد (٤٦٥ ـ ٥٤٠ هـ) .
٦٣ ـ المعرب من الكلام الاعجمي ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب ، ١٣٦١ هـ .

الجوهري / اسماعيل بن حماد (ـ ٣٩٣ هـ)
٦٤ ـ تاج اللغة وصحاح العربية ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ٣٧٧هـ

حاجي خليفة / مصطفى بن عبدالله (ـ ١٠٦٧ هـ) .
٦٥ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، استنبول ، ١٩٤١ .
ابن حبيب / أبو جعفر محمد بن حبيب (ـ ٢٤٥ هـ)
٦٦ ـ كنى الشعراء ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٥ .

ابن حجر / شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) .

٦٧ ـ الاصابة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٣٩ .
ابن أبي الحديد / عزالدين عبدالحميد بن هبةالله (٥٨٦ ـ ٦٥٦ هـ) .

٦٨ ـ شرح نهج البلاغة ، دار احياء الكتب العربية ، مصطفى البابي الحلبي مصر ، ١٣٢٩هـ .

ابن حزم / ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (٣٨٤ـ٤٥٦هـ)
٦٩ ـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ، دار المعارف

مصر ، ١٩٦٢ .
٧٠ ـ الفصل في الملل والاهواء والنحل ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٣٥٠هـ .

الحطيئة / أبو مليكة جرول بن أوس (ـ ٣٠ هـ)
٧١ ـ ديوانه ، بشرح ابن السكيت والسجستاني ، تحقيق نعمان أمين طه ، ط١ ، ١٩٥٨ .

الحموي / ياقوت بن عبدالله الحموي (٥٧٥ـ٦٢٦هـ) .
٧٢ ـ كتاب المشترك وضعا والمختلف صقعا ، نشر وستنفيلد ، غوتنجن ، ١٨٤٦ م .

٧٣ ـ معجم الادباء ، تحقيق مرجليوث ، ١٩٠٧ ـ ١٩٢٧ .
٧٤ ـ معجم البلدان ، دار صادر بيروت / مكتبة الاسدي طهران .

حنا الفاخوري .
٧٥ ـ تاريخ الادب العربي ، ١٩٥٣
الخفاجي / ابن سنان أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد (ـ ٤٦٦ هـ)

٧٦ ـ سر الفصاحة ، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي ، مطبعة محمد علي صبيح مصر ، ١٩٥٣ .

ابن خلدون / ولي الدين عبدالرحمن بن محمد التونسي (ـ ٨٠٨ هـ) .

٧٧ ـ تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٦ .

خليل مردم .
٧٨ ـ (مقالة) ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ١٧ ، دمشق ١٩٤٢
٧٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية (النص الانجليزي والترجمة العربية) ، المواد : البطيحة ، الخوارج ، الطرماح ، الكوفة .

ابن دريد / ابو بكر محمد بن الحسن الازدي (٢٢٣ - ٣٢١هـ)
٨٠ - الاشتقاق ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٨ .

الدينوري / ابو حنيفة احمد بن داود (- ٢٨٢ هـ)
٨١ - الاخبار الطوال ، تحقيق اغناطيوس كراتشقوفسكي ، ١٩١٢ .

ذو الرمة / غيلان بن عقبة (- ١١٧ هـ) .
٨٢ - ديوانه ، كمبرج ، ١٩١٩ .

الربعي / عيسى بن ابراهيم بن محمد (- ٤٨٠ هـ) .
٨٣ - كتاب نظام الغريب ، تحقيق الدكتور لويس برونله ، المطبعة الهندية ، مصر .

الرماني / ابو الحسن علي بن عيسى (٢٩٦ - ٣٨٤ هـ) .
٨٤ - توجيه أبيات ملغزة الاعراب ، تحقيق سعيد الافغاني ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٨ .

الزبيدي / محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني (- ١٢٠٥ هـ) .
٨٥ - تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٦هـ

الزبيدي / أبو بكر محمد بن الحسن (- ٣٧٩ هـ)
٨٦ - طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ .

الزجاجي / ابو القاسم عبدالرحمن بن اسحق (- ٣٤٠ هـ) .
٨٧ - الامالي ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ، كويت ، ١٩٦٢ .

الزركلي / خيرالدين
٨٩ - الاعلام ، ط٢ ، مصر

الزمخشري / جارالله محمود بن عمر (- ٥٣٨ هـ)
٩٠ - أساس البلاغة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

٩١ - الفائق في غريب الحديث ، تحقيق محمد علي البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٤٥ .

الزيات / أحمد حسن

٩٢ - تاريخ الادب العربي ، مكتبة نهضة مصر .

السجستاني / أبو حاتم سهيل بن محمد بن عثمان (-٢٤٨هـ)

٩٣ - الاضداد (المقلوب لفظه في كلام العرب والمزال عن جهته والاضداد) ، نشر أوغست هفنر مع اضداد الاصمعي وابن السكيت المطبعة الكاثوليكية ببروت ١٩١٢

ابن سعد / عبدالله بن محمد بن سعد بن منيع الزهري (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) .

٩٤ - كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٩٠٢ .

ابن السكيت / ابو يوسف يعقوب بن اسحق (١٨٦ - ٢٤٤هـ)

٩٥ - اصلاح المنطق ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون واحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٦ .

٩٦ - الاضداد ، نشر أوغست هفنر ، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين (ثلاثة كتب في الاضداد) ، بيروت ١٩١٢ .

ابن سلام / ابو عبدالله محمد بن سلام الجمحي (١٣٩ - ٢٣١ هـ) .

٩٧ - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٥٢ .

د. سهير القلماوي

٩٨ - أدب الخوارج ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٤٥ .

السيوطي / جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (-٩١١هـ)

٩٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مطبعة السعادة ، ط١ ، ١٣٢٦ هـ .

١٠٠ ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٨ ٠
ابن الشجري / هبة الله بن علي (ـ ٥٤٢ هـ) ٠
١٠١ ـ الحماسة ، حيدر آباد الدكن الهند ، ١٣٤٥ هـ ٠

الشعراني / عبدالوهاب بن احمد (ـ ٩٧٣ هـ)
١٠٢ ـ مقدمة نافعة لمن يخوض في العقائد (مخطوطة في جامعة كمبرج) رقم ١٧٠٤ ٠ او آر ٠

د٠ شكري فيصل ٠
١٠٣ ـ المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٢

د٠ شوقي ضيف
١٠٤ ـ التطور والتجديد في الشعر الاموى ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٢

الشهرستاني / محمد بن عبد الكريم احمد (ـ ٥٤٨ هـ)٠
١٠٥ ـ الملل والنحل ، تحقيق محمد فتح الله بدران ، ط٢ ، مطبعة مخيمر القاهرة ، ١٩٥٦ ٠

د ٠ صفاء خلوصى
١٠٦ ـ فن التقطيع الشعرى والقافية بغداد ، ١٩٦٢ ٠

الصولى / محمد بن يحيى (ـ ٣٣٦ هـ) ٠
١٠٧ ـ أخبار ابي تمام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٣٧
الطبرى / محمد بن جرير (ـ ٣١٠ هـ)
١٠٨ ـ تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٩٠١ ٠
الطرماح بن حكيم الطائي (ـ ١٠٥)
١٠٩ ـ ديوانه مع ديوان طفيل الغنوى ، تحقيق الدكتور فريتس كرنكو ، ليدن ، ١٩٢٧ ٠

د ٠ طه حسين
١١٠ ـ حديث الاربعاء ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥١ ٠

الطهراني / أغابزرك ، محمد محسن (نزيل سامراء) (١٢٩٣ هـ)

١١١ ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة ، مطبعة الغري ، النجف ، ١٩٣٦ ٠

أبو الطيب اللغوي / عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي (ـ ٣٥١ هـ)

١١٢ ـ الابدال ، تحقيق عز الدين التنوخي ، دمشق ، ١٩٦١ ٠

١١٣ ـ الاضداد في كلام العرب ، تحقيق عزت حسن ، دمشق ، ١٩٦٣

١١٤ ـ مراتب النحويين ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٥

ابن عبد البر / ابو عمر يوسف بن عبد البر بن محمد القرطبي (ـ ٤٦٣ هـ)

١١٥ ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، تحقيق محمد علي البجاوي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، (بدون تاريخ)

ابن عبد ربه / احمد بن محمد الاندلسي (٢٤٦ ـ ٣٢٧ هـ)

١١٦ ـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة / ولجنة التاليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٤٠ ٠

ابو عبيدة / معمر بن المثنى (١١٢ ـ ٢٠٩ هـ)

١١٧ ـ نقائض جرير والفرزدق ، نشر بيفان ، ليدن ، ١٩٠٥ ٠

العسكري / ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سعيد (٢٩٣ـ ٣٨٢ هـ)

١١٨ ـ المصون في الادب ، تحقيق عبدالسلام محمد هرون ، كويت ١٩٦٠ ٠

١١٩ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، تحقيق عبدالعزيز احمد مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٣ ٠

العسكري / ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل
(- ٣٩٥ هـ) .
١٢٠ - ديوان المعاني ، نشر مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .
١٢١ - كتاب الصناعتين ، تحقيق محمد علي البجاوي ، دار احياء الكتب
القاهرة ، ١٩٥٢ .

د . علي عبدالواحد وافي
١٢٢ - فقه اللغة ، ط٥ ، مصر ، ١٩١٢ .

ابن أبي عون / ابراهيم بن أحمد بن المنجم الانبارى
(- ٣٢٢ هـ) .
١٢٣ - التشبيهات ، تحقيق محمد عبدالمعيد خان ، مطبعة جامعة كمبرج
١٩٥٠ .

العيني / محمود بن احمد (- ٨٥٥ هـ) .
١٢٤ - المقاصد النحوية في شرح شواهد الالفية ، على هامش خزانة
الادب للبغدادي ، مصر ١٢٩٩ هـ .

ابن فارس / أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥ هـ)
١٢٥ - معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هرون ، ط ١ ، مصر ،
١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ .

الفرزدق / همام بن غالب بن صعصعة (- ١١٢ هـ)
١٢٦ - ديوانه ، نشر محمد الصاوي

ابن الفقيه / ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني (- ٢٨٩ هـ)
١٢٧ - مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥ .

فلهوزن / يوليوس
١٢٨ - الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة يوسف العش ، مطبعة الجامعة
السورية .

١٢٩ ـ الخوارج والشيعة ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي

الفيروز آبادي / مجد الدين ابو طاهر محمد بن يعقوب (٧٢٩ - ٨١٨ هـ) .

١٣٠ ـ القاموس المحيط ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ

القالي / ابو علي اسماعيل بن القاسم (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ)

١٣١ ـ الامالي ، مطبعة السعادة ، ط ٣ ، مصر

١٣٢ ـ ذيل الامالي ، مطبعة السعادة ، ط ٣ ، مصر

ابن قتيبة / أبو محمد عبدالله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)

١٣٣ ـ أدب الكاتب ، ليدن ، ١٩٠٠ .

١٣٤ ـ تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار احياء الكتب مصر ، ١٩٥٤ .

١٣٥ ـ الشعر والشعراء ، باعتناء ديغويه ، ليدن ، ١٩٠٢ .

١٣٦ ـ عيون الاخبار ، دار احياء الكتب ، مصر ، ١٩٢٨ .

١٣٧ ـ المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ـ دار الكتب ، مصر ، ١٩٦٠

١٣٨ ـ المعاني الكبير ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٤٩ .

قدامة بن جعفر / ابو الفرج البغدادي (٢٦٥ - ٣٣٧ هـ) .

١٣٩ ـ نقد الشعر ، تحقيق بوينباكر ليدن

القرشي / أبو زيد محمد بن ابي الخطاب (مجهول المولد والوفاة)

١٤٠ ـ جمهرة أشعار العرب ، المطبعة الخيرية ، ١٣٣١ هـ .

القزويني / زكريا بن محمد بن محمود (٦٠٠-٦٨٢ هـ)

١٤١ ـ كتاب آثار البلاد وأخبار العباد ، برلين

القشيري / ابو الحجاج مسلم بن الحسن (- ٢٦١ هـ)

١٤٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية ، القاهرة

القلقشندى / أبو العباس أحمد بن علي (٧٥٦ - ٨٢١ هـ)
١٤٣ - صبح الاعشى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٢٢ .
١٤٤ - نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

القيرواني / ابو عبدالله محمد بن سعيد بن شرف (٤٦٠ هـ)
١٤٥ - رسائل الانتقاد ، مطبعة المقتبس ، دمشق ، ١٩١١ .

القيرواني / ابو علي الحسن بن رشيق (- ٤٥٦ هـ)
١٤٦ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، مطبعة حجازى ، مصر ، ١٩٣٤ .

ابن كثير / عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ)
١٤٧ - البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

كحالة / عمر رضا
١٤٨ - معجم قبائل العرب ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٤٩ .
١٤٩ - معجم المؤلفين ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٥٨ .

ابن الكلبي / هشام بن محمد بن السائب (- ٢٠٤ هـ)
١٥٠ - الاصنام ، تحقيق احمد زكي باشا ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٤ .

الكميت بن زيد الاسدى (٦٠ - ١٢٦ هـ)
١٥١ - هاشميات الكميت ، نشر جوزيف هورفتس ، ليدن ، ١٩٠٤ .

ماسنيون / لويس
١٥٢ - خطط الكوفة ، ترجمة تقي بن محمد المصعبي ، مطبعة العرفان ، صيدا ، ١٩٣٩ .

المبرد / ابو العباس محمد بن يزيد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ)
١٥٣ - الكامل في اللغة والادب ، تحقيق الدكتور زكي مبارك واحمد محمد شاكر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٣٧ .

د . محمود غناوي الزهيري
١٥٤ ـ نقائض جرير والفرزدق ،مطبعة المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٤ .

د . مراد كامل و د.محمد البكري
١٥٥ ـ تأريخ الادب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي ، مطبعة المقتطف ، ١٩٤٩ .

المرتضى (الشريف المرتضى) علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ)
١٥٦ ـ الامالي (غرر الفوائد ودرر القلائد) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب ،مصر .

المرزباني / محمد بن عمران (ـ ٣٧٨ هـ)
١٥٧ ـ معجم الشعراء ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
١٥٨ ـ الموشح ، المطبعة السلفية ،القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .

المرزوقي / أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ـ ٤٢١ هـ)
١٥٩ ـ الازمنة والامكنة ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٣٢ هـ .
١٦٠ ـ شرح ديوان الحماسة ،تحقيق عبدالسلام محمد هرون وأحمد امين ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

المسعودي / ابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ـ ٣٥٤ هـ) .
١٦١ ـ التنبيه والاشراف ، ليدن ،١٨٩٣ .
١٦٢ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة ، ط ٣ ، مصر .

ابن المعتز / ابو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل (٢٤٩ ـ ٢٩٦ هـ)
١٦٣ ـ البديع ، تحقيق اغناطيوس كراتشقوفسكي

المفضل بن سلمة بن عاصم الكوفي (ـ ٢٩١ هـ)
١٦٤ ـ الفاخر ، ليدن ، ١٩١٥ تحقيق عبدالعليم الطحاوي ، وزارة الثقافة والارشاد ، مصر

المعري / ابو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ)
١٦٥ ـ شرح ديوان ابن ابي حصينة (أبي الفتح الحسن بن عبدالله) ، تحقيق اسعد محمد طلس ، دمشق .

ابن منظور / ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) .
١٦٦ ـ لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ .

د . مهدى المخزومي .
١٦٧ ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، ط ٢ ، مصر ، ١٩٥٢ .

ابن النديم / محمد ابن اسحق (ـ ٣٨٥ هـ)
١٦٨ ـ الفهرست ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة / ليبزك ١٨٧١م .

ابو نواس / الحسن بن هاني (١٣٦ ـ ١٩٧ هـ)
١٦٩ ـ ديوانه ، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالى بيروت ، ١٩٥٣ .

نولدكه ـ تيودور
١٧٠ ـ اللغات السامية ، ترجمة الدكتور رمضان عبدالوهاب ، القاهرة ١٩٦٣ .

النويرى / شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ـ ٧٣٣ هـ)
١٧١ ـ نهاية الأرب في فنون الادب ، دار الكتب ، ١٩٢٤ .

ابن هشام / محمد عبدالملك بن هشام المعافرى (ـ ٢١٨ هـ)
١٧٢ ـ السيرة النبوية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٥

الوشاء / ابو الطيب محمدابن اسحق بن يحيى (ـ ٣٢٥ هـ)

١٧٣ ـ الموشى ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

اليعقوبي / أحمد بن أبي يعقوب (ـ ٢٨٤ هـ)

١٧٤ ـ البلدان ، المطبعة الحيدرية ، ط ٣ ، النجف ، ١٩٥٧ .

يعقوب نعيم سركيس

١٧٥ ـ (مقالة) مجلة سومر ، المجلد العاشر ، بغداد ، ١٩٥٤ .

اليزيدي / ابو عبدالله محمد بن العباس (ـ ٣١٠ هـ)

١٧٦ ـ الامالي ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٤٨ .

ابن يعيش / موفق الدين بن علي (٥٥٦ ـ ٦٤٣ هـ)

١٧٧ ـ المفصل ، المطبعة المنيرية

يوهان فك

١٧٨ ـ العربية ، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥١ .

الفهارس

فهرس الآيات

« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين »
سورة الحجر آية ٨١ ، ٨٢ ص ٣٤ .

« ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » سورة البقرة آية ٢٠٧ ص ٤٩ .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » سورة المائدة آية ٤٣ ص ٤٣ .

« ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » — سورة النساء آية ١٠٠ ص ٤٥ .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون » — سورة الشعراء آية ٨٨ ص ٣٣٩ .

« يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » — سورة النور آية ٢٤ ص ٣٣٩ .

فهرست الأحاديث

فهرست أعلام الأشخاص (١)

[١] حرف (م) بعد الرقم يعني أن الرقم في الملاحق .

فهرست الأمم والقبائل والملل

فهرست البلدان والأماكن

تصـــويب واستدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٣	الألغاز	كالألغاز
٥	١٢	تتطلع	تتطلع
٥	١٨	تحدد	نحدد
٦	٦	هجائه	هجاءه
٦	٧	وترتبط	وترتبط
٦	١١	منطلقة	منطلقه
٧	٦	وجدنه	وجدته

١٣ حاشية (١) يضاف : ، الطبري ٢٣٦٠ ، معجم البلدان ٢٩٦/٧

١٦ حاشية (٣) يضاف : كتاب آثار البلاد وأخبار العباد ١٦٦

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١	١٣	وصلفم	وصلفهم
٣٠	٢٠	القبيلة	القبلية
٣١	١٥	يدري	يدرى
٣٣	٣	تحالف	تخالف
٣٣	٤	الندخل	التدخل
٣٣	١٦	عمر بن زرارة	عمرو بن زرارة
٣٤	١٦	بلينا	بلينا
٣٦	١٠	للثائر	للثأر
٣٦	١٤	الملهب	المهلب
٣٩	١٤	يبعضم	ببعضهم
٤٠	١٤	وأحطاوا	وأحاطوا
٤٠	١٦	للرجين	للرجلين
٤١	٣	فأخدوا	فأخذوا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤١	٦	فأقبل	فاقبل
٤٤	٢	بوكيد	يؤكد
٤٤	٢	أن أكرمكم	إن أكرمكم
٤٤	٢٤	خطه	خطة
٤٧	١	مارضيب	مارضيت
٤٧	٤	بن	ابن
٤٧	١٦	امرار	أمراء
٤٨	٩	كثيره	كثيرة
٤٨	١١	أدبه	أدبة
٤٨	حاشية (٤)	فجر الاسلام	فجر الاسلام ٣١٥
٤٩	١٥	وانما وترعرع	وإنما نما وترعرع
٥٠	٥	توليه	تولية
٥٠	٩	بالفكر	بالكفر
٥١	٤	يتبحح	يتبجح
٥١	٦	عر	عز
٥١	٨	إيا	إياه
٥٢	٥	فرفصوا	فرفضوا
٥٢	٩	اليتا	الينا
٥٢	١٨	قالوا في	قالوا أخطأ علي في التحكيم
٥٣	١٣	نتائج	تنائج
٥٥	٧	اجتماع	إجماع
٥٧	حاشية (٢)	يضاف اليها :	وصدر البيت الخامس مختل الوزن
٥٨	٦	ويروي	ويروى
٥٨	١٣	ويروي	ويروى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٣	١٥	باعتاره	باعتباره
٦٥	٨	الطرماح ٢٧٦/٢	الطرماح المقاصد النحوية ٢٧٦/٢
٦٧	١٢	تغلل	تغلغل
٦٩	٨	كل عطاف عطاف	كل عطاف
٧٠	٤	الطرماخ	الطرماح
٧٠	٢٣	ناتي	نائي
٧١	٢١	تقيفاً	ثقيفاً
٧٨	١٥	نشأتة	نشأته
٨٠	١٦	نشأتة	نشأته
٨٢	حاشية (٦)	الموشبر	الموشح
٨٣	٢	مضحياً	فصيحاً
٨٣	٨	الأخر	الآخر
٨٣	٩	حماد الرواية	حماد الراوية
٨٣	١٣	مواهيه	مواهبه
٧٤	٣	أنة	أنه
٨٤	حاشية (٥)	الزيدي	الزبيدي
٨٥	١١	الحاحظ	الجاحظ
٨٦	٩	وأعتقده	واعتقده
٨٦	١٤	والقى	والتقى
٨٩	١	اللاتبني	اللاتيني
٩٠	١	اتفتما	اتفقتما
٩٠	١٥	مذهبة	مذهبه
٩١	١٢	خلانه	خلانه ولا ولده
٩١	١٤	بنفعه	ينفعه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٣	١٣	يرجج	يرجح
٩٣	١٨	وعى	وعلى
٩٤	٥	وقله	وتنقله
٩٥	١٧	واسط	واسط أو الشام
٩٧	٨	أبنة	ابنة
٩٧	١٥	(١٥	(١٠٥
٩٧	١٧	الأدية	الأدبية
٩٩	تضاف الفقرة التالية بعد السطر الأول : ثم رحل الى الشام مادحاً الخليفة عبد الملك بن مروان والتقى بمجلسه بالفرزدق وكانت بينهما ملاحاة (تأريخ دمشق ٥٢/٧)		
٩٩	١٨	وعلى أي	وإلى أي
١٠١	١٢	حاجي خليفه	حاجي خليفة
١٠٩	١٣	هجاءه	هجاؤه
١٠٩	٢٠	إن توهمت	أإن توهمت
١١٢	١١	أرتباط	ارتباط
١١٢	٢١	يضاف وفي الشام خامسة	
١١٥	١٧	المستغاث	المستغاث
١١٦	٣	امضي	امض
١١٦	١١	فينفذ	فينفد
١١٧	٤	لأدفع	لا دفع
١١٧	١٥	والأحساس	والاحساس
١٢٤	١٣	المخصة	المخلصة
١٢٧	٧	البت	البيت
١٢٩	٦	التميل	التمثيل

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣١	حاشية (٨)	لخشية	كخشية
١٣٤	١٦	انني شارق	انني كل شارق
١٣٥	٥	اجتهاد	اجتهاداً
١٣٦	١	فما	فلما
١٣٦	١	ياحبدا	ياحبذا
١٣٧	١٥	بطعن	بطن
١٣٧	٢١	العمر	العصر
١٤٠	١٩	شعره	شعره ؟
١٤١	١١	ألا	أفلا
١٤١	١٩	رواه	رواها
١٤٢	١٦	بني عمر	بني عمرو
١٤٣	١٤	بن الجهم	ابن الجهم
١٤٣	١٨	والطرماح السنبسي	والطرماح الأجئي
١٤٤	١	مليس	فليس
١٤٤	٥	الكوفة	بالكوفة
١٤٤	٨	« بمهلي »	بمهلي »
١٥١	٢	تذكر أنه،	تذكر أنه :
١٥٥	٤	KRFNKOW	KRENKOW
١٥٦	٨	(ضميمة)	(ضميمة)(١).
١٥٨	١٣	ستاً وخمسين	ستة وخمسين
١٥٨	١٤	ثلاثين	خمس وثلاثين
١٥٨	١٩	P 111.	P. X 111.
١٦٠	٣	الراويه	الراوية
١٦٢	١٢	طى	طيىء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٦	٧	كمية	مقدار
١٦٦	يكون موضع الفقرة الأخيرة (وعامل آخر ...) بعد الفقرة الثالثة		
١٦٧	١٥	يبيها	تهديها
١٦٧	١٧	الغسل	الفسل
١٦٨	٨	دلك	ذلك
١٦٩	٢	(٣٤ / ٣٤) .	(٣٤ / ٣٤) :
١٦٩	١٣	يضخم	يضغم
١٧١	١٢	الصواب فبذلك	الصواب فبذاك
١٧٢	١	آخلقت	أخلقت
١٥٦	٦	كمية	مقداراً
١٦٦	٤	كان	كاد
١٦٦	٧	كميه	مقدار
١٦٦	١١	فانها ساعدت	ساعدت
١٦٧	حاشية (٢)	بين	بن
١٧٠	٢١	الحامص	الحامض
١٧٣	السطر الاخير	الزاهرة	الزاحرة
١٧٣	٩	يثبب	يثبت
١٧٤	٤	أعراضها	أغراضها
١٧٥	٩	جزءاً	إلا جزءاً
١٧٨	١١	فبه	فيه
١٧٨	١٧	فقال	قال
١٨٢	١٢	فيها المرء	فما المرء
١٨٣	١١	جر هذاه	جره هذا
١٩٢	٦	يتحذ	يتخذ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٢	١٣	بن محمد	ابن محمد
١٩٢	١٧	المتوفي	المتوفى
١٩٢	٢١	منه لأمكنه	منه
١٩٢	٢٣	بعني	يعني
١٩٣	٢٣	٢ ٩٧	٩٧/٢
١٩٤	١٨	معضباً	مغضباً
١٩٥	١١	لفظ (هف)	(هف)
١٩٧	٩	كالحماليح	كالحماليج
١٩٨	٨	الجاهلة	الجاهلية
١٩٨	٩	الأحبان	الأحيان
١٩٩	١	مهنه	مهنة
١٩٩	٢١	بربح	يربح
٢٠٠	٥	كل جانبي كل	جانبي كل
٢٠١	١	حماة	حماء
٢٠١	١٨	بريو	بربر
٢٠١	١٨	الأنحه	الأنحة
٢٠٦	١٧	الاستعمال	٢ ـ الاستعمال
٢٠٥	١	بمعني	بمعنى
٢٠٥	١٧	ويدو	ويبدو
٢٠٧	٢	(دارة)	(دارة) ـــ
٢٠٧	حاشية (٦)	الابدال	الابدال لأبي الطيب اللغوي
٢٠٩	٨	المتافر	٤ ـــ المتنافر
٢٠٩	١٢	الحروم	الحزوم
٢٠٩	١٧	فية	فيه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١٠	٦	ميثا للمتبطح(٣)	ميثاء للمتبطح ٢)
٢١٠	٨	بمزلة	بمنزلة
٢١٢	٢	وجلس	وحلس
٢١٣	٨	المواتي	اللواتي
٢١٣	١٤	ابه	أنه
٢١٣	٢٣	الشمش	الشمس
٢١٥	١١	بمدريه	بمدرية
٢١٧	١٢	ليمن	اليمن
٢١٩	١٣	اجمعن	اجمعهن
٢٢١	١٦	يصف	يصفه
٢٢٢	٢١	المها	المهاة
٢٢٣	١٤	بمستوجف	بمسترجف
٢٢٥	٣	الفرائض	الفرائص
٢٢٥	حاشية(٢)	بالمكن	بالمكان
٢٢٦	٢	بكر	بكر على
٢٢٦	٧	برا	بر
٢٢٧	١٥	أتي	التي
٢٢٨	١٤	العنبقاة	العبنقاة
٢٢٩	٢٣	استحدمه	استخدمه
٢٣٠	٢	ذنب	ذنب ناقته
٢٣٢	الهامش[١] يجعل[٢] وتبدل أرقام الهوامش بعده بالتسلسل ويضاف قبله : [١] الجدجد : الحر		
٢٣٤	٢٥	كلرن	كلون
٢٣٥	١٠	مع ملاحظة	من ملاحظة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣٨آ	١٨	رشاقك	وشاقك
٢٤٠	١٢	والموضوعات	وبين الموضوعات
٢٤١	١٢	لدقيقة	الدقيقة
٢٤٣	٥	متفنن	مفتن
٢٤٣	١٠	النشبيه	التشبيه
٢٤٥	١	اهتمامة	اهتمامه
٢٤٥	٤	ونيضن	وينصتن
٢٤٥	٦	فيها يدعو	فيها جمال يدعو
٢٤٥	٧	ضله	ضلة
٢٤٥	١٧	كسرات	كسراة
٢٤٥	٢٠	ضئيله	ضئيلة
٢٤٥	٢٢	أزاد	أراد
٢٤٦	٩	لستعارة	استعارة
٢٤٦	١٠	وتغمره	وتضمره
٢٤٦	١٠	وتظمر	وتضمر
٢٤٦	١٣	وتظمره	وتضمره
٢٤٦	٢٠	الياس	اليابس
٢٤٩	٤	ومبافخهم	ومنافخهم
٢٤٩	٦	خدود	بخدود
٢٥٠	٨	الحياه	الحياة
٢٥٢	١٠	البيت مدور	
٢٥١	١٤	بالأقمشة	بالأقمشة
٢٥٩	١٧	إذا	وقوله : إذا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٦٠	١٦	يستثرن	يستحدثن
٢٦١	١	اجتنابها	اجتابها
٢٦٣	١١	و : وتملح	و : تملح
٢٦٤	٦	و : وأنا	و : أنا
٢٦٥	٨	تميماً	تميمياً
٢٦٥	١٩	إن أفز	إن لم أفز
٢٦٨	٥	مزيج	مزيج من
٢٦٩	٩	جزيئاً	جريئاً
٢٧٠	٩	القصيده	القصيدة
٢٧٤	١٤	المنافضات	المناقضات
٢٧٥	حاشية [١] يعود الى هامش [٢]		
٢٧٧	١١	وتعصبة	وتعصبه
٢٧٩	٧	هجانه	هجائه
٢٨٠	٢٢	خارجيه	خارجية
٢٨٢	١	ويبدوا	ويبدو
٢٨٢	٦	والتي	التي
٢٨٣	٤	جائينا	جائنا
٢٨٥	١	تحطر	تخطر
٢٨٥	١٠	فرد	فرد على
٢٨٧	٤	أنجعل	أتجعل
٢٨٨	١٧	قفيره	قفيرة
٢٩٥	٢١	موضوعان	موضعان
٢٩٦	٤	يرتقي	يرتقى
٣٠٠	٣	قالت	قال

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١١	١٣	جين	حين
٣١٤	١	يترك	يترك له
٣١٥	٢	وأطروت	واطردت
٤٢٠	٤	السأم	السأم
٣٢٠	٢٤	يسيل	يسل
٣٢١	١	ووحاً زهدياً	روحاً زهدياً أو
٣٢١	١١	نقى	نقي
٣٢١	٢١	يجسده	يجده
٣٢٢	٢	لأفى	لاقى
٣٢٢	٥	تم	ثم
٣٢٢	١١	كررت	تكررت
٣٢٢	١٣	تجوطه	تحوطه
٣٣٦	١٥	هحاه	هجاء
٣٤٠	٨	قيها	فيها
٣٤٤	٧	وكبرياءاً	وكبرياء
٣٤٩	٧	الغابة	الغرابة
٣٤٩	١٣	الكريص	الكريص ، الكراض
٣٤٩	١٥	استماله	استعماله
٣٥٣	٦	افتاناً	افتاناً
٣٥٦	١١	تشبيبهه	تشبيهه
٣٥٧	٢٠	فد	قد
٣٦٢	٢	أبد	أبداً
٣٦٢	٥	وتجد	ونجد
٣٦٢	٢٢	الغث	الفث

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦٩	١٣	والمقصاصد	والمقاصد
٣٧١	٨	بن عدي	ابن عدي
٣٧٣	١٠	تبعتت	تبعت
٣٧٤	٥	ضؤولتهم	ضؤولتهم
٧م	١٠	الغ ر	الغدر
١١م	٥	(k)	بـ (i)
٢٠م	٢٥	يضاف بعده : ثانياً ـــ الأوزان والقوافي	
٤٢٢	١٤	الزبوقان	الزبرقان
٤١٧	١	فهرس	فهرست
٤٢٣	٩	الزعكلي	الزركلي
٤٢٤	٨	الطبرماح	الطرماح
٤٢٥	١٢	بن معتر	بنت معتر
٤٣١	٧	البحارثيون	البلحارثيون
٤٣١	١٢	تغتب	تغلب

١٠٠٠/١٢/٦/١٩٧٤

رقم الايداع في المكتبة الوطنية
١٨٠ لسنة ١٩٧١

ثمن النسخة دينار

مطبعـــة الاقتصـــاد - بغـــداد

ساعدت جامعة بغداد على نشر